نهاية الأرب

في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

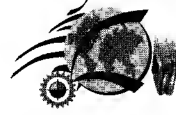
المتوفى ٧٣٣ هـ

٣٢ - ٣٣

تحقيق

الأستاذ ابراهيم شمس الدين

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

واستهلت سنة إحدى وسبعمائة للهجرة النبوية بيوم الأربعاء في هذه السنة

في يوم الجمعة عاشر شهر المحرم - فُوِّضَت الوزارة وتدبير الدولة الشريفة الناصرية إلى الأمير عز الدين أيبك البغداديّ المنصوري[1]، وجلس في يوم السبت على قاعدة الأمير شمس الدين سُنْقُر الأعْسَر المنصوري[2]. وكان الأمير شمس الدين قد توجه لكشف الممالك الشامية - كما تقدم - فعاد بعد عزله، واستقر في جملة الأمراء المقدمين.

وفيها - في العشرين من المحرم - توجَّه السلطان إلى الصيد بجهة العباسة[3]، وفي خدمته جماعة من الأمراء، وتصيّد بالبرية، وضُرِبَ الدَّهْليزُ في منزلة الصالحية[4]، ووصل السلطان إلى الدهليز بهذه المنزلة في الثامن والعشرين من الشهر، وخلع على كُلِّ مَن كان في خدمته من الأمراء، وأحضر السلطان رسل غازان[5] لَيْلًا وخلع عليهم، وأمر بعودهم. وقد تقدم ذِكْر ما تضمنه الجواب السلطاني إلى غازان في سنة سبعمائة عند ذكر كتابه، وعاد السلطان من الصالحية إلى بركة الجب[6] في ثالث صفر والتقى الأمير سيفَ الدين بَكْتَمرُ الجُوكان دَار[7] وأمير

(١) هو أحد الأمراء البرجية. (انظر: النجوم الزاهرة ٨/ ١٤٠، حسن المحاضرة ٢/ ٢٢٣).

(٢) هو أحد الأمراء الكبار، توفي سنة ٧٠٩ هـ (انظر: النجوم الزاهرة ٨/ ٢٧٨، الدرر الكامنة ٢/ ٢٧٣).

(٣) العباسة: هي إحدى قرى مركز الزقازيق بمحافظة الشرقية (معجم البلدان ٣/ ٥٩٩).

(٤) الصالحية: مدينة بناها الملك الصالح أيوب، (انظر: السلوك ١/ ٣٣).

(٥) غازان، ويقال له: قازان، وهو ملك التتار، أسلم، توفي سنة ٧٠٣ (انظر: الدرر الكامنة ٣/ ٢١٢ - ٢١٤).

(٦) بركة الجب: هي منتزه شمال شرقي القاهرة (المواعظ للمقريزي ١/ ٤٨٩).

(٧) الجوكان دار: فارسية مركبة من كلمتين: جوكان: وهو المحجن الذي تضرب به الكرة، ويعبر عنه بالصولجان، ودار: ومعناها ممسك الصولجان أو صاحب الصولجان، (صبح الأعشى ٥/ ٤٣٠).

جاندار[١] عند عوده من الحجاز الشريف، ثم عاد السلطان إلى مقر ملكه بقلعة الجبل.

وفي هذه السنة توجه الأمير سيف الدين أَسَنْدَمُر كُرجِي[٢] إلى نيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية والفتوحات، عوضًا عن الأمير سيف الدين قُطْلُوبَك بحكم استعفائه من النيابة، وقد تقدم ذكر ذلك في سنة سبعمائة، وكان عود الأمير سيف الدين قُطْلُوبَك إلى دمشق في أوائل هذه السنة، وتوجه الأمير سيف الدين أَسَنْدَمُر من دمشق إليها في يوم السبت حادي عشر المحرم.

وفيها في شهر المحرم أيضًا فوض شادّ الدواوين[٣] والأستَادَارِيّة[٤] بالشام إلى الأمر سيف الدين بَلَبَان الجوُكَانْدَار المنصوري عوضًا عن الأمير سيف الدين أقجبا الناصري، ونقل أقجبا إلى نيابة السلطنة، وتقدمة العسكر بغزة عوضًا عن الأمير رُكْنِ الدين بيبرس المُوَفِّقِي[٥] واستقر الموفقي في جملة الأمراء المقدمين بدمشق.

وفيها رُمِيَ فَتحُ الدين أحمد بن البققي[٦] الحموي بالزندقة، واعتقل بسجن الحكم، ونهضت البيِّنة عليه، وسطِّرَ مَحْضَرٌ بما صدر منه من الألفاظ التي لا تصدر

---

(١) الجاندارية: فئة من مماليك السلطان أو الأمير، ومثلها الخاصكية، والكلمة مركبة من لفظين فارسيين، أحدهما: جان، ومعناه السلاح. والثاني: دار، ومعناه ممسك. ووظيفة الجاندار أن يستأذن السلطان بدخول الأمراء للخدمة. وفي النجوم الزاهرة ٥/ ٢٣٠، حاشية (١) أن الكلمة فارسية مركبة من «جان» ومعناها الروح، و«دار» بمعنى حافظ. والجاندار: حافظ الروح، وهم الحرس أو العسس.

(٢) الأمير سيف الدين أسندمر كرجي: انظر ترجمته في: الوافي في الوفيات ٢٤٨/٩، شذرات الذهب ٦/ ٢٥، الدرر الكامنة ١/ ٤١٤.

(٣) شاد الدواوين: واسم الوظيفة: شد الدواوين، وموضوعها أن يكون صاحبها رفيقًا للوزير متحدثًا في استخلاص الأموال، وما في معنى ذلك، وعادتها إمرة عشرة (صبح الأعضى ٤/ ٢٣).

(٤) أستاذ الدار: هو الذي يتولى شؤون مسكن السلطان أو الأمير ومصروفاته، وهو لقب يطلق على الذي يتولى قبض مال السلطان أو الأمير، وهو مركب من لفظين فارسيين: أحدهما «إستذ» بهمزة مكسورة ومعناه الأخذ، والثاني: «دار» ومعناه الممسك، فأدمغت الذال الأولى، وهي المعجمة، في الثانية، وهي المهملة، فصار إستادار، ومعناه: المتولي للأخذ، وسمي بذلك لأنه يتولى قبض الأموال، وهناك إستادار الأملاك الشريفة، وإستادار الصحبة، وإستادار العالية، وإستادار المباشرة (انظر: صبح الأعشى ٣/ ٤٨١، ٤/ ٢٠، ١٨٨، ٤٥٧، ٥/ ٤٥٧، ٨/ ٢٢، ٢١٨).

(٥) الأمير ركن الدين بيبرس الموفقي: انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٢١٦، والدرر الكامنة ٢/ ٤٣.

(٦) فتح الدين أحمد بن البققي: انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١.

مع من شم رائحة الإيمان، ولا تخطر بباله، وشهد عليه جماعةٌ من الشهود، تزيد عدتهم على ثلاثين نفرًا، وثَبَتَ مضمونُ المحضرِ على قاضي القضاة زين الدين المالكي، فلما تكامل ذلك عنده أعذر إليه، فلما انقضت مدة الاعتذار حكم قاضي القضاة بإراقة دَمِهِ في عَشيَّة نهارِ الأحد الثالث والعشرين من شهر ربيع الأوّل، وجلس قاضي القضاة في بُكْرَة نهارِ الاثنين الرابع والعشرين من الشهر بالمدرسة الصَّالحية النجمية بين القصرين بالشُّبَّاك الكبير الأوسط، وحضر المجلس قاضي القضاة شمس الدين الحنفي وجماعةٌ من الأعيان والعُدُول، وأُحْضِرَ الفتحُ بن البققي من الاعتقال، وهو يستغيث ويعلن بالشهادتين، فقال له قاضي القضاة شمس الدين الحنفي: ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: الآية ٩١] وقال قاضي القضاة زين الدين له: إسلامُك لا يفِيدُك عندي. ثم أمر بضَرْب عنقه، فتقدم إليه علاء الدين آقبرص الموصلي وضرب ضربتين في عنقه بالسيف؛ ضربةً بعد أخرى ولم يُخَلِّصْ رَقَبَته، ثم قطعها رجل من الضوية بسكين فأبان رأسَهُ عن بَدَنِه ورفع رأسه على عصا من عصى النادشتية، وسُحِبَ بدنُه إلى باب زويلة فصلب هناك، ثم دُفِن. وقال علاء الدين أقْبَرص الموصلي، وحلف بالله أنه رافق ابن البققي في سفرة سافرها من حماة، وأنه سمع منه ألفاظًا من الزندقة حتى هَمَّ مِرَارًا أن يضرب عنقه، ثم قدر الله قتله بسيف الشرع بيده، وما اختلف أحدٌ في فساد عقيدته.

وفي هذه السنة في شهر المحرم سقط بَرَدٌ ما بين حماه وحِصْنِ الأكراد، وفي بَعْضِه صُوَرٌ تُشبهُ صُوَرَ بني آدم من الذكور والإناث. وصورُ قرود وغيرها، وطُولِعَ السلطانُ بذلك.

ذكر توجّه العساكر إلى الصعيد للإيقاع بالعربان

كانت عرب الوجه القبلي بالديار المصرية قد كثر فسادُهم، وامتدت أيديهم، وقطعوا الطريقَ على المسافرين، واشتد طمعهم إثر وَقعةَ غَازان، فتوجه الأمير سيف الدين سَلَّار نائب السلطنة، والأمير ركن الدينِ بيبَرْس الجَاشنكِير وجماعةٌ كثيرةٌ من الأمراء بسبب ذلك في أوائل جمادى الآخرة، وانقسم العسكر على ثلاث فرق، فرقة في البر الشرقي، وفرقة في البر الغربي، وفرقة سلكت الحواجر من البر الغربي ممَا يلي الواحات، وضربوا على الوجه القبلي حَلقة كحلقةِ الصيد، وبَقي العرب في وسطها، وأخذهم السيف من كل مكان، فتمهدت البلاد واطمأنت الرعايا، وزال الخوف وظهر الأمن بعد أن كان العرب قد كادوا يتجاهرون بالعصيان، وحملَ مِن

مَوْجُودِهم وسيقَ خمسةُ آلاف فرس وعشرون ألف جمل ومائة ألف رأس من الغنم، وعدةٌ كثيرة من الأبقار والجواميس والحمر، ومن السيوف والرماح عدةٌ كثيرة، وعاد العسكر في أواخر شعبان من السنة.

وفي هذه السنة رسم بتوجهي إلى دمشق المحروسة لمباشرة الأملاك السلطانية بالشام، وكتب توقيعي[١] بذلك في ثاني عشر جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة، وهو من إنشاء المولى الفاضل العابد الصالح بهاء الدين بن سلامة[٢] كاتب الدرج الشريف[٣] وخطِّهِ، وشمل الخط السلطاني الملكي الناصري، وتوجهت إلى دمشق في جمادى الآخرة، وفيه وصلت إلى دمشق وباشرت ما رسم لي بها، وهو أول دخولي إليها.

وفيها في يوم الثلاثاء تاسع عشرين جمادى الأولى وصل إلى دمشق الصدرُ علاء الدين بنُ الصدرِ شرف الدين محمد بن القَلَانسي من بلاد التتار بَغْتَة، ووصل قبله رفيقُهُ شرفُ الدين بنُ الأثير، وقد ذكرنا أن التتار لما دخلوا الشام استصحبهما الوزيرُ معه، ثم هَرَبا وسَلِمَا بعد مشقة عظيمة كثيرة، وتوجّها إلى الديار المصرية في شهر رجب، وعادا وقد كتب في ديوان الإنشاء بدمشق.

وفي هذه السنة في رابع صفر تُوفِّي السيدُ الشريفُ نجمُ الدين أبو نُمَيّ[٤]، وأبو مهدي محمد بن أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة بن إدريس بن مُطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أمير مكة شرفها الله تعالى، وَلِيَ الإمارة بها نحوًا من أربعين سنة، وخلف من الأولاد واحدًا وعشرين ذكرًا،

(١) التوقيع: قال القلقشندي في صبح الأعشى ١/ ٨١، ٨٣: مرادفة لفظ التوقيع لكتابة الإنشاء في عرف الزمان، والتعبير عنها في صناعة الترسل، وأما تسميتها بالتوقيع، فأصله من التوقيع على حواشي القصص وظهورها، كالتوقيع بخط الخليفة أو السلطان أو الوزير أو صاحب ديوان الإنشاء أو كتاب الدست ومن جرى مجراهم بما يعتمد في القضية التي رفعت القصة بسببها، ثم أطلق على كتابة الإنشاء جملة.

(٢) بهاء الدين بن سلامة: هو أحمد بن أبي الفتح محمود بن أبي الوحش أسد بن سلامة بن فتيان، المعروف بالقطار، توفي سنة ٧٠٢ هـ (النجوم الزاهرة ٨/ ٢٠٣).

(٣) كاتب الدرج: هو الذي يكتب ما يوقع به كاتب السر أو كاتب الدست أو إشارة النائب أو الوزير، وسمِّي كاتب الدرج لكتابته هذه المكتوبات ونحوها في دروج الورق، والمراد بالدرج في العرف العام الورق المستطيل المركب من عدة أوصال. (صبح الأعشى ١/ ١٧٢ ـ ١٧٣).

(٤) انظر ترجمته في: العقد الثمين ١/ ٤٥٦.

واثنتي عشرة بنتًا، وأربعَ نسوة، ولما مات وثب ولداهُ أسدُ الدين رَمَيْثَةُ[١] وعز الدين حُمَيْضَة[٢] على أخَوَيهما عُطَيفَة[٣] وأبي الغَيْث[٤] واعتقلاهما، واستقلا بالأمر دونهما، واتفق في هذه السنة أن الأمير ركن الدين بِيبَرْس الجَاشنكير توجَّهَ إلى الحجاز هو وثلاثون أميرًا، فجاء هؤلاء وشكيا من أخويْهما، فأمْسَك حُمَيْضَةَ ورُمَيْثَةَ واعتقلهما لما صَدَرَ منهما من ذلك وغيره، ورَتَّبَ عُطَيْفَةَ وأبا الغيث في الإمرة بمكة، وأحْضَرَ حميضةَ ورميثَة صحبته إلى الأبواب السلطانية، فاعْتقِلا مدة ثم أفْرِجَ عنهما.

وفيها توفي الشيخ الأصيل شيخ الشيوخ فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ شرف الدين أبي بكر عبد الله ابن شيخ الشيوخ تاج الدين أبي محمد عبد الله ابن شيخ الشيوخ عماد الدين أبي حفص عمر بن علي بن محمد بن حَمُّويَة الجُوَيْنيّ[٥] في يوم الاثنين سابع عشرين شهر ربيع الأول بالخانقاه السُمَيْسَاطِية بدمشق، ودفن من الغد بسفح قاسيون، وولي مشيخة الشيوخ بعده قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة[٦]، وذلك باتفاق من الصوفية وسؤالهم، فاجتمع له بدمشق قضاة القضاة، وخطابة الجامع الأموي، ومشيخة الشيوخ وغير ذلك من الأنظار والتدريس.

وفيها كانت وفاة الخليفة الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد العباسي في ثامن عشر جمادى الأولى، وبويع ولده المستكفى بالله أبو الربيع سليمان، وقد تقدم ذكر ذلك في أخبار الخلفاء العباسيين.

وفيها توفي الأميرُ علاءُ الدين مُغْلَطَاي التقويّ المنصوريّ أحد الأمراء بدمشق في رابع وعشرين شهر رجب، وأقْطِعَ خبرُه للأمير سيف الدين بَكْتَمرُ الحسامي أمير آخور[٧]، وكان أخرج من الديار المصرية في هذه السنة لقربه من السلطان وخدمته له

---

(١) توفي سنة ٧٤٦ هـ (العقد الثمين ٤/ ٤٠٣). (٢) قتل سنة ٧٢٠ هـ (العقد الثمين ٤/ ٢٣٢).

(٣) توفي سنة ٧٤٣ هـ (العقد الثمين ٦/ ٩٥). (٤) قتل سنة ٧١٤ هـ (العقد الثمين ٨/ ٧٩).

(٥) انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٤/ ١٧، والدارس في تاريخ المدارس ٢/ ١٥٦، والدرر الكامنة ٤/ ٤٨٢.

(٦) توفي سنة ٧٣٣ هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٩٨، شذرات الذهب ٦/ ١٠٥، البداية والنهاية ١٤/ ١٦٣، الوافي بالوفيات ٢/ ١٨، الدرر الكامنة ٣/ ٢٤٨).

(٧) أمير آخور: وظيفة يتحدث متوليها على اصطبل السلطان أو الأمير، ويتولى أمر ما فيه من الخيل والإبل وغيرها مما هو داخل في حكم الاصطبلات، وأهم العاملين في الاصطبلات هو المسؤول عن الأعلاف والمسمى «بالسلاخور» (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٤٧، =

وتمكنه منه، فَعُزِل من وظيفة أمير آخورية، ووليها الأميرُ عَلَم الدين سنجر الصالحي، ووصل الأمير سيف الدين بَكْتَمرُ إلى دمشق بغير إقطاع، فلما مات التقَوى أنْعَم عليه بإقطاعه، ثم كان من أمره وتَنَقُّله ما نذكره.

وفيها كانت وفاة الشيخ الإمام الشهيد شرف الدين أبي الحسين علي ابن الشيخ الحسن الإمام العلّامة الحافظ تقي الدين أبي عبد الله محمد بن اليُونِينِيّ الحنبلي[١] ببعلبك في يوم الخميس حادي عشر شهر رمضان في الساعة الثامنة من النار شهيدًا. وسبب ذلك أنه دخل في يوم الجمعة خامس الشهر إلى خزانة الكتب التي بمسجد الحنابلة ببعلبك ليَعْزِلَ كُتُبَهُ مِن كتب الوقف وعنده خادمه الشُّجَاع، فدخل عليه فقيرٌ اسمه موسى غير معروف بالبلد - قيل إنه مصري - فضربه بعصًا على رأسه عدّةَ ضربات، ثم أخرَج سكينًا صغيرة فجرحه في رأسه، فاتقى بيده، فجرحه في يده، ثم مُسِكَ ذلك الرجل وحمل إلى متولي بعلبك فَضُرِب، فصار يظهر منه الاختلال في الكلام، فحبس.

وأما الشيخ فحمل إلى داره، وتحدَّث معه أصحابه على عادته، وأتَمّ صوْمَ يومه ثم حُمَّ واشتد به المرضُ فمات في التاريخ المذكور، وجاوز الثمانين سنة رحمه الله تعالى روي عن جماعة منهم ابن الزَّبيدي، وإليها عبد الرحمٰن وابن اللَّلتّي، والإِرْبَلِي، وجعفر الهمذاني، وابن رَوَاحة، وابن الجُمَّيْزِيّ وغيرهم واجتهد في خدمة الحديث النبويّ وأسمعه كثيرًا، واعتنى بصحيح البخاري من سائر طُرُقِهِ، وحرّر نسخته تحريرًا شافيًا، وجعل لكل طريق إشارة، وكتب عليه حواشي صحيحةً، وقد نقلت صحيح البخاري من أصله مِرَارًا سبعةً، وحرّرْته كما حرَّرَه وقابلت بأصله وهو أصلٌ سَمَاعِيّ على الحَجّار ووَزِيرَة.

وفي هذه السنة توفي الأمير علم الدين سِنْجَر أرْجَوَاش المنصوري نائب السلطنة بقلعة دمشق، وكانت وفاته في ليلة السبت ثاني عشرين ذي الحجة ودفن بسفح قاسيون وكانت له آثار جميلة في حفظ قلعة دمشق لَمّا ملك التتارُ دمشق، وبسبب حفظها حُفِظَتْ سائرُ القلاح بالممالك الشاميّة، وخلّفَ من الورثة أربع بنات وابن مُعْتِقِهِ السلطان الملك الناصر، وترك دُنْيَا عريضةً، ولما مرض أحضَرَ قاضيَ

= تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص ١١).

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/١٩٨، البداية والنهاية ١٤/٢٠، الدرر الكامنة ٣/٩٨.

القضاة بدر الدين وجماعة من أكابر العدول، وأشهدهم على نفسه أن مجموع ما يَخْلُفُه من الذّهب أربعة عشر ألف دينار ومائتي دينار وستة وستين دينارًا مصرية. وأربعين ألف دِرْهم وحوايص[1] ذهب وكلوتات[2] زركش منحوا ألفي دينار، ووقع الإشهاد عليه في سابع عشر ذي الحجة وأعتق مماليكه، وأوصى بحجة وصدقة وفَكّ الحَجْرِ عَن بناته، وأسند وصيَّته إلى خوشداشه[3] الأمير سيف الدين بَلَيَان الجُوكُنْدَار. ولما مات كنت ممن حضر تَركَتَه، واحتوت على أشياء كثيرة، كان فيها من القسِيِّ الحلق ما يزيد على ستمائة قوس، وكثير من الأقمشة والعُدَد والسلاح والأصناف فبيعت الأصنافُ وقُسِّمَتْ بالفريضة الشرعية، وأمْضَى السلطانُ وَصِيَّتَه - أثابه الله تعالى.

واستهلت سنة اثنتين وسبعمائة

في هذه السنة وصل رُسُلُ غازان ملك التتار إلى الأبواب السلطانية بقلعة الجبل في ليلة ثاني المحرم، فقُرِئَتْ كتبهم، وسمعت مشافهتهم، وكتب الجواب السلطاني إلى مرسلهم، وأمر السلطانُ بعَوْدِهم فعادوا من الديار المصرية وجَهَّزَ السلطانُ إلى جهتِه الأميرُ حُسام الدين أزْدَمُر المُجيريَّ[4]، والقاضي عمادَ الدين بنَ السكَّريِّ[5] فوصلوا إلى دمشق في ليلة الجمعة رابع عشرين شهر ربيع الأوّل، وكان خروجهم من القاهرة في عاشر الشهر، وأقاموا بدمشق ثلاثة أيام، وتوجهوا واجتمعوا بغازان،

---

(١) الحوايص: جمع حياصة، وهي الحزام أو المنطقة، وهي في الأصل السير الذي يشد به حزام سرج الحصان، وفي زمن الناصر محمد وصلت قيمة الحياصة إلى ثلاثمائة دينار، وعملت من خالص الذهب، وكثيرًا ما كانت ترصع بالجواهر، وكان السلطان يفرق منها كل سنة عددًا وافرًا (الخطط التوفيقية ص ١٣٨).

(٢) كلوتات: جمع كلوتة، وهي غطاء للرأس تلبس وحدها أو بعمامة وتسمّى: كلفة وكلفتاة وكلفته، استحدث لبسها في مصر سلاطين الأيوبيين، فكانوا يلبسون الكلوتات الجوخ الصفر على رؤوسهم بغير عمائم وذوائب شعورهم مرخاة تحتها... (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٢٨٨).

(٣) الخوشداس، وخشداش: كلمة فارسية الأصل، أصلها «جوجاناش» ومعناها: الزميل في الخدمة.

(٤) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٣٥٥.

(٥) هو علي بن عبد العزيز بن عبد الرحمٰن، عماد الدين، توفي سنة ٧١٣ هـ (انظر: شذرات الذهب ٦/ ٣٢).

ومنعهم من العود بسبب الوقعة الكائنة التي نذكرها إن شاء الله تعالى، واستمروا ببلاد التتار إلى أن هلك غازان وعادُوا في أيّام خَرْبَنْدَا[١].

ذكر فتح جزيرة أرواد

وفي المحرم من هذه السنة جهزت الشواني[٢] من مصر إلى جزيرة أرواد وهي جزيرة تقابل مدينة انطرسوس، وكان قد اجتَمع بها جمع كثيرٌ من الفرنج وسكنوها وأحاطوا بها سورًا وحصنوها، وبَقيتْ مَضَرّة على أهل ساحل طَرَابُلُس فجُهِّزَت الشَّواني لقصدها صحبة الأمير سيف الدين كُهُرْدَاش الناصري، وجُرِّدَ من كل أمير جُنْدِيٌّ، ورسم لكل أمير أن يجهز جُنديّة بما يحتاج إليه، فكان ممن جُهِّزَ من أصحابه الأميرُ جمال الدين آقُشُ العلائي فامتنع من تجهيز جُنديّة، فكشَاه الجندي إلى الأمير سيف الدين سلَّار نائب السلطنة، فأرسل إليه نَقيبًا يأمُره بتجهيزه، فشتَم الجنديَّ وضَرَبه، فعاد إلى نائب السلطنة وأخبَره، فَغَضبَ وطلبَ آقُشُ وألْزَمَه بالسَّفرِ عِوَضًا عن الجنديّ، فتوجه وسُلِّمَ إليه شَاني ورَكبَ فيه، ولعبت الشواني فانقلب الشيني الذي فيه آقُش فغرق، ومَرّ الشاني على الصناعَة وهو مقلوب؛ فتطيَّرَ الناس بذلك وظَنُّوا أن هذه الشواني لا تَفْتحُ شيئًا، فقال بعض أهل الدين والخير: هذا أوّلُ الفتح بِغَرَقِ آقُش، وكان آقُش هذا ظالمًا عَسُوفًا قبيحَ السيرة، فكان ذلك أوّل الفتوح كما قال، وأصْلِحَ الشاني وتوجَّهت الشَّواني إلى الجزيرة، وجَهَّزَ الأميرُ سيف الدين أَسَنْدَمُر الكُرْجي نائب السلطنة بالفتوحات مَرْكَبًا فيه جماعةٌ من الجند، وتوجّه هو بالعسكرِ الطَّرَابُلْسيّ. ونَزَل قُبَالة الجزيرة بالبر الشرقي، وتوجهت الشواني بالعسكر إليها، فَفُتِحَتْ في يوم الأربعاء ثاني صفر، وقُتِلَ مَن كان بها من الفرنج، وأُسِرَ من بقي، وكان القتلى نحو ألفين، والأسرى نحو خمسمائة، وغنم العسكرُ جميعَ ما بالجزيرة، وجُهِّزَت الأسرى إلى الأبواب السلطانية صحبة الأمير فلان الدين فلان الإبراهيمي من أمراء طَرَابُلْس، فوصلوا إلى دِمَشق في يوم الاثنين حادي عشرين صفر، وفرق بعضهم في القلاع بالشام.

---

(١) خربندا: هو ملك التتار.

(٢) الشواني: جمع شينية، وشونة: وهو المركب المعد للجهاد في البحر (القاموس المحيط ٤/ ٢٤٣، مصطلحات صبح الأعشى ص ٢٠٧).

ذكر وفاة قاضي القضاة تقي الدين ابن دقيق العيد[١] وتفويض القضاء بالديار المصرية لقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة[٢]

وفي يوم الجمعة حادي عشر صفر توفي شيخنا قاضي القضاة تقي الدين بقية المجتهدين أبو الفتح محمد ابن الشيخ الزاهد العالم مجد الدين أبي الحسن علي بن وَهْبْ بن مُطِيع بن أبي الطاعة القشيري المعروف بابن دقيق العيد، والذي جَرَى عليه هذا اللقب هو وهب جَدهُ، وذلك أنه لبس في يوم عيد ثيابًا بيضًا، فرآه جماعة من أهل الريف، فقال قائل منهم: كأن ثيابَه دقيقُ العيد، فلزمه هذا اللقب واشتهر به وكانت وفاته ببستانٍ بظاهر القاهرة بقرب باب اللوق بعد صلاة الجمعة، وحمل يوم السبت وصلّى عليه تحت القلعة وكانت جنازته مشهودة، ودفن بترتبه بالقرافة، ومولده يوم السبت خامس عشرين شعبان سنة خمس وعشرين وستمائة بساحل يَنْبُع من أرض الحجاز، ونشأ بمدينة قوص، وتفقَّه بها على أبيه وبرع، وكان من أجل من رأينا ديَانَةً وعِلْمًا ووَرَعًا وتَقَشُّفًا، وكان شديد الاحتراس من النجاسة حتى أفرط به ذلك وانتقل من مدينةِ قوص إلى القاهرة، وله رحلةٌ إلى دمشق بعد سنة ستين وستمائة، وولي مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة، وولي غير ذلك. ثم فوّض إليه قضاء القضاة كما تقدم فوليه، ثم عزل نَفْسَه فسئل العودَ، فامتنع من القبول، وحضر إليه أكابر الأمراء بسبب ذلك وهو يمتنع، فتحيَّل بَعضُ أولاده عليه بأن قال له: إنه قد عُيِّن

---

(١) ابن دقيق العيد: هو محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري القوصي، المعروف بابن دقيق العيد المنفلوطي الحافظ، تقي الدين أبو الفتح المصري المالكي ثم الشافعي الفقيه المحدث، نزيل القاهرة، ولد سنة ٦٢٥ هـ، وتوفي سنة ٧٠٢ هـ، من تصانيفه: «الأحكام في شرح حديث سيد الأنام»، «شرح عمدة الأحكام»، «شرح العمدة للشاشي في الفروع»، «شرح عيون المسائل لابن سهل الفارسي»، «شرح مقدمة المطرز في الأصول»، «شرح منتهى السؤال والأمل لابن الحاجب»، «عقيدة مشهورة» وغير ذلك. (كشف الظنون ٦/ ١٤٠).

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن علي بن جماعة الكناني، بدر الدين، أبو عبد الله الحموي الشافعي، قاضي القضاة بمصر، ولد سنة ٦٣٩ هـ، وتوفي سنة ٧٣٣ هـ. من تصانيفه: «إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل»، «التبيان لمهمات القرآن» «تجنيد الأجناد وجهات الجهاد»، «تحرير الأحكام في تدبير جيش الإسلام»، «تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم»، «التنزيه في إبطال حجج التشبيه»، «حجة السلوك في مهاداة الملوك»، «غر التبيان في تفسير القرآن»، «كشف الغمة في أحكام أهل الذمة»، «مستند الأجناد في آلات الجهاد»، وغير ذلك (كشف الظنون ٦/ ١٤٨).

للقضاء عز الدين بن مسكين إن أصررت على الامتناع، فقال: الآن وَجَبَ عَليَّ قَبول الولاية. فقبلها وعاد، وهو الذي نقل خِلَعَ القضاة من الحرير إلى الصوف، وكان يُخْلَع على القضاة قبلَه الحريرُ الكنجي والصمت وله رحمه الله تعالى فضائل كبيرةٌ، ومناقب جمةٌ مشهورة شَهِدَها وعَلِمَها من رآه. وهي أشهر من أن يأتي عليها، وأكثر من أن نسردها.

ولما توفي اجتمعت الآراءُ على ولاية قاضي القضاة بدر الدين محمد ابن الشيخ برهان الدين إبراهيم بن جماعة الشافعي، وهو يومئذٍ قاضي القضاة بالشام، وخطيب الجامع الأموي، وشيخ الشيوخ، فبرزت المراسيمُ بطلبه، وتوجّه البريد لإحضاره، فوصل البريد إلى دمشق في يوم الخميس سابع عشر صفر وتوجّه قاضي القضاة بدر الدين إلى الديار المصرية في يوم السبت تاسع عشر الشهر على خيل البريد، ووصل إلى القاهرة في يوم الأربعاء مستهل شهر ربيع الأول، وخُلِعَ عليه على عادة الشيخ تقي الدين، وفوّض إليه القضاء بالديار المصرية، وجَلَسَ للحكم في يوم السبت رابع الشهر وأنعم عليه ببغلة من الإسطبلات السلطانية، وفرقت جهاته بدمشق، ففوض قضاء القضاة بالشام لقاضي القضاة نجم الدين أبي العباس أحمد بن صَصْرَى[(١)] وكتب تقليده في عاشر جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعمائة، وقرىء تقليده في يوم الجمعة الحادي والعشرين من الشهر بمقصورة الخطابة بجامع دمشق بحضور نائب السلطنة الشريفة، ثم جلس في الشباك الشمالي بالجامع وقرىء ثانيًا.

ووُلّي الخطابة والإمامة لجامع دمشق الشيخُ نجم الدين عبد الله بن مَرْوَان الشافعي الفَارِقي[(٢)]، وخطب في يوم الجمعة الحادي والعشرين من الشهر المذكور.

وولي مشيخة الشيوخ القاضي جمال الدين الزُّرَعِي[(٣)] ولم تتم الولاية، ثم ولي ذلك الخطيب ناصر الدين أحمد ابن الشيخ بدر الدين يحيىٰ ابن شيخ الإسلام عز

---

(١) أحمد بن صصري: هو أحمد بن محمد بن سالم بن أبي المواهب الحسن بن هبة الله بن الحسن الربعي، ابن صصري، نجم الدين الدمشقي، توفي سنة ٧٢٣ هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/٢٥٨، شذرات الذهب ٦/٥٨، طبقات الشافعية للسبكي ٩/ ٢٠، الدرر الكامنة ١/ ٢٨٠، فوات الوفيات ١/ ١٢٥).

(٢) توفي سنة ٧٠٣ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٨، طبقات الشافعية للسبكي ٦/١٠٧، مرآة الجنان ٤/ ٢٣٩، البداية والنهاية ١٤/ ٣٠، الدرر الكامنة ٢/ ٣٠٤).

(٣) جمال الدين الزرعي: هو سليمان بن عمر بن عثمان الزرعي، جمال الدين، توفي سنة ٧٣٤ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١٠٧، النجوم الزاهرة ٩/ ٣٠٤، البداية والنهاية ١٤/ ١٦٧، الدرر الكامنة ٢/ ١٥٩، طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ١٠٥).

الدين عبد العزيز بن عبد السلام[١] في يوم السبت ثالث شعبان، ثم اجتمع الصوفية في يوم الجمعة سادس شوال، وحضروا إلى نائب السلطنة في الشباك بالجامع، وسألوا أن يولى عليهم الشيخ صفي الدين محمد الأرموي المعروف بالهندي[٢]، فأجيبوا إلى ذلك وولي عليهم في التاريخ المذكور.

وفي هذه السنة ولي الأميرُ ركنُ الدين بِيبَرْس التَّلاوِيّ شاد الشام وأستاذَ دَارِيِّهِ عوضًا عن الأمير سيف الدين بَلَبَان الجُوكَنْدَار، وخلع عليه في يوم الخميس العشرين من جمادى الأولى، ونقل الأمير سيف الدين بَلَبَان الجُوكَنْدَار المنصوري إلى نيابة السلطنة بقلعة دمشق، عوضًا عن الأمير عَلَم الدين سَنْجَر أرجواش، وكان بالقلعة في هذه المدة الأمير سيف الدين بَلَبَان السَّنْجَرِي، فخرج منها، وانتقل إليها الأميرُ سيفُ الدين الجُوكُنْدَار في الخامس والعشرين من الشهر.

وفيها في جمادى الأولى وقع بيد نائب السلطان بالشام كتابٌ كُتِبَ على لِسَان قُطُز أحد مماليك الأمير سيف الدين قبجق مضمونهُ فُضولُ نصيحة، منها: أن الشيخ تقي الدين ابن تيمية[٣] وقاضي القضاة شمس الدين ابن الحريري[٤] يكاتبان مخدومه، ويؤثران أن يكون نائب السلطنة بالشام، وأن القاضي كمال الدين العطار[٥]، وكمال الدين بن الزملكاني[٦] كاتب الإنشاء يطالعانه بالأخبار، وأن

---

(١) توفي سنة ٧٠٩ هـ (انظر: البداية والنهاية ١٤/ ٥٦).

(٢) توفي سنة ٧١٥ هـ (انظر ترجمته في: طبقات الشافعية ٥/ ٢٤٠، الدرر الكامنة ٤/ ١٤، البداية والنهاية ١٤/ ٧٤، شذرات الذهب ٦/ ٣٧).

(٣) تقي الدين ابن تيمية: هو شيخ الإسلام أحمد بن شهاب الدين عبد الحليم بن مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن تيمية، الحافظ، تقي الدين، أبو العباس الحراني، ثم الدمشقي الحنبلي، الفقيه المحدث، ولد سنة ٦٦١ هـ، وتوفي سنة ٧٢٨ هـ، له العشرات من المصنّفات (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٥/ ١٠٥ ـ ١٠٧، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧١، شذرات الذهب ٦/ ١٨٠، فوات الوفيات ١/ ٣٥، الدرر الكامنة ١/ ١٥٤، ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٣٨٧، البداية والنهاية ١٤/ ١٣٥، الوافي بالوفيات ٧/ ١٥، دول الإسلام ٢/ ١٨٠).

(٤) شمس الدين ابن الحريري: هو محمد بن عثمان بن أبي الحسن، المعروف بابن الحريري الأنصاري الدمشقي، شمس الدين الحنفي، المتوفى سنة ٧٢٨ هـ، من تصانيفه «شرح الهداية للمرغيناني» في الفروع. (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٦/ ١٤٧، شذرات الذهب ٦/ ٨٨، حسن المحاضرة ١/ ٤٦٨، الدرر الكامنة ٤/ ١٥٨، الوافي بالوفيات ٤/ ٩٠).

(٥) كمال الدين العطار: هو أبو العباس أحمد بن أبي الفتح محمود الشيباني، كمال الدين، المعروف بابن العطار، سيرد المؤلف ذكر وفاته في وفيات سنة ٧٠٢ هـ.

(٦) ابن الزملكاني: هو محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم الأنصاري، كمال الدين أبو=

جماعة من الأمراء في هذا الأمر، حتى ذكر جماعةً من مماليك نائب السلطنة وخواصه.

فلما قرأ الكتاب استراب به، وأطلَعَ عليه بعضَ الكُتَّاب، وأمره بالفكرة فيمن اختلقه، فوقع الحَدْس على فقير يعرف باليَغْفُورِي كان ينسب إلى فُضُول وتزوير، فَمُسِكَ فَوُجِدَ معه منشورةٌ بالكتاب، فَضُرِبَ فأقرَّ على إنسان يعرف بأحمد القَبَّاري، فأخِذَ وضُرِبَ فاعترف على جماعة، وأنَّ الذي كتب الكتاب التاجُ بنُ المنَادِيليّ الناسخُ، فلما كان في يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة جَرَّسوا الثلاثة بدمشق، ثم أخرِجُوا إلى سوق الخيل، فأمر نائب السلطنة الأميرُ جمال الدين آقْش الأفْرَم أن يُوَسَّطَ القَبَاريُّ واليَعفورِيّ فَوُسِّطَا، وقطعت يَدُ ابنِ المناديلي الناسخ.

وفي هذه السنة ظهر بنيل مصر دابة عجيبة

وهي التي تسمى فرس البحر، وكانت تطلع إلى البَرّ وتَرْعَى البرسيم ثم تعودُ إلى البحر، فلما كان في يوم الخميس رابع جمادى الآخرة صِيدَت ببلاد المنوفية. وصفتها أن لونها لون الجاموس، وهي بغير شعر، ولها آذان كآذان الجمل، وفرجٌ مثلُ فرج الناقة تغطيه بذنب طوله شبر ونصف، طرفه كذنب السمك، ورقبتها في غلظ التليس المحشو، وفمها وشفتاها كالكربال[1]، ولها أربعة أنياب طول كل ناب دون شبر في عرض أصبعين، وفي فمها ثمانية وأربعون ضرسًا ونابًا وسنًا مثل بيادق الشطرنج، وطول بدنها من بطنها إلى الأرض نحو الذراع، ومن ركبتها إلى حافرها يشبه بطن الثعبان أصفر مجعد، ودور حافرها مثل الأسكرجة[2] بأربع أظفار كأظافير الجمل وعرض ظهرها تقريبًا تقدير ذراعين ونصف، وطولها من فمها إلى ذنبها خمسة عشر قدمًا، ووجد في بطنها ثلاثة كروش، ولحمها أحمر زفر كزفرة السمك وغلظ

= المعالي الدمشقي الشافعي المصري، قاضي حلب، المعروف بابن الزملكاني ولد سنة ٦٦٧ هـ، وتوفي سنة ٧٢٧ هـ، له من التصانيف: «البرهان في إعجاز القرآن»، «تحقيق الأولى من أهل الرفيق الأعلى»، «الدرة المضية في الرد على ابن تيمية»، «دلائل الإعجاز»، «شرح فصوص الحكم للشيخ الأكبر»، «عجالة الراكب في ذكر أشرف المناقب»، «المنهاج في تعلقات الإيلاج» في علم الباه، «وفيات الأعيان» في التاريخ والتراجم. (كشف الظنون ٦/١٤٦).

(١) الكربال: كلمة فارسية، الأصل، وتعني القوس الذي يندف به القطن (المعجم الوجيز ص ٥٣٠).

(٢) الأسكرجة: إناء صغير توضع فيه الكوامخ ونحوها من المشهيات على المائدة (المعجم الوجيز ص ١٧).

جلدها أربع أصابع ما تعمل فيه السيوف، ولما صِيدَت سلخ جلدها وحُمِل إليّ بين يدي السلطان بقلعة الجبل، وتَبَدَّلَ على حمله لثقله خمسةُ أجمال، فلا يستطيع الجَمَلُ أن يحمله أكثر من ساعة، ولما صار بين يدي السلطان حُشِيَ تِبْنًا، وأقيم بين يديه، وهذا الحيوان لم يعهد ببحر النيل بمصر وإنما هو موجود ببلاد النُّوبَة، وأهل النوبة يتخذون من جلدةِ سِيَاطًا، يسوقون بها الجمال، وهي سياط سُودٌ إذا دُهِنَت بالزَّيْت لا تكادُ تنقطع والله أعلم.

ذكر وصول غازان ملك التتار إلى الرحبة ومحاصرتها، وانصرافه عنها، وتجريد عساكره إلى الشام، ووقعة عُرْض

في هذه السنة تواترت الأخبارُ بحركة التتار، فأخذ السلطان في الاستعداد والتأهب للقائهم، ورسم للأمراء أن يستخدم كل أمير نظيرَ الرُّبْعِ من عُدَّتِه من ماله، ووصل غَازَانِ إلى الرَّحْبَة بجيوشه، ونازلها بنفسه وعساكره، وكان النائبُ بها الأميرُ عَلم الدين سَنْجَر الغتمي، فخرج إليه بالإقَامَات، وقال له: هذا المكان قريب المأخذ، والملكُ يَقْصِدُ المُدْنَ الكِبَار، فإذا مَلَكْتَ البلادَ التي هي أمَامَك فنحنُ لا نمتنع عليك. فأخذ ولدَه ومملوكَه رَهْنًا على الوفاء بذلك؛ فرحل عنها، ثم عاد إليها وجَرَّدَ نائبَهُ قُطْلُوشَاه في اثني عشر تُمَانا[1]، وأمره بقصد الشام، وعاد غازان إلى بلاد الشَّرْق.

وأما العسكر الشامي فإن عسكر حَلَب جَمَعَهُ الأميرُ شمس الدين قَرَاسُنْقُر، والعسكرُ الحمويُّ مع الأمير زين الدين كَتْبُغَا المُلَقَّب بالعادل وعسكر الساحل مع الأمير سيف الدين أَسَنْدَ مُركُزْجي، وجماعة من عسكر دمشق مع الأمير سيف الدين بَهَادُر آص والأمير سيف الدين أَنص الجَمَدَار ونزلت هذه العساكر بالقُرْبِ من حماه، وجاءت طائفةٌ من التتار للإغارة فوصلوا إلى القريتين وبها جمعٌ من التركمان بحريمهم وأولادهم وأغنامهم فأوقع التتارُ بهم ونَهَبُوهم، واتصل خبرهُم بالأمير جمال الدين آقُش الأفرم نائب السلطنة بالشام؛ فجرد طائفةً من عسكر الشام صحبة الأمير سيف الدين قُطْلُبَك المنصوري، وركب معه الأمير ثابت بن يزيد، وتوجّهوا جَرَائِدَ إلى القريتين فوجدوا التتارَ قد فارقوها، فعادوا ولم يظفروا بهم، واتّصَلَ خبرُ هذه الطائفة من التتار بالأمراء المقيمين على حَمَاه؛ فانتدب لذلك الأميرُ سيفُ الدين أَسَنْدَ مُركُزْجي نائب السلطنة بالفتوحات، وانتُدِبَ معه من عسكر حَلَب الأميرُ سيفُ الدين

---

(١) تمان: هو التومان، والتومان عبارة عن عشرة آلاف، وأمير تومان: هو أمير عشرة آلاف، ويسمى النوين (صبح الأعشى ٤/ ٤٢١).

كُجْكُن، ومن عسكر الشام الأمير سيف الدين بَهَادُرْ آص والأمير سيف الدين أَنَص الجمدار[١] والأمير سيف الدين أغِزْلُوَ من عسكر حماه، ومن انضم إليهم، وتوجَّهوا في ألف فارس وخمسمائة فارس لا يزيد على ذلك وساقوا في البَرِيَّة إلى مكان يسمى عُرْض لِقَصْد هذِهِ الطائفة من التتار، فتوافوا بها ـ وعدة التتار عشرة آلاف من المغل ـ فلما شاهدهم التتارُ أطلقوا من كان معهم من التركمان وحريمهم ومواشيهم؛ ليشغلوا العسكر بهم، فلم يُعَرِّجْ العسكَرُ عليهم، وحملوا على التتار حملة رجلٍ واحدٍ، واقتتلوا أشد قتال فنصر الله جيشَ الإسلام، وقتلوا من التتار خلْقًا كثيرًا، وفَرّ مَن بقي منهم، وذلك في عاشر شعبان من هذه السنة، وكانت هذه الوقعة مقدمة النصر، واسْتُشْهِدَ في هذه الوقعة الأميرُ سيفُ الدين أنص الجَمَدَار، ومن أمراء دمشق. وحضر إلى دمشق جماعةٌ أُسِرُوا من أعيان التتار في يوم الخميس منتصف شعبان. هذا ما كان بالشام.

ذكر توجّه السلطان الملك الناصر من الديار المصرية بالجيوش الإسلامية إلى الشام، والوقعة بمَرْجِ الصُّفَر، وانهزام التتار

قد ذكرنا اهتمام السلطان واحتفاله وما رسم به من الاستخدام، ثم جَرّد العساكِرَ من مُدُنِه يتلو بعضُها بعضًا، فوصلوا إلى دمشق. فأوّل مَن وصل منهم الأميرُ رُكنُ الدين بِيَبْرس الجَاشنكِير، والأميرُ حسام الدين لاجين الرّومِيّ والأميرُ سيفُ الدين كَرَاي المنْصُورِيّ، والأميرُ ركنُ الدين بِيبَرْس الدَّوَادَار ومُضَافِيهِم في يوم الأحد ثامن عشر شعبان. ثم وصل الأميرُ بدر الدين بَكْتَاش الفَخْرِيّ أمير سلاح، والأمير سيف الدين بَكْتَمر السِّلَاحْ دَار[٢]، والأميرُ عز الدين أيْبَكَ الخزْنْدَار[٣] المنصوري، والأميرُ

---

(١) الجمدار: موظف يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه. وهي كلمة فارسية مركبة من لفظين: أحدهما: «جاما» ومعناه: الثوب، والثاني: «دار» أي ممسك. وأصل الكلمة: جامادار. وكانت تستعمل في العصرين السلجوقي والمملوكي، ويقابلها في العصر العثماني لفظ «الجوخدار» وهو موظف غير عسكري يناط به النظر في شؤون ملابس السلطان (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص ٧١، والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٩٠).

(٢) السلاح دار: هو حامل السلاح، قال القلقشندي في صبح الأعشى ٣/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥: حمل السلاح حول الخليفة في المواكب، وأصحاب هذه الوظيفة يعبر عنهم لزيهم بالركابية وبصبيان الركاب الخاص أيضًا، وهم الذين يعبر عنهم في زماننا بالسلاح دارية.

(٣) الخازندا: هو صاحب وظيفة الخازندارية، وموضوعها التحدث في خزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش وغير ذلك، وكانت عادتها طبلخاناه، ثم استقرت تقدمة ألف. (صبح الأعشى ٤/ ٢١).

بهاء الدين يَعْقُوبَا، ومضافيهم، واستقلّ ركابُ السلطان من قلعة الجبل في ثالث شعبان.

وأما التتار الذين سَلِمُوا من وقعة عُرْض فإنهم الْتَحقُوا بقُطلُو شاه وأخبروه أن السلطان لم يخرج من الديار المصرية، وأنه ليس بالشام غير العسكر الشامي؛ فأقبل قُطْلُوشاه بعسكر التتار. فتأخَّرَت الجيوشُ التي بحماه، ونزلوا بالمَرْج بدمشق، ثم اجتمع الأمراءُ الذين بدمشق من العساكر المصرية والشامية، واتفقوا على أن يتأخروا عن دمشق إلى نهر الصُّفَّر ويقيموا به إلى أن يصل السلطانُ بعساكر الديار المصرية، بعد أن كانوا اتفقوا على لقاء العدوّ التتار إنْ تَأَخَّرَ السلطانُ، ونقلوا حريمَهم إلى قلعة دمشق، ثم لم يَرَوْا ذلك ووَصَلَ الجيشُ الذي كان بالمَرْج، ونزلوا بأجمعهم بميدان الحَصَا في يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شعبان، واخْتَبَطَ الناسُ بدمشق وجفلوا من الحواضر والقرى إليها، وخرج أكابر أهل دمشق وأعيانها في هذا اليوم منها فمنهم من التحق بالحُصُون، ومنهم من توجّه إلى نحو الديار المصرية، وكنتُ يومَ ذاك بدِمَشْق فخرجْتُ منها بعد أن أعْدَدْتُ لأمة الحرب، والتحقتُ بالعسكر ووجدتُ الجُفَّال قد ازدحموا بالأبواب زِحَامًا شديدًا، وذُهِلُوا عن أموالهم وأولادهم، وَوَصَلْتُ بعد المغرب إلى منزلة العَسْكَرِ بميدان الحصا، فوجدتهم قد توجَّهُوا إلى مَرْجِ الصُّفَّرِ، فلحقتُ الجيوشَ في يوم الخميس التاسع والعشرين من الشهر - وهو سلخه، وأقمنا بالمرج يوم الخميس والجمعة.

فلما كان في ليلة السبت المُسْفِرَةِ عن ثَاني شهر رمضان دَارَتْ النُّقَبَاءُ على العساكر، وأخبروهم أن العَدُوّ قد قَرُبَ منهم، وأن يكونوا على أهْبَةٍ واستعداد في تلك الليلة، وأنه متى دهمهم العَدُوُّ يَرْكَبوا خُيولهم، ويكون الاجتماع عند قرية المجَّة بقُرْب خَرِبَةِ اللصوص فبتنا في تلك الليلة وليس منا إلا مَنْ لبس لأمةَ حربه، وأمسك عنان فرسه في يده، وتساوى في ذلك الأميرُ والمأمورُ، وكنتُ قد رافقتُ الأمير علاء الدين مُغْلَطَاي البَيْسَرِيّ أحدُ أمراء الطبلخانات[1] بدمشق، لصُحْبَةٍ كانت بيني وبينه، فلم نَزَلْ على ذلك وأعنةُ خَيْلِنَا بأيدينا حتى طلعَ الفجرُ فَصَلَّيْنا ورَكِبْنَا، واصْطَفَّت العساكرُ إلى أن طلعت الشمسُ وارتفع النهارُ في يوم السبت المذكور، ثم أرسل الله مَطَرًا شديدًا نحوَ ساعتَيْنِ ثم ظهرت الشمسُ، ولم نَزَلْ على خُيولِنَا إلى وقت الزَّوَالِ، وأقبل التتارُ

---

(١) أمراء الطبلخانات: الطبلخاناه، معناه: بيت الطبل، ويشتمل على الطبول والأبوال وتوابعها من الآلات، ويحكم على ذلك أمير من أمراء العشرات يعرف بأمير علم (صبح الأعشى ٤/ ١٣).

كَقِطَعِ اللّيلِ المُظْلِم، وكان وصولهم ووصولُ السلطان بالعساكر المصرية في ساعة واحدة.

ذكر خبر المصاف وهزيمة التتار

كان المصاف المبارك في يوم السبت ثاني شهر رَمَضَان المعظّم سنة اثنتين وسبعمائة، وهزيمةُ التتار في يوم الأحد بعد الظهر، وذلك أن السلطان الملك الناصر ـ قرن الله مساعيه بالظفر، وحَكّم مرهفاته في رقاب من طغى وكفر ـ حالَ وصولهِ إلى مَرْج الصُّفّر بالقُرْب من شَقْحَب تولى تَرْتِيبَ عساكره فوقف ـ خلّدَ الله سلطانه ـ في القلب وبإزائه الخليفةُ أمير المؤمنين أبو الربيع سليمان، وفي خدمته الأميرُ سيفُ الدين سَلّار نائبه، والأميرُ ركنُ الدين بِيْبَرس الجَاشنكِير أستاذ الدار، والأمير عز الدين أيْبَك الخَزِنْدَار المنصوري والأميرُ سيفُ الدين بَكْتَمُرُ الجُوْكَنْدَار أمير جَنْدَار[1]، والأميرُ جمال الدين أقُش الأفرم نائب السلطنة بالشام، ومُضَافِيهم، والمماليكُ السلطانية هؤلاء في القلب.

ووقف في الميمنة الأمير حسامُ الدين لاجين الرُّومِي أستاذ الدار، والأميرُ جمال الدين أقُش المَوْصِلِيّ أمير علم[2] المعروف بِقَتّالِ السَّبْع، والأميرُ جمال الدين يعقوب الشَّهْرَزُورِيّ، والأميرُ مُبَارِزُ الدين أوْلِيَا بن قَرَمَان ومُضَافِيهم، وفي جناح الميمنة الأميرُ سيفُ الدين قَبْجَاق، والعُرْبَانُ أجمع ـ والله أعلم.

ووقف في الميسرة الأمير بدرُ الدين بَكْتَاش الفَخْري أمير سلاح، والأميرُ شمس الدين قَرَا سُنْقُر المنصوري نائب السلطنة بالمملكة الحلبيّة، والأميرُ سيفُ الدين أَسَنْدَ مُركُرْجي نائب السلطنة بالفتوحات، والأميرُ سيفُ الدين بَتْخَاص نائب المملكة الصفدية، والأميرُ سيفُ الدين بَكْتَمُر السِّلَاحْ دَار، والأميرُ سيفُ الدين طُغْرِيل الإيغاني والأمير ركنُ الدين بِيبرس الدَّوَادَار المنصورِيّ، والأمير ركن الدين بيبرس الموفقي، وغيره من مقدمي أمراء الشام، وكنت في المَيْسَرَةِ. وأما غير هؤلاء الذين ذكرناهم من الأمراء مقدمي الألوف من العساكر المصرية وغيرها فلم أتحقق مواقفهم فأذكرها.

---

(١) أمير جاندار: تقدم التعريف بهذا المصطلح.

(٢) أمير علم: هو صاحب وظيفة إمرة العلم، وموضوعها أن يكون صاحبها متحدثًا على الطبلخاناه السلطانية وأهلها، متصرفًا بأمرها، وعادتها إمرة عشرة (صبح الأعشى ٤/ ٢٣).

وأقبل التتار وفيهم من مقدمي التمانات قُطْلُوشَاه، وقُرمُشِيّ بن الناق، وسُوتَايْ، وجُوبَان بن تَدَاوُن، وأقْطَاجي، وبُولاي، وطُوغَان، وسياومي بن قُطْلُوشاه، وطُغْرِيل بن أجاي، وأبَشْقَا، وأولاجْقَان، وألْكَان وطَيْطَق، وهم في مائة ألف من المغُول والكُرْج والأرمن وغيرهم. ولما جاوزوا منزلة الكُسْوَة طَلبُوا تحتَ الجَبلِ المسمى كَنَف المصري، وحملوا على المَيْمَنَةِ فَصَدَمُوها بمعظم جُمُوعِهِم؛ فاضطربَتْ وقاتل من بها قتالًا شديدًا، فاستُشْهِدَ الأميرُ حُسَام الدين الرُّومِيّ، والأميرُ مُبَارِز الدين أوليَا بن قَرَمَان، والأميرُ شمس الدين سُنْقُر الكافُري، والأمير جمال الدين أقُش الشمسي الحاجب، والأميرُ عز الدين أيْدَمُرْ النقيب، والأمير عز الدين أيْدَمُر الرّفَا، والأمير عز الدين أيْدَمُر الشمسي القشاش، والأمير علاء الدين علي بن داود التركماني والأمير حُسَام الدين علي بن بَاخِل، ونحو ألف فارس من مماليك الأمراء وأجنادهم، وانهزم بعض الأمراء، فكانِ منهم: الأميرُ سيفُ الدين بُرُلْغي الأشرفي. فأردف السلطانُ الميمنةَ بالقَلْبِ حتى رَدَّ التتار.

وأما المَيْسَرَةُ فقاتلها بُولَاي في حماية من التتار، فلم تكن لهم طاقة بملاقاة مَن فيها من الجيوش؛ فهرب بُولَاي في هذا اليوم بعد العصر في نحو عشرين ألف فارس من غير طائل قتال، وتبعهم بعضُ الجيش الإسلامي وعادوا، ثم حجزَ الليلُ بين الفريقين، فلجأ التتارُ إلى الجبل، وأضرموا النيران، وأحاطت بهم العساكرُ الإسلامية طولَ الليل. فلما أسفرَ الصباحُ عن يوم الأحد ثالث شهر رمضان تقدّمت العساكرُ الإسلاميةُ إلى الجبل، وضايقوهم أشدّ المضايقة، فكان ينزلُ من شجعانهم طائفةٌ وتتقدّم إلى طُلْبِ من أطْلابِ[1] العساكر وتقاتل فيردها من يقابلها أقبح رَدّ. وكان هذا اليوم بالحِصَارِ أشبهَ منه بالمَصَافّ، واستمر الحالُ على ذلك إلى وقت الظهر فَفرَّجَ لهم الأميرُ سيفُ الدين اسَتْدَمُر كُرْجي فُرجَةً من رأس المَيْسَرَةِ، فَلَمَّا رَأوْهَا بادَرُوا بالفِرَارَ، وخَرجُوا على فِرْقَتَيْن. فالفرقة الأولى فيها جُوبَان في نحو ثلاثين ألف فارس حتى أبعد. ثم تلاه قُطْلُوشاه في نحوها، وبَقِيَ منهم فرقةٌ ثالثة فيها طَيْطَق في زُهَاء

(١) الأطلاب: جمع طُلْب، بضم الطاء، وهي وحدات صغيرة قد تبلغ أربعمائة يرأسها أمراء ويعملون في وظائف البلاط أو الدولة، وكان للسلطان نفسه أطلاب من الفرسان في عدد صغير، ويقول ابن إياس: إن هذا اللفظ ظهر في أيام صلاح الدين الأيوبي. ويذكر المقريزي أن الطلب في لغة الغزّ هو أمير له لواء وبوق ومائتا فارس إلى مائة إلى سبعين (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٣٦).

عشرين ألف فارس، فلما فَرُّوا حَمَلَتْ العساكِرُ عليهم وأبادُوهم قَتْلًا وأَسْرًا، وتبعتْهم العساكر بقيّةَ النهارِ إلى الليل.

ولما كان في يوم الاثنين رابع شهر رمضان جرّد السلطانُ الأميرُ سيفُ الدين سَلّار، والأمير عز الدين أَيْبَكَ الخَزِنْدَار، وغيرَهم من العساكر يقفُّون آثارهم. ثم ركب السلطانُ في يوم الاثنين من مكان الوقعة وباتَ بالكُسْوَةِ ودَخَلَ إلى دِمَشْقَ في بُكْرَة نهارِ الثلاثاء خامس الشهر، هو والخليفة، ونزل بالقصر الأَبْلَقِ، ثم بالقلعةِ، ونزل الخليفةُ بالتُّرْبَةِ الناصرية، وأقام السلطانُ بدمشق إلى ثاني شَوَّال، ورحل من دمشق في يوم الثلاثاء الثالث من شوال ووصلَ إلى القاهرة، ودخل في الثالث والعشرين منه، وشقّ المدينة، ونزل بالمدرسة المنصورية؛ لزيارة قبر والده السلطان الملك المنصور، ثم ركب وطلَع إلى قلعة الجَبَلِ، واحتفل الناسُ لمقدمه احتفالًا عظيمًا، وزُيِّنت القاهرةُ بزينة لم يُشَاهَدْ مِثْلُها فيما مضى، واستمرت الزينةُ بها بعد وصول الأمير بدر الدين بَكْتُوت الفتّاح بكتابِ البِشَارةِ، في يوم الأحد عاشر شهر رمضان، إلى أن قَدِمَ السلطانُ بعد ذلك بأيّام.

وقد ذكر الناسُ هذه الغزوة نظمًا ونثرًا، ووقَفْتُ ممَّا عُمِلَ فيها عَلَى أشياء كثيرة، وقد رأيتُ أن أورِدَ من ذلك ما نقف عليه من النظم والنثر، فكان ممن عمل في ذلك القاضي الرئيس الفاضل علاء الدين علي بن عبد الظاهر[1] صنّف في خبر هذه الوقعة جزءًا سماه الرَّوْضُ الزاهِر في غَزْوَةِ الملكِ النَّاصر ابتداه بأن قال: الحمد لله الذي أيّد الدين المحمدي بناصِرِهِ، وحَمَى حِمَاهُ بمن مَضَى هو وسَلَفُه بأداء فرض الجهاد في أوّل الزمان وآخره، وجعل من الذُّرِّيَّة المنصورية مَنْ يُجَاهِدُ في الله حق جِهَادِهِ، ويسهر في سبيل الله فيمنع طَرْفَ السيفِ أن يُغْفى في إغْمَادِه، ويَقْدُم يَوم الوغى والموتُ مِنْ بُعُوثِه للعِدَى وأَجْنَاده نَحمدُه على ما وَهَبَنَا مِن نصره، ونشكره على نِعَمِهِ التي خَوَّلَنا منها بأسًا أذاق العدوَّ وَبَالَ أمْرِه، ونشهد إن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له شهَادَةً ترفعُ مَنَارَ هذا الدين، وتضاعف أَجْرَ المجاهدين الذين أضحوا في دَرَجِ المتقين مُرْتَقِين، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي بَعَثَه وضُرُوعُ الكُفرِ

(١) علاء الدين علي بن عبد الظاهر: هو علي بن محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر، علاء الدين السعدي، المعروف بابن عبد الظاهر، المتوفى سنة ٧١٧ هـ، من تصانيفه: «مرتع الغزلان»، «مفاخرة السيف والرمح». (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٥/ ٧١٧، شذرات الذهب ٦/ ٢٤٦، حسن المحاضرة ١/ ٥٧١، الدرر الكامنة ٣/ ١٠٩).

حَوَافِل، ورُبُوعُ البَغي أواهِل. فلم يزل يجرِّد الصِّفَاح من مَقَرِّهَا، ويُطْلِقُ جيادَ الغرمِ في مجراها وصعاد الحزم في بحْرِها، إلى أن أخمد نار الشرك والنفاق، وظهرت معجزاته بإطفار نار فارس بالعراق، صلى الله عليه وعلى آله الذين جَرَّدُوا بين يديه سيوفَ الحُتُوف، فاستغلقت الأعمار، وهاجروا إليه ونَصرُوه فَسموا المهاجرين والأنصار، وبعد: فإن الوقائع التي عظمت آثارها في الآفاق، وحُفِظَت بها دِمَاءُ المسلمين من أن تُرَاق، وبَقي بها الملكُ والممالك، وأشرق بها سوادُ الخَطْب الحالك. وسطَّرها الله تعالى في صحائف مولانا السلطان الملك الناصر، وآتاه فيها مِن المُلْكِ ما لم يَبْلُغه أحد، فأوْرَثهُ بهِ ظَفرًا مُخلَّدًا لا يَفْنَى وإن طال المدَارُ والأمَد، وأشبه في ثباتِه وَوَثَباته بها أباهُ رَضِيَ الله عنه، والشبل في المخبر مثل الأسد، واستقر بها الملك في مِهَادِ السكون بعد القلق، وتبدّلت بها الملةُ الإسلاميةُ الأمْنَ بعد الفرَق، وأضحى بها وجهُ الإسلام سافرًا بعد تَقْطِيبه، وطلع بها بدرُ السرور كاملًا بعد مَغِيبه، وعَمّت الأيام إحسانًا من الملك وحُسْنَى وعَلَّم المؤمنين بها تحقيقَ قوله عزّ وجلّ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النُور: الآية ٥٥] حقها أن يسطر فيها ما يعمر ربوع السرور ويؤنس معاهده، ويقف عليه الغائب فيكون كمن شاهده ويذيع أنباء هذه النُّصْرَة في الأقطار، ويتحقق أهل الإسلام أن لهم مَلكًا يناضل عن دين الله بالسُّمْرِ الطِّوَال والبِيضِ القِصَار، وسلطانًا ما أغمد سيفه في جفنه إلا ليستجم لأخذ الثأر ممَّنْ ثَار.

ولما كانت هذه الغزاة المبرورة، والحركات التي عدت حسناتها في صحائف القبول مسطورة، والسَّفْرة التي أسفرت بحمد الله عن الغنيمة والسلامة، وأعلمت الأمةَ بركة قوله ﷺ: «لا تَزَالُ طائِفَةٌ مِن أُمَّتي ظَاهِرِينَ عَلَى الحقِّ لا يضُرُّهُم من خَذَلهم إلى يَوْمِ القِيَامَةِ». وكنْتُ ممن شملتْه نفحاتُ الرحمة فيها، وهَبَّت عليه رِيَاحُ النَّصر التي كانت تُرَجِّيهَا، وشاهدتُ صدقَ العزائم الملكية الناصرية، التي طلعت في سماء النَّقْعِ نُجُومًا وَقَّادَة، وشَهِدْتُ في محضر الغَزْوِ على إقرار العِدَى بالعجْزِ، وكيف لا وذاكَ المواطن مُحلُّ الشهادة، ورأيت كيف أثبت السيفُ لنَا الحقَّ لأنه القاضي في ذلك المجال، وكيف نفذت السهامُ لأجل تصميمه في الحكم، فلم تمهل حتى أَخَذَت دَيْنَ الآجال وهو حالّ، وقد أحببتُ أنْ أذكر مِن أمرها مُلْحَةً تنشرح منها الصدور، وآتِي بلُمْعَةٍ تعرب عن ذلك النور، وها أنا أذكر نبأ السفر مِنَ افتتاحه، وأشرح حديثَ هذه الغَزَاةِ من وقت صَبَاحِه، فأقول:

ركب مولانا السلطان الملك الناصر خلد الله ملكه ـ بنيّةٍ صالحة أخلصها في سبيل ربّهِ، وعزيمة ناجحة ماثَلَتْ في المضاء سُمْر عَوَاليه وبِيض قُضُبه، من قلعة مصر التي هي كِنَانَةُ الله في أرضه، بجيوشه التي نهضت بسُنَنِ الجهَادِ وَفَرْضه، تقدمها أمراؤه الذين كأنهم ليوثُ غَاب، أو غُيُوث سَحَاب، أو بُدُورُ لَيَال، أو عُقُود لآل معتضِدًا ببضعة من الرسول، منتصرًا بابن عمه، الذي لا يسمو أحَدٌ مِنْ غير أهل بيتهِ لشَرفِه، ولا يطول، ملتمسًا بركة هذا البيت الشريف الذي طالما كانت الملائكة من نُجْدِه وجُنْدِه، مسترسلًا بيمنة الإيمان سُحُبَ كرمه، مستدعيًا صادِقَ وَعْدِه. وسار على اسم الله تعالى بالجاريات الجياد، التي تعدو في سبيل الله النجاد، وتعلو الهضاب، وسَرَى يَقْطعُ المنازِلَ، ويَطْوِي المَرَاحِلَ طيّ السِّجِلّ للكتاب، والجيوش المنصورة قد أرهَفَتْ حَدَّ سيوفها وأشرعت أسنة حُتُوفها، وهي تسير كالجبال، وتبعث كالصدى ما يُرْهِبُ من طيف الخيال.

فبينما الركاب قد استقلت في السُّرَى، ورُقِمَتْ في البيداء من أعناق جيادها سُطُورٌ من قرأها استغنى بحسنها عن القِرَى، إذا بالبشير قد وَفَد ونجمُ المَسَرَّةِ قد وَقَد، وأخبر بأن جمعًا مِنَ التتارِ قَصَدُوا القَرْيَتيْن للإغارة، ما علموا أن ذلك مبدأ خمولهم الذي فَتَحَ الله به للإسلام باب الهناء والبشارة، وغرتهم الآمال، وساقتهم الحُتُوف للآجال، فنهض بعضُ العساكر المؤيدة، فأخذتهم أخذ القُرَى وهي ظالمة، وأعلمتهم أن السيوف الإسلامية ما تترك لهم بعد هذا العام ـ بِقُولة يدًا في الحرب مبسوطة، ولا رِجْلًا في المواقف قائمة، وأرى اللهُ العدوَّ مصارعَ بَغْيه، وعاقبة استحواذه، وتَلا لسانُ الوعدِ الصادقُ على حِزْبِ الإيمانِ ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح: الآية ٢٠]، ووصل مولانا السلطانُ ـ خَلَّد الله ملكه ـ غزَّة، والإسلام بحمد الله قد زاد قوة وعِزَّة، ثم رحل بحمد الله ـ بعزم لا يفتر عن المسير، وجيش أقسم النصرُ أن لا يفارقه وأن يَصِيرَ معه حيثُ يَصِير، إلى أن وصلوا يوم السبت الثاني من شهر رمضان المعظم سنة اثنتين وسبعمائة، وهو أوّل أيام السعود، واليوم الذي جُمِع فيه الناس ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: الآية ١٠٣] إلى مَرْج الصُّفَّر الذي هو موطن الظَّفَر، ومكان النصر الذي يُحَدِّثُ عنه السُّمَارُ بأطْيَبِ سَمَر. والسلطان بين عساكره كالبدر بين النجوم، والملائكةُ الكرام تحمي الجيوشَ المؤيدةَ بإذن الله، وطيورُ النصر عليها تَحُوم، وهو ـ خلّد الله ملكه ـ قد بايَعَ الله على نُصْرَة هذه المِلَّة التي لا يحيد عن نَصْرِها ولا يَرِيم، وعاهَدَه على بَذْلِ الهِمَمِ التي انتظمت في سبيل الله كالعقد النَّظِيم، وخضعَ للهِ

في طَلَبِ النصر ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢٦]، وقال: رب قد بذلتُ نفسي في سبيلك فتَقَبَّلها بقَبول حسن، ونويتُ المُصَابَرَةَ في نُصْرَةِ دينك، وأرجو أن أشفع النِّيَّةَ بعملٍ يَغْدُو لِسَانُ السِّنانِ في وَصْفِهِ ذا لَسَن، وَتَلا ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٠] واهزِمْ عدوّنا فقَدْ بايَعْناك على المُصَابرةِ ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٩]، وابتَهَلَ إلى الله في طلب التأييد، وتضرَّع إليه في ذلك الموقف الذي ما رآه إلّا مَنْ هو في الآخرة شهيد، وفي الدنيا سعيد، هذا والسيوف قد فارَقَت الأغمادَ، وأقسمت أنها لا تَقَرُّ إلا في الرؤوس، والأسنة قد أشرِعت وآلت أنها لا تَرْوِي ظمأها إلا مِنْ دِمَاء النفوس، والسهامُ قد التزمت أنها لا تتخذ كَنائِنَها إلّا مِنَ النُّحور، ولا تتعَوَّض عن حنايا القسِيِّ إلا بحنايا الأضالع أو لتَرَقُّعِها لا تَحلُّ إلّا في الصدور، والدروع قد لزمت الأبطال قائلةً: لا أفارق الأبدان حتى تُتْلى سورة الفتح المبين، والجيادُ حرَّمَت وَطْءَ الأرض وقالت لفرسانها: لا أطأُ إلّا جُثث القتلى، ورؤوسَ الملحدين. فلا ترى إلا بَحْرًا من حديد، ولا تشاهد إلا لَمْعَ أسِنَّةٍ أو بُرُوق سيوف تصيد الصيد[1]، والسلطان قد أرهف ظُباه[2] لِيُسَعْرَ بها في قلوب العِدى جَمْرًا. وآلى أنه لا يُورِدُ سيوفَه الطُّلى بيضًا إلا ويُصْدِرُها حُمْرًا، والإسلام كأنه بنيانٌ مرصوص، ونبأ النصر على مسامع أهل الإيمان مقصوص، والنفوسُ قد أرخِصت في سبيل الله، وإن كانت في الأمْنِ غالية، وأرواح المشركين قد أعِدَّ لها الدَّرْكُ الأسفلُ من النار، وأرواح المؤمنين في جنة عالية.

ولما كان بعد الظهر أقْدَمَ العدو ـ خذله الله ـ بعزائم كالسيوف الحِدَاد وجاء على قُربٍ من مقدمنا، فكان هو والخِذْلان على موافاة، وجئنا نحن والنصر على ميعاد؛ وأتى كَقِطَع الليل المظلم بهمم لا تكاد لولا دفع الله عن بُزَاتِها تحجم، معتقدًا أن الله قد بسط يَدَهُ في البلاد ـ ويأبى الله إلا أن يقبضها ـ متخيِّلًا أنَّ هذه الكَرَّةَ مثل تلك ـ ويأبى الله إلا أن يُخْلِف لهذه الأمة بالنصر ويعوِّضَها ـ متوهمًا أن جيشَه الغالب، وعزْمه القاهر، متحققًا أنه منصور وكيف ذاك ومعنا الناصر!!

والتقى الفريقان بعزائم لم يَشُبْهَا في الحرب نكُولُ ولا تَقْصِير، فكان جَمْعُنا ولله الحمد جَمْعَ سلامَةٍ وجَمعُهُم جَمْعَ تكسير؛ وحَمِي الوَطِيسُ، وحمل في يوم السبت

(١) الصيد: جمع أصيد، وهو البطل الشجاع. (٢) الظبا: حد السيف.

الخميسُ على الخميس[١]، ودارت رحا الحرب الزَّبُونَ[٢]، وغَنَّت السيوفُ بشربِ الكماةِ كأسَ المنون، والسلطان قد ثَبَتَ في مَوْقِف المنايا، حتى كأنه في جَفْنِ الرَّدَى وهو نائم، ورأى الأبطالَ من أوليائه جَرْحى في سبيل الله والأعداء مهزومين. والوجهُ منه وَضَّاح والثغر باسم، وقابَلَ العدوَّ بصدره وقاتل حتى أفنى حَدِيدَ بيضِه وسُمْرِه، وخاطَرَ بنفسه والموتُ أقرب إليه من حبل الوريد. ونكَّب عن ذكر العواقب جانبًا، ولم يستصحب إلا سيفَه المبيد، واشتد أَزْرًا بأمَرَائه الذين رأوا الحياةَ في هذا اليوم مَغْرمًا، وعدُّوا الممات فيه مَغْنَمًا وقالوا: لا حياة إلا بنصرِ الإسلام، ولا استقرار حتى تَطَأ بين يدي السلطان سنابكُ الخيول هذا الهَام، وما أَعْدَدْنَا العزائمَ إلا لهذا الموقف، ولا أَحْدَدْنا الصَوَارِم وَخَبَأْنَاهَا إلا لنبذلها في السفك فنسرف، وهم بين يدي سلطانهم يَحُثُّونَ جُيُوشَهُم على المُصَابرة، ويقولون: هذا يوم تُصِيبُنَا فيه إحدى الحسنيين، فإما سعادة الدنيا وإما جنةُ الآخرة، وقالت الملائكةُ للجيوش المنصورة: يا خيل الله اركبي ويا يَدَ النصر اكتبي، وقامت الحرب على ساق ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾ [القِيَامَة: الآيتان ٢٩، ٣٠]، وأتى العَدُوُّ جملةً واحدة، وحمل حملةً أمست بالنفوس جائدة، ونكب عن الميسرة وقصد الميمنة والقَلْب، وهاله جمعُ الإسلام فأراد أن يخلص بانحيازه من شدة ذلك الكَرْب، واستمرت المناضلةُ تمتد بين الفريقين وتنتشر، والمؤمنون قد وَفَّوْا بما عاهدوا الله عليه. ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزَاب: الآية ٢٣]، ومولانا السلطانُ يُرْدِفُ مواكِبَه بحملاته، ويُقْدِم فتخشى الأعداءُ مواقع مهابته وترجو الأولياء منافع هباته، ويرى غمرات الموت ثَمَّ يزورها، ويمر في مجال المنايا فيحلو له مريرها ومزورها، ويقاسم سيوفَ العدى شرَّ قِسْمَة، فعلى عاتقه غواشيها وفي صدورهم صدورها.

ولما كان وقت المغرب لجؤوا ـ خذلهم الله ـ إلى هضاب اعتقدوا أن فيها النجاة، وقالوا: نأوي إلى جبل يعصمنا من الموت ونسوا أنه لا عاصِمَ اليومَ من أمر الله. [من الرجز]

راموا النجاة وكيف تنجو عُصْبَةٌ مطلوبَةٌ بالله والسلطان؟

---

(١) الخميس: هو الجيش الجرار، سمِّي بذلك لأنه خمس فرق: المقدمة، والقلب، والميمنة، والميسرة، والساقة.

(٢) الزبون: يقال: زبنه: دفعه ورمى به، ومنه الحرب الزبون: أي الشديدة الدافعة المرمية.

وحصرتهم العساكرُ الإسلاميةُ بعزائم كالشهاب أو النار، ودارت عليهم كالسَّوَّار والسِّوَار، وصيَّرَتْهُم بقدرة الله في رِبْقَة الإسار، وقاتلتهم الجيوشُ المنصورة غير مُسْتَجِنَّة بِقُرًى محصَّنَةٍ وَلا مِنْ وَرَاء جِدَار، تتلظى كُبُودُهم عَطَشًا وَجُوعًا، ويكادون من شدة الهجير يَشْرَبُون من سَيْل قَتْلاهم نجيعًا[1]، وَيَوَدُّون لو كانوا أولي أجنحة، ويندمون حين رأوْا صفقتهم خاسرة وكان ظنهم أنها تكون مُرْبِحَة، ويأسَفُون على فَواتِ النجاة، ويتحيَّرون عند مُوَاقعَة الجيوش المؤيدة حيث رأوا ما شملها من نصر، ويتضرّمُون بنارِ الخَيْبَةِ على حركتهم التي أَدْبَرت لهم مآبًا، وينظرون فيما أسلفوه من ذنوب ولسان الانتقام يتلو عليهم ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: الآية ٤٠].

ودخلتْ ليلةَ الأحدِ وهم في حَصْرِهم وقد أوقعَهُم اللهُ في حبائل مَكْرِهم، وأراهم من الحَصْرِ والضيقِ ما لا رأوه مُدَّةَ عُمْرِهم، وأيقنوا بالهلاك، وتحققوا أن لا خلاص لهم من تلك الأشْرَاك، ولو سَمِعُوا ما سَبَقَ من الإنذار لَمَا أتَوْا للمبارزة مظهرين، ولو عَلموا سُوءَ صَبَاحهم كَفَرُوا عِشَاءً ونَجَوْا من قبل أن يُتْلَى في حقهم ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: الآية ١٧٧] وأصبح الإسلام يوم الأحد في قوته المنيعة، وأرواح العِدَى في أجسادهم وديعة، ومولانا السلطانُ يصطبح من دمائهم كما اغتبق، ويُريهم عَزْمًا يَنْثرُ عقد اجتماعهم الذي انتظم واتَّسَق، ويُفْهِمهُمُ أنَّهُ لا مَرَدَّ له عن مُرَادِ الصَّوَارِم، وأنه لا يفارق الجَبَل حتى يجعل عِوَضَ أحْجَاره جَمَاجِم، وأمراؤه ـ أعزَّ اللهُ نصرهم بين يديه ـ أولو هِمَمٍ في الحرب وأولو عزائم، ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: الآية ٥٤] يَعُدُّونَ المُصَابرَة في طاعة الله وطاعة سُلْطَانِهم غنيمةً جمعت لهم أسبابَ الفخار؛ ويمتازون بأنّ منهم مَنْ هاجَرَ إليه، ومنهم من نصره، فَعُدُّوا ـ حقًّا ـ كونهم مع محمد تَابعي المهاجرين والأنصار، وزحف السلطانُ وبين يديه أمراؤه وعساكرهُ المؤيدةُ فضيقوا عليهم الخِنَاق، وأَحْدَقوا بهم إحْدَاقَ الهُدْبِ بالأحدَاق، ورَاسَلُوهم بالسهام، وشافَهُوهم بالكلام لا الكَلام، ورَفَعُوا من راياتهم المنصورة ما طَاوَلَ المنشآت في البحر كالأعلام، وحَمَل بها الأبطال، فكلما رآها العِدَى تَهْتَزُّ بتحريك نسيم النَّصر سَكَنُوا خَوْفَ الحِمَام، ثم فَرَّجُوا لهم عن فُرْجَةٍ من جَانب الجَبَل ظَنُّوهَا فَرَجًا، وخُيِّلَ لهم أنَّهُ مَنْ سَلَك تلك الفرجة سلك طريقًا مستقيمًا، وَمَا دَرُوا أنه سلك طريقًا عِوَجًا، واستترت لهم الجيوش المنصورة إلى الوطاة لِتُمَكّنَ

---

(١) النجيع: الدم.

سيوفها من سفكهم، ويقرب مدى هلكهم، وتُسلمهم إلى الحِمَام الذي لا يُنْجِي منه خَيْلٌ ولا جبل، وتملأ الوطاة من دمائهم، فتساوى السهل من قتلاهم بالجَبْل، وحلَّ الحِمام بساحتهم، وامتدت الأيدي لاستباحتهم، وضاقت عليهم المَسَالك، وغُلِبُوا هُنَالِك، وأنزل الله نَصْرَه عَلَى المؤمنين وأيدهم بجُنُودٍ لم يَرَوْها، واشترى منهم أنْفُسَهُم بأنّ لهم الجنة ـ فيا طِيبَ ما شَرَوْها، وَفَرَّت من العدو فِرْقَةٌ، وضلَّت في حالة الحرب عن السيف فأدركهم العزم الماضي الغِرار[1] وتلا عليهم لسان الحق ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ﴾ [الأحزاب: الآية ١٦] وما انقضى ظُهْرُ يوم الأحد إلا والنصرُ قد خَفَقَت بُنُودُه، والحقُّ ـ سبحانه وتعالى ـ قد صَدَقَتْ وُعُودُه، وطائرُ الظفر قد رَفْرَفَ بجناحه وطار باليُمْنِ والسرور ونسيمُ الريح قد تحمَّلت رسالة التأييد، فصارت إلى الإسلام بالصَّبا وإلى العَدُوّ بالدَّبُور والألطافُ ـ ولله الحمد ـ قد زادت للإسلام قُوَّةً وتمكينًا، ولسان النَّصر يتلو على السلطان ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: الآية ١] والسيف قد طهَّرَ دِيَارَ الإسلام من تلك الأدْنَاس ومولانا السلطانُ يتلو ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [يُوسُف: الآية ٣٨]، وأمْسَت الوُحُوش تنوشُ أشْلاءَهَم، والحوائم تَرِدُ دِمَاءَهم، والعساكِرُ في أعقابهم تقتل وتأسر، وتبدي في استئصالهم كل عزيمة وتُظْهِر، وتنظم أسنتها برؤوس القتلى، وتعقد لها على عقائل النصر فَتُزَفُّ لديها وتَجْلي، إلى أن نَاحَتهم بالخيف من مكان قريب، وبسطت فيهم السيفِ فسأل الأسر أن يسمح له بحَظٍّ فأعْطِيَ أيسرَ نصيب، ومُلِئَت من قتلاهم القِفَار، وأمْسُوا حديثًا في الأمصار، وعبرةً لأُولي الأبصار.

ثم رَحَلَ السلطان يوم الاثنين الرابع من شهر رمضان المعظم إلى منزلة الكُسْوَة من مكان النصر، وبقاعُهُ تُنْبِىء عَلَى معاليه، وتَشْهَدُ بمضاء قواضبه ونفوذ عواليه، ودمشق قد أخَذَتْ زُخْرُفَها وازَّيَّنَت، وتَبرَّجَت محاسِنُها للنواظر، وما باتَت بل تبيتت، وكادت جُدُدها تسعى للقائه، لِتُؤدِّي السُّنَّةَ من خِدمته والفرض، غير أنها استنابت الأنهار فَسَعَت وقَبَّلت بين يدي جَوادِهِ الأرض.

ثم رحل في يوم الثلاثاء خامس شهر رمضان، ودخلها في هذا اليوم والملائكة تُحَيِّيه عن رَبِّه بتحيَّةٍ وإكرام، وتتلو عليه وعلى جيوشه ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ [الحِجر: الآية ٤٦] في موكبٍ كأنه نظام الدُّرَر، أو روضة كُلها زَهَر، بل هو ـ حقًّا ـ هالةُ القَمَر، والدنيا قد تاهت به عُجْبًا والناس يدعون لسلطان قد شُغِفُوا

---

(١) الغرار: حد السيف.

بدولته حُبًّا، ويتعجبون من نضارة مُلْكِه الذي سرَّ النواظر، ويَرَوْنَ أولياءه في فلك إنْعَامِه، فيقولون:

أَبُدِّلت الأرضُ غير الأرض أو صارت سماءً وإلا فما هذا القمرُ حَوْلَهُ النجومُ الزواهر! وعادت المآتم بدمشق أفراحًا وأعراسًا، وربوع الهناء قد عَوَّضَها أمنُ مقدمِهِ عن الوحشة إينَاسًا، والقلعةُ بآلات حصارها مزينةٌ قائلة: كيف يُسْتَبَاح حِمَايَ وأنا بهذا السلطان مُحَصَّنَة، وشهادته مُحْصنة.

هذا والأنهار تُساير ركابَه وقد صُبِغَتْ من دماء العِدَى بأحمرَ قان، والأشجار تَميلُ طَرَبًا بالهنا، كما يميل النشوان بين الأغاني، والحمام يَطْرِبُ بحسن الألحان والتغريد، وقد أقْسَمت لا تنوخ، وكيف تنوح وقد خضَّبَت كَفَّها وطَوَّقَت الجِيد، والناسُ يقولون: أيا عجبًا في أوّل رمضان يكون عيد، وفي آخره عيد؟! والعزائم للعدى تُرْدِي، وبِنَصْرِ الله تَرْتَدِي، وتهتز بَرَدَى تقول عند تغريد الحمامة:

«يا بَرْدَ ذاك الذي قالت على كبدي» والأقاليم قد تاهت بسلطانها بَهْجَةً وسُرورًا، وهامُ الجوزاءِ تَوَدُّ لو كانت مِنْبَرًا وسَريرًا، والرعايا تقول: هذا الملكُ الذي حَمَى الله بعزائمه الدِّيَار، وأدَارَ العِدَى إلى دارِ البَوَار، ووقف لا يبتغي إلا وَجْهَ ربه، وقابل اليومَ بنفسه وبكتائبه، وناضل الأمس بكتبه، والله لدعائهم سامِعٌ ومُجيب، ومكافِئه بكل فتح مبين ونصرٍ قريب.

ووصل الميدانَ الأخضر وقد أذاق العدُوَّ الأزرق الموت الأحمر، في يوم السعد الأبيض، بعَلَم النصر الأصفر ـ إلى القصر الأبلق، وقد طلع شَمْسًا في سماء الملك أَنارَ به أُفُقَ الآفاقِ وأشرق، ففخر القصرُ بحلوله فيه، وقال: هذا اليومُ الذي كنت أَرْتَجيه، وهذا الوقتُ الذي ما بَرِحَت تُبَشِّرُني به نَسَمَاتُ البُكر والأصائل. لأنها تَمُرُّ لطيفةً، فأَعْلَمُ أن مَعها منه ـ خَلَّدَ الله ملكه ـ رسائل، وهذا الملك الذي أعرِفُ فيه من الله شمائل؛ فغبطته القلعةُ المنصورة، وسألته أن لا تبقى بغير الجسد محسورة، وفاخرت القصرَ بمالها من محاسن، وما شَرُفَت به من إشْرَاف على أنضر الأماكن، وامتازت به من حصانتها الذي ما امتطى سواهُ ذِرْوَتها، ولا علا غيرُه ـ خلَّدَ الله ملكه ـ صهوتها، فأراد أن يعظم لقلعته الشأن ـ فَحَلَّ بها مرةً ثم بتلك أُخْرَى، وطاب بحلوله الواديان.

ثم أذْهَبَ عن أوليائه وجيوشه مشقة التعب، ببذل الذهب، وأَنْسَى بمكارمه حاتمَ طيء، فلو عاش لاستجدى ممَّا وَهَب، وأمر بِعَوْدِ نوَّاب مَمَالكه إلى أماكِنِهم المحروسة، وقال: قد خَلَت رُبُوعُكم هذه المدَّة.

وحيثُ حَلَلْنَا بالبلاد نَبْتَغِي أن تكونَ مأنوسة، فتضاعف الشكرُ على إتمام هذه النعمة، وابْتَهَلَت الألسنُ بالمحامِد، وكيف لا وقد طلع صبحُ النصر فَجَلَّى ليلَ تلك الغمة، وشَكَرَ الناسُ منَّةَ الله التي أعادت إليهم بالأمن الوَسَن[1]، ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: الآية ٣٤] وأقام بدمشق المحروسة يتبوَّأ منها أحسن الغُرُفَاتِ، واستقر من بقَاعها في جَنَّات، فَحَيِيَتْ به بعد الممات، وعادت بمقدمه إلى جسدها الروحُ بعد المفارقة، وتمتعت مُقْلتُها من محاسنه بأبْهَى من رياضها الرائقة، وهو يحمي حِمَاها، ويُحَلي مواطِنَ مُلكِها الزواهر رباها، ويُزيِّنُها بمواكبه التي ماثلت الكواكب في سنائها وسناها، وتطأ سَنَابِكُ جيادِه أرضَها فَيُدَانِي الثريا في الافتخار ثَرَاها، إلى أن قَضَى شهْرَ صِيَامِه المقبول. وأتاه عيدُ الفطر مُبشرًا بإدراك آماله في عزٍّ مستَمِرٍّ ونصرٍ مَوْصُول، وأسْبَغَ من عطاياه ما أرْبَى على عَدَدِ أمواج البحر، وتَعَدَّدَت لدولته المَسَرَّاتُ في هذا الشهر الميمون، فآخِرُه عيدُ فطر، وأوَّلُه عيد نحر.

ثم رحل عن دمشق في يوم الثلاثاء ثالث شوال، ويَعِزُّ عَلَيْها أن تفارِقَهُ. أو تَبْعُدَ عن مُحيَّاه الذي أنار مغاربَ المُلْكِ ومشارِقَه، أو يُسَيِّرَ عنها عزمَه الذي إن غاب أغْنَتْ مهابته، أو حضر أرهف على العَدُوِّ بوارِقَه، وأغصانُ رياضها تحسد بنود سناجقه، وأوراق رَوْحِها تودُّ لو كانت مكان أعلامه وخوافقه، وزهرُها يتمنى لو كان وشيًا لحِلَل جِيَادِه، وأرضُها النضرةُ تكاد تنطوي بين يديه لتكون مراكز السعادة، وقصرُها الأبلقُ يَتَوَسَّل إليه في أن يتخذه بَدَلَ خيامه، وستائره لِيُسْرِ مسكنه فيه ومُقَامِه، ومصرُ تبعثُ إليه مع النسيم رسائل، وتبذل له في تعجيل عوده وسائل، وكرسيُّ سلطنتها يَوَدُّ لو سعى من شَوْقٍ إليه، أو شافَهَهُ بالهناء وبالنعمة التي أتَمَّهَا اللهُ عليه، فلَبَّى دعوتَها ولم يُطِلْ جَفْوتَهَا، وسَارَ إليها سَيْرَ الأقمار إلى منازل الضِّيَاء والنور، وَوَطِىءَ بمواكَبه الأرضَ فظهرت بها من مواطىء جياده أهلَّةٌ، ومن آثار أخفاف مَطِيِّه بدور، وَوَصَلَ ديارَ مصر المحروسة وقد زُفَّتْ عرُوسًا تُجْلى في أبْهَى الحلل، وجمعت أنواعَ المحاسن، فلا يقال لشيء منها كَمُلَ لَوْ أنَّ ذا كَمُلَ، وفَضَحَ الدجى إشراقُها، وبهر العيونَ جمالُها، فإلى أقصى حدائق حُسْنِها. رَنَت أحداقها، وسَبَت النفوس منازلها، وكيف لا، وهي المنازل التي لم نَزَل نَشْتَاقُها، وشَغَلَت القلوبَ أبياتُها، وكيف لا وقد زانها ترصيعُها وطباقها، وحوت من البهاء ما لو حَوَتْهُ البدورُ لَمَا شانَهَا بَعْدَ التمامِ

(١) الوسن: النعاس والنوم.

مَحَاقُهَا، وأمسَتْ رَوْضَةً أثْمَرَت اللآلى والدرَرَ، وَفَلَكًا زها بالمُشْرِقَات فيه، وكيف لا وفي كل ناحيةٍ من وَجْهِهَا قمر.

وحَلَّ - خَلَّدَ الله ملكه - بظاهر القاهرة فكادت تسير لخدمته بأهلها وجُدْرَانها، غير أنَّهُ أثقَلَها الحَلْيُ فأخّرها لتبدو إليه في أوَانِهَا المُرَاد، وما أحسن الأشياء في أوانها، وهَمَّ نيلُها أن يجرِي في طريقه لكنه أخَّرَه النقصُ والتقصير، واستحيا أن يقابلَهُ وهو دون غاية التمام، أو يَسِيرَ من مواكب أمواجه في عدد يسير، وخشي أن يتخلَّل السبلَ بين يديه فيحصل في ريها الخلل، أو تظهر عليه - كونه في زمن توحمه - حُمْرَةُ الخجل، وكأنَّ عمود مقياسه قد آلى أن لا يضع أصابعه في اليَمّ إلا بإذن سلطانه، ولا يلبسَ ثوبَ خَلُوقٍ إلَّا ما يزره عليه ببَنَانِه، ولا يأتي بزيادة إلا بعد مقدمه، وكيف لا ومَدَدُه من إحسانه؟!

وركب سَحَرَ الاثنين الثالث والعشرين من شوال سنة اثنتين وسبعمائة من ظاهر القاهرة في موكب حَفَّ به الظَّفر، وأضحى حديثًا للأنَام وذِكْرَى للبشر، وسَيْفُهُ المنصورُ قد أذهَبَ عن المِلَّة الإسلامية لَيْلَ الخَطْبِ ومَحَا، والأمةُ يترقبون طلوع فَجْرِ بَدْرِه، ولسانُ المَسَرَّةِ يتلو عليهم ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: الآية ٥٩] ودخل البلدَ وقد تزايدَت بمقدمه سُرُورًا وبشرًا، وأنْشَدَتْه: [من الخفيف]

أنت غيثٌ إذا وَرَدْتَ إلى الشـ	ـامِ ونيلٌ إذا تَيَمَّمْتَ مصرا
أطلع الشرق من جبينك شمسًا	ليس تخفى ومن محياك بدرا
كان أمرُ التتار مُسْتَصْعَبَ الحَـ	ـالِ فَصَيَّرْتَ عُسْرَ ذلِكَ يُسْرا

وفُتِحَتْ له أبوابُ نصرها التي يُفْضَى منها إلى نعمةٍ ونعيم، وشَاهَدَتْهُ عيونُ أهلها. ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يُوسُف: الآية ٣١] والرعايا قد أصبحوا كما أمْسُوا بالدعاء له مبتهلين، والألسنةُ تتلو عليه وعلى أمرائه ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٩] وقد أظلَّته سماءٌ أديمها الحريرُ، ونجومُها الذهبُ، وسُحُبُها تنثر اللؤلؤ المكنون، وَحِيلَ بين سنابك خيله وبين الأرض بأثواب من اسْتَبْرَقٍ تَسْتَوْقِفُ العيون، وكُوفِئَت عن وطء الأحجار بالأمس في سبيل الله بوطء الديباج في هذا اليوم، وكادت الأيدي تلمس معارفها تبركًا بترب الجهاد الذي حملت إليه أكْرَمَ قوم، فرأى فيها جنَّةً أوْرَدت من مناهلها كوثرًا، وكان قد أُنهِي بين يديه حديثُ زينتها فوجد خُبْرَها يجاوز خَبَرًا، ولم يجد بها عيبًا غير أن صَبَاحَها حَمِدَت به الأجفانُ عاقبة السُّرَى، وتبرَّجَت

عَقَائلُها نُزْهًا للنواظر، وتَظهَرُ كلُّ واحِدة منهن في وَشْي أبْهَى من الزواهر، ولبسَت جدرانُها حُلَلَ السرور النَّضِرَة، وأبْرَزَت بعولتهن ما في ذخائرهم ولم يسألوا نظرةً إلى مَيْسَرة ـ وما ثَنَت أعطافها ـ كما أمْسَت وجوه التهاني بها ضاحكة مستبشرة، ولَمَّا مر بسُبُلها حَلا لَهُ ذلك النُّور، ولَمَّا سلك بين قُصْرَيْهَا تَحقق الناسُ أن أيامَه زَادَتْ على أيام الخلفاء؛ فإنها أنشأت قصرَيْنِ وهَذَا أنْشأ لَهَا قصورًا ما بها من قُصُور، فمن بُرُوج تَمنَّت البدور لو كانت لها منازل، ومن قلاع لو تَحَصَّن بها جَان لَمَا دارت عليه دوائر الدهر الغوائل، ومن قباب عَلَتْ وليس لها غيرُ الهِمَم من عُمُد، وضُرِبَتْ على السماحَةِ والنَّدَى فما عدِمَ مُشَيِّدُها حُسْنَ البناء ولا فَقَد، ومن عُقودٍ عُقِدَ لها على عرائس السعود، وتَمَكَّنَت في الصُّعُود، ومن حُلِي لو ظَفِرَ بها الحسنُ بن سهل لاتخذ منها لجهاز ابنته على المأمون مَالًا ألِفَ مِثْلُه في زمنه ولا عُهِد، ولو رآه ابنُ طولون لاعْتَضَدَ به في إهداء عقيلته للمعتضد، ومن أواوينَ تُزْري بإيوان كسرى الذي تعظَّم بناؤه وتَحمَّد، ويُسْتَصْغَرُ في عين من رأى إيوانًا واحدًا من هذه، وكيف لا وذاك هُدِمَ في زمن محمد ﷺ وهذا عُمِّرَ لنصرة محمد، وذاك أهْلِكَ بانيه وزُجِرَ، وهذا أيِّدَ بانيه ونُصِر، ومن سَوَاقِ جَوَارِ وجَوَارِ سَوَاق، وآلات تَبْهر عند رؤية حدائقها الأحدَاقَ، ومن عُرُوش وأشجار، ورياض نَضِرَة تَبْهَتُ الأبصار، وقد أخَذَت من كل المحاسن بِشطر، وحَلَتْ مَذَاقًا. وكيف لا وقد سُقِيَتْ بالقطر؟! ومن سَفَائن قد ترفعت حتى مرت في الجوّ من بحر النسيم في لُجَج، ومن عجائب إذا حدَّث المرءُ عنها قيل له: حَدِّث عن البحر ولا حرج، ومن شخوص بالألحاظ تُغَازِل، ودُمًى تسحر العقول بسحر بابل، وصور يُخَيِّلُ للرائي أنها تنطق، وأشكال وضعَت صفة للحرب التي أضْحَت رَايَتُهَا في الآفاق تَخْفِق، ومِنْ هَيبة للعدى التي أبادتها الأبطال، وأعدمت حقيقتها فلم يبق منها إلا مثالٌ يبرز في خيال، ومن جتور[1] ظَهَرَت بها آيةُ مُلْكِه لَمَّا مَرَّتْ بنفسها على رأسِهِ الكريم مر السحاب، وسارتَ بين السماء والأرض فلم تَحْتَجْ مع سعادته إلى عمد ولا إلى أطْنَاب، ومن فُوسان جَمَّلتْ الجيوشَ المنصورة حيث لبسَتْ لأمة حربها، واعْتَقَلَت رِمَاحَهَا وبارَزَتْ الأقْرَانَ فكان النصرُ من حِزْبِهَا.

---

(١) الجتر: وهي المظلّة، وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب، تحمل على رأس السلطان في العيدين، وهي من بقايا الدولة الفاطمية (صبح الأعشى ٢/ ١٤١، ٤/ ٦، ٤٨).

ومن أنواع احتفال يعجز عن وصفها البديع الفطن ولولا خوف الإطالة لقُلْتُ ومِن ومِنْ إلى أن تَنْفدَ كلمةُ ومِنْ.

والأمة يبذلون في خدمته الجُمَلَ والتفاصيل، ويصنعون له ما يريد من النُّزَه، ويعملون ما شاؤوا من تماثيل، والأسَارى قد جُعِلوا بين يديه مقرنين في الأصفاد، يشاهدون مدينةً مَاثَلَت ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر: الآيتان ٧، ٨] وهو ـ خلَّد الله سلْطَانَه ـ يسير الهوينا، وينظر بعين خُبْره هذا المحفل، ويُقْبِلُ، وأسراؤه بين يديه كالليث أقبل للفريسة ينقل، وهم يشكرون حلمه على السلامة من رَيْبِ المنون والأفواه تنطق بشكر الله ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾ [غافر: الآية ٧١] وقد بُهِتُوا لِمَا رأوه من نعم الله التي تنوَّعَت له ـ خلد الله ملكه ـ حتى أتت كلُّ نعمة في وقتها، وعظمت في عيونهم آيات الله سبحانه، ولسان الأقدار يتلو ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرُف: الآية ٤٨] فلما نظروا بالأمس في إنْجَادِ الملائكة للعساكر المنصورة آية كُبْرَى، شاهدوا اليوم من سعادة هذا الملك الذي بنت له الأقدار بين السماء والأرض مدينة فقالوا: هذه آية أخرى، واسْتَقَلُّوا ما مَرُّوا به من المدائن والأمصار، وغَدَوْا وعُيُونُهُمْ في جنة وقلوبهم في نار، واستصغروا مَلِكَهُم المخذولَ ومُلْكَه، وقالوا: غير عجيب لمن أقدم على هذا المَلِكِ أن يُبَددَ جمعه، ويُفْرط سلكه، وتحققوا أنه مَنْ أوتي هذا السعد لا يُؤخِّرُ إن شاء الله إمساكَ كبيرهم وهَلْكَه، ونُودُوا أن شاطروه في السلاسل والقيود، والسيف يقول: ليس الأمرُ لِمَنْ يُسْمَى ـ خديعة ـ محمودًا، محمود وَوَصَل مولانا السلطان تربةَ والده السلطان الشهيد ـ قدس الله روحه ـ وأمراؤُه قد بذلوا في محبته نفائس النفوس، وجزيل الأموال، وأخايرَ الذخائر، وركبوا بالأمس للمناضلة عن دولته في سبيل الله، وقد بلغت القلوب الحناجر، وتَرَجَّلُوا اليوم في خدمته تعظيمًا لشعائر سلطنته، وطلعوا في سماء المعالي كالنجوم الزواهر، وصَعَدَ ـ خلد الله ملكه ـ تربة والده ـ رضي الله عنه ـ وأنوار النصر على أعطاف مجده لائحة، ودَخَلها فلولا خَرْقُ العوائد لنهض من ضريحه وصافحه، وشكر مساعيه التي اتَّصلت بها أعماله، وكيف لا وهي أعمالٌ صالحة، وقصَّ مولانا السلطان ـ خلد الله ملكه ـ عند قبره المبارك من غزوته أحسن القصص، وأسْهَمَ مِنْ بركة جهاده أوفر الحِصَص، فلو استطاع رحمه الله أن ينطق لقال: هذا الولد البار، والملك الذي خَلَفَنِي وزاد في نصرة الإسلام وكسَرَ التَّتار، ولو تَمَكَّنَ رضي الله عنه لأخبره بما وجده من ثواب الجهاد في جنات وعيون، وبشّره بما أعدَّه الله لمن فُقِدَ من المجاهدين في هذه الغزاة المبرورة بين يديه، وتلا عليه ﴿وَلَا

تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٦٩] ولأثْنَى على أمرائه الذين فعلوا من المصابرة والمحافظة ما أوجبه حسن التهذيب منه رحمه الله وجميل التربية، وشَكَرَ عزائمهم التي ما نَادَاهَا أهل مَمْلكَةٍ لِكَشْفِ خطب إلا أجابوهم بمواقع التَّلْبِيَة، واعْتَدَّ بطاعتهم للمَيِّتِ والحيّ، وموالاتهم التي ذاعت في كل نادٍ وَحَيّ، والقُرَّاء حول ضريحه يتلون آيات الله التي كان رضي الله عنه بها عاملًا، ولم يزل رَبْعُ تَقْوَاهُ بها آهِلًا، فشمِلَ مولانا السلطان ـ خلد الله ملكه ـ الأنام بالصدقات المتوفرة، وسمح مِنَ الذهب والفضة بالقَنَاطِير المقنطرة، وازدحمت الأماني على سَيْبِه كما ازدحمت الأعادي على سَيْفِه، فكان كما قيل: [من الرجز]

(قَدَّاح زَنْدِ المَجْدِ لا تنْفَكّ مِنْ نَارِ الوَغَى إلَّا إلى نَار القِرَى)

وركب من التُّربة الشريفة والرعايا يدعون بدوام دولته التي أضحت قواعد الأمن بها متينة، ويرتعون بالمدينة في لَهْوٍ ولعب وزينة.

وسَارَ جواده بين حُلِيّ وحُلَل، فاستوقف الأبصار، في مَسْلَكٍ حَفَّتْ به غُرَفٌ من فوقها غرف مبنيةٌ تجري من تَحتها الأنهار.

وعاد إلى قلعته ظافرًا عودَ الحلي إلى العاطل، وغدت ربوعه الموحشة لبعده بِقُرْبِهِ أوَاهِل، وطَلَعُها في أيمن طالع لا يحتاج معه إلى اختبار ولا رصد، وحلَّت شمس ملكه في برجها وكيف لا وهو في برج الأسد، فالله تعالى يمتع الدنيا بِمَلِكٍ حَمَى شَامًا ومصرًا، وأذاق التتار بعزائمه مصائب تترى. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ولما صَنَّفَ المولى علاء الدين هذه الغزاة، وعُرِضَت على المسامع الشريفة السلطانية شمله الأنعامُ والتشريف السلطاني، وَوَفَّرَ حَظُّهُ من ذلك، وقد سمعت هذه الغزوة من لفظه، ونقلتها من خطه، وقد أتى فيما أورده بالواقعة المشاهدة، وَوَفَّى بقوله: إن الغائب إذا وقف على خبره يكون كَمَنْ شاهده.

وقد وقفت أيضًا على جملة مما صنَّفَه الفضلاء في خبر هذه الغزاة، وهذا الذي أوردته أَتَمُّهَا وأكْمَلُها وأكثرها استيعابًا للواقعة من ابتدائها إلى انتهائها. فلذلك اقتصرت على إيرادها دون ما سواه.

وعَمِلَ أيضًا الشعراء قصائد كثيرة يطول الشرح بإيرادها، وها نحن نذكر منها قصيدة نظمها القاضي الفاضل جمال الدين أبو بكر عبد القاهر ابن الشيخ نجم الدين

أبي عبد الله بن محمد بن عبد الواحد بن محمد التبريزي الشافعي قاضي عجلون وخطيبها وهي: [من البسيط]

اللهُ أكبرُ جاءَ النَّصرُ والظَّفَرُ ... والحمدُ للهِ، هَذَا كُنْتُ أنتظر

وأبرز القَدَرَ المحتومَ بارِئُه ... سبحانه بيديه النفعُ والضررُ

وهوَّن الصَّعْبَ بالفتح المبين لكم ... ربٌّ يَهُون عليه المُقْفَلُ العَسِرُ

ولم تَزَلْ شِرْعةُ الإسلام ظَاهِرَةً ... أجزم به فبهذا صُحِّحَ الخَبَرُ

أين النجوم وتأثير القِران وما ... تَخَرَّصُوا فيهِ من إفْكٍ وما زَجَروا

قد دَبَّرَ اللهُ أمرًا غيرَ أمْرِهُمَ ... وخَابَ ما زَخْرَفُوا فينا ومَا هَجَروا

وأقبلَ العَسْكَرُ المنصورُ يَقْدمُه ... من الملائكِ جُندٌ ليس تنحصر

وقد أحَفُّوا به والأرضُ من زَجَلٍ ... تَرْتَجُّ إن سَبَّحُوا الله أو ذكروا

كنانةُ اللهِ مِصرٌ جُنْدُهَا ثَبَتتْ ... لا ريبَ فيه وجند الله تنتصر

ثَارُوا سِرَاعًا إلى إدْرَاكِ ثَأْرِهُمُ ... وهجُّروا في طِلابَ المجد وابتكروا

وأسهروا أعيُنًا في الله مَا رَقَدَت ... أكرم بقوم إذا نام الورى سَهِروا

لله كم دُيِّنُوا في نصر دينهموا ... وأنفقُوا في سبيل الله ما ادَّخَرُوا

صَانُوا الجِيَادَ وسَنُّوا كُلَّ ذي شَطِبٍ ... وجُدِّدت للقسيِّ النَّبْلُ والوتر

حماهم الله كما حاموا وكم منعوا ... وكم أغاثوا وكم آووا وكم نَصَروا

وخلَّفُوا خَلْفَهُم لذَّاتِ أنفسِهِم ... وهَاجَرُوا ولَذِيذِ العَيْشِ قَدْ هَجَروا

وأوجفوا نفرًا بالخيل ملجمةً ... وبالركاب وما مَلُّوا ولا فَتَرُوا

حتى أتوا جِلَّقًا في يوم ملحمة ... فيه الأسودُ أسودُ الغَابِ تهتصر[1]

لها السَّنابِكُ في المَيْدَانِ قد حُنِيَتْ ... صَوَالجًا ولها روس العِدا أكَرُ[2]

والجوُّ أغبرُ والتَاتَارُ زاحِفَة ... مثل الجراد على الدنيا قد انتشروا

وددت لو كنت بين الصف مُنْجَدِلًا ... قد ارْتَوَتْ من دمى الخطية السُّمُرُ

وكوثر الحرب قَدْ رَاقَتْ مشاربُهُ ... تحتَ العَجَاجَةِ والأبطال تَعْتَكِرُ

---

(١) جلّق: هو الاسم القديم لمدينة دمشق.

(٢) الصوالج: جمع صولج، وهو مضرب تضرب به الكرة، وروس: أي رؤوس خففت لضرورة الوزن. والأكر: جمع أكرة، وهي لغة في الكرة.

والسيفُ يُنْشي بديعًا من فواتره ... والرُمْحُ يَنْظِمُ والهاماتُ تَنْتَثِرُ
والنَّبْلُ يَخُطُّ والأقلام كاتبة ... والضرب يُعْرِب والأبدانُ تَستَطِرُ
حتى إذا عَبَّ مثل البحرِ جَحْفَلُنا ... ومدّ فيضًا على أعدائنا جَزرُوا
أصْلَوهُمْ جَاحِمًا يَشْوِي الوجوه وقد ... حَمِي الوطيسُ ونارُ الحربِ تَسْتَعِرُ
وأحرَقَتْهُم سِرَاعًا كلُّ صَاعِقَةٍ ... من السيوف بِنِيرَانٍ لها شَرَرُ
لاذُوا بشمّ شَماريخِ الجبالِ فما ... حمتهُمُ قلل منها ولا مُغَرُ
ومُزِّقُوا شُرُدًا بين الزحام فكم ... شِلْوٍ تنازع فيه الذئبُ النَّمِرُ[1]
أين المفر وقد حام الحمام بهم ... هَيْهَاتَ لا ملجأ يُرْجَى ولا وَزَرُ
نادَى بِهِمْ صَارِخٌ أغْرَى الفَنَاء بِهم ... فإنْ سألْتَ فلا خُبْرٌ ولا خَبَرُ
كَمْ قَدْ سَهِرْتُم دُجَى مِن خَوْفِهِم حَذرًا ... والآن نَامُوا فلا خَوْفٌ ولا حَذَر
قُولُوا لِغَازَانَ يَاذَا مَا لَعَلَّكَ أن ... تَرُوعَ مِنْ مَخْلَبِ الرِّئبال يا بَقَرُ
تلك الجمُوعُ التي وافى يُدِلُّ بِهَا ... تالله ما بَلَغُوا سُؤْلًا ولا نُصِرُوا
جاؤُوا وَقَدْ حَفَرُوا مِنْ مكْرِهِم قُلُبًا ... ألقاهُمُ اللهُ قَسْرًا في الذي حَفَرُوا[2]
وسكَّرُوا في أراضينا مبادرةً ... والآنَ قد حَصَدُوا أضْعَافَ مَا بَذروا
وَافَى بهم أجلٌ يَمْشِي عَلَى مَهَلٍ ... حَتَّى مَحَاهُم فلا عَيْنٌ ولا أثَرُ
لم ينفروا خيفةً مِن كل قَسْوَرَةٍ ... وفَرَّ جَمعُهُمْ إلَّا وهم حُمُرُ
أموا الفراتَ وقد رَامُوا النجاة فكم ... حَلَّتْ بهم عِبَرٌ فيها ومَا اعتَبَرُوا
مَرَائِرُ القَوْمِ مِن خَوْفٍ قد انْفَطَرت ... والكُلُّ مِنْ قَبْل عيد الفطر قد نحروا
جمِيعُهُم قُتِّلُوا صَبْرًا وأعْظمُهُم ... جميعُها بضواحِي جِلَّق صُبِرُوا[3]
لم يُقْبَرُوا فِي نَواوِيسٍ وَلا جُدُثٍ ... وإنما في بُطُونِ الوَحشِ قد قُبِرُوا[4]
والطير ترعى نهارًا لَحْمَهُم فإذَا ... ما الليل جنَّ ففي أقْحَافِهِم تَكِرُ
فَخُذْ عَزَاءَكَ فِيهِمْ إنَّهُمْ أمَمٌ ... هم اللَّعَاوِس إن قَلُّوا وإن كَثُروا[5]

---

(١) شُرُدٌ: جمع شارد.

(٢) القلب: جمع قليب، وهو البئر.

(٣) قتلوا صبرًا: أي قتلوا وهم مأسورون.

(٤) النواويس: جمع ناووس، وهو التابوت تضع فيه النصارى جثة الميت.

(٥) اللعاوِس: جمع اللعوس، وهو الأكول الحريص، ومنه: قيل للذئب لعوس.

كم كابروا الحِسّ في قصد الشَّام وَكَمْ قد جَرَّبوا حَظَّهم بالشام واخْتَبَروا
فَقَاتِلُوهُم جَمِيعًا إنَّهُمْ تَتَرٌ كَمْ أرسَلُوا رُسْلَهُم تَتْرَى وكَمْ مَكَرُوا
هُبُّوا إلى سِيسَ مِنْ أحْلَامِ رَقْدَتِكُم وسَارِعُوا في طِلَابِ الثَّأرِ وَابتَدِروا
بِكُلِّ غَيْرَانَ أخْذُ الرُّوحِ هِمَّتُهُ في غير نفس المُرَدَّى مَالَهُ وَطَرُ
أيَرْقُدُ اللَّيلُ في أمْنٍ وَفي دعَةٍ عَنْ كَيْدِ قَوْمٍ لَهُم فِي شَأنِكُم سَهَرُ
إنْ تَتْرُكُوهُم فإنّ القومَ ما تركوا يومًا عليكم ولا أبْقَوْا ولم يذَروا
أمَا رَأيْتُم وَعَايَنْتُم وقد فَعَلُوا في الصَّالِحِيَّةِ ما لا تَفْعَلِ التَّتَر
اشفوا صُدُوركُم إن كُنْتُمْ غُيُرًا عَلَى نِسائِكُمْ يا قَوْمُ وَادَّكِرُوا[1]
كَمْ مِنْ عَجُوزٍ وَمِن شيخ ومُكْتَهِلٍ ومن فتاةٍ نَمَاهَا الحُسْنُ والخَفَرُ
بَيضَاءَ خُرْعُوبَةٍ بِكْرٍ مُحَجَّبَةٍ لا الشمْسُ تَنْظُرُها صَوْنًا ولا القَمَرُ[2]
وذاتِ بَعْلٍ مُخَبَّاةٍ مُخَدَّرَةٍ مِنْ دُونِها تُضْرَبُ الأستار قَدْ أسِرُوا
ومُطْفِلٍ أثْكَلُوا وَجْدًا بمخولها وحَامِلٍ أجْهِضَت خوفًا وقد ذُكِرُوا
ومَرْبَعٍ أقْفَروا مِنْ بَعْدِ سَاكِنِهِ وعِقْدِ شَمْلٍ نَظِيم جَامِعٍ نَثَرُوا
وكَمْ أرَاقُوا وكَمْ سَاقُوا وكَمْ هَتَكُوا وكم تَمَلَّوْا بِمَا نَالُوا وكَمْ فَجَرُوا
وَحَرَّقُوا فِي نَوَاحِيها فَوَا حَرَبًا وَخَرَّبُوا الشَامِخَ العَالِي وكَمْ دَثَرُوا
وجامعُ التَوْبَةِ المَحْرُوقُ مَهْجَتُهُ يُشِيرُ لا تَوْبَةٌ لِلقومِ إنْ ظَفِرُوا
إشَارَةٌ تَتْرُكُ الأنْفَاسَ صَاعِدَةً لها الدُّمُوعُ مِنَ الآمَاقِ تَنْحَدِرُ
لَهُمْ حزَازَاتٌ في قَلْبي مُخَبَّأَةٌ تَكَادُ مِنْ حَرِّهَا الأكْبَادُ تَنْفَطِرُ
فما يُثَبِّطُكُمْ عَنْ أخْذِ ثأرِكُمُ هُبُّوا سِرَاعًا وخَافُوا اللَّوْمَ يا غُيَرُ
وَقُوهُمُ الحربَ إنْصَافًا ومَعْدَلَةً وَحَرِّرُوا نُوَبَ الأيَّامِ وَاعْتَبِرُوا
لا يَظْلِمَنْ بعضُكُمْ بَعْضًا بِخَرْدَلَةٍ ولا يَدَعْ عِنْدَه حَقًّا ولا يَذَرُ
وسَارِعُوا واقْتُلُوهُم إنَّهُمْ قَتَلُوا وبَادِرُوا وَأسِرُوهُمْ مِثْلَمَا أسَرُوا
جُوسُوا ديارهم واسبُوا حَرِيمَهُمُ وَأوْقِرُوا ضِعْفَ ما أوْعَوْا وما وَقَرُوا

---

(١) ادَّكَر: أي تذكّر واتّعظ.

(٢) الخرعوبة: الشابة الحسنة الخلق، البيضاء الجسيمة.

سَجلًا بِسَجْلٍ فإنَّ الدَّهرَ ذُو نُوَبٍ ... مَنْ ذَا يُغَالِبُ مَا يَأْتِي بِهِ القَدَرُ(١)

بُزُّوهُمُ الملكَ قَهْرًا عَنْ جِوَارِكُمُ ... وخَرَّبُوا كُلَّ ما شَادُوا ومَا عَمَرُوا(٢)

فما يفكر في أدْبَارِ عَاقِبَةٍ ... ويَحْزِمُ الأَمْرَ إلَّا مَنْ لَهُ نَظَرُ

ولَا يَعَافُ شَرَابَ الذُّلِّ عَنْ ظَمَأٍ ... ويُومِقُ العِزَّ إلَّا مَنْ لَهُ خَطَرُ(٣)

فَمَهِّدُوا بالظُّبَا مَجْرَى سَوَابِقِكُم ... ما يَرْفَعُ الذِّكْرَ إلا الصَّارِمُ الذكرُ

وخَلِّدُوا في المعالي ما نُعَنْعِنُه ... عَنْكُمْ وَتُرْوَى بِهِ الأَخْبَارُ والسِّيَرُ(٤)

فَكُلُّ ذنبٍ جَنَاهُ الدهرُ مُعْتَمِدًا ... في جَنْبِ ما أَبْقَتِ الأَيَّامُ مُغْتَفَرُ

يا أَهْلَ جِلَّقَ أَمْنًا في مَسَاكِنِكُم ... وعَامِلُوا الله ربَّ العرشِ وانْزَجِرُوا

صُومُوا وَصَلُّوا وَزَكُّوا وَارْحَمُوا وَصِلُوا ... وابْغُوا النَّجَاةَ وَحِجُّوا البَيْتَ وَاعْتَمِرُوا

ذَرُوا التَّكَاثُرَ فالدُّنيَا لِمَنْ زُوِيت ... فِي جَنْبِ مَا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ تُحتَقَرُ

فالوقْتُ أقرَبُ والأنفاسُ سَائرةٌ ... والعُمْرُ منصرِمٌ والمرءُ محتضِرُ

ولا تخافُوا مِنَ التَاتَارِ مَجْلَبَةً ... مِنْ بَعْدِ ما ارتَفَعَ التَّدْلِيسُ والغَرر(٥)

لم يطلبوا جِلَّقًا بَغْيًا بِظُلْمِهِمُ ... إلا وَرُدُّوا على الأعقاب وَانْكَسَرُوا

حَاشَا دِمَشق من الأسواءِ تَطرُقُها ... أَوْ أَنْ تُغَيِّرهَا عَنْ وَصْفِهَا الغِيَرُ

ملائِكُ اللهِ تَحْمِيهَا وتَحْرُسُهَا ... تعاقُبًا وَلَهَا مِن رَبِّهَا خَفَرُ

وفِي جِوَارِ خَلِيلِ اللهِ مَا بَرِحَت ... وحَضرَةُ القُدْسِ قُلْ لِي: كَيف تُحْتَقَرُ

باللهِ عَدْوِي عَلَى مَنْ رَامهَا بَأَذَى ... وبالخَلِيفَةِ والسلطانِ أَنْتَصِرُ

همَا ملاذُكُمُ في كُلِّ نائبةٍ ... بالرُّوحِ أفديهما والسمع والبصر

إذَا تَأمَّلْتَ فَحوى سِر حُكْمِهِما ... لم تدر أيُّهما في عَدْلِهِ عُمَرُ

ولو رأيتَهُمَا يومًا لَخَالَكَ أن ... موسَى بنُ عِمْرَان قد وافاك والخِضرُ

هما رضيعا لبانِ عفَّةٍ وتقى ... وحسنِ ذكرٍ شَذَاهُ فَائِحٌ عَطِرُ

---

(١) سجلًا بسجلٍ: أي نصيبًا بنصيب، ومنه قولهم: الحرب سجال.

(٢) بزّه: غلبه.

(٣) يومق: يرغب، يحب، يودّ.

(٤) عنعن الرواية: أي قال في روايته: عن فلان، عن فلان، عن فلان.

(٥) دلّس البائع: كتم عيب السلعة عن المشتري، ودلّس المحدّث في الإسناد: أي روى عمن عاصره ما لم يسمع منه موهمًا سماعه، أو سمّى شيخه بما لا يعرف به. والغرر: المخادعة.

فَـذَا مَـلِيـكٌ لـكَـمْ طـابـتْ أَرُومَـتـه ... وَذَا أمـيـرٌ بـأمـرِ اللهِ يَـأتَـمِـرُ
أبـو الـربـيـعِ سُلَيْمـانُ الـذي شـهِـدَتْ ... بِفَضْلِهِ الْمُسْتَفَاضِ البَدْوُ والحَضَرُ
وزمـزمٌ والـصَّـفَـا والـمـأزمَـانِ مَـعًـا ... والبيتُ يعرفه والحِجْرُ والحَجَرُ[1]
خـلِيـفَـةُ اللهِ فـي الـدنـيـا وطَـاعَـتُـه ... فَرْضٌ عليكم وهذا القولُ مُخْتَصَرُ
مَـا زَالَ مُـسْـتَـكْـفِـيًـا بـاللهِ مُـعْـتَـصِـمًـا ... مَسْتَنْصِرًا مُسْتَعِينًا وَهْوَ مُنْتَصِرُ
لـولاهُ فـي الأرضِ قَدْ مَادَتْ جَوَانِبُهَا ... ومَـا سَـقَـاهَـا إذَا غَـيْـثٌ ولا مَـطَـرُ
خـلـيـفـةٌ مـن بـنـي الـعـبـاس بـاقِـيـةٌ ... بـه إلـى الله نَـسْـتَـسْـقِـي فَـنُـمْـتَـطـرُ
ضاهت يداه عهاد الغيث فانهملت ... والـغـيـثُ مـندفقُ الشؤبُوبِ مُنْهَمِر
لـو مَـسَّ عُـودًا يـبـيـسًـا بَـطْـنُ رَاحـتـهِ ... أعـاده وَهْـوَ رطـب يَـانِـع خَـضِـرُ
مـاذَا أقـولُ بِـمَـدْحـيـهِ وَقـد تُـلِـيَـتْ ... فـي مَـدْحِ آبـائـه الآيـاتُ والـسُّـوَرُ
جـاءَتِ بِـنَـعْـتِـهِـمُ الـتـوراةُ مُـعْـرِبَـةً ... ومـحـكـمُ الـذِّكْـرِ والإنـجـيـلُ والزُّبُـرُ
بـه إلـى الله ضِـجُّـوا فـي حَـوَائـجِـكُـم ... وبَـعْـدَهُ بـالـمـلـيـكِ الـنـاصِـرِ انـتَـصِـرُوا
مَـلْك أُعِـيـدَ بـه عـصـرُ الـشَّـبـابِ لـكُـمْ ... مُسْتَرْغَدًا صَافيًا واسْتُؤنِفَ العُمرُ
تـرى الـمـلـوكَ صـفـوفًـا حَـوْلـه زُمَـرًا ... مِـنْ فَـرْطِ هَـيْـبَـتِـهِ لا يـرجـع الـبَـصَـرُ
تَـذِلّ أعـنـاقُـهـم صَـغْـرَى لِـطَـاعَـتِـهِ ... وَلَـيْـس يَـغْـضُـونَـه أمْـرًا إذا أُمِـرُوا
صُونوا جيَادَكُمُ اللّاتِي بكم لجبت ... في بَارِقِ الحَرْبِ والرمضاءُ تَسْتَعِرُ
إنَّـا لـنـرْجُـوه مِـنْ بـغْـدَادَ يُـنْـهِـلُـهَـا ... بـمـاءِ دِجْـلـةَ يَـرْوِيـهَـا فَـتَـضْـطَـرِدُ
ويَجْمَعُ الشمل في دارِ السَّلَامِ بِمنْ ... يَـوَدُّهـا ويـؤدون الـذي نَـذَرُوا
يَـؤُمُّـهَـا وإمـامُ الـمُـسْـلِـمِـيـن مَـعًـا ... ثِـقُـوا بِـقَـوْلِـي فَـهَـذا مِـنْـهُ مُـنْـتَـظَـرُ
فـالـشـامُ وَافَـاهُ مـعْ بَـغْـدَاد فِـي قَـرنٍ ... وَمِصْـرُ فِـي مُـلْـكِـهِ والـبَـرُّ والـبَـحَـرُ
والعُرْبُ والعُجْمُ فِي مَيْمُونِ قَبْضَتِهِ ... ومن سُطيَ بَأسِهِ قد حَارَت التتر
تنشَّروا في الفلا سُودَ الوُجُوه وقد ... طَـوَى بـأبْـيَـضِـه الـبَـتَّـارِ مـا نَـشَـروا
فَـدَامَ لـلـدِّيـن والـدنـيـا يَـسُـوسُـهُـمـا ... فَـكُـنَّ فـيـه لـه حِـرْزٌ ومـسـتَـتَـر
وعُـمْـرُهُ الـجَـمُّ أعْـيَـادٌ مُـجَـدَّدَةٌ ... وأشْـهُـرٌ بِـعَـزِيـزِ الـنـصـرِ تَـشْـتَـهِـرُ

---

(١) المأزمان: مضيق بين جمعٍ وعرفة، وآخر بين مكة ومنى.

عَـلَى الـدَّوَام وَلَا زَالَتْ مَـدَائـحـهُ تُـفْشَـى وغُـرُّ الـقـوافـي فـيه تُـبْـتَـكَـرُ
وافَـاكُـمُ بِـعَـزِيـزِ الـنَّـصْـرِ فـي نَـفَـرٍ وَقَـاهُـمُ اللهُ مَـا أَوْفَـاهُـمُ نَـفَـرُ
قـد أَيْـقَـنُـوا أنـهـم جَـادُوا بـأنْـفُـسِـهِـم مِن أَجْلِ ذَا ظَهَرَ الإسلامُ مُذْ ظَهَرُوا
كـم فَـرَّجُـوا مَـأْزَقًـا ضَـنْـكًـا بِـمُـعْـتَـرَكٍ وَكَابَدُوا فِي مَجَالِ المَوْتِ واصْطَبَروا
فَـبَـيَّـضَ اللهُ مـنـهـم أَوْجُـهًـا كَـرُمَـتْ فإنَّـهـمُ بِـالأَيَادِي الـبِـيضِ قـد غَـمَـرُوا
وحـاطـهـم أيـن مـا كَـانُـوا ولا بَـرِحُـوا فـي ذمَّـةِ اللهِ إنْ غَـابُـوا وإنْ حَـضَـروا

هذا ما كان من خبر هذه الغزوة المباركة ونبذة مما قيل فيها، فلنرجع إلى سياق حوادث سنة اثنتين وما وقع فيها خلاف ما قدمناه. وفي سنة اثنتين وسبعمائة صام الحَنَابلة من أول شهر رمضان على عادتهم في الاحتياط، واستكمل الشافعية والمالكية عدَّة شعبان، فلما مضى ثلاثون يومًا من صوم الحنابلة لَمْ يُرَ الهلال فَأفطَروا تكملةً للعِدَّةِ من يَوْم صِيَامِهِم، وأقامُوا الخُطْبَة، وصَلَّوا صلاة العيد، وصام مَنْ عَدَاهُم مِنَ الشَّافعية وغيرَهم ذلك اليوم الذي عَيَّدَ فيه الحنابلة وعَيَّدُوا في اليوم الثاني. وأقاموا الخُطْبَة، فَحَصَلَ الإنكار الشديدُ مِنْ نائب السَّلْطَنَة في الشام على مُتَوَلِّي نَابُلس، وهو يومَئِذٍ: بَدْرُ الدين الصَّوَابي؛ كَوْنَه مَكَّن مِنْ ذلك ولم يجمع الناسَ على يوم واحد، ولم يُسْمَع بمثل هذه الوقائع في بلَدٍ واحِد. وأما البلاد المتباعدة فقد تختلف مطالعها.

ومِنْ غريبِ مَا وَقَعَ فِي شهر رمضان ما حَكَاهُ ناصرُ الدين محمد بن عليا بن محمود بن سليمة الأغرناطي: أنّ أَهْلَ أَغِرْنَاطة[١] صَامُوا فِي بعض السنين شهرَ رَمَضَان ستة وعشرين يومًا. وذلك أنّ الغيُومَ تراكَمَتْ عِنْدَهُم عِدَّةَ شُهُور قبل شهر رمضان. فاستكملوا عدتها وصاموا شهر رمضان بعد استكمال شعبان وما قبله. ومن عادة أَغِرْنَاطة أنَّ أهلها يحتفلون في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان، يوقدون المآذن كما تفعل أهل مصر والشام في نصف شعبان، فلما صعدوا ليوقدوا المآذن ـ على عادتهم ـ أقلعت الغيوم فرأوْا الهلالَ وهو هلال شوال؛ فأَفْطَرَ النَّاسُ وعَيَّدَوا، وقَضوا صيامَ أربعة أيام، وهذا أيضًا غريب.

ومن غريب الاتفاق في رؤية الهلال أن الناس بدمشق طلعوا إلى المئذنة لارتقاب هلال رمضان، والحَاكِمُ يومئذٍ بالشام قاضي القضاة شهابُ الدين الحموي،

---

(١) أغرناطة: هي غرناطة بالأندلس.

وكانت الغيوم قد عَمَّت السماء، فطلع الناسُ للعادة مع تحقيقهم أنهم لا يرون شيئًا، فاتفق عند ارتقابهم مطلعَ الهلال انفراجُ دائرة من الغيم ظهر من تحتها الهلال، فلما عاينه الناس التأمَ الغيمُ لوقته، وصام الناس عن رؤية ويقين، وما عَلِمْتُ كانَ هذا في أي سنةٍ وإنما نقله لي ثقة أرجع إلى نقله.

ذكر حدوث الزلزلة

وفي يوم الخميس الثالث والعشرين من ذي الحجة سنة اثنتين وسبعمائة عند طلوع الشمس، حدثت زلزلة عظيمة بالقاهرة ومصر وأعمال الديار المصرية كلها، ودمشق والشام أجمع والسّواحل والجبال الشامية، وكان مُعْظَمُها بالديار المصرية، فهدَمَت منائر كثيرة، منها: منائر الجامع الحاكمي وشعَّثته، وهَدَمَت بَعْضَ جُدْرَانه، وتشقَّقَتْ مئذنة المدرسة المنصورية على عِظَمِهَا، وإتْقَانِ بنائِهَا، حتى دعت الضرورة إلى هَدْمها وإعادتها، وهدمت منارة الجامع الظافري بالقاهرة ومنارة الجامع الصالحي وغير ذلك، وشعثتْ جُدُرُ جامع عمرو بن العاص بمصر، وانْهَدَم بسببها كثير من العمائر، وأقامت مقدار مِضي خمس دَرَج، وكانت مزعجة، وأثَّرت بالإسْكَنْدَرية أثرًا عظيمًا هدمت أَكْثَر المنارات وبعض الأسواق وغرق جماعة كثيرة عند مده وعوده وعدم قماش التجار وجزر البحر الملح حال الزلزلة، وانطرد عن مكانه. ثم مَدّ حتى دخل الصناعة، ووصل إلى الأسوار الذي كان عند القصارين بجملته، وأثّرت هذه الزلزلة بصَفَد أثرًا عظيمًا، وسقط جانب من قلعتها، وانطرد البحر بِعَكَّا حتى انكشف ما بين عكّا وبُرْج الذُّبَّان الذي بالبحر ومسافته بعيدة، وظهر أنه كان بساحلها أشياء مما ألقاه أهل عكّا في البحر لما حاصرها المسلمون، فتبادر من كان هناك بالنزول لأخْذ مَا ظَهر لهم، فجاء الماء أمثال الجبال فغرقوا، وَوَصَل في مدّه إلى قرب تل الفضول، وخربت دمنهور الوحش - وهذه مدينةُ أعمالِ البحيرة - خرابًا شنيعًا؛ وأَبْيَارًا، وغير ذلك من البلاد، ولَعِظَم هذه الزلزلة بالديار المصرية أرَّخ كثير من العَوامّ بها فهم يذكرونها إلى وقتنا هذا.

ولمَّا أثَّرت هذه الزلزلة بالجوامع ما أثرت، اهْتَمّ الأمراء بالديار المصريةِ بها، فعمَّر الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة ما تَشَعَّثَ بجامع عمرو بن العاص بمصر، وعمّر ركن الدين بِيبَرْس الجَاشنكِير أستاذ الدار، جامع الحاكم بالقاهرة، وجدد مآذنه وسقوفه، وبَيَّضَه وبلَّطه، وأصلحه إصلاحًا جَيِّدًا حتى عاد أحسن مما كان، ووقف عليه أوقافًا متوفرة، ورتَّب فيه من الدروس ووجوه البِرّ والخير ما نذكره إن شاء الله تعالى في سنة ثلاث وسبعمائة.

وأعيدت المئذنة المنصورية مِنْ مال الوقف ليصرفه، وصرف في عمارتها في نِصْفِها الذي هُدم وهو من سطح القُبَّة إلى انتهائها ما عدا ما يقارب تسعين ألف درهم، خارجًا عمّا استعمل من أحجارِها المنقوضة منها، وعن تَفاوُتِ أجر الأسرى وما حمل على ذوات مرمات الوقف.

وندب لعمارتها الأمير سيف الدين كهرداش الناصري، وعادت أحسن ما كانت، وعمَّر ما تَشَعَّث من الجامع الأمير شمس الدين سُنْقُر الأعسر، وعمّر الجامع الصّالحي الذي هو خارج باب زويلة، والجامع الظافري من الأبواب السلطانية، وعمرت سائر الأماكن والمساجد التي تهدمت بالقاهرة ومصر حتى عادت أحسن مما كانت والحمد لله وحده.

وفي هذه السنة تُوفِّي فارس الدين ألبكي الساقي المنصوري(١)، نائبُ السّلْطَنة بحمص، في يوم الثلاثاء ثامن ذي القعدة بها، وفُوِّضت نيابةُ السّلْطَنة بحمص بعده إلى الأمير عز الدين أَيْبَك الحموي الظاهري نقل إليها من صرْخَد.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين سنقر العين تابي أحد الأمراء الأكابر مقدمي الألوف بدمشق في ليلة الجمعة ثامن عشر ذي القعدة، ودفن بسفح قاسيون رحمه الله، وتوُفِّي بدَمشق الشيخ الفاضل كمال الدين أبو العباس أحمد بن أبي الفتح محمود الشَّيْبَاني المعروف بابن العطار(٢)، أحد أعيان كُتّاب الدَّرْج بدمشق، وكانت وفاته في ليلة الأربعاء الثالث والعشرين من ذي القعدة، وصُلِّيَ عليه بالجامع، الرابعةَ من النهار، ودُفن بتربته بقاسيون، وكان رحمه الله تعالى فاضلًا دَيِّنًا خيِّرًا، سمع الكثير من الحديث النبوي، وله نظم ونثر.

ذكر وفاة الأمير زين الدين كتبغا المنصوري وهو الملك العادل(٣)

كانت وفاته يوم الجمعة رحمه الله تعالى وهو يوم عيد الأضحى من سنة اثنتين وسبعمائة بحماه، ونُقل منها ودُفِن بتُربته بجبل الصالحية بدمشق، وقد قدّمنا من أخباره

(١) فارس الدين البكي الساقي المنصوري: انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/٩٦، الدرر الكامنة ١/٤٣٢، الوافي بالوفيات ٩/٣٥١.

(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/٢٠٣، البداية والنهاية ١٤/٢٧، الوافي بالوفيات ٨/١٦٧.

(٣) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/٥، النجوم الزاهرة ٨/٥٥ ـ ٧٠، الدرر الكامنة ٣/٣٤٨، البداية والنهاية ١٤/٢٧.

وتنقلاته وتقلب الأيام به من الأسر في حال شبيبته والمبيع، ثم الإمرة ونيابة السلطنة، ثم السَّلطَنَةُ والخَلْعُ، والإمرة والنِّيابة عن السَّلْطَنة بحماه ما يُسْتَغْنَى عن إعادته.

ولمّا مات فُوِّضَت نيابَةُ السَّلطنَة بحماه بعده إلى الأمير سيف الدين قَبْجَاق المنصوري، نقل إليها من نيابة الشوبك والله أعلم.

واستهلت سنة ثلاث وسبعمائة.

ذكر الجلوس بالمدرسة الناصرية والقبة وأوقاف ذلك وشروطه

في هذه السنة في أوّلها فتحت المدرسةُ المبَاركة النّاصرية، والقُبّة الشريفة، وانتصب المدرسون والفقهاء بالمدرسة، والقراءُ بالقبّة، وجلس شيْخُ الحديث بِرَواق القُبة ـ وفوّضَ التدريس بالمدرسة لمن نذكرهم، وهم: قاضي القضاة زين الدين علي المالكي[(١)]، والطائفة المالكية جلسوا في الإيوان القبلي بالمدرسة بمقتضى شرط الواقف لهم، وقاضي القضاة شمس الدّين أحمد السروجي الحنفي[(٢)]، والطائفة الحنفية جلسوا في الإيوان الغربي، وقاضي القضاة شرف الدين عبد الغني الحراني الحنبلي[(٣)]، والطائفةُ الحنابلةُ بالإيوان الشرقي وكان جلوسهما بهذين الإيوانَيْن بخلاف شرط الواقف، فإنه جعل الإيوان الشرقي للحنفية، والإيوان الغربي للحنابلة، فجلسا على عكس الشرط، ولعل ذلك عن غير قصد، ثم انتقض ذلك على ما نذكره.

وجلست كل طائفة منها في المكان المعيَّن لها بشرط الواقف، وجلس القاضي صدر الدّين محَمّد ابن الشيخ زين الدين المعروف بابن المرحّل[(٤)]، والطائفة الشّافعية

---

(١) زين الدين علي المالكي: هو زين الدين علي بن مخلوف بن ناهض النويري، توفي سنة ٧١٣ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٤٩، حسن المحاضرة ١/ ٤٥٨، الدرر الكامنة ٣/ ٢٠٢).

(٢) شمس الدين أحمد السروجي الحنفي: هو أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني الحنفي، توفي سنة ٧١٠ هـ (انظر ترجمته في: الدليل الشافي ١/ ٢٣٤، الدرر الكامنة ١/ ٩١، البداية والنهاية ١٤/ ٦٠).

(٣) شرف الدين عبد الغني الحراني الحنبلي: هو عبد الغني بن يحيىٰ بن محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن نصر بن محمد بن أبي بكر الحراني الحنبلي، توفي سنة ٧٠٩ هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٢٧٨، حسن المحاضرة ٦/ ٤٨١، الدرر الكامنة ٢/ ٤٩٨، البداية والنهاية ١٤/ ٥٦).

(٤) ابن المرحل: هو صدر الدين محمد بن زين الدين عمر بن مكي بن عبد الصمد بن عطية بن=

بالإيوان البحري، وحضر دَرْسَه الأمير عز الدين أَيْبَك البَغْدادي وزير الدَّوْلة ومُدَبِّرها.

وهذه المدرسة والقبة كان أنشأهما الملك العادل زين الدين كَتْبُغَا المنصوري في أيام سَلْطَنَته، واشترى أرضهما، وكانت دارًا تعرف بالرشيدي، وحَمَّامًا ومَسَاكِن، فابتاع ذلك وهدمه، وأنشأ قبَّةً ومدرسة. وكملت عمارة القبة، وبُني من المدرسة إيوانُها القبليُّ وبعضُ ما يليه، ثم خُلِعَ الملكُ العادل من السلطنة ـ كما تقدم ـ فغُلِّقت المدرسة وبطلت عمارتها، فلما عاد السلطان الملكُ النّاصر إلى السلطنة ثانيًا في سنة ثمان وتسعين وستمائة. حسَّنَ له قاضي القضاة زين الدين المالكي ابتياعها وتكْملةِ عمَارتها وإتقانها، فابتاعها وعوّض الملك العادل، عن ثمنها حِصَصًا من ضِيَاعٍ من أملاكه بدمشق، وحصل الشروعُ في عمارتها، وعُيِّنَ لها مِنَ الأملاك السلطانيَّة ما يوقَّف عليها، وكان المعيَّن لذلك قاضي القضاة زين الدين المالكي، وهو يومئذٍ ناظر الأملاك السلطانية التي وَرِثَهَا السلطانُ عن والده وإخوته، والمبتاعة مِنْ أجْرِ أملاكه، وكانت أجْرَتُها في كل شهر بالقاهرة وظواهرها خاصة تَزِيدُ عَلَى ثمانية عشر ألف درهم.

ولما عزم السلطان على الحركة إلى الشام للقاء غازان وحزبه عند طروقه الشام وَقَفَ القُبّة والمدرسة، ووَقَفَ على مصالحهما من أملاكه ما يذكر، وذلك في الثاني والعشرين مِنْ ذي الحجة سنة ثمان وتسعين وستمائة قبل اسْتقلال ركابه الشريف إلى الشام بيومين، وكان قاضي القضاة زين الدين قد رتَّبَ كتاب وَقْف، جعل النظر فيه على الوقف، والمدرسة والقُبَّة لنفسه أيام حياته، ثم مِنْ بَعْدِه للأرْشَدِ فالأرْشَدِ من أولادِه وأولادِهم وذُريّتهِم، ثم مِنْ بعْدِهم لِقَاضِي القُضَاة المالكي، وشَرَط أيْضًا التدريس في إيوان المالكية لنفسه ولأولاده مِنْ بعده، وكتبَ الكتابَ ووقَعَ الإشْهَاد على السلطان فيه بذلك، فضاق شِهَابُ الدين أحمد بن عُبَادَة من ذلك، وكان قاضي القضاة زين الدين قد استخدمَه مشارفًا بالديوان الناصري، وتقدم عند السلطان،

= أحمد الأموي المصري الشافعي، المعروف بابن المرحل، وابن الوكيل، ولد بدمياط سنة ٦٦٧ هـ، وتوفي بالقاهرة سنة ٧١٦ هـ، له من المصنفات: «الأشباه والنظائر»، «شرح أحكام الصغرى» لابن الخراط الإشبيلي في الحديث، «طراز الراز» في ديوان شعره، «الفرق بين الملك والنبيّ والشهيد والولي» (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٦/ ١٤٣، الوافي بالوفيات ٤/ ٢٦٤، وفيات الأعيان ٤/ ١٣، الدرر الكامنة ٤/ ٢٣٤، البداية والنهاية ١٤/ ٨٠، طبقات الشافعية للسبكي ٩/ ٥٣، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٣٣، الدليل الشافي ٢/ ٦٦٨، حسن المحاضرة ١/ ٤١٩).

وأوضح للسلطان أَمْرَ الوقف وبَيَّنَهُ له، وقال: إن قَاضِي القضاةِ إنّمَا جَعَلَ هذَا لنفسهِ ولأولادِهِ وذُرِّيَته ولم يجعل للسلطان ولا لِعُتَقَائِه في ذلك شيئًا، وحسَّنَ للسلطان تغيير كتاب الوقف، وأن يجعل النظر فيه لعتيقِه الطواشي شجاع الدينِ عَنبر اللَّالا ومن بعده للأمثل فالأمثل مِنْ عُتَقَاءِ الواقف، ثم عتقاء وَالِدِهِ؛ ففعل ذلك، وجَعَلَ له أن يتناول من ريع الوقف المذكور في كل شهر ثلاثمائة درهم نقرة[1] مدة حياته. وجعل لمن يَؤول النظر إليه بعده في كل شهر مائتي درهم، وأبطل الكتاب الأوّل وثَبّتَ الكتاب الثاني.

وسألت شهابُ الدين بن عُبَادة عن السبب الحامل له على إخراج النظر عن قاضي القضاة ونقله إلى غَيره. فقال: إنه جعل النّظَر والتّدريس لنفسه ولأولاده من بعده، وما جعل لي منه نصيبًا، ولا ذكر لي وظيفة، وكنت طلبت منه أن يجعلني مشارفًا بشرط الواقف فشَحَّ عليّ بذلك، فأخرجت النّظر عنه وعن ذُرِّيته.

وقد رأيت أن أذكر مُلَخَّصَ ما تَضَمّنه كتابُ وَقْفِ القُبّة والمدرسة، وما رتب فيهما فيه من أرباب الوظائف، وما شرط لهم من المعلوم، وما شرط عليهم، والجهات الموقوفة على ذلك، وما يتحصل من أجورها في كل شهر وألخص المقاصد فيه مع عدم الإخلال بها، ولا أحذف منها إلّا حشو الكتاب الذي لا يُخِل حذفَه بالمعنى، وأورِد ذلك بمقتضى كتاب الوقف وارتفاع الجهات الموقوفة بمقتضى حساب المباشرين، والذي حملني على ذلك وأوجب لي إيراده في هذا الكتاب مع ما فيه من الإطالة والخروج عن القاعدة التاريخية ما وقع في مثل ذلك من إخفاء كتب الأوقاف إذا تطاول عليها المدد، وبَعُدَ العَهْدُ بالأوقاف والشروط، وتداولها النُّظَّارُ والمباشرون واستولوا على الأوقاف وغَيَّرُوا المصارف عن شروط الواقفين، ونسبوها إلى العادة، فيخرج عن شرط الواقف إلى رأي المباشرين، وعادة الصرف. ثم بعثني على ذلك وأكَّدَه عندي ما وقع في هذه المدرسة المباركة في ابتداء أمرها مع بقاء واقفها - خلد الله سلطانه - وتوفر الداعي على ملاحظتها، ونصب قضاة القضاة وأعيان العلماء ونبلاء الفقهاء في دروسها، ومع ذلك كلّه حصل الخروج فيها عن شرط واقفها في كثير من أحوالها، واخْتُصِرَ المرتب عن شرط الواقف مع توفّر المال وزيادته عن كفاية الشروط، وإنما ظهر ذلك عند وفاة ناظرها الطواشي شجاع

---

(١) درهم النقرة: هو الدرهم التي كانت تغلب فيه نسبة الفضة على النحاس (مصطلحات صبح الأعشى ص ١٣٤).

الدين في سَنَةِ أربعٍ وعشرين وسبعمائة، وظهور كتاب الوقف، ولَعَلَّ الناظر المذكور لم يفعل ذلك عن علم واطلاع على الشروط، وإنما فعَلَه عن إغفالٍ وإهمال وجهل وعدم احتفالٍ بإمعان النظر فيما أسند إليه، واعتمد فيه عليه، فلما أسْنِدَ النّظرُ إلى أهله، وانتهى إلى من يتحرّى الصّوَابَ في قوله وفعله، أجرى الأمورَ فيها على شَرْطِ واقفها، وصَرْفِ أمْوَالِها في وجوه مصارفها، وما عدل عن شرط الواقف ولا خرج، ولا اعتمد ما يترتب عليه فيه أدنى حرج، والذي تضمنه كتاب الوقف الثاني الصادر عن مولانا السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين أبي المعالي محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحي ـ خلد الله تعالى سلطانه، وأفاض على الكافة عدلَه وإحسانه ـ أنه وقف جميع المكان أرضًا وبناءً، وما هو من حقوقه، والساحة التي هي أمام المكان المذكور التي هي من حقوقه، وذلك بعد أن كملت عمارة القبة، وقبل أن تكمل عمارة المدرسة، وشرط تكملة عمارتها وإنشاء المئذنة، فقال بعد الوصف لها والتحديد ما معناه بعد ذكر ألفاظه وتحرير مقاصده.

أما القبّة فإنه وقفها للقرّاء بها، وشيخ الحديث والإمام والمؤذنين والقَوَمَة والفراشين والخُدَّام والمترددين والمجتازين لها للصلوات وأداء الفرائض والواجبات، وسماع القرآن العظيم وحديث النبي ﷺ خلا مَوْضِع الضَّرِيح الذي بِوَسَطِ القبة فإنّه مُرْصَدٌ للدَّفن، وخَلّى بينهم وبين القُبَّةِ المذكورة، وأذِنَ لهم في الدخولِ إليها والصلاة فيها على العادة في مثل ذلك، فصَار لا حَقَّ له فيها إلا كسائر الناس أجمعين، وجعل للناظر أنْ يُرَتِّب بالقبة المذكورة إمامًا يؤمّ بالمسلمين في الصلوات الخمس، ويفعل ما يفعله الأئمة على ما يراه الناظر من المذاهب، ويؤدي إليه اجتهاده، ويصرف له في كل شهر ـ بالهلال ـ ثمانين درهمًا أو ما يقوم مقامها، ويُرَتِّب فيها شيخًا لإقْراء الحديث النّبوي ينتصب في المكان الذي يُعَيِّنه الناظر منها في الوقت الذي يجعله له لمن يقصده، ويشغل عليه به، أو لِسَمَاع الحديث وتصحيحه، ويَصْرِف له من رَيْع الوقف في كل شهر ثلاثين درهمًا نقرة ويرتب بها من القراء الحافظين لكتاب الله العزيز خمسةً وعشرين نفرًا على ما يراه في ترتيبهم في النوبة، يقرؤون ما تيسر لهم قراءتُه لَيْلًا ونهارًا في الوقت الذي يُعَيِّنُه لهم ويَدْعُون عَقِيبَ قراءتهم للواقف ووالديه بالرحمة والرضوان. وجميع المسلمين، ويصرف لهم في كل شهر خمسمائة درهم بينهم على ما يراه من التسوية والتفضيل، ويرتِّبُ بالقبة والمدرسة من المؤذنين ثمانية نفر يَجْعَلُ من العدد رئيسين عارفين بالأوقاف يعلنون بالأذان الشرعي في المئذنة التي

تنشأ على الباب لَيْلًا ونهارًا وإقامة الصلوات والتسبيح، والتذكار في الأسحار على ما يراه الناظر متناوبين أو مجتمعين، وعلى ما يراه من ترتيبهم في القبة والمدرسة، ويصرف لهم في كل شهر مائتي درهم وثلاثين درهمًا نُقْرَة يصرف للرئيسين في كل شهر ثمانين درهمًا على ما يراه من التسوية والتفضيل، ويصْرف للستَّةِ الباقين في كل شهر مائة درهم وخمسين درهمًا على ما يراه من التسوية والتفضيل، ويرتب بالقبة من الْقَوَمَةِ اثنين يقومان بخدمة القبة المذكورة والإيوان والساحة التي من حقوقها، ووقود مصابيحها، والكنس والتنظيف والغسل للصحن المرخم، ودائره والسقاية التي للقُبّة وإمَاطةُ الأذى عن ظاهرها كعادة الْقَوَمَة في مِثْلِ ذلك. ويصرف لهما في كل شهر ثمانية وخمسين درهمًا نقرة أو ما يقوم مقامها على ما يراه من التسوية والتفضيل. ويرتب بها ثلاثة من الفراشين الذين خبروا الخدمة، يقومون بِفَرْشِ الْقُبَّة المذكورة، ورَفِعْ فَرشِها في الأوقات المعهود ذلك فيها، ويفعلون ما يفعله مثلهم في مثل ذلك، ويصرف لهم في كل شهرٍ مائة درهم وواحدًا وستين درهمًا نُقْرَة، من ذلك ما يصرف للحاج صُبيح القطبي أحد الفراشين مائة درهم نُقْرَة في كل شهر، أو ما يقوم مقامها من النقود ما دام حَيًّا مُبَاشرًا، وباقيها لرفيقيه بينهما على ما يراه الناظر من التسوية والتفضيل. فإن تُوُفِّيَ صُبَيْح المذكور، أو تعذر مباشرته بسببٍ من الأسباب وزال استحقاقه عوَّضَ الناظرُ مكانَه غَيْرَه مَنْ شاء، ويصرف له أسوة برفيقيه والباقي منه يعود في مصالح الوقف.

ويرتب بها أربعةً من الخدام من عتقاء الواقف، فإن لم يوجد من عتقائه فمن عتقاء والده. ويَصْرِف لهم في كل شهر مائة درهم وستين درهمًا على ما يراه الناظر من التسوية والتفضيل، فإن لم يوجد من عتقائه ولا عتقاء والده وتعذرت مباشرة الخدام بوجه من وجوه التَّعَذُّرَات رجع ما كان يصرف لهم على المصالح المذكورة.

ويرتب بها بَوَّابًا حافظًا لها يحتاط في الداخلين والخارجين، ويمنع المرتبات بهم، ومن يكثر الدخول لغير حاجة، ولا يترك الباب إلا لعذر ويَسْتَخْلِفَ مكانه زَمَانَ غيبته، ويصرف له في كل شهر عشرين درهمًا أو ما يقوم مقامها.

ويصْرِفُ في ثمن زَيْت يُسْتَصْبَحُ به بالقبة المذكورة وما حوته من الأماكن ما يراه، وفي ثمن حُصْرٍ من العباداني الأحمر أو الأبيض بحسب ما يراه، وفيما يحتاج إليه من القناديل والبَصَّاقات والسلاسل والأباريق والكِيزَان، وجميع ما يحتاج إليه ما يراه.

وأما الموضع الذي فيه الأواوين الأربعة وما به من البيوت السفلية والعلوية والقاعة المجاورة للإيوان القبلي وما حواه من الأبنية فإنه وَقَفَ ذلك على المدرسين بها، والمعيدين والفقهاء والمتفقهين بها المشتغلين بالعلم الشريف على مذاهب الأئمة الأربعة، وعلى الإمام والمؤذنين والْقَوَمَة والبوّاب بهذه المدرسة وغير ذلك، يسكن بها المدرسون والمعيدون والفقهاءُ والأئمة في بيوتها للاشتغال بالعلم الشريف، ويؤدي كل واحد منهم ما يلزمه بهذه المدرسة على العادة في مثلها وعلى المترددين بهذه المدرسة، والمجتازين للصلوات وأداء الفرائض، وخلّى بين المسلمين وبينها تخليةً شرعية، وأذِنَ لهم في الصلاة فيها، وصار حكمها حكم سائر المدارس.

وجعل للناظر أن يرتب بالمدرسة المذكورة في كل من أوَاوِينِهَا الأربعة مدرسيها على المذاهب الأربعة، ينتصب المدرس المالكي المذهب بالإيوان القبلي، والمعيدون المالكية والطلبة المالكية في الوقت الذي يعين فيه، وهو ما بين طلوع الشمس إلى زوالها، أي وَقْتٍ رآه المدرس من ذلك لإلقاء فروع مذهبه، وما تيسرَ له من إلقائه من تفسير وأصُولٍ وغير ذلك، بحيث يلازم الجلوسَ على العادة في الوقت المعيّن بعد أن يَتَيَمَّن كلُّ واحدٍ منَ المدرسين هو وجماعتهُ بقراءة ما تيسّر من القرآن الحكيم، إمَّا مِن رَبْعَةٍ أو مِنْ صدُورِهم، ويَدْعُون عَقِيب ذلك للواقف، وسائر المدرسين. ويُعَيّن من المعيدين المالكية ما يراه الناظرُ مِنَ العَدَد.

وكذلك يَنتصبُ المدرسُ الشافعي المذهب بالإيوان البحري كما حُكِيَ بأعاليه هو ومَن يُعَيِّنُه الناظرُ من المعيدين والطلبة في الوقت المذكور.

وكذلك يَنْتصِبُ المدرِّس الحنفي المذهب ومن معه من المعيدين والطلبة في الوقت المذكور في الإيوان الشرقي وكذلك ينتصب المدرس الحنبلي المذهب ومن معه من المعيدين والطلبة في الوقت المذكور بالإيوان الغربي، ويعين الناظر لكل مدرس منهم من المعيدين والطلبة ما يراه من العدد. وينتصب كل معيد ممن عُيِّن في جهته لأهل مذهبه لاستعراض طلبته، ويشرحُ لمن احتاج الشرح دَرْسَه ويصحح له مستقبله، ويرغِّبُ الطلبة في الاشتغال، ولا يمنع فقيهًا أو مستفيدًا ما يطلب من زيادة تِكْرَارٍ وتَفَهُّم مَعْنى، ولا يقدم أَحَدًا من الطلبة في غير نَوْبَتِهِ إلّا لمصلحة ظاهرة، ويشتغلُ كل واحدٍ من الطلبة بما يختاره من أنواع العلوم الشرعية، ويراه المدرس له على مذهبه، ويبحث في كل ما أشكل عليه من ذلك، ويراجع فيه، وأن ينظر المدرسُ في طلبته ويحثهم كل وقت على الاشتغال، ويجعل من يختاره نقيبًا عليهم، ويقررُ له ما شاء.

ويُصْرَف لكل واحدٍ من المدرسين ولمعيديه وطلبته، والداعي عنده والنقيب، في كل شهر من شهور الأهلة ألف درهم نقرة، من ذلك ما يختص به المدرس عن التدريس مائتا درهم، والمعيدين والطلبة والداعي والنقيب ما يراه من التسوية والتفضيل.

ويرتب بالمدرسة المذكورة بالإيوان القبلي بها إمامًا يؤم بالمسلمين في الصلوات الخمس على أي مذهبٍ كان من المذاهب الأربعة، يقوم بوظيفة الإمامة كجاري عادة المدارس، ويصرف له في كل شهر ثمانين درهمًا.

ويُرَتِّبُ مِنَ المؤذنين الثمانية المشار إليهم من يختاره كما بين فيه، ويرتب بها أربعةً مِنَ القَوَمَة العارفين بما يلزمهم، من ذلك يقومون بخدمة المدرسة، ووقود مصابيحها، وكنسها وتنظيفها، وتنظيف فَسْقِيتها ودائرها، وتنظيف السقاية وغَسْل ما بظاهرها من الأوساخ كجارِي عادة الْقَوَمَة في مثلها، ويصرف لهم في كل شهر مائة درهم بينهم على ما يراه من التسوية والتفضيل.

ويرتب بها شاهدًا لخزانة الكتب يحفظ ما فيها من الكتب، ويَضْبِطُ ما يؤخذ منها للاشتغال بها، بحيث لا تخرج الكتب من المدرسة، ويصرف له في كل شهر ثلاثين درهمًا أو ما يقوم مقامها من النقود.

ويرتب بالمدرسة بَوابًا بالباب الكبير الجامع للقبة والمدرسة حافظًا محتاطًا في أمور المدرسة والقبة من الداخلين إليها والخارجين، مانعًا مَن يرتاب به، ومَن يُكْثِرُ الدخولَ لغير حاجة، ويلازم حفظ الباب ليلًا ونهارًا، وفتحه وغلقه في الأوقات المعهود ذلك فيها، ولا ينفصل عن الباب إلا بعذر، فإن اتفق له عذر استخلف في موضعه من يختاره عنه حين غيبته، ويَصْرِفُ له في كل شهر ثلاثين درهما نقرة[١] وما يقوم مقامها من النقود ويرتب سوّاقًا لإدارة الساقية، وإجراء الماء من البئر إلى الصحن أمَامَ إيوان القُبة، وإلى الفسقية التي بوسط المدرسة، وإلى المَيْضَأة التي بالمدرسة، ويفعل ما جرت العادة في مثل ذلك، ويصرف له في كل شهر ثلاثين درهمًا، ويصرف في ثمن ثَوْرٍ لإدارة الساقية المذكورة ما يراه، ويؤدي إليه اجتهاده، ويصرف في ثمن ما تحتاج إليه الساقية من الخشب والآلات والنّجرِ والحديدِ ما يراه.

(١) درهم النقرة: تقدم التعريف به، انظر الحاشية السابقة.

ويصرف في ثمن زيت الزّيْتون أو ما يقوم مقامه مما يُسْتَصْبَحُ به في المدرسة المذكورة، والأواوين الأربعة والمطلع ولسكن الطلبة والمِيْضأة ما يراه ويؤدي إليه اجتهاده.

ويصرف فيما تحتاج إليه المدرسة المذكورة من الحصر والقناديل والبصاقات الزّجاج والأطباق النحاس والسلاسل والأباريق والجِرَار وجميع ما يُحْتَاج إليه بالمدرسة المذكورة ما يراه، ويؤدي إليه اجتهاده.

ويصرف الناظر في كل سنة في ملء الصهريج من بحر النيل المبارك ثَمَنَ ستمائة راوية ما يراه ويؤدي إليه اجتهاده.

وجعل الواقف أعز الله نَصْرَه النظر في هذا الوقف لعتيقه الطواشي شجاع الدّين عنبر بن عبد الله الحرّ اللّالا أيام حياته، ثم من بعده يكون النظر للأمثل فالأمثل من عتقاء الواقف فإن استوى اثنان فأكثر قُدّم الأكبر سنًّا مع ظهور الأهلية لذلك، فإن استووا أقرع بينهم ثم بعدهم يكون النظر لعتقاء والد الواقف للمذكور الأمثل فالأمثل صح منهم فإن استوى اثنان فأكثر قدّم الأكبر سِنًّا مع ظَهورِ أهليته لذلك، فإن استووا أقرع بينهم، فإن انقرض عتقاؤه وعتقاء والده أو تعذر نَظَر أحَدٍ منهم كان النظر في ذلك والْولَايةُ عليه لحاكم المسلمين، فإن عاد إمكانُ نظر مَنْ تعذّر نظره عاد النظر إليه، فإن تعذر أيضًا كان لحاكم المسلمين يجري الحال في ذلك أبد الآبدين.

وفي ظهر كتاب الوقف المذكور إسْجَالٌ على قاضي القضاة شمس الدين أحمد السُّرُوجي الحنفي، يتضمَّنُ أن الحاكم الآيل النظر إليه يكونُ مالكي المذهب. وشرط الواقف أن لكل مَنْ له وظيفة في هذا الوقف المذكور أن يستنيب عنه عند ضرورةٍ لسفرٍ أو مرض، وأن لكلّ من المدرسين والطلبة والمعيدين البِطالة المعروفة في رجب وشعبان ورمضان وعشر ذي الحجة من كل سنة على جاري العادة في مثل ذلك، وأن من شرط هذا الواقف أن يُتَعَاهَد إثباتُه عند الحكام، ويُحْفَظ بتواتر الشهادات، كل ذلك بعد البدأة بعمادة الوقف ومرمَّته وصلاحه وإصلاحه وما فيه الإفضاءُ إلى بقاء عينه، ودوام منفعته، ونُموّ غَلّته، وما فَضَلَ بعد ذلك يصرف في المصارف المعينة فيه على أنّ الناظر فيه يُؤَجّرهُ وما شاء منه مدة سنة فما دونها بأجرة المثل فما فوقها، ولا يزيد على السنة إلّا لمصلحةٍ ظاهرة للوقف، أو ضرورة لا بد منها، ويؤجره إذْ ذَاك مدة تفي أجرتها بالضرورة، ويسلك في ذلك الاستغلال الشرعي بحيث لا يُفرّط ولا

يُفْرِط، ولا يعدل عن السنن المتوسطة، ومهما حصل من ريع الوقف وهو مَا ذَكَرَه ووصَفَه وحدَّدَه.

ونحن الآن نذكر الوقف المذكور على القبة والمدرسة بمقتضى كتاب الوقف، ونذكر أجْرة كل مكان منه بمقتضى حساب المباشرين، ثم نذكر ما تَجَدَّد من الأماكن الجارية في الوقف المذكور بعد صدور كتاب الوقف المشروح على ما نقف على ذلك إن شاء الله تعالى.

والأماكن الموقوفة بمقتضى الكتاب منها ما هو بالقاهرة المحروسة: قيسارية أمير. على بخط الشرابشيين ظاهرها وباطنها، سُفْلها وعُلْوها ونربيعيتها، وسائر حقوقها وأجرة هذه القيسارية في كل شهر على ما استقر إلى آخر ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة ألف درهم وستمائة درهم وتسعة وخمسون درهمًا، والقاعة المجاورة للقيسارية المذكورة يتوصل إليها من الزقاق الشارع بدرب قَيْطُون على يَسْرَة السالك فيه إلى أقصاه، وأجرتها في كل شهر ثمانية وأربعون درهمًا.

وجميع الرَّبع المعروف بالدِّهِيشة بخط باب زويلة. فيما بين البابين يعرف سفلها بسكن المجبرين والحريريين، يشتمل على ستة حوانيت ومقاعد فيما بين ذلك، وستة طباق علوية وأجرة ذلك في كل شهر مائتا درهم وثمانية وستون درهمًا.

وجميع الحوانيت الثلاثة المتجاورة بخط باب الزهُومَة ويعرف بسكن العطارين، والسيوفي، ويعلو الحوانيت طبقة ليست من الوقف، وإنما هي من حقوق المسجد المجاور للحوانيت وأجرة هذه الحوانيت في كل شهر خمسة وسبعون درهمًا.

وجميع المسمط والحوانيت التي بظاهره وعدتها سبعة وذلك بالقاهرة بخط باب الخوخة، وأجرة ذلك في كل شهر خمسمائة درهم وخمسة وعشرون درهمًا.

وجميع الحمام المعروفة بالفخرية بالقاهرة المحروسة وتجاور المدرسة السيفية والدار الكبرى المعروفة بالسلطان الملك المنصور، والد الواقف، ويعرف قديمًا بالسيفي وأجرتها في كل شهر أربعمائة درهم وتسعون درهمًا.

وجميع الحمامين المعروفين بالشيخ خضر بظاهر القاهرة بخط بستان ابن صَيْرَم والجامع الظاهري، إحداهما لدخول الرجال، والأخرى للنساء وأجرتهما في كل شهر ألف درهم وخمسمائة درهم وخمسون درهمًا.

وجميع خان الطُّعم بظاهر دمشق المحروسة، وهو مشهور معروف، وقد وصفه وحدده هكذا «تَضَمن كتابُ الوقف جميعَ الخان المذكور» وليس كذلك؛ فإن الخان المذكور من جملة الأملاك الموروثة عن السلطان الشهيد الملك المنصور والد السلطان الواقف ـ قدس الله روحه ـ والذي كَمُلَ للسلطان الملك الناصر ـ خلد الله ملكه ـ من الأملاك المخلفة عن والده السلطان الملك المنصور مما جرَّه إليه الإرث عن والده السلطان المشار إليه وأخيه الأمير أحمد وأخته جهة عنبر الكمالي، وأخيه الملك الأشرف، وبنات أخيه الملك الأشرف، وأخته داره مختار الجوهري، وما خصه من نصيب والدته الذي وهبته له ولأخيه الملك الأشرف ولأخته: داره مختار الجوهري المذكورة، وذلك إلى حين صدور هذا الوقف سبعة عَشر سهمًا ونصفُ سهم وثمنُ سهم وسدسُ عُشر سهم وسُدسُ ثمنُ عُشر سهم ـ هذا الذي لا خلاف فيه ولا نزاع ـ وهذه الحصة المذكورة هي التي استقرّت في الوقف من هذا الخان، وإطلاق الكاتب في كتاب الوقف جميع الخان غَلَط وغَفْلَة ممن أملاه، أو ذهول ممن عَيَّن ذلك من المباشرين. وأجرة هذا الخان بجملته في كل سنة على ما استقر إلى آخر سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة تزيد على سبعين ألف درهم، يخص الوقف منها ما يزيد على خمسة وأربعين ألف درهم، ثم تجدد بعد كتاب الوقف المشروح في الوقف المذكورِ زياداتٌ منها المقاعدُ التي أنشئت بالساحة بباب المدرسة، وعدتها ثمانيةٌ، ومسطبةٌ ومخزنٌ، أجرتها في كل شهر مائةُ درهم وأربعون درهمًا، ومنها ما اشترى من فائض رَيع الوقف وأُلْحِقَ به، وهو نصفُ وربع وثمن طاحون بمصر. وأجرة ذلك في كل شهر سبعة وثمانون درهمًا، وإسطبل وطبَقَة بخان السبيل أجرة ذلك في كل سنة ستة عشر درهمًا.

وجعل الواقف ـ خلّد الله سلطانه ـ للناظر في الوقف المذكور أن يصرف لمباشري الوقف واستخراجه وصرفه في مصارفه، ولمباشري العمارة بالمدرسة والأوقاف، والجابي، والمعمار وغير ذلك ما يراه، ويؤدي إليه اجتهاده. من عدد المباشرين وتسويتهم وتفضيلهم، وجعل للناظر أيضًا أن يصرف من رَيْع الوقف إذا فضل عن المرتب المعين فيه في ليالي الجُمَعِ والأعياد والمواسِم وشهرِ رمضان ما يراه من التوسعة عليهم، فإن تعذَّر الصرف لجهة من الجهات عاد الصرف إلى باقيها، فإن تعذر صُرِفَ ذلك للفقراء والمساكين من المسلمين أينما كانوا وحيثما وجدوا، فإن زال التعذرُ عاد على الحكم المذكور، فإن تعذر أيضًا كان على الفقراء والمساكين كما تقدم، يصرفه الناظرُ فيهم على ما يراه من مساواة وتفضيل،

وعلى ما يرى صرفه من نقد أو ثوْبٍ أو كسوة. أو غير ذلك مما يراه ويؤدي إليه اجتهاده.

ولما تم هذا الوقف وكملت عمارة المدرسة، وجلس المدرسون والمعيدون والفقهاء بالمدرسة، وانتصب كل من ذُكر في هذا الوقف وظيفته صَرَفَ الناظرُ للمدرسين خاصة معلومَهم الشاهدَ به كتابُ الوقف، وصرف للمعيدين والفقهاء بكل إيوان من الأواوين الأربعة على مذهبه من جملة ما شُرِطَ لهم في كتاب الوقف. وهو ثمانمائة درهم في كل شهر ثلاثمائة وخمسون درهمًا صرف منها لِمُعِيدَيْنِ لكل منهما في كل شهر ثلاثين درهمًا، وصرف للطلبة والنقيب والداعي في كل شهر مائتي درهم وسبعين درهمًا، وقطع من هذا المرتب المصروف لهم في كل سنة ثلاثة شهور. واستمر ذلك مدة طويلة.

واتفق في غضون ذلك أن بَاشَرْتُ ديوانَ الخاص السلطاني بالأبواب الشريفة وغيرها، وسَكَنْتُ بالمدرسة الناصرية، واطَّلَعْتُ على متحصل جهات الوقف بالقاهرة وغيرها، ونظرتُ في ذلك، فرأيتهُ يفيض على المصروف في كل سنة جملةً كثيرة، فقمت في ذلك قيامًا أدى إلى أن صرف لهم ذلك مكملًا من غير اقتطاع ثلاثة شهور، واستمر الأمرُ على ذلك إلى أن تُوُفِّيَ الطواشي شجاعُ الدين ناظر الوقف في سنة أربع وعشرين وسبعمائة، وفوض الأمر إلى الأمير سيف الدين أرغون الناصري نائب السلطنة الشريفة، فأظهر كتابَ الوقف وأذاعه، وحملَ الأمر على حُكْمِهِ على ما نذكر ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ في موضعه.

ونقل السلطان إلى القبة المباركة ما تحتاج إليه من البسط والشمعدانات الكفت[1]، والأطباق النحاس، وغير ذلك من الآلات مما جعله في حاصلها، ونقل والِدَتَه من مدفنها بالتربة المجاورة لمشهد السيدة نفيسة إلى مدفن هذه القبة، وذلك في سنة ثلاث وسبعمائة، وهي أول مَن دُفِنَ بمشهد القبة، ثم دفن بعد ذلك ابْنَةٌ له توفيت صغيرة رحمها الله تعالى وقد أخذ هذا الفصل حَدَّه من الإطالة، فلنذكر خلاف ذلك من الحوادث، والله أعلم.

وفي سنة ثلاث وسبعمائة أُفْرِجَ عن الأميرين السيدين الشريفين عِزّ الدين حُمَيْضَة وأسَدِ الدين رُمَيْثَة ولدي الأمير نجم الدين أبي نُمَيّ وأعيدا إلى مكة ـ شرفها الله تعالى.

(١) الشمعدان الكفت: هو الشمعدان المصنوع من النحاس ومشغول بزخارف من سلوك الفضة أو الذهب (الخطط المقريزية ٢/ ١٠٥).

وفيها فُوِّضَتْ نيابةُ السَّلْطَنة بِحِمْص إلى الأمير سيف الدين بَلَبَان الجوكندار المنصوري، نُقل من نيابة قلعة دمشق إليها عوضًا عن عز الدين أَيْبكَ الحَمَوي الظاهري بحكم وفاته، وكانت وفاتهُ في يوم الأحد تاسع شهر ربيع الآخر من هذه السنة، وتوجَّهَ الأميرُ سيف الدين إليها في ثامن عشر جمادى الأولى وجُعِلَ نائِبُ قلعة دمشق الأمير سيف الدين بهادر السنجري.

ذكر تجريد العساكر إلى بلاد سيس

وفي هذه السنة جُرِّدَت العساكرُ إلا بلاد سِيس؛ وكان سَبَبُ ذلك أنَّ طائفةً من العسكر الحلبي دخلت إلى بلاد الأَرْمَن للإغارة، فلما رجعوا كَبَسَهمُ التَّتَارُ ببلاد سِيس، وسَلِموا؛ فَرُسِمَ بتجريد العساكر إليها، وجُرِّدَ من الديار المصرية في شعبان الأميرُ بدر الدين بِكْتَاش الفخري أمير سلاح، وهو المقدَّم على الجيش، والأمير شمسُ الدين سُنْقرُ جاه المنصوري، والأمير علم الدين سَنْجَر الصوابي ومضافيهم، فوصلوا إلى دمشق ودخلوا إليها في ثلاثة أيام، أولها يوم السبت ثاني عشر شهر رمضان، وآخرها يوم الاثنين رابع عَشْرِه، وجُرِّدَ من دمشق الأميرُ سيف الدين بَهادرُ آص ومن تبعه في ألفي فارس، وتوجهوا بجملتهم في يوم الخميس سابع عشر رمضان، وجُرِّد الأميرُ سيف الدين قَبْجَقَ بعسكر حماه، والأميرُ سيفُ الدين أَسَنْدَمُر كُرْجِي بعسكر الفتوحات، والأميرُ سيفُ الدين بَلَبَان الجُوكَنْدَار بعسكر حمص، والعسكر الحلبي صحبة الأمير شمس الدين قَرَاسُنْقُر.

ولما وصل العسكرُ إلى حلب حصل للأمير فخر الدين بَكْتَاش الفخري أمير سلاح مقدم العسكر المصري مرضٌ منعه من الدخول إلى سيس؛ فأقام بحَلَب، وتوجَّهَت العساكر، وافترقوا فرقتين؛ فتوجَّه الأميرُ سيفُ الدين قَبْجَقَ بنصف العسكر من جهة قلعة الرُّوم إلى صوب مَلَطْيَة، والفرقة الأخرى إلى دَرَبَنْد فأغاروا ونهبوا وقتلوا وأَسَرُوا من ظفرُوا به، ثم رجعوا ونازلوا تل حمدون وحاصروها، واستولوا عليها في يوم الخميس ثالث عشر ذي القعدة، ومُلِكَتْ بالأمان، وكان قد اجتمع بها جماعة من أصحاب القلاع المجاورة لها، وسبب اجتماعهم بها أنّ صاحبَ سِيس أرسل إليهم أنْ يجتمعوا بتلّ حَمْدُون، ويقبضوا منها نفقة ويعودوا إلى قلاعهم ويحفظوها، ويقول لهم: إن هذه العساكر إنما دخلت للإغارة والعود. فاجتمعوا بتل حمْدُون لقبْض النفقة، وجاء العسكر إليها وحاصرهم بها، فسألوا الأمان، فلما أُطْلِقُوا وصَلَ رسولُ صاحب سِيس إلى العسكر يقول: هؤلاء الذين بتلِّ حمدون هم مُلَّاكُ

القلاع، فإن قبضتم عليهم وأردتم المالَ بَذَلُوه لكمْ أو القلاعَ سَلَّمُوها إليكم. وشكا منهم أنهم لا يرجعون إليه ولا يسمعون منه ويخالفونه إذا قصدَ بذل الطاعة للسلطان، أو إرسال الحمول، ويقولون: إذا حضر العسكر خَلِّ بيننا وبينَه. فعند ذلك أرسل الأمراء مَنْ أدركهم قبل وصولهم إلى مأمنهم، وقبضوا عليهم وقتل بقيتهم، وكان الذين قُبِضَ عليهم ثمانية من أصحاب القلاع المشار إليهم، منهم أميرٌ اسمه السرمساق صاحب قلعة بخيمة، وبقيتهم لكل منهم قلعة. فلما تحقق السرمساقُ أن صاحب سِيس عمل عليهم أسلم وتَلَفَّظَ بالشهادتين المعظمتين، وقال: أنا لي أخ في خدمة السلطان، وأنا أسَلِّم قلاعِي وألتزم للسلطان بفتح بلاد سِيس بألفي فارس من نهر جهان إلى بلاد قرمان، فعاد العَسْكَرُ بِهِ وبِبَقيّة الواصلين، وكان وُصولهم إلى دمشق في الحادي والعشرين من ذي الحجة، ورحل العسكرُ المصري منها في تاسع عشرين الشهر، ووصلوا إلى الأبواب السُّلطانية في المحرم سنة أربع وسبعمائة.

وفي يوم الاثنين تاسع عشر شوال سنة ثلاث وسبعمائة فوضت الوزارة بالديار المصرية للأمير ناصر الدين محمد الشيخي، نقِلَ من ولاية الجيزية إليها عوضًا عن الأمير عز الدين أيبك البغدادي، فأحدث الشيخيُّ مظالم كثيرةً، ولم تطل أيامه.

وفي هذه السنة وصل إلى الخدمة السلطانية من بلاد الشرق الأمير بدرُ الدين جَنكلي بن شمس الدين المعروف بالبابا[١]، وهو أحد مقدمي جيوش التتار، ووصل معه أحَد عشر نفرًا من ألزامه، منهم أخوه نيرُوز، ووصل الأمير بدر الدين بأهله، وكان مقامه ببلاد آمد وكانت مكاتباته ترد على السلطان ببذل النصيحة للإسلام من مدة طويلة، ثم فارق الآن التتار وجاء، وكان وصوله إلى دمشق في يوم الثلاثاء حادي عشر ذي القعدة، ثم توجه منها بمن معه ووصلوا إلى الأبواب السلطانية بقلعة الجبل، وأحسن السلطان إليهم، وشملهم بالخلع والإنعام، وأمَّرَ الأمير بدر الدين جَنْكَلِي بطبلخاناه، واستمر من جملة الأمراء، وظهر للسلطان من أدبه وعقله وجميل نيته وحسن طاعته وصدق إخلاصه في الموالاة والمصافاة، وعدم اجتماعه واختلاطه بمن يرتاب منه من أهل الأهواء والفتن، وغير ذلك من الأوصاف الجميلة ما أوجب تَرَقِّيه وانتقاله إلى إمرة المائة، وتقدُّمة الألف، ثم إلى رتبة الخصوصية والتقريب والدنو، والجلوس في مجلس السلطان بالقرب منه، واستشارته والرجوع إلى كثير من آرائه، وهو كذلك إلى الآن.

---

(١) توفي سنة ٧٤٦ هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ١٠/ ١٤٣، الدرر الكامنة ٢/ ٧٦).

وفيها أيضًا وصل إلى الأبواب السلطانية رسولٌ من جهة الرندراكون البرشنوني صاحب برشنونة يشفع في النصارى بالديار المصرية أن تفتح كنائسُهم على عادتهم، فَقُبلتْ شفاعتُه، ورسم أن يفتح للطائفة اليعاقبة[١] من النصارى كنيسةٌ بحارة زويلة، وللملكيين[٢] كنيسة بخط البندقانيين، وكتب جوابهُ وأعيد رسولهُ وسفر إليه من الأبواب السلطانية مَع فخر الدين عثمان الأفرمي فتوجها من الأبواب السلطانية إلى ثغر الإسكندرية، وتجهزا منها وركبا في المركب في سنة أربع وسبعمائة، فلما عزما على الإقلاع تفاوضا مفاوضة أدّت إلى أنّ رسولَ البرشنوني طرح فخر الدين عثمان من المركب إلى القارب الذي خرج يشيعهم من الميناء هو وغلمانه، ولم يعطه شيئًا مما كان معه، وأقلع من فوره، وعاد فخر الدين المذكور إلى الأبواب السلطانية في سنة أربع وسبعمائة. والله أعلم.

وفي سنة ثلاث أيضًا وقع فَنَاء عظيم في الخيول بالشام. حتى كاد يأتي عليها، ونفقت أكثر خيول الناس، وكُنْتُ يومئذٍ بدمشق، وكنت أملك عشرة أرؤس من الخيل الجياد أو أكثر، فنفقت بجملتها، واحتجتُ إلى ابتياع ما أركبه، وكانت الخيل قبل ذلك قد كَثُرت بالشام وهانت، وقلَّتْ أثمانُها، لما هرب التتار من مرج الصفر، حتى أبيع الإكديش من خيل التتار في موضع الوقعة بخمسة دراهم، ثم تزايد ثمنها، ثم أبيع الفرس منها بدمشق بثلاثين درهمًا، فلما فنيت الآن وارتفع الْفَنَاء غلت أثمانها بدمشق لقلتها.

وفيها في شهر رمضان تَوَجَّهْتُ من دمشق إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية مفارقًا لمباشرة أملاك الخاص الشريف، وكان وصولي إلى القاهرة في يوم الأحد السابع والعشرين من شهر رمضان بعد الظهر، وباشرتُ دِيوَانَ الخَاصّ. والبِيَمارِسْتَان المنصوري، وما معه من الأوقاف المنصورية في بقية اليوم الذي وصلتُ فيه، ورُفِعَ إليّ حسابُ المياومة قبل غروب الشمس من اليوم المذكور.

---

(١) اليعقوبية: أصحاب يعقوب البراذعي، قالوا بالأقانيم الثلاثة إلا أنهم قالوا: انقلبت الكلمة لحمًا ودمًا فصار الإلـٰه هو المسيح، وهو الظاهر بجسده بل هو هو، وعنهم أخبرنا القرآن الكريم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: الآية ١٧] (الملل والنحل للشهرستاني ٢/ ٣٠).

(٢) وهم الملكانية: أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها. ومعظم الروم ملكانية قالوا: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته. ويعنون بالكلمة: أقنوم العلم، ويعنون بروح القدس: أقنوم الحياة (الملل والنحل للشهرستاني ٢/ ٢٨).

وفيها توجه الأميرُ سيف الدين سَلّارَ نائبُ السّلطنة إلى الحجاز الشريف، وتصدّق صدقاتٍ كثيرةً بمكة والمدينة، سَدَّ بها حاجةَ ذوي الحاجات، ووسّع على المُجاوِرين والمقيمين.

وفيها في أواخر شهر رمضان ولد لمولانا السلطان الملك الناصر وَلَدٌ مَن زوجته أردكين ابنة الأمير سيف الدين نُوكِيه، سَمَّاه عِليّا، ونعت علاء الدين، ثم لُقِّبَ بَعْدُ بالملك المنصور.

وفي هذه السنة كانت وفاة الأمير سيف الدين بكتمر السلاح دار الظاهري أحد الأمراء الأكابر مقدمي الألوف بالديار المصرية، وهو أحد من كان توجَّه إلى غازان ملك التتار وعاد كما تقدم ذكر ذلك.

ذكر وفاة الشيخ زين الدين الفارقي وما اتفق بسبب مناصبه بدمشق

وفي هذه السّنة في يوم الجمعة تاسع عشر صفر توفي الشيخ الإمام العالم زينُ الدين أبو محمد عبد الله بنُ مرْوان بن عبد الله الفارقي الشافعي(١) الخطيب بدمشق بقاعة الخطابة بالجامع الأموي، وجُهِّزَ وصُلِّيَ عليه في بُكرةِ نهار السّبت في ثلاثة أماكن، فصلَّى عليه بجامع دمشق قاضي القضاة نجمُ الدين بن صصري الشافعي، وصَلَّى عليه بسوق الخيل قاضي القضاة شمس الدين الحنفي، وصلَّى عليه بباب جامع الجبل قاضي القضاة تقي الدين الحنبلي، ودفن بتربة أهله، وكانت جنازته مشهورة. ومولدُه في المحرم سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وكان بيده من المناصب خطابة الجامع الأموي، وتدريس دار الحديث الأشرفية، ولي مشيختها سبعةً وعشرين سنة، وتدريسُ المدرسة الشامية البرانية، ولما مات رحمه الله تعالى كان نائب السلطنة الأمير جمال الدين آقُش الأفرم بالضَّفةِ القبلية، فوصل إلى دمشق في شهر ربيع الأوّل، فتكلم الناس معه في مناصب الشيخ زين الدين المشار إليه، فعيّن الخطابة للشيخ شرف الدين الفزاري، وتدريس المدرسة الشامية البرانية، ودار الحديث الأشرفية للشيخ كمال الدين الشريشي بحكم أن تؤخذ منه المدرسة الناصرية بدمشق فَيَلِيها الشيخ كمال الدين بن الزّملْكَاني(٢)، واستقر ذلك.

---

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٤، طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ١٠٧، الدرر الكامنة ٢/ ٣٠٤، البداية والنهاية ١٤/ ٣٠.

(٢) ابن الزملكاني: هو محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم الأنصاري، كمال الدين أبو=

ولما اتصل خبر وفاته بالأبواب السلطانية سعى الشيخ صدر الدين محمد ابن الوكيل المعروف بابن المرحل في مناصبه بالشام، وأن يعاد إليه معها ما كان بيده قبل انتقاله إلى الديار المصرية، وهو تدريس المدرسة الشامية الجوانية، والمدرسة العذراوية فأجيب إلى ذلك، وكتب توقيعه به.

وولي بعده تدريسَ المدرسة الناصرية بالقاهرة القاضي مجد الدين عيسى بن الخشاب، وكان تدريسها قد عُيِّن له قبل تكملة عمارتها، ثم وليه الشيخ صدر الدين كما تقدم، فوليه القاضي مجد الدين بعده، وجهز توقيع الشيخ صدر الدين صحبة البريد إلى دمشق فزيّن مكاتبات من اعتنى به من الأمراء إلى نائب السلطنة بإمضائه، فوصل البريد بذلك إلى دمشق في يوم الاثنين منتصف شهر ربيع الأول، فكتب نائب السلطنة عليه، وبَطَل ما كان قد تقَرَّرَ من الولايات لمن ذكرنا، ثم وصل الشيخ صدرُ الدين في يوم الاثنين الثاني والعشرين من الشهر إلى دمشق على خيل البريد، وعلى يده أمثلة سلطانية، فاجتمع بنائب السلطنة، وأمضى ولايته، وركب من غده وجاء إلى الجامع الأموي بعد الظهر، ودخل دار الخطابة وصلّى بالناس صلاة العصر بالجامع فتألم الناس لذلك تألمًا شديدًا لاجتماعهم على الشيخ شرف الدين الفزاري، واتفق الأعيان على أنهم لا يُصَلُّون خلفه، واجتمع جماعة كثيرة في يوم الأربعاء رابع عشرين الشهر مع الشيخ تقي الدين ابن تيمية وتوجهوا إلى نائب السلطنة، وتحدّثوا معه في المطالعة إلى الأبواب السلطانية في أمر صدر الدين وأن لا يخطب إلا بعد ورود الجواب، وثَلَبُوه بأمور كثيرة، فأجاب نائب السلطنة سؤالهم، ومنع صدر الدين من الخطابة والإمامة حتى يَرِدَ جوابُ السلطان، وطالع في أمره، وذكر ما قاله العلماءُ والأكابرُ وما صَمَّمُوا عليه من الامتناع عن الصلاة خلفه، وما شرطه الواقفان لدار الحديث الأشرفية، والشامية البرانية في أمر التدريس، واسْتُنِيبَ في الإمامة الشيخ أبو بكر الجزري، وفي الخطابة الشيخ تاجُ الدين الجعبري، وأمضى نائب السلطنة ولاية صدّر الدين فيما عدا ذلك من المدارس، فجلس في بُكْرةِ نهار الأحد الثامن والعشرين

= المعالي الدمشقي الشافعي المصري، قاضي حلب، المعروف بابن الزملكاني ولد سنة ٦٦٧ هـ، وتوفي سنة ٧٢٧ هـ، له من التصانيف: «البرهان في إعجاز القرآن»، «تحقيق الأولى من أهل الرفيق الأعلى»، «الدرة المضية في الرد على ابن تيمية»، «دلائل الإعجاز»، «شرح فصوص الحكم للشيخ الأكبر»، «عجالة الراكب في ذكر أشرف المناقب»، «المنهاج في تعلقات الإيلاج» في علم الباه، «وفيات الأعيان» في التاريخ والتراجم. (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٦/ ١٤٦، الوافي بالوفيات ٤/ ٢١٤، البداية والنهاية ١٤/ ١٣١، الدرر الكامنة ٣/ ١٩٢، طبقات الشافعية للسبكي ٩/ ١٩٠، شذرات الذهب ٦/ ٧٨، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٠).

من الشهر، وألقى الدروس بالمدارس، وهي الشامية البرانية، والجوانية، ودار الحديث الأشرفية، والمدرسة العذراوية، وكانت مع جلال الدين القَزْوِيني، والشامية الجوانية مع كمال الدين بن الزملكاني، واستمر الحال على ذلك إلى يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر، فعاد البريد بالأجوبة أن يُوَلّى الخطابةَ والإمامةَ بدمشق من يتّفق المسلمونُ عليه ويَرْضَوْنَه، وأن يسلك في أمر الشامية ودار الحديث ما شرط واقفاها، فتولّى تدريس الشامية البرانية الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني، وذكر الدرس في مستهل جمادى الأولى، وفُوِّضت الخطابة للشيخ شرف الدين الفزاري، وخطب في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى، وخلع عليه في يوم الجمعة ثامن جمادى الآخرة.

وفيها في ليلة الجمعة خامس عشرين شهر ربيع الآخر توفي الصدر فتح الدين عبد الله ابن الصاحب معين الدين محمد بن أحمد بن أحمد بن خالد القيصراني[١] بالقاهرة رحمه الله تعالى.

وفيها في يوم الاثنين تاسع شهر رجب الفرد الفرد توفي الأمير ركن الدين بيبرس التلاوي[٢] أستاذ الدار العالية، وشاد الدواوين المعمورة بالشام، وكان ظالمًا عَسُوفًا مُتَكَبِّرًا، فابتلاه الله تعالى بالأمراض الشديدة، وكانت مُدَّةُ ولايته الوظيفة ثلاثة عشر شهرًا وتسعة عشر يومًا، مَرض منها سبعة أشهر وأيامًا، ولما مات ولي شدا الشام بعده الأمير شرف الدين قَيْرَان الدواداري، في يوم الخميس حادي عشر شعبان، نُقِلَ مِن شَدِّ طَرَابُلس إلى دمشق.

وفي هذه السنة توفي الشيخ الصالح العارف القدوة السيد الشريف أبو فارس عبد العزيز عبد الغني بن سرور بن سلامة بن بركات بن داود بن أحمد بن يحيىٰ بن زكريا بن القاسم بن أبي عبد الله بن إبراهيم الغمر طباطبا بن إسماعيل الديباج بن إبراهيم الغمر بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وهو المعروف بالمنوفي[٣] وكانت وفاته بمصر في ليلة الاثنين خامس عشر ذي الحجة، ودفن بُكْرَة النهار بالقرافة، وكان من الصلحاء المعمرين، مات عن مائة

---

(١) انظر ترجمته في: حسن المحاضرة ١/ ٣٨٧، النجوم الزاهرة ٨/ ٢١٣، شذرات الذهب ٦/ ٩، الدرر الكامنة ٢/ ٣٨٩، البداية والنهاية ١٤/ ٣١، وفي هذه المصادر: «القيسراني» بالسين المهملة.

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٥٠٨، النجوم الزاهرة ٨/ ٢١٢.

(٣) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٢١٤، السلوك للمقريزي ١/ ٩٥٧، الدرر الكامنة ٢/ ٣٧٣.

وعشرين سنة، وهو من أصحاب الشيخ أبي الحجاج الأقصري، وله رحمه الله تعالى نظم حسن اجتمعت به في سنة ست وتسعين وستمائة بمدينة قوص، وكان قد توجّه لزيارة شيخه الشيخ أبي الحجاج، ومرض بمدينة الأقصرين في هذه السفرة، فرآه القاضي جمال الدين يحيىٰ بن يحيىٰ الأرمنتي أحد السعداء في الصعيد فوجده قد أغمي عليه، فلما أفاق قال له جمال الدين: كيف تجدك؟ فأنشده: [من الرجز]

هذي الجفون وإنما أينَ الكَرَى مِنْهَا وهذَا الجسمُ أينَ الرُّوحُ

ومُتِّعَ رحمه الله تعالى مع طولِ عُمره بعَقْله وحواسِه.

واستهلت سنة أربع وسبعمائة

في هذه السنة عُزِل الأمير سيف الدين بَنْخَاص من نيابة السلطنة بالمملكة الصفدية، وأحضر إلى الأبواب السلطانية، واستقر في جملة الأمراء مقدمي الألوف، وفُوِّضَت نيابةُ السلطنة بالمملكة الصفدية للأمير شمس الدين سُنْقَرجاه المنصوري، فتوجّه إليها، وكان من الأمراء مقدمي الألوف بالديار المصرية.

ذكر عمارة الجامع الحاكمي بالقاهرة وما رُتِّبَ فيه من الدروس والطوائف

قد قدمنا أن الجامع الحاكمي بالقاهرة تداعت أركانُه وسقط بُنْيَانُه، وأن الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير أستاذ الدار العالية انْتُدِبَ لعمارته، فحصل الشروع فيها في أوائل سنة ثلاث وسبعمائة، ووقع الاهتمام بأمر العمارة حتى عاد أحسن ما كان، وانصرف عليه جملةٌ كثيرة، وتكاملت عمارته في هذه السنة، وَوقَفَ الأميرُ ركنُ الدين من أملاكه على مصالحه ـ التي تَذْكر ـ أملاكًا يتحصل من رَيْعِهَا جملة في كل شهر، ورتَّبَ به من الدروس والتصَدرات وغير ذلك من جهات الْبِرِّما نَذْكُره، وقدر لهم من المَغْلُوم، وهو: دروس الفقه على المذاهب الأربعة: الشافعية، والمالكية، والحنفية، والحنابلة، وَوَلّى تدريس ذلك قضاةُ القضاةِ الأربعة وهم: قاضي القضاة بدرُ الدين محمد بن جماعة الشافعي[1]، وقاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي[2]، وقاضي القضاة شمس الدين أحمد السروجي

(١) بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي: تقدمت ترجمته.

(٢) هو زين الدين علي بن مخلوف بن ناهض النويري، قاضي المالكية بمصر، توفي سنة ٧١٨ هـ (انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٧٩، الدرر الكامنة ٣/ ١٢٧، شذرات الذهب=

الحنفي[١]، وقاضي القضاة شرف الدين عبد الغني الحرّاني الحنبلي[٢]، ورَتَّبَ لكل واحد منهم عن وظيفة التدريس في كل شهر مائةَ درهم وثلاثين درهمًا نقرة، وجعل لكُلِّ درسٍ مُعِيدِين، ورَتَّبَ لكل واحد منهما في كل شهر خمسين درهمًا، ورَتَّب للطلبة لكل مَذْهَبٍ في كل شهر ثلاثمائة نقرة، ورتّب درسَ حديث فَرَضَ تَدْريسَه للشيخ سعد الدين مسعود الحارثي[٣] وجعل له ولمعيدين ولطلبة نظير ما لطائفةٍ من الطوائف المذكورة. ورتب فيه ميعادًا للعامة جعل شيخَه القاضي مجد الدين بن الخشاب، ورتب له في كل شهر مائةً وثلاثين درهمًا. ورتّب متصدرين لأقراء القرآن، لكل منهما ستون درهمًا. ورتّب متصدرين لإلقاء العلوم وهما الشيخ علاء الدين القونوي[٤] والشيخ زين الدين بن الكتاني[٥] ورتّب لكل منهما في كل شهر ستين درهمًا. ورتّب متصدرين لإلقاء النحو، وهما الشيخ أثير الدين أبو حَيَّان[٦]، وتاج الدين محمد البَارْنَبَاري[٧]. رتّب لكل منهما في كل شهر ثلاثين درهمًا، ورتّب مُلَقِّنين

= ٦/ ٤٩، البداية والنهاية ١٤/ ٩٠).

(١) شمس الدين أحمد السروجي: تقدمت ترجمته.

(٢) شرف الدين عبد الغني الحراني: تقدمت ترجمته.

(٣) سعد الدين مسعود الحارثي: هو مسعود بن أحمد بن مسعود بن زيد الحارثي، الحنبلي، سعد الدين، توفي سنة ٧١١ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٢٨، حسن المحاضرة ١/ ٣٥٨، السلوك للمقريزي ٢/ ١١٣، البداية والنهاية ١٤/ ٦٤).

(٤) علاء الدين القونوي: هو علي بن إسماعيل بن يوسف، علاء الدين، أبو الحسن القونوي الأصولي الشافعي، قدم القاهرة ودرس بها ثم تولى قضاء الشام، ولد سنة ٦٦٨ هـ، وتوفي سنة ٧٢٩ هـ، له من المصنفات: «الإعلام في حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»، «التصرف في شرح التعرف في التصوف»، «شرح حاوي الصغير للقزويني» في الفروع، «مختصر المعالم في الأصول»، «مختصر المنهاج». (انظر: كشف الظنون ٥/ ٧١٧، البداية والنهاية ١٤/ ١٤٧، الدرر الكامنة ٣/ ٢٤، طبقات الشافعية ٦/ ١٤٤، شذرات الذهب ٦/ ٩١، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٩، دول الإسلام ٢/ ١٨١).

(٥) زين الدين بن الكتاني: هو عمر بن الجمال أبي الحزم بن عبد الرحمٰن بن يونس، زين الدين، المعروف بابن الكتاني الدمشقي الشافعي، توفي سنة ٧٣٨ هـ (انظر: الدرر الكامنة ٣/ ١٦١، طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ٢٤٥، شذرات الذهب ٦/ ١١٧، السلوك للمقريزي ٢/ ٤٥٦، البداية والنهاية ١٤/ ١٨٣).

(٦) أثير الدين أبو حيان: هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الجياني، الإمام أبو حيان، أثير الدين الأندلسي، الشافعي النحوي، ولد سنة ٦٥٤ هـ، وتوفي بمصر سنة ٧٤٥ هـ. له العشرات من المصنفات (انظر: كشف الظنون ٦/ ١٥٢ ـ ١٥٣. الوافي بالوفيات ٥/ ٢٦٧، فوات الوفيات ٤/ ٧١، النجوم الزاهرة ١/ ١١١، شذرات الذهب ٦/ ١٥٤).

(٧) تاج الدين محمد البارنباي: هو محمد بن محمد بن عبد المنعم البارنباي، تاج الدين، توفي سنة =

للقرآن العظيم، رتّب لكل منهما في كل شهر ثلاثين درهمًا، ورتّب لعشرين مُتَلَقِّن لكل واحد منهم في كل شهر عشرة دراهم.

ورتّب عشرين مقرِئًا يتلون كتاب الله تعالى عقب صلاة الصبح وصلاة الظهر وصلاة العصر وصلاة المغرب، ورتّب لكل واحد منهم عشرة دراهم.

ورتّب ثلاثة أئمة على ثلاثة مذاهب: مالك بن أنس، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، يصلون بالجامع، ورتّب لكل واحد منهم في كل شهر ثلاثين درهمًا.

ورتّب فقيهين يعلمان عدَّةً من الصبيان الأيتام، ورتّب لهما في كل شهر خمسين درهمًا. ولعدة من الصِّبْيَان ما يكفيهم على العادة.

وأنشأ بالجامع خزانة كُتُب، وقف بها نحو خمسمائة مُجَلّد من كتب العلوم، والآداب، والتواريخ وغير ذلك، وختماتٍ شريفة، ورَبْعَاتَ، وغير ذلك، ورتّب لشاهدها في كل شهر ثلاثين درهمًا، واستنسخ ختمةً شريفةً سبعة أجزاء، في ورق بغدادي كامل كُتِبَت بالذهب المحلول، بخط شرف الدين بن الوحيد[1]، حلَّ له جملةً من الذهب، وصرف عليها جملة في أجرة كاتب وترميل، وتذهيب آيات وأعشار وسور وفواتح وتجليد، ووقفها بالجامع يُقْرَأ منها في كل جمعة قبل الخطبة، ورتّب للقارىء في كل شهر معلومًا.

ورتّب غير ذلك من وجوه البر والقُرُبات، وجلس المدرسون المذكورون وغيرُهم من أرباب الوظائف بالجامع الحاكمي المذكور في أول شهر ربيع الأول من هذه السنة أثابه الله تعالى وكان الذي حسّن له ترتيب ذلك وحثّه عليه الشيخُ العارفُ نَصْر المنبجي[2] نفع الله به - وكان الأمير ركن الدين لا يخرج عن إشارته.

وفي هذه السنة عاد الأمير سيف الدين قطايا بن يوسف أميرُ بني كلاب، وسلطان، وجماعةٌ من مشايخهم إلى الخدمة السلطانية.

= ٧٤٧ هـ، وقيل: سنة ٧٥٦ هـ، (انظر: النجوم الزاهرة ١/ ٣٢٠، السلوك للمقريزي ٢/ ٦٧٣، الدرر الكامنة ٤/ ٣١٥، الوافي بالوفيات ١/ ٢٤٩).

(١) شرف الدين بن الوحيد: هو أبو عبد الله محمد بن شريف بن يوسف بن الوحيد الزرعي، شرف الدين، توفي سنة ٧١١ هـ. (انظر: السلوك ٢/ ١١٣، الدرر الكامنة ٤/ ٧٣، فوات الوفيات ٣/ ٣٩، الوافي بالوفيات ٣/ ١٥٠).

(٢) نصر المنبجي: هو نصر بن سليمان بن عمر المنبجي، أبو الفتح، كان محدثًا فقيهًا عارفًا بالقراءات، توفي سنة ٧١٩ هـ (انظر: شذرات الذهب ٦/ ١٣٦، الدرر الكامنة ٤/ ٣٩٢).

وكان قد خرج عن الطاعة من مدة طويلة، وتوجّه إلى بلاد الشرق، ولحق بالتتار، فعادَ الآن بمن معه، فأحْسَن السلطانُ إليهم، وشملهم بالإنعام والإقطاعات، وفرقهم في بلاد الشام وعفا عن ذنوبهم السالفة، ولم يؤاخذهم.

وفيها في شهر ربيع الأول وصل رسل الملك طُقْطَاي صاحب صَرَاي وبلاد القَبْجَاق، فأكرمهم السلطان وأحسن إليهم، وأنزلهم بمناظر الكَبْش، وأعادهم إلى مرسلهم صحبة رسوله إليه وهو الأمير سيف الدين بَلَبَان الصَّرخدي[1] وذلك في شهر رجب.

وفيها في جمادى الأولى وفد إلى الأبواب السلطانية جماعةٌ من التتار نحو مائتي فارس بنسائهم وأولادهم، وكان وُصُولهم إلى دمشق في تاسع الشهر، وقيل: إن منهم أربعةً من سلاح سارية المَلِك غازان.

وفيها عاد القاضي بدر الدين محمد بن فضل الله العُمرِي[2] من بلاد التتار، وكان وصوله إلى دمشق في يوم الأربعاء الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، وكان ممنْ استصحبه وزير غازان معه إلى بلاد الشرق في سنة تسع وتسعين وستمائة فعاد الآن.

---

(١) توفي سنة ٧٣٠ هـ (السلوك للمقريزي ٢/٣٢٦).

(٢) المقر البدري ابن فضل الله: هو بدر الدين محمد بن محيي الدين بن فضل الله، وهو أحد أفراد أسرة فضل الله العمري التي تولت لأكثر من قرن من الزمان وظيفة صاحب ديوان الإنشاء، أو كاتب السر في دولتي المماليك البحرية والبرجية. وقد شغل أفراد هذه الأسرة هذه الوظيفة عن جدارة أدبية، وإلى أحد أفرادها، وهو القاضي شهاب الدين أحمد بن محيي الدين يرجع الفضل في وضع المصطلح الشريف الخاص بأصول المكاتبات والمراسلات وغيرها من أعمال ديوان الإنشاء. وكان بدر الدين محمد صاحب فضل كبير على القلقشندي نفسه، فهو الذي ألحقه بالعمل بديوان الإنشاء. وقد تولّى رئاسة ديوان الإنشاء من بين أفراد الأسرة خمسة أشخاص وهم:

١ ـ القاضي شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله.

٢ ـ القاضي محيي الدين بن فضل الله، ومعه ابنه القاضي شهاب الدين أحمد، وكان يقرأ البريد على السلطان وينفذ المهمات.

٣ ـ القاضي محيي الدين بن فضل الله، ومعه ابنه القاضي علاء الدين، وكان كأخيه شهاب الدين أحمد يقرأ البريد على السلطان وينفذ المهمات.

٤ ـ القاضي علاء الدين بن محيي الدين بن فضل الله استقلالاً.

٥ ـ القاضي بدر الدين محمد بن محيي الدين بن فضل الله (انظر: القلقشندي وكتابه صبح الأعشى ص ١٠٦ ـ ١٠٧).

وفيها في شهر رمضان عاد رُسُلُ السلطان الذين كانوا توجهوا إلى غازان، وهما: الأمير حسام الدين أزْدَمُر المُجيري، والقاضي عماد الدين بن السكري وصحبتهما رسول خَرْبَنْدا ملك التتار القائم بعد أخيه غَازَان، وكان وصولهم إلى دمشق في يوم الأحد رابع عشرين شعبان، فتلقاهم نائب السلطنة بالشام وسائرُ الجيش بظاهر دمشق بأحسن زينة وأفخر ملبوس. ثم توجهوا إلى الأبواب السلطانية في يوم الثلاثاء السادس والعشرين من الشهر، وكان مضمون رسالتهم ـ فيما بلغني ـ طلب الصلح والموادعة، وكفّ الغارات من الجهتين، وانتظام الصلح، واجتماع كلمة الاتفاق. فأحسن السلطانُ إلى رسله وأكرمهم، وأعادهم صحبة رسوله علاء الدين علي ابن الأمير سيف الدين بَلَبَان القليجي أحد مقدمي الحلقة المنصورة، والقاضي سليمان المالكي الشَبْرَايْرِيقي، وشَبْرَايريق قرية من قُرى الغربية بالديار المصرية، وهو أحد نُوّاب الحكم، وتوجّهُوا في ذي القعدة وعادوا في شهر رمضان سنة خمس وسبعمائة، ومعهم رسل الملك خَرْبَنْدا.

وفيها عُزِلَ الأمير ناصر الدين محمد الشيخي[١] عن الوزارة في أواخر شعبان، ورسم بمصادرته، وصُودِرَ وضُرِب بالمقارع بين يدي عز الدين أيبك الشجاعي شاد الدواوين[٢] إلى أن مات، وكان قد أحدث مظالم كثيرة وقصد تجدِيدَ ما هو أشنع منها وأفحش من المكوس المنكرة والحوادث التي ما سُمِعَ بمثلها، فما أمهله القدرُ، وأخذه الله تعالى شر إخْذَة، وأراح الناسَ من شره.

وكان ناصر الدين في ابتداء أمره يَخيطُ الأقباع بالقاهرة في كل يوم بنصف درهم، ثم خدم الأمير شمس الدين بن التيتي[٣] وحضر معه من بلاد التتار في الدولة المنصورية، ثم توصَّل وخدم جنديًا من الحلقة فأعطي إقطاعًا بساحل الغَلّة، فبذل في شد الجهة بذلًا ووليها، فظهر منه اجتهاد، ثم نقل إلى شدّ الدواوين مدة، ثم نُقل إلى ولاية القاهرة، وتأمَّر بطبلخاناه، ثم ولي الجيزية، ومنها إلى الوزارة.

---

(١) ناصر الدين محمد الشيخي: كذا هنا، وفي الدرر الكامنة ٢/ ١٩٥: ذبيان بن عبد الله المادي الشيخي ناصر الدين، توفي سنة ٧٠٤ هـ.

(٢) شاد الدواوين: هو متولي التفتيش على الدواوين، والشاد هو متولي الوظيفة المخصصة بالكلمة المضافة إليه، وكانت مهمة شاد الدواوين مرافقة الوزير والتفتيش على مالية الدواوين وعلى موظفيها، وعادته إمرة عشرة (مصطلحات صبح الأعشى ص ١٩١).

(٣) شمس الدين بن التيتي: هو الأمير الكبير الأديب شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن أبي سعد بن علي بن المنصور بن محمد بن الحسين بن التيتي الشيباني الآمدي، توفي سنة ٧٠٤ هـ (انظر: شذرات الذهب ٦/ ١١، السلوك للمقريزي ٢/ ١٣).

ولما عُزل فُوضت الوزارة إلى القاضي سعد الدين بن عطايا(١)، وكان يلي نظر البيوت السلطانية فنُقل إلى الوزارة، وخُلِعَ عليه في يوم الأربعاء ثاني عشر شهر رمضان، وكان الذي اعتنى بأمره وعيَّنه لهذا المنصب الأميرُ عَلَمُ الدين سَنْجرَ، الجاولي(٢) أستاذ الدار العالية. ولقد شَاهَدْتُ الصاحبَ سعد الدين هذا قبلَ وزارته بثلاثة أيام وهو قائم بين يدي الأمير علم الدين المذكور وهو يقرأ عليه ورقة حسابٍ لعلها تتعلق بديوان البيوت، فلما وَلِيَ الوزارة حَضَر الأميرُ علمُ الدين معه إلى مجلس الوزارة، وجلس بين يديه ووقّع الصاحب، وكتب بالامتثال فَرَمّل على خطه فيما بلغني.

وفي هذه السنة وصل رسول من جهة أبي يعقوب المريني(٣) صاحب بلاد المغرب: وهو علاء الدين الشهرزوري وأصله من أولاد الشهرزورية الذين نُفُوا في الدولة الظاهرية، وحضر صحبته هدايا جليلة كثيرة، كثير من الخيل والبغال بالسروج، وجملةٌ من القماش والذهب على سبيل الهدية والأمداد، فَقُبِلت هديّتهُ، وأنعم على رسول له. في سنة خمس، وأعيد إلى مرسله على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

وفيها وصلُ مُتَملّك دُنْقُلَة وبلاد النوبة إلى الأبواب السلطانية، وأحضر صحبته التَّقْدمة الجاري بها العادة، والبَقْط(٤) من الرَّقِيق والهجن والثمار والسُنْبَاذَج(٥) وغير ذلك، وسأل السلطانُ معه عسكرًا لينهض به على أعدائه الذين يؤخرون مطيعه؛ فجرّدَ معه الأمير سيفَ الدين طَقْصُبَا في طائفة من العسكر فتوجّه بهم وأغار وأوغَلَ في بلاد النُّوبَة وعاد.

---

(١) سعد الدين بن عطايا: هو محمد بن محمد بن عطايا، سعد الدين، توفي سنة ٧٣٠ هـ (انظر: السلوك للمقريزي ٢/ ٣٢٧).

(٢) علم الدين سنجر الجاولي: هو سنجر بن عبد الله الجاولي، أبو سعيد، علم الدين، توفي سنة ٧٤٥ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١٤٢، الدليل الشافي ١/ ٣٢٤، النجوم الزاهرة ٨/ ١٥٥، الدرر الكامنة ٢/ ٢٢٦).

(٣) أبو يعقوب المريني: هو يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني، أبو يعقوب، ملك المغرب، توفي سنة ٧٠٦ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١٣، السلوك ٢/ ١: ٢٣، النجوم الزاهرة ٨/ ٢٢٥، الدرر الكامنة ٤/ ٤٨٠).

(٤) البقط: هو ما يقبض من سبي النوبة في كل عام، ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم (خطط المقريزي ٣/ ٣٥٢).

(٥) السنباذج: نوع من الحجارة تستعمل للجلاء والتنعيم (السلوك ٢/ ١: ٨).

ذكر ما وقع في هذه السنة بدمشق من الحوادث والولايات

كان مما وقع هذه السنة بدمشق أن نائب السلطنة بها الأمير جمال الدين آقُش الأفرم أمر بعقد مجلس لنجم الدين أبي بكر ابن القاضي بهاء الدين خلِّكان، وسماع ما يدّعيه، وكان قد تكرر منه أنه حكيم الزمان، وأنه يُخَاطَبُ بكلام يشبه الوَحْي بزعمه، وذكر ألفاظًا يدّعي أنه خُوطِب بها وهي: يا أيها الحكيم افعل كذا، وأشباه ذلك، وادعى أنّه قد اطلع على علوم كثيرة؛ منها: عمل طبل إذَا ضُرِبَ به انهزم جيشُ العدوّ، وعمل طلسم إذا كان مع الملك وأحْضرِ إلى مجلسه السُّمُ حصل للملك أعراضٌ، يعْلم ذلك منها، وأشباه هذا من الأعمال، فأحْضر بين يدي نائب السلطة وحضر المجلس الشيخُ صدر الدين ابن الوكيل[١] والشيخ كمال الدين بن الزملكاني[٢] خاصّة، وطُولبَ بإقامة البرْهان على صحّة دعواه، فلم يأت بما يدل على ذلك، فاعْتُذِرَ عَنْه عند نائب السلطنة أنّه من بيْتِ رياسةٍ، ورجل فقير، وأنه قليل الاجتماع بالناس، وأن هذا الذي يَعْرِض له نوعٌ من الوَسْواس، وتاب هو إلى الله تعالى مما كان يَدَّعيه، واستمر مُدَّة ثم عاد إلى ما كان عليه من الدعوى فعُقِد له مجلسٌ في ثالث شهر رمضان سنة سبع وسبعمائة بدمشق أيضًا بحضور نائب السلطنة المشار إليه وقضاة القضاة والعلماء، وحصل البحث في أمره فأفتى بعض العلماء بقتله، وأفتى بعضهم باستتابته وتعذيره، فَجُدِّدَ عليه مكتوبٌ بالتوبة عن الكلام في المُغَيَّبَات، واعتنى به الأمير سيف الدين بَكْتُمُر الحاجب كما أخبرني فأقامه من المجلس وقال: هذا رجل مجنون وأرسله إلى البيمارستان[٣] النوري، فأقام به مدة ثم خرج منه، ثم عاد إلى ما كان عليه، وهذا المذكور مستمرٌّ على دعواه لا يرجعُ عنها إلى سنة خمس وعشرين وسبعمائة، وهو بالقاهرة لا يزال يذكر هذا القول ويلهُج به ويدَّعيه وحضر إليَّ مرَارًا ونهيتهُ عنه فلم ينته ولا يرجع، ويقول: إنه حكيم الزمان، وإنه يُخَاطب بما صورته بيا أيها الحكيم، ويذكر السلطان الملك الناصر ويقول: إنّهُ أرْسِلَ إليه، وإنه إذا اجتمع به له من الأوفاق والطلمسات أشياء كثيرة ذَكَرَها لي يطول شرحها، وهو يتردَّدُ إلى قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة

---

(١) صدر الدين ابن الوكيل: ويعرف أيضًا بابن المرحل، تقدمت ترجمته.

(٢) كمال الدين بن الزملكاني: تقدمت ترجمته.

(٣) البيمارستان: ويقال له أيضًا: المارستان: وهو دار المرضى (القاموس ٢/ ٢٦٠)، وكان البيمارستان دارًا للعلاج ومكانًا لتدريس الطب (الموسوعة العربية الميسرة ص ٤٧٢)، وأول من اتخذ البيمارستان بمصر أحمد بن طولون بناه بالفسطاط، (صبح الأعشى ١/ ٤٩١).

الشافعي، ويعرض عليه أقواله، ويسأله الحديث له مع السلطان، فيصرفه عن ذلك، ويصرف له من الصدقات الحكمية ما يرتفق به.

ولما تكرر هذا القول منه وشاع وذاع عنه اتَّصل بالأمير سيف الدين ألْجَاي الدوادار الناصري في سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة وأحضره وطالبه. بإقامة البرهان على صحة ما يَدَّعيه فذكر أن الذي يذكره إنما يظهر ويفيد بين يدي السلطان، فقال له: أنا أجمع بينك وبين السلطان، فقال نجم الدين: إنما أمرتُ أن يَتَحدَّثَ لي مع السلطان قضاةُ القضاة، ولم أومَرْ بك، فقال: أنا أدَعُ القضاة، يتكلّمون مع السلطان في أمْرِك، وحَصَرَه وضايقه بكل طريق وأقام عنده بمنزله بالقلعة أيامًا ثم عرض عليه التوبة والرجوع عن هذه الأقوال فتاب ورجع عنها بحضوره، وأخذ منه كتابًا كان يدَّعي أنّه جميعه ممّا خُوطِبَ وأطلقه ثم اجتمع بي بعد ذلك في سنة خمس وعشرين وسبعمائة وهو باقٍ على دعواه مُصرٌّ على مقالته عافاه الله تعالى وهذا الرجل كان قبل هذه الدعوى ينوب عن القضاة بالشام، وناب عن القاضي بدر الدين بن جماعة في بعض الأعمال، فلما غلب عليه هذا الحال ترك الولايات الحكمية وأخذ في هذا النوع.

وفي هذه السنة رسم للأمير ركن الدين بيبرس العلائي أحد الأمراء بالشام أن يكون حاجبًا بدمشق رفيقًا للأمير سيف الدين بَكْتَمُر الحسامي، فامتنع من ذلك، وسأل الإعفاء، ثم أجاب ولبس التشريف السلطاني ووقف في الخدمة واستمر في الحَجَبَة هو والأمير سيف الدين بكْتَمُر وذلك في منتصف جمادى الآخرة، وكانا حاجبين كبيرين.

وفيها في يوم الاثنين سادس عشرين شهر رجب توجه الشيخ تقي الدين بن تَيمية وجماعةٌ إلى مسجد التاريخ ظاهر دمشق، وأحضر جماعة من الحجَّارين وقطع صَخْرةً هناك كان الناس يزورونها وينذرون لها، وكان للناس فيها أقاويلُ، فأزالها.

وفي يوم الثلاثاء خامس عشرين شهر رمضان ضرب عنق الكمال الأحدب رئيس قلعة جديا من غوطة دمشق، وسبب ذلك أنه حضر إلى قاضي القضاة جمال الدين المالكي مستفتيًا وهو لا يعلم أنه قاضي القضاة فاستفتاه في رجل خاصم رجلًا فقال أحدهما للآخر: تكذب ولو كنت رسول الله فسأله القاضي، من قال هذا؟ قال: أنا. فأشهد عليه من حضر مجلسه وذلك في يوم الاثنين رابع عشرين الشهر، وحكم في يوم الثلاثاء بإراقة دَمِه في دار العدل، فُضرِبَتْ عُنُقُهُ بسوق الخيل، ثم غُسِّل وكُفِّن وصُلِّي عليه ودُفن.

وفيها في يوم الجمعة سادس عشرين من شوال حكم قاضي القضاة جمال الدين المالكي بدمشق بإراقة دم أبي السرور السامري كاتب الأمير سيف الدين أَسَنْدَمُر كُرْجي نائب السلطنة بالفتوحات، وأن ماله فيء للمسلمين، وأشهد على نفسه بذلك بعد أن شهد عنده على المذكور بما يقتضي الحكم عليه بذلك من العظائم، وكان هذا الكاتب المذكور قد تمكَّنَ من الأمير سيف الدين أَسَنْدَمُر بطرابلس تمكنًا عظيمًا، فكان يركب معه في الموكب الخيلَ المسوَّمَة بالسروج المذهبة، والكتابيش[1] الحرير، ويسايره في المواكب، وإذا قرب من دار السلطنة وترجّل الأمراء في الخدمة تقدّم هو بفرَسِه والأمراء وغيرهم مشاة، وهو مستمر الركوب إلى باب دار السلطنة، وقصد الأمير سيف الدين بالوج الحسامي أحد الأمراء بطرابلس قَتْلَه ورتَّب له مَن يقتله، فضربه بالسيف بعد المغرب فوقعت عمامته، فظن الضارب أنه ضربَ عُنُقَه، وجَرَى فذلك أمور يطول شرحها أوجبت اعتقال بالوج.

ولما اتَّصَل خبره بالأبواب السلطانية رُسِمَ بطلبه فأخفاه مخدُومُه وادّعى هَرَبَه، وخشي أنه إن أرسله تكلّم عليه بما يؤذيه، فاقتضى رأيه أنه جَهَّزَه إلى دمشق مختفيًا صحبه عزِّ الدين أَيْدَمُر أحد مماليكه، وأمره أنه إذا قرُبَ من دمشق يقتله ليلًا، ففعل ذلك ووُجِد مقتولًا، وعُرِفَ بأثرٍ كان في جسده.

وفيها في يوم الخميس ثاني ذي القعدة بعد العصر حكم قاضي القضاة جمال الدين المالكي أيضًا بإراقة دم شمس الدين محمد ابن الشيخ جمال الدين عبد الرحيم البَاجُرْبَقِي[2] وعدم قبول توبته، وكان قد شُهِّد عَليه بأمور تُوجِبُ ذلك، وكان الذين شهدوا عليه الشيخ مجدُ الدين التونسي، وعماد الدين محمد ابن القاضي شرف الدين بن مزهر، والشيخ أبو بكر ابن شرف الصالحي، وجلال الدين ابن البخاري خطيب الزنجيلية ومحيي الدين محمد الرفاعي، وإبراهيم بن إسماعيل اللبناني فهرب المذكور خوفًا من القتل، فلما كان في السابع عشر من رمضان سنة ست وسبعمائة نهضت بينه عند القاضي تقي الدين سليمان الحنبلي أن بين شمس الدين المذكور وبين من شَهِدَ عليه عداوة توجب إسقاط شهادتهم في حقه، وشهد بذلك الشيخ ناصر الدين ابن عبد السلام، والشريفان زين الدين ابن عدلان وأُخُوه قطب الدين ابن شيخ السلامية، وشهاب الدين الرومي، وشرف الدين قيران الشمس وغيرهم، قريبًا من

(١) الكتابيش: جمع كتبوش، وهو البرذعة التي تجعل تحت السرج.
(٢) توفي سنة ٧٢٤ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٦٤، الدرر الكامنة ٤/ ١٢).

عشرين شاهدًا، فحكم القاضي تقي الدين عند ذلك بحَقْنِ دَمِه وإبطال ما حكم به في حقه، ونفّذ حكمه القاضي شمس الدين الأذرعي الحنفي، فأنكر المالكي ذلك وأشهد على نفسه أنّه باقٍ على حُكْمه بإراقة دمه، ولم يظهر ابن البَاجُريقيّ بسبب هذا الاختلاف.

وفي هذه السنة توفي السيد الشريف

عز الدين جَمَّاز بن شيحة[١] أمير المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وكان، قد أضر في آخر عمره، وأقام بإمْرة المدينة بعده ولده الأمير ناصر الدين منصور وتوفي الصاحب أمين الدين أحمد ابن الصاحب فخر الدين محمد ابن الصاحب الوزير بهاء الدين علي بن محمد بن سليم المعروف جَدُّه بابن حنًا، وكانت وفاتُه في ليلة الخميس ثامن صفر، وكان فقيهًا شافعيًا ديّنًا خيّرًا كثير الْبِر والصّدَقَة والمعروف والإيثار مع تَخلّيه عن المناصب، ودُفن في قبرٍ كان قد حَفَره لنفسه بقرب الشيخ ابن أبي حمزة رحمهما الله تعالى وتوفّي بدمشق في يوم الأربعاء ثالث عشرين جمادى الآخرة الأمير ركن الدين بيبَرس الموفقي المنصوري[٢]، أحدُ الأمراء مقدمي الألوف بدمشق، وظهر بعد وفاته أنّ مماليكه خنقُوه وهو سكران، ولم يُخلِفَ وارثًا غير من يرثه بالولاية، فادعى أولاد الأمير شمس الدين سنقر الأشقر أنّه مملوك أبيهم باقٍ على رقّه وأن عتْقَ السلطان الملك المنصور له لم يصادف محلًا، فطولبوا بالإثبات فعجزوا عنه، وشهد الأمير شجاع الدين نقيب العساكر بدمشق أن ركن الدين المذكور كان مملوك الموفق نائب الرّحَبَة وأنّه جهّزه في جملة تقدمة إلى السلطان الملك المنصور في ابتداء سلطنته، فوصل إلى دمشق وقد استولى الأمير شمس الدين سُنْقُر الأشْقُر عليها فوضع يده على التقدمة وأخذ بيبرس هذا في جُمْلة ما أخذ، فلما أخْرِجَ الأمير شمس الدين من دمشق استعيد بِيَبْرس هذا، وأحضر إلى السلطان، وقال الموفق إنه إنما سيّره السلطان الملك المنصور فورثه السلطان الملك الناصر بالولاء الشرعي، ودفع أولاد سُنْقُر الأشقر عن ميراثه.

وتوفي الأمير شمس الدين محمد ابن الصاحب شرف الدين إسماعيل بن أبي سعد الآمدي المعروف بابن التيتي[٣] في أحد الجمادين وكان رجلًا فاضلًا سمع

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٥٨، والعقد الثمين ٣/ ٤٣٦.
(٢) انظر ترجمته في: الدليل الشافي ١/ ٢٠٥، والدرر الكامنة ٢/ ٤٣، والنجوم الزاهرة ٨/ ٢١٦.
(٣) ابن التيتي: تقدمت ترجمته.

الحديث وأسمعه، وَوَلي نيابةَ دارِ العَدل مدّة في الدولة المنصورية الحسامية، وفيها قتل الأمير سيف الدين بهادر شمس المنصوري[١] أحد الأمراء بدمشق، وكان قد توجه في خدمة نائب السلطنة إلى الصيد بالمرج فكبسهم طائفة من عرب غزْنة، ولم يعلموا أن نائب السلطنة بالعسكر، فركب بهادر سمز هذا وحمل على العرب وجعل يرميهم بالنّشّابِ ويقول: أنا بهادُر دمشق، فرماهُ بعضُ العرب بحربة وقال: خذها وأنا عصفور بن عصفور فقتله، وحُمل إلى تربة قبر ابن الست فدفن هناك، وقتل أكثر العرب، ولم ينج منهم إلّا من أسرع به فرسه، ولما مات ورثه أخوه بهادر الجمالي مملوك نائب السلطنة أثْبَتَ أُخُوَّتَه، ولم يحصل له من ميراثه إلّا نحو عشرين ألف درهم، فإنه ظهر عليه من الديون ما يقارب ثلاثمائة ألف درهم، فَبِيع مَوجوده وَوُفِّيَتْ ديونهُ وتسلم أخوه ما بقي.

واستهلت سنة خمس وسبعمائة

في هذه السنة عاد علاء الدين أيْدغدي رسول المريني[٢] ملك المغرب والحجاز الشريف، وكتب جوابه وجُهِّز إلى مُرْسله، وأرسِل معه الأمير علاء الدين أيدغْدِي التليلي والأمير علاء الدين أيْدُغْدِي الخَوَارزْميّ، وجهّز معهما إلى الملك ما يليق به من الهدايا النّفيسة، وجُهِّز له خمسة عشر مملوكًا من التتار الذين أسِرُوا في وقعة مَرْج الصَّفَّر وخمسة مماليك أتراكًا وفيها وصل رسول الملك المؤيد هِزَبْر الدين داود[٣] وصاحب اليمن ومعه الهدايا والتقادم من البهار والقنا والأقمشة والتحف، وغير ذلك، فَعُرِضتَ هَدِيَّته وقُوبلتْ بما جَرَت العادةُ به من هديتهم فكانت أقَلّ منها، فصدرت إليه الأمثلة السلطانية بالإنكار والتهديد والإغلاظ له في القول وأرسلت فعاد الرسول بغير جواب فأوجب ذلك ما نذكره من الاهتمام بقصد اليمن وإرسال الرسل والله أعلم.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٢١٧، الدليل الشافعي ١/ ٢٠١، البداية والنهاية ١٤/ ٣٤، الدرر الكامنة ٢/ ٣١).

(٢) المريني ملك المغرب: تقدمت ترجمته.

(٣) هزبر الدين داود: هو داود بن يوسف بن عمر بن رسول التركماني، ولي اليمن بعد وفاة أخيه الملك الأشرف سنة ٦٩٦ هـ. وتوفي سنة ٧٢١ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٥٥، الدرر الكامنة ٢/ ١٩٠، فوات الوفيات ١/ ٤٢٨).

ذكر الإغارة على بلاد سيس وأسر الأمراء

وفي هذه السنة في شهر المحرم أغارت العساكر الحلبية على بلاد سيس وكان الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصوري قد جَرَّدَ طائفةً من العسكر الحلبي في ذي الحجة سنة أربع وسبعمائة، وقدم عليهم مملوكه الأمير سيف الدين قَشْتُمر، وكان وَلَدُ قطلوشاه بأطراف الروم في ثلاثة آلاف فارس فأرسل إليهم صاحبُ سيس، وبذَلَ لهم مالًا جزيلًا يقال إنه بذل لكل واحد سبعمائة درهم وكان عنده جمع من الفرنج فاجمعوا هم والتتار في ستة آلاف فارس، فلما كان في مستهلّ هذه السنة بلغ العسكر الحلبي اجتماعهم، فذكر الأمراء ذلك لمقدمهم الأمير سيف الدين قَشْتَمُر وأشاروا عليه أنهم يرحلون بالغنائم قبل أن يلحقهم العدو، فلم يرجع إلى رأيهم وقال: أنا بمفردي ألتقي هذا الجمع فراجعوه فلم يرجع، ففارقه بعضُ الأمراء في نحو ربع العسكر، وساق تلك الليلة جميعها ونجا بمن معه، وبقي بقية العسكر فجاءهم التتار ومن انضم إليهم من الأرمن، فانهزم من بقي من العسكر الحلبي من غير قتال، فأسر التتار منهم وقتلوا، وأسروا من الأمراء بحلب فتح الدين صُبْرَة المهمندار، وشمس الدين آقْسُنْقُر الفارسي، وسيف الدين قَشْتَمُر النَّجيبي، وسيف الدين قَشْتَمُر المظفَّري في جماعة من العسكر وأرسلوا إلى الأرْدَوَ وسَلِم الأمير سيف الدين قَشْتَمُر الشَّمْسِيّ مقدم الجيش في جماعة، ووصلوا إلى حلب.

ولما وقع ذلك ندم صاحب سيس وخشي غائلة العساكر، وكتب إلى الأمير شمس الدين قراسنقُر نائب السلطنة بحلب يبذل له الطاعة والأموال، ويسأل الصفْحَ عن ذنبه، وأنه يقوم بالقطيعة المقررة عليه، فَطَالَع قَراسُنْقُر الأبواب السلطانية في ذلك فأجيب سؤالُه.

وفي هذه السنة وصل إلى الأبواب السلطانية رُسُل ملك الكُرْجَ وكان وصولهم من جهة القُسْطَنْطِينيّة، وجهزَهُم الأشكري صحبة رُسُلِهِ، فوصلوا إلى الأبواب السلطانية، وكان مضمون رسالتهم سؤال السلطان أنْ تُعادَ عليهم كَنِيسةٌ مَعْرُوفَةٌ بهم بالقدس تسمى المصالبة كانت قد أخذت منهم فأعيدت إليهم وفيها وصل إلى الأبواب السلطانية من بلاد التتار سيف الدين حنا وفخر الدين داود إخوة الأمير سيف الدين سلّار نائب السلطنة الشريفة، ووصلت والدته أيضًا معهما فأنعم السلطان عليهما وأمرهما طبلخانات.

ذكر توجّه العساكر الشامية إلى بلاد الكسروان وإبادة مَن بها وتمهيدها

كان أهل جبال الكسروان قد كثروا وطَغَوا واشتدت شوكتهم، وتطرقوا إلى أذى العسكر الناصري عند انهزامه في سنة تسع وتسعين وستمائة، وتراخى الأمر وتمادى وحصل إغفال أمرهم فزاد طُغْيَانُهم وأظهروا الخروج من الطاعة، واغْتَرُّوا بجِبالِهِم المنِيعة، وجموعهم الكثيرة، وأنه لا يمكن الوصول إليهم، فجهَّز إليهم الشريف زين الدين بن عدنان، ثم توجّه بعده في ذي الحجة سنة أربع وسبعمائة الشيخ تقي الدين ابن تَيْمِيّة، والأمير بهاء الدين قراقوش الظاهري، وتحدثا معهم في الرجوع إلى الطاعة فما أجابُوا إلى ذلك، فعند ذلك رسم بتجريد العساكر إليهم من كل جهة ومملكة من الممالك الشامية، وتوجّه نائبُ السلطنة الأمير جمال الدين آقوش الأفرم من دمشق بسائر الجيوش في يوم الاثنين ثاني المحرم وجمع جمعًا كثيرًا من الرجال فيقال إنه اجتمع من الرجالة نحو خمسين ألفًا وتوجهوا إلى جبال الكسروانيين والجرديين وتوجه الأمير سيف الدين أسندَمُر بعسكر الفتوحات من الجهة التي تلي بلاد طَرَابُلْس، وكان قد نسب إلى مُبَاطنتِهم، فكُتِبَ إليه في ذلك، فجرّد العزم وأراد أن يفعل في هذا الأمر ما يمحو عنه أثر هذه الشناعة التي وقعت وطلع إلى جبل الكسروان من أصعب مسالكه واجتمعت عليهم العساكر فَقُتِلَ منهم خَلْق كثير، وتبدد شملهم وتمزقوا في البلاد، واستخدم الأمير سيف الدين أسندَمُر جماعة منهم بطرَابُلُس بجامكية وجِرَايَة من الأموال الديوانية، وسمَّاهم رجال الكسروان وأقاموا على ذلك سنين وأقطع بعضهم أخْبَارًا من حَلَقَة طرابلس، وتفرق بقيتهم في البلاد واضمحل أمْرُهم وخَمُل ذكرهم، وعاد نائب السلطنة إلى دمشق في رابع عشر صفر من السنة وأقطع جبال الكسروانيين والجرديين لجماعة من الأمراء التركمان وغيرهم منهم: الأمير علاء الدين بن معبد البعلبكي وعز الدين خطاب، وسيف الدين بُكْتُمُر الحُسامي، وأعْطُوا الطبلخانات وتوجَّهُوا لعمارة إقطاعهم وحفظ ميناء البحر من جهة بيروت.

وفي هذه السنة في شهر ربيع الأول نقل الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الحسامي الحاجب من الحجبة بدمشق إلى شد الدواوين وأستاذ الدارية بالشام فامتنع من ذلك ثم أُلْزِم فاشترط شروطًا فطولع بها فأجيب إليها وباشر الوظيفة، وأوقعت الحوطة على الأمير شرف الدين قيران المشد وفيها أفرج عن الأمير سيف الدين الحاج بَهَادُر الحلبي

وأنعم عليه بإمرة بدمشق، وتوجه إليها وكان في الاعتقال من الأيام المنصورية الحسامية والله أعلم.

وفي هذه السنة كانت بدمشق فتنة بين جماعة من الفقراء الأحمدية والشيخ تقي الدين بن تيمية وذلك أنهم اجتمعوا في يوم السبت تاسع جمادى الأولى عند نائب السلطنة وحضر الشيخ تقي الدين فطلبوا منه أن يسلم إليهم حالهم وأن تقي الدين لا يعارضهم ولا ينكر عليهم وأرادوا أن يظهروا شيئًا مما يفعلونه فقال لهم الشيخ: إن اتِّبَاع الشريعة لا يسع الخروج عنه، ولا يُقَرُّ أحد على خلافه، وهذه البدع التي تفعلونها من دخول النار وإخراج الزبد من الحلق لها حيل ذكرها وقال: من أراد منكم دخول النار فليغسل جسده في الحمام ثم يدلكه بالخل ثم يدخل بعد ذلك فإن قدر على الدخول دخلت معه ولو دخل بعد ذلك لم يرجع إليه بل هو فعل من أفعال الدجال فانكسرت حِدَّتهم وانفصل المجلس على أنهم يخلعون الأطواق الحديد من أعناقهم، وعلى أن مَنْ خرج منهم عن الكتاب والسنة قوبل بما يستحقه وضبط المجلس المذكور وما وقع فيه وما الْتَزَم الفقراءُ الأحمدية الرفاعية به، وصنّف الشيخ جزءًا يتعلق بهذه الطائفة وأفعالهم.

ذكر حادثة الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمِيَّةَ

وما اتفق لِطائفَةِ الحنابلة، واعتقال تقي الدين وما كان من خبره إلى أن أفرج عنه أخيرًا كانت هذه الحادثة التي نذكرها في سنة خمس وسبعمائة وانتهت في أواخر سنة تسع وسبعمائة وكان لوقوعها أسباب وموجبات ووقائع اتفقت بالقاهرة ودمشق وقد رأينا أن نذكر هذه الواقعة ونشرح أسبابها من ابتداء وقوعها إلى انتهائها ولا نَقْطعها بغيرها وإن خرجت سنة ودخلت أخرى السبب المحرك لهذه الواقعة الموجب لطلب الشيخ تقي الدين المذكور إلى الديار المصرية فقد أطلعت عليه من ابتدائه وهو أن بعض الطلبة واسمه عبد الرحمٰن العينوسي سكن بالمدرسة الناصرية التي تقدم ذكرها بالقاهرة وكنت بها وبها قاضي القضاة زين الدين المالكي وغيره، فاتفق اجتماعي أنا والقاضي شمس الدين محمد بن عدلان الكناني القرشي الشافعي بمنزلي بالمدرسة المذكورة في بعض الليالي وهو أيضًا ساكن بالمدرسة ومعيد بها فحضر عبد الرحمٰن المذكور إلينا ومعه فتيا وقد أجاب الشيخ تقي الدين عنها فأخرجها من يده وشرع يذكر الشيخ تقي الدين وبسط عبارته وعلمه وقال هذه من جملة فتاويه ولم يرد فيما ظهر أذاه وإنما قصد والله أعلم نشر فضيلته فتناولها القاضي شمس الدين بن عدلان منه وقرأها فإذا مضمونها:

بسم الله الرحمٰن الرحيم ما تقول السادة الفقهاء أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين أن يبينوا ما يجب على الإنسان أن يعتقده ويصير به مسلمًا بأوضح عبارة وأبينها من أن ما في المصاحف هو كلام الله القديم أم هو عبارة عنه لا نفسه وأنه هو حادث أو قديم وأن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥] هو استواء حقيقة أم لا؟ وأن كلام الله عزّ وجلّ بحرف وصوت أم كلامه صفة قائمة لا تفارق وأن الإنسان إذا أجرى القرآن على ظاهره من غير أن يتأول شيئًا منه ويقول أومِنُ به كما أنزل هل يكفيه ذلك في الاعتقاد أم يجب عليه التأويل وأن السائل رجل متحير لا يعرف شيئًا وسؤاله بجواب ليّن ليقلد قائله افتونا مأجورين رحمكم الله.

فأجاب الشيخ تقي الدين ما صورته: الحمد لله رب العالمين الذي يجب على الإنسان اعتقاده في ذلك وغيره ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله واتفق عليه سلف المؤمنين الذين أثنى الله على من اتبعهم وذم من اتبع غير سبيلهم وهو أن القرآن الذي أنزله الله على محمد عبده ورسوله كلام الله وأنه منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود وأنه قرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون وأنه قرآن مجيد في لوح محفوظ وأنه في أم الكتاب لدى الله تعالى حفيظ وأنه في الصدور كما قال النبي ﷺ «استذكروا القرآن فهو أشد تفلتًا من صدور الرجال من النعم من عقلها» وقال: «الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب» أن ما بين لَوْحَيْ المصحف الذي كتبه الصحابة كلام الله كما قال النبيّ ﷺ: «لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن تناله أيديهم» فهذه الجملة تكفي المسلم في هذا الباب وما تفصيل ما وقع في ذلك من النزاع فكثير منه يكون كلام الاطلاقين خطأ ويكون الحق في التفصيل ومنه ما يكون مع كل من المتنازعين نوع من الحق ويكون كل منهما حق صاحبه وهذا من التفرق والاختلاف الذي ذمه الله ونهى عنه فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: الآية ١٧٦]، قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: الآية ١٠٥]، وقال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: الآية ١٠٣]، وقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: الآية ٢١٣] فالواجب على المسلم أن يلزم سنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين والسابقين من الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان. وما تنازعت فيه الأمة وتفرقت فيه إن أمكنه أن يفصل النزاع بالعلم والعدل وإلا استمسك بالجمل الثابتة بالنص والإجماع وأعرض عن الذين فرقوا دينهم

وكانوا شيعًا فإن مواقع التفرق والاختلاف عامتها تصدر عن اتباع الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى، وقد بسطت القول من جنس هذه المسائل ببيان ما كان عليه سلف الأمة الذي اتفق عليه العقل والسمع وبيان ما يدخل في هذا الباب من الاشتراك والاشتباه والغلط في مواضع متعددة ولكن نذكر هنا جملة مختصرة بحسب حال السائل، والواجب أمر العامة بالحمل على الثابت بالنص والإجماع ومنعهم من الخوض في التفصيل الذي يوقع بينهم الفرقة والاختلاف فإن الفرقة والاختلاف من أعظم ما نهى الله عنه ورسوله، والتفصيل المختصر فنقول: من اعتقد أن المداد الذي في المصحف وأصوات العباد قديمة أزلية فهذا ضال مخطىء مخالف للكتاب والسنة وإجماع السابقين الأولين وسائر علماء المسلمين ولم يقل أحد قط من علماء المسلمين إن ذلك قديم لا من أصحاب الإمام أحمد ولا من غيرهم ومن نقل قدم ذلك عن أحد من علماء أصحاب الإمام أحمد ونحوهم فهو مخطىء في هذا النقل أو متعمد الكذب بل المنصوص عن الإمام أحمد وعامة أئمة أصحابه تبديع من قال لفظي بالقرآن غير مخلوق كما جهموا من قال اللفظ بالقرآن مخلوق، وقد صنّف أبو بكر المروزي أخص أصحاب الإمام أحمد به في ذلك رسالة كبيرة مبسوطة، ونقلها عنه أبو بكر الخلال في كتاب السنة الذي جمع فيه كلام الإمام أحمد وغيره من السنة في أبواب الاعتقاد وكان بعض أهل الحديث إذ ذاك أطلق القول بأن لفظي بالقرآن غير مخلوق فبلغ ذلك الإمام أحمد فأنكر ذلك إنكارًا شديدًا وبدع من قال ذلك وأخبر أن أحدًا من العلماء لم يقل ذلك فكيف من يزعم أن صوت العبد قديم وأقبح من ذلك من يحكي عن بعض العلماء أنّ المداد الذي في المصحف قديم، وجميع أئمّة أصحاب الإمام أحمد وغيره أنكروا ذلك، وما علمت أنّ عالمًا نقل ذلك إلّا ما بلغنا عن بعض الجهال من الأكراد ونحوهم وقد ميّز الله تعالى في كتابه بين الكلام والمداد؛ فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: الآية ١٠٩] فهذا خطأ من هذا الجانب، وكذلك من زعم أنّ القرآن محفوظ في الصدور، كما أن الله معلوم بالقلوب، وأنه متلو بالألسن، كما أن الله مذكور بالألسن، وأنه مكتوب في المصحف، كما أنّ الله مكتوب في المصحف، وجعل ثبوت القرآن في الصدور والألسنة والمصاحف مثل ثبوت ذات الله في هذه المواضع، فهذا أيضًا مخطىء في ذلك، فإنّ الفرق بين ثبوت الأعيان في المصحف وبين ثبوت الكلام فيها بيّن واضح، فإن الأعيان لها أربع مراتب: مرتبة في الأعيان، ومرتبه في الأذهان، ومرتبة في اللسان، ومرتبة في البيان، فالعلم يطابق

العين، واللفظ يطابق العلم، والخط يطابق اللفظ، فإذا قيل: إن العين في الكتاب كما في قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ [القمر: الآية ٥٢] فقد علم أن الذي في الزبر إنما هو الخط المطابق للفظ المطابق للعلم فبين الأعيان وبين المصحف مرتبتان وهي اللفظ والخط وأما الكلام نفسه فليس بينه وبين الصحيفة مرتبة غيرهما بل نفس الكلام يجعل في الكتاب، وإن كان بين الحرف الملفوظ والحرف المكتوب فرق من غير وجه آخر إلا إذا أريد أن الذي في المصحف هو ذكره والخبر عنه، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: الآيات ١٩٢ - ١٩٧] فالذي في زبر الأولين ليس هو نفس القرآن المنزل على محمد. إن هذا القرآن لم ينزل على أحد قبله ولكن في زبر الأولين صح ذكر القرآن وخبره، كما فيها ذكر محمد وخبره، كما أن أفعال العباد في الزبر كما قال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ [القمر: الآية ٥٢] فيجب الفرق بين كون هذه الأشياء في الزبر وبين كون الكلام نفسه في الزبر، كما قال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ [الواقعة: الآيتان ٧٧، ٧٨]، وقال: ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾ [البينة: الآيتان ٢، ٣] فمن قال: إنّ المداد قديم فقد أخطأ، ومن قال: ليس في المصحف كلام الله وإنما فيه المداد الذي هو عبارة عن كلام الله فقد أخطأ، بل القرآن في المصحف، كما أنّ سائر الكلام في الأوراق كما عليه الأمة مجتمعة، وكما هو في نظر المسلمين، فإنّ كلّ مرتبة لها حكم يخصها، وليس وجود الكلام من الكتاب لوجود الصفة بالموصوف، مثل العلم والحياة بمحلها حتى يقال: إنّ صفة الله حلت بغيره أو فارقته، ولا وجوده فيه كالدليل المحض، مثل وجود العالم الدال على الباري تعالى، حتى يقال: ليس فيه إلا ما هو علامة على كلام الله، بل هو قسم آخر ومن لم يعط كل مرتبة فيما يستعمل فيها أداء الطرق حقها فيفرق بين وجود الجسم في الحيّز وفي المكان، ووجود العرض بالجسم، والصورة بالمرآة ويفرق بين رؤية الشيء بالعين يقظة ورؤيته بالقلب يقظة ومنامًا، ونحو ذلك، وإلا اضطرب عليه الأمر ولذلك سؤال السائل عما في المصحف، هل هم حادث أو قديم، سؤال مجمل. فإنّ لفظ القديم أولًا مأثور عن السلف ليس وأما الذي اتفقوا عليه أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وهو كلام الله حيث تلي وحيث كتب وهو قرآن واحد وكلام وإن تنوعت الصور التي يتلى بها، وتكتب من أصوات العباد ومدادهم، فإن الكلام كلام من قاله مبتدئًا، لا كلام من بلغه مؤديًا، فإذا سمعنا محدثًا يحدث

يقول النبيّ ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» قلنا هذا كلام رسول الله لفظه ومعانيه، مع أن علمنا أن الصوت صوت المبلغ لا صوت رسول الله وهكذا كل من بلغ كلام غيره من نظم ونثر ونحن إذا قلنا هذا كلام الله لما نسمعه من القارىء من قرأه في المصحف فالإشارة إلى الكلام من حيث هو هو مع قطع النظر عما اقترن به البلاغ من صوت المبلغ ومداد الكاتب، فمن قال: صوت القارىء ومداد الكاتب كلام الله الذي ليس بمخلوق فقد أخطأ، وهذا الفرق الذي بينه الإمام أحمد لمن سأله وقد قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١] فقال: هذا كلام الله غير مخلوق؟ فقال: نعم فنقل السائل عنه أنه قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق قد عابه أحمد وزبره زَبْرًا شديدًا وطلب عقوبته وتعذيره وقال: أنا قلت لك لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ فقال: لا ولكن قلت لي لما قرأت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ هذا كلام الله غير مخلوق، فقال: فلم تنقل عني ما لم أقله بين الإمام أحمد أن القائل إذا قال لما يسمعه من المبلغين والمؤذنين هذا كلام الله، فالإشارة إلى الحقيقة التي تكلم بها الله وإن كنا إنما سمعناها ببلاغ المبلغ وحركته وصوته فإذا أشار إلى شيء من صفات المخلوق لفظه أو صوته أو فعله وقال هذا غير مخلوق فقد ضلّ وأخطأ، فالواجب أن يقال: القرآن كلام الله غير مخلوق، والقرآن في المصاحف كما أن سائر الكلام في المصحف ولا يقال إن شيئًا من المداد والورق غير مخلوق، بل كل ورق ومداد في العالم فهو مخلوق، ويقال أيضًا: القرآن الذي في المصحف كلام الله غير مخلوق والقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الله غير مخلوق.

وتبيين هذا الجواب عن المسألة الثانية وهو قوله: أن كلام الله هل هو بحرف وصوت أم لا فإن إطلاق الجواب في هذه المسألة نفيًا وإثباتًا خطأ، وهي من البدع المولدة الحادثة بعد المائة الثالثة لما قال قوم من متكلمة الصفاتية: إنّ كلام الله الذي أنزله على أنبيائه كالتوراة، والإنجيل والقرآن، والذي لم ينزله، والكلمات التي كون بها الكائنات والكلمات المشتملة على أمره، ونهيه وخبره ليس إلا مجرد معنى واحد هو صفة واحدة قامت بالله إن عبر عنها بالعبرية كانت التوراة، وإن عبر عنها بالعربية كانت القرآن، وأن الأمر، والنهي والخبر صفات لها لا أقسام لها وأن حروف القرآن مخلوقة خلقها الله تعالى ولم يتكلم بها وليست كلامه؛ إذ كلامه لا يكون بحرف وصوت عارضهم آخرون من المثبتة فقالوا: بل القرآن هو الحروف والأصوات وتوهم قوم أنهم يعنون بالحروف المداد وبالأصوات أصوات العباد وهذا لم يقله عالم، والصواب الذي عليه سلف الأمة كالإمام أحمد والبخاري صاحب الصحيح في كتاب

خلق أفعال العباد وغيره وسائر الأئمة قبلهم وبعدهم اتباع النصوص الثابتة وإجماع سلف الأمة وهو أن القرآن جميعه كلام الله تعالى: حروفه ومعانيه ليس شيئًا من ذلك كلامًا لغيره ولكن أنزله على رسله وليس القرآن اسمًا لمجرد المعنى ولا لمجد الحرف بل لمجموعهما وكذلك سائر الكلام ليس هو الحروف فقط ولا المعاني فقط بل مجموعهما كما أن الإنسان المتكلم الناطق ليس هو مجرد الروح ولا مجرد الجسد بل مجموعهما وأن الله تعالى يتكلم بصوت كما جاءت به الأحاديث الصحاح، وليس ذلك هو أصوات العباد، لا صوت القارىء ولا غيره فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وكما لا يشبه علمه وقدرته وحياته علم المخلوق وقدرته وحياته فكذلك لا يشبه كلامه كلام المخلوق ولا معانيه تشبه معانيه ولا حروفه تشبه حروفه، ولا صوت الرب يشبه صوت العبد فمن شبه الله بخلقه فقد ألحد في أسمائه وآياته، ومن حجد ما وصف به نفسه فقد ألحد في أسمائه وآياته وقد بينت في الجواب المبسوط مراتب مذاهب أهل الأرض في ذلك وأن المتفلسفة تزعم أن كلام الله ليس له وجود إلا في نفس الأنبياء تفيض عليهم المعاني من العقل الفعّال فتصير في نفوسهم حروفًا كما أن ملائكة الله عندهم ما يحدث في نفوس الأنبياء من الصور النورانية، وهذا من جنس قول فيلسوف قريش الوليد بن المغيرة ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدَّثِر: الآية ٢٥] فحقيقة قولهم إن القرآن تصنيف الرسول لكنه كلام شريف صادر عن نفس صافية، وهؤلاء هم الصابئة[١] فنفرت منهم الجهمية[٢] فقالوا إن الله لم يتكلم ولا يتكلم ولا قام به كلام وإنما كلامه ما يخلقه من الهواء أو غيره فأخذ بعض ذلك قوم من متكلمة الصفات[٣]

---

(١) الصائبة: قيل: هم قوم يعبدون النجوم، وقيل هم قوم يقولون بحدود وأحكام عقلية بعيدة عن الشرح ولا يقرون بالإسلام ولا بأية شريعة أخرى، يؤمنون بالمحسوس والمعقول، وربما يتطلبون بعازيمون وهرمس، ولقد كانت لهم مناظرات مع الحنفاء ذكرها الشهرستاني في الملل والنحل ص ٢٥٩، ٢٦٣، ٣١١.

(٢) الجهمية: اتباع الجهم بن صفوان الترمذي، الذي قال بالجبر والاضطرار وأنكر الاستطاعات كلها، وزعم أن الجنة والنار تفنيان، وأن الإيمان هو المعرفة بالله فقط، وأن الكفر هو الجهل، ولا فعل ولا عمل لأحد غير الله، وقد أجمع المسلمون وجميع الفرق على تكفير الجهمية (الملل والنحل ص ٩٠).

(٣) هم الصفاتية: قالت الصفاتية: إن الله تعالى: عالم بعلم، قادر بقدرة، حي بحياة، سميع بسمع، بصير ببصر، مريد بإرادة، متكلم بكلام، باق ببقاء، وهذه الصفات زائدة على ذاته سبحانه، وهي صفات موجودة أزلية ومعانٍ قائمة في ذاته. وعند المعتزلة ذات الله واحدة لا كثرة فيها بأي وجه من الوجوه، ولهذا لم يجعلوا صفات الله تعالى معاني قائمة بذاتها بل هي ذات الله، فعلمه=

فقالوا: بل نصفه، وهو المعنى كلام الله ونصفه وهو الحروف ليس كلام الله بل هو خلق من خلقه وقد تنازع الصفاتية القائلون بأن القرآن غير مخلوق هل يقال: إنه قديم لم يزل لا متعلق المشيئة؟ أم يقال يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء على قولين مشهورين في ذلك وفي السمع والبصر ونحوهما ذكرهما الحارث المحاسبي عن أهل السنة، وذكرهما أبو بكر عن أهل السنة من أصحاب أحمد وغيرهم وكذلك النزاع بين أهل الحديث والصوفية وفرق الفقهاء من المالكية والشافعية والحنفية بل وبين فرق المتكلمين والفلاسفة في جنس هذا الباب وليس هذا موضع بسط ذلك الفصل.

وأما سؤاله عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥] فهو حق أخبر الله به، وأهل السنّة متفقون على ما قاله ربيعة بن أبي عبد الرحمٰن ومالك بن أنس وغيرهما من الأئمة أن الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عن الكيف بدعة فمن زعم أن الله مفتقر إلى عرش يقله أو أنه محصور في سماء تظله أو أنه محصور في شيء من مخلوقاته، أو أنه تحيط به جهة من جهات مصنوعاته فهو مخطىء ضال ومن قال إنه ليس على العرش رب ولا فوق السمٰوات خالق بل ما هنالك إلا العدم المحض والنفي الصرف فهو معطل جاحد لرب العالمين مضاه لفرعون الذي قال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر: الآيتان ٣٦، ٣٧] بل أهل السنّة والحديث وسلف الأمة متفقون على أنه فوق سماواته على عرشه بأين من مخلوقاته ليس في ذاته شيء من مخلوقاته ولا في مخلوقاته شيء من ذاته وعلى ذلك نصوص الكتاب والسنّة وإجماع سلف الأمة وأئمة السنّة بل على ذلك جميع المؤمنين من الأولين والآخرين وأهل السنّة وسلف الأمة متفقون على أن من تأوّل استوى بمعنى استولى أو بمعنى آخر ينفي أن يكون الله فوق السمٰوات فهو جهمي ضال مضل.

= هو ذاته، وقدرته هي ذاتها، لأنه تعالى عالم بعلم كما قال أبو الهذيل العلاف، كذلك النظام يؤكد وحدة الذات الإلـٰهية تأكيدًا قاطعًا نافيًا كل اختلاف فيها ويرى أن صفات الله تعالى هي إثبات لذاته ونفي لمسلوبات هذه الصفات، فمعنى قولي إنه عالم، إثبات ذاته ونفي الجهل عنه، وكذلك في سائر الصفات. وقال أبو علي الجبائي: إن صفات الله تعالى هي لذاته، وجاء ابنه أبو هاشم الجبائي وقال: إن الصفات هي أحوال ثابتة للذات (الموسوعة الفلسفية العربية ص ٤٥١).

وأما سؤاله عن إجراء القرآن على ظاهره فإنه إذا آمن بما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من غير تحريف ولا تكييف فقد اتبع سبيل المؤمنين ولفظ الظاهر في عرف المستأخرين قد صار فيه اشتراك فإن أراد بإجرائه على الظاهر الذي هو في خصائص المخلوقين حتى يشبه الله بخلقه فهذا ضلال بل يجب القطع بأن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله بل قد قال ابن عباس[1] رضي الله عنهما ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء يعني أن موعود الله في الجنة من الذهب والحرير والخمر واللبن يخالف حقًّا بقية حقائق هذه الأمور الموجودة في الدنيا فالله تعالى أبعد عن مشابهة مخلوقاته بما لا تدركه العباد؛ إذ ليست حقيقته كحقيقة شيء منها وأما إن أراد بإجرائه على الظاهر الذي هو الظاهر في عرف سلف الأمة بحيث لا يحرف الكلم عن مواضعه ولا يلحد في أسماء الله تعالى ولا يفسر القرآن والحديث بما يخالف تفسير سلف الأمة وأهل السنّة بل يجري ذلك على ما اقتضته النصوص وتطابق عليه دلائل الكتاب والسنّة وأجمع عليه سلف الأمة فهذا مصيب في ذلك وهو الحق وهذه جملة لا يسع هذا الموضع تفصيلها والله أعلم.

فلما وقف القاضي شمس الدين بن عدلان على هذه الفتيا أنكر منها مواضع وعرضها على القاضي زين الدين المالكي فقال قاضي القضاة أحتاج أن يثبت عندي أن هذا خط تقي الدين المذكور فإذا ثبت ذلك رتبت عليه مقتضاه، وانفصل المجلس في تلك الليلة على هذا، ثم شهد جماعة عند قاضي القضاة أن الجواب المذكور بخط تقي الدين المذكور فثبت ذلك عنده وأشهد على نفسه به في شعبان من السنّة واجتمع قاضي القضاة زين الدين بالأمراء وعرفهم ما أنكره من فتياه فرسم بطلبه إلى الأبواب السلطانية وتوجه البريد بذلك فتوقف نائب السلطنة بالشام الأمير جمال الدين في إرساله واتفق وصول الأمير سيف الدين الطنقش الجمالي أستاذ دار نائب السلطنة بالشام إلى الأبواب السلطانية في الشهر المذكور في بعض المهمات وملك السلطان مخدومه من أملاكه بالشام أماكن أحتاج إلى إثباتها على قاضي القضاة زين الدين

---

(١) ابن عباس: هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أبو العباس، توفي النبيّ ﷺ وهو ابن أربع عشرة سنة، ولد قبل الهجرة بأربع سنين، قال له النبيّ ﷺ «اللهم علمه الحكمة»، توفي سنة ٦٨ هـ بالطائف، وقيل: سنة ٧٠ هـ. (كتاب الثقات ٣/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨، وانظر ترجمته أيضًا في: البداية والنهاية ٨/ ٣٠٢ ـ ٣١٤، شذرات الذهب ١/ ٧٥، الإصابة ترجمة رقم ٤٧٧٢، حلية الأولياء ١/ ٣١٤).

المالكي فاجتمع بي بسبب ذلك فدخلت على قاضي القضاة وعرفته مكانة سيف الدين المذكور ومنزلته من أرباب الدولة، ومحل مخدومه والتمست منه الإذن له في الدخول وإكرامه إذا دخل عليه فأذن له في الدخول فلما دخل عليه اطرحه ولم يكترث لدخوله وكلمه بكلام غليظ فكان مما قال له عند دخوله عليه: أنت أستاذ دار جمال الدين؟ قال: نعم. قال: لا بيَّض الله وجهه. وحمله رسالة لمخدومه فقال: قل له عني أنت تعرف كيف كنت، وأنني اشتريتك للسلطان الملك المنصور وكنت على حال من الضرورة في جنديتك وإمرتك ثم خوَّلك الله تعالى من نعمه وأفاض عليك منها ما أنت عليه الآن وألحقك بأكابر الملوك ونُعِتَّ بملك الأمراء، ثم أنت تدافع عن رجل طلبته لقيام حق من حقوق الله عليه، والله لئن لم ترسله ليعجلن الله تعالى هلاكك إلى غير ذلك مما قاله في وقت خروجه فالتزم الأمير سيف الدين الطنقش أنه عند وصوله إلى دمشق لا يبيت ابن تيمية بها، ويرسله إليه، ثم لم يقنع قاضي القضاة بذلك إلى أن اجتمع بالأمراء، وجدد معهم الحديث في أمر تقي الدين فاقتضى ذلك إرسال الأمير حسام الدين لاجين العمري أحد الحجاب بالأبواب السلطانية إلى دمشق بمثال شريف سلطاني بطلبه فتوجه ووصل إليها في خامس شهر رمضان.

هذا هو السبب الموجب لطلبه وانحمال قاضي القضاة زين الدين المالكي عليه نقلته عن مشاهدة واطلاع واتفق في هذه المدة له وقائع بدمشق نحن نوردها ملخصة بمقتضى ما أورده الشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم الجذري[(١)] في تاريخه ليجمع بين أطراف هذه الحادثة وأسبابها بمصر والشام وهو أنه لما كان في يوم الاثنين ثامن شهر رجب عقد مجلس بين يدي نائب السلطنة بدمشق حضره القضاة والعلماء والشيخ تقي الدين المذكور وسئل عن عقيدته فأملى شيئًا منها ثم أحضر عقيدته الواسطية[(٢)] وقرئت في المجلس وحصل البحث في مواضيع منها وأخرت مواضيع إلى مجلس آخر ثم اجتمعوا في يوم الجمعة ثاني عشر الشهر وحصل البحث وسئل عن مواضيع خارجة عن العقيدة وندب للكلام معه الشيخ صفي الدين الهندي[(٣)] ثم عدل عنه إلى

---

(١) توفي سنة ٧٣٩ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١٢٤، الدرر الكامنة ٣/ ١٠١، السلوك للمقريزي ٢/ ٢: ٤٧١، البداية والنهاية ١٤/ ١٨٦، الوافي بالوفيات ٣/ ٢٢.

(٢) العقيدة الواسطية: رسالة لابن تيمية.

(٣) صفي الدين الهندي: هو محمد بن عبد الرحيم بن محمد، صفي الدين الهندي الأرموي، الأشعري، سافر إلى الهند والروم، وانتقل إلى دمشق وسكن بها إلى أن مات، ولد سنة ٦٤٤ هـ، وتوفي سنة ٧١٥ هـ، من تصانيفه: «الرسالة السنية» في الأصول، «زبدة الكلام في علم الكلام»، «الفائق في أصول الدين»، «نهاية الوصول إلى علم الأصول». (انظر: =

الشيخ كمال الدين بن الزملكاني[(١)] فبحث معه من غير مسامحة فأشهد الشيخ تقي الدين على نفسه من حضر المجلس أنه شافعي المذهب يعتقد ما يعتقد الإمام الشافعي فحصل الرضى منه وعنه بهذا القول وانفصل المجلس ثم حصل بعد ذلك من بعض أصحاب الشيخ تقي الدين كلام وقالوا: ظهر الحق مع شيخنا فأحضر الشيخ كمال الدين القزويني[(٢)] نائب قاضي القضاة نجم الدين[(٣)] أحدهم إلى المدرسة العادلية وعزره وفعل قاضي القضاة الحنفي مثل ذلك باثنين من أصحابه فلما كان يوم الاثنين ثاني عشرين الشهر قرأ الشيخ جمال الدين المزي[(٤)] فصلا في الرد على الجهمية من كتاب أفعال العباد من كتاب البخاري وكان ذلك بالجامع الأموي تحت النسر في المجلس العام المعقود لقراءة صحيح البخاري فغضب بعض الفقهاء الحاضرين وقال: نحن قصدنا بهذا التكفير فبلغ ما قاله قاضي القضاة نجم الدين الشافعي فأحضره ورسم باعتقاله فبلغ ابن تيمية الخبر فقام حافيًا وتبعه أصحابه وأخرجه من الحبس فغضب القاضي[(٥)] وتوجه إلى نائب السلطنة واجتمع هو وتقي الدين فاشتط تقي الدين عليه وذكر نائبه جلال الدين وأنه آذى أصحابه فرسم نائب السلطان بإشهار النداء في البلد بالكف عن العقائد والخوض فيها، ومن تكلم في ذلك سفك دمه ونهب ماله. وأراد بذلك تسكين هذه الفتنة ثم عقد مجلس في ثاني يوم الثلاثاء سلخ رجب بالقصر الأبلق بحضور نائب السلطنة والقضاة والفقهاء وحصل البحث في أمر العقيدة وطال البحث فوقع من الشيخ صدر الدين كلام في معنى الحروف فأنكره الشيخ كمال الدين بن الزملكاني فأنكر صدر الدين القول، فقال كمال الدين لقاضي القضاة نجم الدين بن صصرى: ما سمعت ما قال؟ فتغافل عن إجابته لتنكسر الفتنة فقال ابن الزملكاني ما جرى على الشافعية قليل إذ صرت رئيسهم يريد بذلك ابن الوكيل فيما يزعم فظن قاضي القضاة أنه أراده بكلامه فأشهد عليه أنه عزل نفسه عن القضاء وقام من المجلس

= كشف الظنون ٦/١٤٣، البداية والنهاية ١٤/ ٧٤، شذرات الذهب ٦/ ٣٧).

(١) كمال الدين بن الزملكاني: تقدمت ترجمته.

(٢) كمال الدين القزويني: هو محمد بن عبد الرحمٰن بن عمر القزويني. توفي سنة ٧٣٩ هـ (انظر: شذرات الذهب ٦/ ١٢٣، البداية والنهاية ١٤/ ١٨٥).

(٣) قاضي القضاة نجم الدين: هو نجم الدين بن صصري أحمد بن محمد بن صصري، توفي سنة ٧٢٣ هـ، تقدمت ترجمته.

(٤) جمال الدين المزي: هو يوسف بن عبد الرحمٰن المزي الشافعي، الحافظ جمال الدين أبو الحجاج، توفي سنة ٧٤٢ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١٣٦، والبداية والنهاية ١٤/ ١٩١).

(٥) أي نجم الدين بن صصري.

فرسم نائب السلطنة بعوده فأدركه الأمير ركن الدين بيبرس العلائي الحاجب وغيره من الأمراء وأعادوه إلى المجلس، وجرى كلام كثير ثم ولاه نائب السلطنة القضاء وحكم قاضي القضاة الحنفي بصحة ولايته ونفذها المالكي فلما وصل إلى داره انقطع عن الحكم وطالع نائب السلطنة في أمره فعاد الجواب السلطاني باستمراره في القضاة في ثامن عشرين شعبان.

ثم وصل الأمير حسام الدين لاجين العمري في خامس شهر رمضان بطلب قاضي القضاة نجم الدين وتقي الدين بن تيمية وتضمن المثال السلطاني بأن يطالع بما وقع من أمر تقي الدين المذكور في سنة ثمان وتسعين وستمائة بسبب عقيدته وأن تكتب صورة العقيدتين الأولى والثانية فأراد نائب السلطنة أن يدافع عنه ويكتب في حقه فوصل مملوكه سيف الدين الطنقش من الديار المصرية وأخبر باشتداد الحال عليه وقيام الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير وذكر له كلام قاضي القضاة زين الدين فعند ذلك أمر بإرساله وإرسال قاضي القضاة نجم الدين فتوجها في يوم الاثنين ثاني عشر شهر رمضان فتوجه القاضي نجم الدين في الخامسة من النهار وتوجه تقي الدين في التاسعة وصحبته جماعة من أصحابه منهم تقي الدين بن سُنْقُر وزين الدين بن زين الدين بن منجا وشمس الدين التدمري وفخر الدين وعلاء الدين أولاد شرف الدين الصايغ وابن بحبح وشرف الدين عبد الله أخو الشيخ وكان وصولهم إلى القاهرة في يوم الخميس ثاني عشرين شهر رمضان وعقد مجلس بدار النيابة بقلعة الجبل وحضره الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير وغيره من الأمراء والقضاة والعلماء وذلك بعد صلاة الجمعة الثالث والعشرين من الشهر فادعى القاضي شمس الدين محمد بن عدلان[١] دعوى شرعية على تقي الدين في عقيدته عند قاضي القضاة زين الدين[٢] في المجلس وطالبه بالجواب فنهض تقي الدين قائمًا وقال: الحمد لله وأراد أن يذكر خطبة ووعظًا، ويذكر عقيدته في أثناء ذلك فقيل له أجب عما ادعى عليك به ودع هذا فلا حاجة لنا بما تقول فأراد أن يعيد القول في الخطبة فمنع وطولب بالجواب فقال: عند مَن الدعوى عليّ؟ فقيل عند قاضي القضاة زين الدين المالكي فقال: هو عدوي وعدو مذهبي فلم يرجع إلى قوله ولما لم يأت بجواب أمر قاضي القضاة زين الدين باعتقاله على رد الجواب فأقيم من المجلس واعتقل هو وأخواه شرف الدين عبد الله

(١) شمس الدين محمد بن عدلان: توفي سنة ٧٤٩ هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٣٣٣، شذرات الذهب ٦/ ١٦٤، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٦٢).

(٢) قاضي القضاة زين الدين: هو علي بن مخلوف بن ناهض النويري، تقدمت ترجمته.

وعبد الرحمٰن وحبسوا في برج فتردد إليه بعض الناس فاتصل ذلك بقاضي القضاة زين الدين فأمر بالتضييق عليه، فنقل إلى الجب في ليلة عيد الفطر وكتب مثال شريف سلطاني وسير إلى دمشق في أمر تقي الدين والحنابلة ونسخته.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الحمد لله الذي تنزه عن التشبيه والتنظير، وتعالى عن المثيل فقال عزّ وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١] نحمده على أن ألهمنا العمل بالسنّة والكتاب، ورفع في أيامنا أسباب الشك والارتياب، ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، شهادة من يرجو بإخلاصه حسن العقبى والمصير وينزه خالقه عن التحييز في جهة لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: الآية ٤] ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الذي نهج سبيل النجاة لمن سلك طريق مرضاته، وأمر بالتفكر في آلاء الله، ونهى عن التفكر في ذاته صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين علا بهم منار الإيمان وارتفع وشيّد الله بهم من قواعد الدين الحنيف ما شرع، وأخمد بهم كلمة من حاد عن الحق ومال إلى البدع، وبعد: فإن العقيدة الشرعية وقواعد الإسلام المرعية وأركان الإيمان العلية ومذاهب الدين المرضية هي الأساس الذي يبنى عليه، والموئل الذي يرجع كل أحد إليه، والطريق الذي من سلكها فقد فاز فوزًا عظيمًا ومن زاغ عنها فقد استوجب عذابًا أليمًا فلهذا يجب أن تنفذ أحكامها، ويؤكد دوامها وتصان عقائد هذه الأمة عن الاختلاف وتزان قواعد الأمة بالائتلاف وتغمد بواتر البدع ويفرق من فرقها ما اجتمع، وكان التقى ابن تيمية في هذه المدة قد بسط لسان قلمه ومد عنان كلمه وتحدث في مسائل الذات والصفات ونص في كلامه على أمور منكرات وتكلم فيما سكت عنه الصحابة والتابعون وفاه بما تجنبه السلف الصالحون وأتى في ذلك بما أنكره أئمة الإسلام واتفق على خلافه إجماع العلماء والحكام وشهر من فتاويه في البلاد ما استخف به عقول العوام وخالف في ذلك علماء عصره وفقهاء شامه ومصره وبعث رسائله إلى كل مكان وسمى فتاويه أسماء ما أنزل الله بها من سلطان.

ولما اتصل بنا ذلك وما سلكه مريدوه من هذه المسائل وأظهروه من هذه الأحوال وأشاعوه وعلمنا أنه استخف قومه فأطاعوه حتى اتصل بنا أنهم صرحوا في حق الله بالحرف والصوت والتجسيم قمنا في الله تعالى مشفقين من هذا النبأ العظيم وأنكرنا هذه البدعة وأنفنا أن يشيع عمن تضمه ممالكنا هذه السمعة وكرهنا ما فاه به المبطلون وتلونا قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: الآية ٩١] فإنه جلّ

جلاله تنزه عن العديل والنظير ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعَام: الآية ١٠٣] وتقدمت مراسمنا باستدعاء ابن تيمية المذكور إلى بابنا عندما سادت فتاويه شامًا ومصر وصرّح فيها بألفاظ وضعها ذوقهم إلا وتلا ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: الآية ٧٤] ولما وصل إلينا أمرنا بجمع أولى الحل والعقد وذوي التحقيق والنقد وحضر قضاة الإسلام وحكام الأنام وعلماء الدين وفقهاء المسلمين وعقد له مجلس شرع في ملأ من الأئمة وجمع فثبت عند ذلك عليه جميع ما نسبه إليه بمقتضى خط يده الدال على منكر معتقده وانفصل ذلك الجمع وهم لعقيدته منكرون، وآخذوه بما شهد به قلمه عليه تالين ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزّخرُف: الآية ١٩] وبلغنا أنه كان استتيب فيما تقدم وأخره الشرع الشريف لما تعرض لذلك وأقدم ثم عاد بعد منعه ولم تدخل تلك النواهي في سمعه ولما ثبت ذلك في مجلس الحكم العزيز المالكي حكم الشرع الشريف بأن يسجن هذا المذكور ويمنع من التصرف والظهور ومرسومنا هذا يأمر بأن لا يسلك أحد ما سلكه المذكور من هذه المسالك، وينهى عن التشبه به في اعتقاد مثل هذا أو يغدو له في هذا القول متبعًا ولهذه الألفاظ مستمعًا أو يسري في التجسيم مسراه أو أن يفوه بجهة العلو مخصصًا أحد كما فاه أو يتحدث إنسان في صوت أو حرف أو يوسع القول في ذات أو وصف أو ينطق بتجسيم أو يحيد عن طريق الحق المستقيم أو يخرج عن آراء الأئمة أو ينفرد عن علماء الأمة أو يحيز الله في جهة أو يتعرض إلى حيث أو كيف فليس لمن يعتقد هذا المجموع عندنا إلا السيف فليقف كل أحد عند هذا الحد ولله الأمر من قبل ومن بعد، وليلزم كل من الحنابلة بالرجوع عما أنكره الأئمة مِن هذه العقيدة أو الخروج من هذه المشتبهات الشديدة ولزوم ما أمر الله تعالى به من التمسك بمذهب أهل الإيمان الحميدة فإنه من خرج عن أمر الله تعالى فقد ضلّ سواء السبيل وليس له غير السجن الطويل من مستقر ولا مقيل.

رسمنا بأن ينادي في دمشق المحروسة والبلاد الشامية وتلك الجهات بالنهي الشديد والتخويف والتهديد لمن يتبع ابن تيمية في الأمر الذي أوضحناه ومن تبعه فيه تركناه في مثل مكانه وأحللناه ووضعناه من عيون الأمم كما وضعناه ومن أصرّ على الدفاع وأبى إلا الامتناع أمرنا بعزلهم من مدارسهم ومناصبهم وإسقاطهم من مراتبهم وأن لا يكون لهم في بلادنا حكم ولا قضاء ولا إمامة ولا شهادة ولا ولاية ولا رتبة ولا إقامة فإننا أزلنا دعوة هذا المبتدع من البلاد وأبطلنا عقيدته التي أضل بها كثيرًا من العباد أو كاد ولتكتب المحاضر الشرعية على الحنابلة بالرجوع عن ذلك وتسير إلينا

بعد إثباتها على قضاة الممالك وقد أعذرنا وحذرنا، وأنصفنا حيث أنذرنا وليقرأ مرسومنا هذا على المنابر ليكون أبلغ واعظ وزاجر وأحمد ناهٍ وآمر والاعتماد على الخط الشريف أعلاه وكتب في ثامن عشرين شهر رمضان سنة خمس وسبعمائة.

ولما وصل هذا المثال إلى دمشق قرىء على المنابر كما رسم فيه وأشهر وأعلن وأما قاضي القضاة نجم الدين بن صصري فإنه عومل بالإكرام وخلع عليه ونزل بدار الحديث الكاملية بقاعة التدريس بها وأذن له السلطان أن يحكم بالقاهرة فأثبت مكاتيب كثيرة وجلس كتاب الحكم بين يديه، وخرجت إسجالاته وشهدت عليه في بعضها، ثم عاد إلى دمشق على خيل البريد، وكان وصوله إليها في يوم الجمعة سادس ذي القعدة وفي أثناء هذه الحادثة في غضون هذه المدة كان للحنابلة في القاهرة مع قاضي القضاة زين الدين المالكي وقائع أهين فيها بعض أعيانهم واعتقل وعزر بعضهم.

وكان ممن تعصب لتقي الدين بن تيمية في هذه الواقعة بالشام قاضي القضاة شمس الدين محمد بن الحريري الحنفي[١] وأثبت محضرًا له مما هو عليه من الخير وكتب في أعلاه بخطه ثلاثة عشر سطرًا يقول في جملتها إنه منذ ثلاثمائة سنة ما رأى الناس مثله وأراني قاضي القضاة زين الدين المالكي هذا المحضر وغضب منه وسعى في عزل قاضي القضاة الحنفية بدمشق شمس الدين بن الحريري فعزل وفوّض قضاء القضاة الحنفية بدمشق بعده لقاضي القضاة شمس الدين محمد بن إبراهيم الأذرعي الحنفي[٢] مدرس المدرسة الشبلية فوصل تقليده إلى دمشق في ثاني ذي القعدة.

وأما تقي الدين فإنه استمر في الجب بقلعه الجبل إلى أن وصل الأمير حسام الدين مهنا[٣] إلى الأبواب السلطانية في شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعمائة فسأل السلطان في أمره وشفع فيه فأمر بإخراجه فأخرجه في يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر وأحضر إلى دار النيابة بقلعة الجبل وحصل بحث مع بعض الفقهاء ثم اجتمع جماعة من أعيان العلماء ولم تحضره القضاة وذلك لمرض قاضي القضاة زين الدين

---

(١) هو محمد بن عثمان بن أبي الحسن، شمس الدين، المعروف بابن الحريري، تقدمت ترجمته.

(٢) توفي سنة ٧١٢ هـ (انظر ترجمته في: الدارس في تاريخ المدارس ١/٥٢٨، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٣، الدرر الكامنة ٣/٢٤٦، الجواهر المضيئة ٢/٢، البداية والنهاية ١٤/١٦٨).

(٣) حسام الدين مهنا: هو مهنا بن عيسى بن مهنا أمير آل فضل، توفي سنة ٧٣٥ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/١١٢، السلوك للمقريزي ٢/٢:٣٨٩، الدرر الكامنة ٥/١٣٨، البداية والنهاية ١٤/ ١٧٢).

المالكي ولم يحضر غيره من القضاة، وحصل البحث وكتب خطه ووقع الإشهاد عليه وكتب بصورة المجلس مكتوب مضمونه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ شهد من يضع خطه آخره أنه لما عقد مجلس لتقي الدين أحمد بن تيمية الحراني الحنبلي بحضرة المقر الأشرف العالي المولوي الأميري الكبيري العالمي العادلي السيفي ملك الأمراء سلار الملكي الناصري نائب السلطنة المعظمة أسبغ الله ظله، وحضر فيه جماعة من السادة العلماء الفضلاء أهل الفتيا بالديار المصرية بسبب ما نقل عنه ووجد بخطه الذي عرف به قبل ذلك من الأمور المتعلقة باعتقاده أن الله تعالى يتكلم بصوت وأن الاستواء على حقيقته وغير ذلك مما هو مخالف لأهل الحق، انتهى المجلس بعد أن جرت فيه مباحث معه ليرجع عن اعتقاده في ذلك إلى أن قال بحضرة شهود: أنا أشعري ورفع كتاب الأشعرية على رأسه وأشهد عليه بما كتب به خطًا وصورته: الحمد لله الذي أعتقده أن القرآن معنى قائم بذات الله، وهو صفة من صفات ذاته القديمة الأزلية وهو غير مخلوق وليس بحرف ولا صوت، كتبه أحمد بن تيمية والذي أعتقده من قوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: الآية ٥] أنه على ما قاله الجماعة أنه ليس على حقيقته وظاهره ولا أعلم كنه المراد منه بل لا يعلم ذلك إلا الله تعالى. كتبه أحمد بن تيمية، والقول في النزول كالقول في الاستواء أقول فيه ما أقول فيه ولا أعلم كنه المراد به بل لا يعلم ذلك إلا الله تعالى وليس على حقيقته وظاهره كتبه أحمد بن تيمية وذلك في يوم الأحد خامس عشرين شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعمائة.

هذا صورة ما كتب به خطه وأشهد عليه أيضًا أنه تاب إلى الله تعالى مما ينافي هذا الاعتقاد في المسائل الأربع المذكورة بخطه وتلفظ بالشهادتين المعظمتين وأشهد عليه أيضًا بالطواعية والاختيار في ذلك ووقع ذلك كله بقلعة الجبل المحروسة من الديار المصرية حرسها الله تعالى بتاريخ يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعمائة وشهد عليه في هذا المحضر جماعة من الأعيان المقنتين والعدول، وأفرج عنه واستقر بالقاهرة بدار شقير ثم عقد له مجلس ثالث بالمدرسة الصالحية بالقاهرة في يوم الخميس سادس عشر شهر ربيع الآخر وكتب بخطه نحو ما تقدم ووقع الإشهاد فيه عليه أيضًا وسكن الحال مدة ثم اجتمع جماعة من المشايخ والصوفية مع الشيخ تاج الدين بن عطاء الله[1] في نحو خمسمائة نفر وتبعهم جمع كثير

---

(١) ابن عطاء الله: هو أحمد بن محمد بن عبد الكريم، المعروف بابن عطاء الله الإسكندراني، تاج الدين الشاذلي، الصوفي، توفي بمصر سنة ٧٠٩ هـ، من تصانيفه: «أصول مقدمات الوصول»، =

من العوام وطلعوا إلى قلعة الجبل في العشر الأوسط من شوال من السنة واجتمع الشيخ المذكور وأعيان المشايخ بنائب السلطان وقالوا إن تقي الدين يتكلم في حق مشايخ الطريقة وإنه يقول: لا يستغاث بالنبيّ ﷺ فرد الأمر إلى قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعي واقتضى الحال أن رسم بتسفيره إلى الشام على خيل البريد فتوجه وكان قاضي القضاة زين الدين المالكي في ذلك الوقت في حال شديدة من المرض وقد أشرف على الموت، فبلغه ذلك عقيب إفاقة من غشي كان قد حصل له فأرسل إلى الأمير سيف الدين سلار وسأله في رده فأمر برده إلى القاهرة فتوجه البريد وأعاده من مدينة بلبيس فوصل وقاضي القضاة زين الدين مغلوب بالمرض فأرسل إلى نائبه القاضي نور الدين الزواوي فحضر به إلى مجلس قاضي القضاة بدر الدين وحررت الدعوى عليه في أمر اعتقاده وما وقع منه فشهد عليه الشيخ شرف الدين بن الصابوني، وقيل إن الشيخ علاء الدين القونوي يشهد عليه فاعتقل بسجن الحاكم بحارة الديلم وذلك في ثامن عشر شوال سنة سبع وسبعمائة واستمر به إلى سلخ صفر سنة تسع وسبعمائة فأنهى عنه أن جماعة يحضرون إليه بالسجن وأنه يعظهم ويتكلم في أثناء وعظه بما يشبه ما تقدم من كلامه، فأمر بنقله إلى ثغر الإسكندرية واعتقاله هناك فجهّز إلى الثغر في هذا التاريخ وحبس ببرج شرقي واستمر به إلى أن عادت الدولة الناصرية ثالثًا فتحدث مع السلطان في يوم السبت ثامن عشر شوال سنة تسع وسبعمائة فأكرمه السلطان وجمع القضاة وأصلح بينه وبين قاضي القضاة زين الدين المالكي فأشرط عليه قاضي القضاة أن يتوب عما تقدم الكلام فيه ويتوب عنه ولا يعود إليه فقال السلطان: قد تاب وانفصل المجلس على خير وسكن الشيخ تقي الدين بالقاهرة ببعض القاعات وتردد الناس إليه واستمر إلى أن توجه السلطان إلى الشام في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، فتوجه بنية الغزاة، وأقام بدمشق إلى أن سطرنا هذه الأحرف في سنة خمس وعشرين وسبعمائة، وكان له في غضون هذه المدة بدمشق وقائع نذكرها في مواضعها إن شاء الله تعالى ولنرجع إلى تتمة سياقة الحوادث في سنة خمس وسبعمائة.

= «تاج العروس الحاوي إلى تهذيب النفوس»، «التنوير في إسقاط التدبير»، «الحكم العطائية على لسان أهل الطريقة»، «الطريق الجادة في نيل السعادة»، «لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن»، «مختصر تهذيب المدونة للبرادعي» في الفقه. «المرقى إلى القدير الأبقى»، «مفتاح الفلاح في ذكر الله الكريم الفتاح». (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٥/ ١٠٣، معجم المؤلفين ٢/ ١٢١، هدية العارفين ٢/ ١٠٣، الكواكب الدرية ٣/ ٥، الطبقات الكبرى للشعراني ٢/ ١٩).

وفيها في العشر الأوسط من ذي الحجة، وفرّ الأمير بدر الدين بكتاش البدري الصالحي النجمي أمير سلاح من الخدمة، وقطع خبره وجعل له مرتب في كل شهر وأقرّ مماليكه وأجناده على إقطاعاتهم، الشاهد بها مدرج عرضه إلى آخر وقت وجعلوا في جملة رجال الحلقة المنصورة، وأضيفوا إلى مقدمين من أعيانهم وارتجع خاصة إلى الخاص السلطاني، ورسم بمسامحته بما يلزمه من التفاوت فيما بين السنة الشمسية والقمرية وكان جملة كثيرة لو طولب بها استقرت أمواله وموجوده ولم يفِ بها، وكان ولده الأمير ناصر الدين محمد قد علم عجز والده عن الخدمة وضعف نظره وتحقق من حال الأمراء أنهم عزموا على قطع خُبْزِه فسعى هو معهم في ذلك وذكر عجز والده فأجيب إلى ملتمسه وتألم الأمير بدر الدين المذكور لذلك ألمًا شديدًا وسبّ ولده الأمير ناصر الدين والذي حضر بالرسالة أيضًا، وهو الأمير بدر الدين الوزيري الحاجب وأرسل إلى الأمراء يقول: إنني لم أتأخر عن الخدمة ولا انقطعت عن مُهِمٍّ من مهمات السلطان وما زلت أتوجه إلى الغزوات والشباب من الأمراء موفرون من ذلك فأمسكوا عن جوابه ولم تطل مدة حياته بعد قطع خُبْزِه فإنه مات في حادي عشرين ربيع الآخر سنة ست وسبعمائة ودفن بتربته خارج باب النصر رحمه الله تعالى.

وفي سنة خمس وسبعمائة أيضًا توفي الملك الأوحد تقي الدين شادي ابن الملك الزاهر مجير الدين داود ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه ابن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ابن شادي بن مروان(١) في يوم الأربعاء ثاني صفر بجبال الجرديين وحمل إلى قاسيون فدفن بتربة والده، وكان من جملة أمراء الطبلخاناه بدمشق رحمه الله تعالى. وتوفي شيخنا الإمام الحافظ شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف بن الحسن بن العفيف بن شرف بن الخضر الدمياطي(٢) وكانت وفاته بالقاهرة المحروسة في يوم الأحد خامس عشر ذي القعدة سنة خمس وسبعمائة من غير مرض وذلك أنه حضر الميعاد بالقبة المنصورية على عادته ثم قام بعد الميعاد ومشى إلى منزله بالمدرسة الظاهرية فمات من ساعته رحمه الله تعالى ودفن من الغد بمقابر باب النصر وكانت جنازته مشهودة وهو آخر من بقي من الحفّاظ ويقال: إنه ما

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٢١٩، الدرر الكامنة ٢/ ٢٨١، البداية والنهاية ١٤/ ٣٩.

(٢) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١٢، طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ١٣٢، فوات الوفيات ٢/ ٤٠٩، البداية والنهاية ١٤/ ٤٠.

رأى مثل نفسه في فنه وشهرته ومشايخه، ورحلته أشهر من أن يأتي عليها وشرح ذلك يطول وفيما أشرت إليه كفاية.

واستهلت سنة ست وسبعمائة

في هذه السنة في شهر المحرم عزل الأمير علم الدين سنجر الجاولي[١] أستاذ الدار من وظيفته وقطع خُبْزِه وسفره إلى دمشق بغير إقطاع وذلك لتغير حصل من الأمير ركن الدين[٢] عليه ثم أنعم عليه بعد وصوله إلى دمشق بإمرة طبلخاناه.

وفيها عزل الصاحب سعد الدين عطايا[٣] من الوزارة في الشهر المذكور وصودر على مائة ألف درهم خرجت في ديوان البيوت السلطانية في مدة نظره، فحمل من ذلك إلى بيت المال ثمانين ألف درهم وسُومح بما بقي وأفرج عنه ولزم داره ولما عزل فوضت الوزارة لتاج الدين بن سعيد الدولة الناظر وألبس التشريف السلطاني على كره منه وجلس في المجلس إلى آخر النهار وقام وتوجه إلى بيته بعد العصر ومنع من لهم عادة بالركوب في خدمة الوزير من الركوب معه ولما وصل إلى داره حضر قضاة القضاة للسلام عليه وتهنئته بالوزارة فلم يأذن لهم في الدخول، وخرج غلامه إليهم وإلى من حضر ببابه فقال: من كان له حاجة فليطلع إلى القلعة. فانصرفوا من غير اجتماع به، وهرب هو في تلك الليلة واختفى وأعاد خلعة الوزارة واستمر في اختفائه إلى أن رسم بإعفائه واستقراره على عادته وكان الحامل له على ذلك والذي أوجب له كراهة الوزارة أنه توهم من الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة كراهة ذلك فخاف عاقبته وكان الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير أستاذ الدار شديد الاعتناء به وفوضت الوزارة بعد ذلك للصاحب ضياء الدين أبي بكر بن عبد الله النشائي، وكان أحد النظار فلم يكن له الوزارة إلا مجرد التسمية والمعلوم وما عدا ذلك من الأمر والنهي والاستخدام والعزل فهو لتاج الدين بن سعيد الدولة لا يخرج عن إشارته ورضي بذلك.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ١٠/١٠٩، الدرر الكامنة ٢/٢٢٦.

(٢) هو ركن الدين بيبرس الجاشنكير البرجي، تولى السلطنة سنة ٧٠٨ هـ، ولقب بالملك المظفر، وقتل سنة ٧٠٩ هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/٥٠٢ ـ ٥٠٧).

(٣) سعد الدين عطايا: هو محمد بن محمد بن عطاء الله الشهير بابن عطايا (انظر ترجمته في: حسن المحاضرة ٢/٢٢٣).

وفي هذه السنة عادت رسل السلطان الملك الناصر من عند الملك طقطاي[١] ملك التتار بالبلاد الشمالية: وهم الأمير سيف الدين بلبان الصرخدي، وسيف الدين بلبان الحكيمي وفخر الدين أمير آخور الشمسي وصحبتهم رسول من الملك طقطاي واسمه نامون فبولغ في إكرامه وأعيد بالجواب وسفر مع الأمير بدر الدين بكتمش الخزنداري وفخر الدين محمود أمير آخور الشمسي وفيها في شهر ربيع الأول وصلت رسل صاحب سيس بالقطيعة المقررة عليه، وأطلق من أسرى المسلمين مائتين وسبعين أسيرًا وأوصلهم إلى مدينة حلب.

وفي هذه السنة كتب تقليد شريف سلطاني لقاضي القضاة شمس الدين الحنفي الأذرعي[٢] بدمشق وتوجه به البريد فوصل إلى دمشق في يوم العشرين من شهر ربيع الآخر فظن البريدي أن التقليد للقاضي شمس الدين محمد بن الحريري المعزول فتوجه به إليه إلى المدرسة الظاهرية، وشاع ذلك وحضر الناس لتهنئته بالعود واتصل ذلك بالقاضي شمس الدين الأذرعي وهو بمجلس حكمه ففارقه جميع من كان في المجلس من الشهود وغيرهم والمتحاكمون والوكلاء والرسل ولم يبق عنده غير نقيبه، وتوجهوا كلهم إلى القاضي شمس الدين بن الحريري فلما اجتمع الناس عنده أمر الشيخ علم الدين البرزالي بقراءة التقليد على من حضر من اناس فقرأه رافعًا به صوته فلما انتهى إلى ذكر الاسم والنسب سكت فقال له النقيب اذكر ألقاب سيدنا قاضي القضاة ونعوته وقال له القاضي شمس الدين: اقرأ فقال: يا مولانا ما هو لك، هو للأذرعي وطواه وتفرّق ذلك الجمع وأخذه البريدي وتوجه به إلى القاضي شمس الدين الأذرعي وهو بمجلس الحكم لم يقم منه وعاد إلى مجلسه من كان قد فارقه وغيرهم وحصل له جبر بعد كسر وخجل القاضي شمس الدين بن الحريري من الناس للمبادرة بقراءة التقليد قبل تحقيق الحال فيه.

ذكر حادثة غريبة

وفي هذه السنة وردت مطالعة نائب السلطان بحماة تتضمن أن أراضي بارين من بلد حماه جبلين بينهما واد يجري الماء فيه وانتقل نصف الجبل الواحد من موضعه إلى الجبل الآخر والتصق ولم يسقط في الوادي الذي بينهما شيء من حجارته وأن النائب بحماة كشفه بالقاضي ببارين وعمل به محضرًا وطول النصف الذي انتقل من

(١) الملك طقطاي: توفي سنة ٧١٣ هـ (انظر ترجمته في النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٦).
(٢) تقدمت ترجمته.

الجبل مائة ذراع وعشرة أذرع وعرضه خمسة وخمسون ذراعًا ومسافة الوادي الذي بين الجبلين مائة ذراع وقرئت المطالعة بمحضر نسخته ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ لما اشتهر في البلاد وانتشر في الحاضر والباد أن يعمل حصن الأكراد جبلًا بوادي بارين قد أفضى بعضه إلى التحويل ولم يكن ذلك في القدرة الإلـٰهية بمستحيل واتصل ذلك بالمسامع الشريفة المولوية السيفية كافل الممالك الشريفة الحموية شنفها الله تعالى بما تحب أن تسمع وطوقها بلطائف الخير أجمع فأحب أعلى الله له شأنًا وملأ قلبه نورًا وإيمانًا أن يعلم حقيقة ذلك إيقانًا وأن يكشف كنهه وضوحًا وبيانًا انتدب لتحقيق هذه الصورة الجناب العالي الحسامي نقيب العساكر المنصورة وعلى يده المرسوم الكريم إلى المجلس العالي الشهابي متولي بارين المعمورة أن يخرجا والحاكم الذي سيضع خطه أعلاه ومعهم من الشهود من سيرقم شهادته أدناه وأن ينتهوا إلى الوادي المشار إليه ويشاهدوا هذا الجبل ويقفوا عليه وأن يحققوا في ذلك قصة الحال أحق ما قيل عنه أو محال؟ فبادروا إلى امتثال ما رسم لهم به مسرعين وخرجوا نحو الجبل مهرعين، وحضروا جميعًا بقرية بقعبرا وسألوا أهلها ما حدث على الجبل وطرأ فإذا برجلين قد دخلا في واد بين جبلين وقالا: هذا الجبل الذي نزل به ما نزل وفي قعر الوادي الماء يترقرق ويسيل ويتدفق ووقفوا عند عرقوب في الجبل القبلي ناتىء مستعل صفته بين الانضمام والانسطاح وقد تحلق على صفحة الجبل المقابل له وطاح ولم يقع منه في قعر المسيل إلا النزر القليل مع أن أصله تراب أن هذا الشيء عجاب وبقي ما انسلخ منه متقعرًا في الجبل كهيئة محراب وسفل الوادي على حاله لم يتغير والماء جار على العادة فيه يتكسر ويتحدر لم يحصل له سدة ولا احتقان ولا انتقل جريانه من مكان إلى مكان على أن ما انقلع منه طولًا عشرة أذرع ومائة جملة وتفصيلًا، وعرضًا نصف ذلك قليلًا، وعفا مثل نصف العرض تقريبًا ومدي الحذف كالطول أو يكون منه قريبًا.

وذكر من حضر من أهل المكان أن وقوع ذلك في أواخر رجل وأوائل شعبان ومن وقف على أثر هذا المكان ورآه وعلم من هذا الكتاب فحواه وضع به خطه أدناه وكان ذلك في نهار الخميس ثامن عشرين شعبان سنة ست وسبعمائة وبذيل المحضر خط شهود وما علاه خط الحاكم ببارين ومثاله: الحمد لله حمدًا يرضاه وقفت على الوادي المذكور وشاهدت العرقوب الذي انقلع ونقل ترابه وفيه نبات وحجارة على صفحة الجبل الذي قابله والتأم في ذرعه وعدم وقع التراب في مسيل الماء كما شرح فيه، كتبه أبو بكر بن نصر الهاشمي المعاد الشافعي العباسي الحاكم ببارين ـ عفا الله

عنه وفيها في يوم الجمعة الرابع والعشرين من شوال خطب بالجامع الجديد الغربي بسفح جبل قاسيون الذي أنشأه الأمير جمال الدين آقش الأفرم نائب السلطنة الشريفة بالشام مقابل الرباط الناصري وخطب فيه القاضي شمس الدين بن المعز الحنفي.

وفي هذه السنة ولي قاضي القضاة صدر الدين أبو الحسن علي ابن الشيخ صفي الدين أبي القاسم بن محمد الحنفي البصروي[١] القضاء بدمشق عوضًا عن القاضي شمس الدين الأذرعي الحنفي، وكان وصوله إلى دمشق في تاسع عشرين ذي القعدة.

وفيها في يوم الثلاثاء ثامن عشر ذي الحجة أعيد الأمير سيف الدين بكتمر الحسامي إلى الحجبة بالشام وولي وظيفة الشد بدمشق الأمير جمال الدين آقصي الرستمي نقل من ولاية الولاة بالضفة القبلية إلى هذه الوظيفة ببذل وهو ثمانمائة ألف درهم في أربع سنين واشترط أنه لا يحدث حادثًا ولا يجدد رسمًا وباشر الوظيفة في يوم الخميس العشرين من الشهر وحضر الأمير سيف الدين بكتمر معه إلى الديوان حتى رتبه في الوظيفة وتوجه الأمير عز الدين حسين بن صبرة إلى الضفة القبلية وإلى الولاة وكان خروجه لذلك في ثامن المحرم سنة سبع وسبعمائة.

وفي سنة ست وسبعمائة أيضًا في تاسع جمادى الأولى ورد إلى دمشق فقير أعجمي اسمه براق في جمع كثير من الفقراء، وشعارهم أنهم يحلقون لحاهم ويبقون شواربهم ويلبسون على رؤوسهم كلاوت من اللباد الأبيض يتعممون فوقها وفوق الكلاوت قرون ومعهم أجراس فأنزلهم نائب السلطنة بالمنيبع ورتب لهم راتبًا كثيرًا ثم توجه براق ومن معه إلى القدس وقصد دخول الديار المصرية فلم يؤذن له في ذلك فرجع، ومن سنة هؤلاء أنه من تأخر منهم عن صلاة في وقتها ضرب أربعين سوطًا وفيها توفي الطواشي عز الدين دينار الغزنوي الخزندار الظاهري الدوادار الناصري، كان دوادار السلطان الملك الناصر، وناظر الأوقاف الظاهرية، وكانت وفاته في يوم الثلاثاء سابع شهر ربيع الأول، وكان دَيِّنًا خَيِّرًا، كثير المطالعة، لين الجانب، يحب أهْل الخير ويكرمهم رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الأمير عز الدين أيْبَك الطويل الخازندار المنصوري بدمشق في حادي عشر شهر ربيع الأول، ودفن بقاسيون وكان مشكور السيرة والدِّيانة رحمه الله تعالى.

---

(١) توفي سنة ٧٢٧ هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/٢٦٨، شذرات الذهب ٦/٧٨).

وفي في ذي الحجة توفي الأمير سيف الدين بلبان الجوكان[١] دار المنصوري نائب السلطنة بحمص رحمه الله تعالى وهو من المماليك السلطانية في زمن إمْرَةِ السُّلطان الملك المنصور، وكان رجلًا جيِّدًا أمينًا ثقة ما رأيت في أبناء جنسه ممن اختبرته في الأمانة والعفة مثله، رافقْتُه مُدَّة في ديوان الخاص بدمشق واطّلعت منه على أمانة غزيرة، ونزاهة وافرة ومعرفة تامة وكان يوم ذاك ينوب عن السلطنة بقلعة دمشق وفوّض إليه السلطان شد ديوان أملاكه بالشام، وكُتبت يومئذٍ مباشرها، وذلك في شوال سنة اثنتين وسبعمائة إلى أن نقل إلى نيابة السلطنة بحمص فاطلَعْت من أمانته ونزاهته ومعرفته على ما أشرت إليه، وكان قد اشتهر عنه في مباشرة شدِّ الدواوين عدم المعرفة والغفلة والبلادة، فلما رافقتُه ظهَرَ لِي منه معرفةٌ تامة، وخبرة واطلاع ينافي ما كان قد اشتهر عنه، فسايرتهُ يومًا وانفردتُ بمُسَايرتِه، وجرى بنا الحديث فسألته عن ذلك، وعَرَّفته ما ظهر لي منه وما كان قد اشتهر عنه، فتبَسّم وقال: والله ما لَمَحَ أحدٌ من أمري ما لمحته، وما سألني أحد عنه قبلك، وأنا أخْبِرُكَ عن ذلك، وهو أنني والله ما ولّيتُ للسلطان وِلايةً قطُّ وأنا راضٍ بها، وشرع يذكر لي ولايته وتنقلاته من الجندية وما بعدها، ثم قال: ولما نقلت من نيابة قلعة صفد إلى دمشق ووليت شاد الدواوين وأستاد دارية كَرِهْتُ ذلك أشَدّ كرَاهَةً واستعفيْتُ منه فلم أعفَ، والله كان إذا أحْضِرت إليّ النفقة المقررة لي على بَيْتِ المال عن وظيفة الشد. وهي في كل يوم خمسة وسبعون درهمًا ـ ووضِعَتْ بين يدي يُخيَّل لي أنها عَقَارِبُ تَلْدَغُنِي ولقد والله كنت أعرض على نفسي أنواع البلاء والعاهات، وولاية الشد فيسهل علي أن أبتلي ببعض العاهات ولا أكون مُشدًّا، إلا العمى فإني كنت أسْتَصْعِبه وأختار الشد عليه، وأما لو خيرت أن يبطل إحدى يدي أو رجليّ أو عيْنَيّ تزول إحداهما وأبصر بالأخرى وأعفى من الشد لاخترتُ ذلك، ورَضِيتُه على الشد فقصدت إظهار عدم المعرفة والتغافل عن المهمات والمصالح حتى شاع ذلك عني واتصل بأبواب السلطنة ورجوت بذلك الخلاص من وظيفة الشد، فلم يُجْدِ ذلك لي نفعًا ولا عُزِلْت، ففكرت بعض الليالي في أمر أفعله يكون سبَبَ خلاصي، فألهمني الله تعالى أنه لا يخلصني من الشد إلا أن أردَّهم عن المظالم، وألّا أوافق على فعلها، واتّفَقَ في غضون ذلك أنّ القاضي شرف الدين بن مزهر[٢] ناظر الدواوين حضر إلَيَّ وقد عيّن أسماء جَمَاعة من الولاة

(١) الجوكان: هي أيضًا: الجوكندار، وقد تقدم التعريف بهذا المصطلح.

(٢) شرف الدين بن مزهر: هو يعقوب بن فخر الدين مظفر بن أحمد بن مزهر الحلبي، توفي سنة ٧١٤ هـ (انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ١٤١:١/٢، والدرر الكامنة ٢٠٩/٥، وفيه وفاته=

والمباشرين بالأعمال البرانية أن يستخرج منهم مبلغ ثمانين ألف دِرْهَم لبيت المال، فلم أوافقه على ذلك، ورددتهُ عنه، وقبحت عليه فعله، ففارقني واجْتَمَع بنَائب السلطنة الأمير جمال الدين، وشكا إليه ذلك، وكتب تذكرة، وعلم نائب السلطنة عليها وسلمها إليّ في المجلس وقال لي استخرج مبلغها من هؤلاء. فقلت والله لا أفعل هذا أبدًا ولا أوافقُ عليه، وإنما أنا أطلب هؤلاء الذين عينوا في هذه التذكرة، ويحاققهم هذا الناظر وجماعة المستوفيين، فمن ظهرت خيانته اسْتَعدْتُ منه ما التمسه، وأدَبْته أدبًا شافيًا، ومن ظهرت أمانته خَلَعْتُ عليه وأحسنت إليه وأعدته إلى جهته، أو نقلته إلى أجود منها، وأما خلاف هذا فلا أفعل. فطالع شرف الدين بن مزهر الأبواب السلطانية بذلك، فوصلت تذكرة سلطانية من الديار المصرية باستخراج المال المذكور عن ممّن عُيِّن، ووصل إلى قرينها كتاب السلطان باعتماد ما تضمنه، واستخراج المال وحمله، فامتنعت من ذلك وصممت على أن لا أتحدث فيه أبدًا ولا أوافق عليه إلا بعد المحاققة. فلما عَلِموا مني معارضتهم ودفعهم عما يقصدونه من المظالم صُرِفْتُ مِنَ الشَّدّ، وأفادني هذا الرأي. فلما وُلِّيتُ ديوانَ الخاص هذا. وهو أملاكٌ ومواريث شَرْع ليس فيه مظلمةٌ ولا مكس انْبعثْتُ لمباشرته، وطابت نفسي بالحديث فيه، وأظهرت ما أعرفه فهذا هو السبب. واستكْتَمَنِي رحِمهُ الله تعالى ذلك، فكتمته مُدَّة حياته، ثم ذكرته بعد وفاته. وكان رحمه الله حسن الرّفْقَة لا ينفرد برأي، ولا يستقل بأمر قبل أن يعرضه على رفقته، ولقد كانت تأتيه كتبُ السلطان له فيما يتعلقُ بديوان الخاص فلا يفتحها حتى أحضر ويخرجها إليّ مختومةً فأقرأها عليه ـ وكان يحسن القراءة ـ ثم اتَّفِق معه على الجواب عنها وأكتبه عنه ويكتب عليه، وكان يخصني بذلك دون بقية الرفقة ـ هذا إذا كنت بدمشق ـ وأما إن توجّهْتُ لكشف جهة أو قسمتها فإنه يكتب الجواب إلى من يراه ولما مات ولي بَعدَ وفاته نيابةَ السلطنة بحمص الأمير سيفُ الدين بكتمر الساقي المنصوري وتوجه إليه في المحرم سنة سبع وسبعمائة واستهلت سنة سبع وسبعمائة.

ذكر الوحشة الواقعة بين السلطان الملك الناصر والأمراء

في هذه السنة في أول المحرم ظهرت الوحشةُ بين السلطان والأمير سيف الدين سَلَّار، والأمير رُكْن الدين بيبرس، وكان السلطان قد امتنع من العلامة أيامًا، وظنّ الناس أن ذلك لمرض اعتراه ثم عَبَرَا له في ثالث الشهر فتنكر لهما وسبهما،

= سنة ٧٢٩ هـ، والبداية والنهاية ١٤/١٤٦).

فاستعطفاه وألَانَا لَهُ وقالا: نحن مماليك السلطان ومماليك والده السلطان الشهيد وبناة دولته إلى غير ذلك مما استعطفاه، فخلع عليهما وعلى الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الجوكَنْدَار أمير جَنْدَار. وخرجا من عنده فلما صار بظاهر باب القلعة قويَتْ نفوسهما، وشرعا في إظهار ما عندهما، وتركا باب القلعة في تلك الليلة مفتوح الأقفال، ورسما بأن تركب جماعة من العسكر تحت القلعة، فركب الأمير شمس الدين سنقُر الأعْسَر في جماعة من مماليكه بعد العشاء الآخرة مظهرين السلاح وشقّ المدينة وخرج من باب زوِيلة إلى تحت القلعة، وكان قبل ذلك قد انقطع في داره، وادَّعى المرض، فلما كانت هذه الفتنة كان أوّل مَن ركب وكان ممن ركب أيضًا أخوه الأمير سيف الدين سلار فخرج لهم بعض المماليك السلطانية الأوشاقية[1] من الإسطبل، فراشقهم بالسهام ورمى الأمير سيف الدين سموك أخو سلار بسهم فوصل إلى الشباك الذي يجلس فيه السلطان، فشق ذلك على السلطان وكَبُرَ لَدَيْه، وبات الأمراء الأكابر في تلك الليلة على مساطب الدّرَكَاه بباب القلعة متلازمين، ولما فُتِحَ باب القلعة وقف أمامه مماليك الأمراء الأكابر وهم مُكَيْزون[2] سهامهم في قسيِّهم، وظنوا أن المماليك السلطانية يخرجون عليهم إذا فتح الباب، فلم يقع ذلك فصرف الأمراء أكْثَر مماليكهم، وجلس الأمراء بالدّرَكَاه بباب القلعة وترددت الرسائل بينهم وبين السلطان على لسان الأمير جمال الدين أقُش الموصلي والأمير سيف الدين كَرَايْ، والأمير بهاء الدين يعقوب الشهرزوري[3]، وسألوا رضا السلطان والتمسوا منه تسليم بعض الخاصكية[4] الذين نسبوهم إلى تغيير خاطر السلطان، فما وسع السلطان إلا إخماد هذه الفتنة الثائرة فسيّرَهم إليهم بعد مراجعات وأيمان أنهم لا يَنالُهم مِنَ الأمر أذى وهم سيف الدين بَيْبُغَا التركماني، وكان من أخص الناس بالسلطان وأقربهم عنده

---

(١) الأوشاقية: واحدها «أوشاقي» أو «أوجاقي»، وهو الذي يتولى ركوب الخيل للتسيير والرياض (صبح الأعشى ٥/ ٤٥٤).

(٢) مكيْزون: لعله من تكوّز وتكوّزوا: أي اجتمعوا. والسياق يشير إلى أن يكون معناها: مهيّئون ومعدّون.

(٣) شهد مع المظفر قطز وقعة عين جالوت ضد التتار، ومعه جمع كثير من الشهرزورية، توفي سنة ٧٠٧ هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٤٣٦).

(٤) الخاصكية: هم الذين يلازمون السلطان في خلواته ويسوقون الحمل الشريف، ويجهزون في المهمات الشريفة ومتعينون للإمرة، والمقربون في المملكة، كان عدتهم في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون أربعين خاصكيًا، ثم ازدادوا على ذلك حتى صاروا في أيام الملك الأشرف برسباي نحو ألف خاصكي (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص ٨١ وما بعدها).

وسيف الدين خاص تُرْك وسيف الدين بَيْتمر الحاج فأنزلهم الأمراء لوقتهم من القلعة وتوجهوا إلى جهة القُدْس ثم دخل الأمراء إلى الخدمة على عادتهم، ولما اتصل خبر هذه الحادثة بالأمير جمال الدين أقش الأفرم كتب إلى الأمراء يلومُهم ويعنِّفُهم على ما وقع من إخراج هؤلاء المماليك ويلتمس إعادتهم، ويقسم أنهم متى لم يُعَادُوا إلى خدمة السلطان حضر هو بهم، وكتب إلى السلطان مطالعة يقول: إن المملوك بلغه أن الخواطر الشريفة تغيَّرَت على فلان وفلان والمملوك يسأل عَوْدَ العواطِفِ الشريفة عليهم، وشمولهم بالمراحم السلطانية وإعادتهم إلى الخدمة أو نحو هذا ولما وصل كتاب نائب الشام إلى الأمراء بذلك سألوا السلطان في إعادة المماليك المذكورين فرسم بإعادتهم فعادوا، ولم يسكن الأمير سيف الدين بَيْبغَا بالقلعة وإنما سكن بداره بسويقة العِزي وما لبث أن مرض ومات في هذه السنة على ما نذكره إن شاء الله تعالى وفيها في يوم الاثنين خامس عشر محرم بعد إخراج المماليك السلطانية رسم بإخراج الأمير سيف الدين بكْتَمُر الجوكَنْدَار أمير جَنْدَار فأخرج من ساعته، وقطع خبره، وبات في تلك الليلة بظاهر القلعة، ورحل في يوم الثلاثاء، وولي وظيفة الأمير جاندارية بعده الأمير بدر الدين بَكْتُوت الجُوكنْدار، المعروف بالفتاح، وتوجه الأمير سيف بَكْتَمُر إلى الشام بغير إقطاع، فلما وصل إلى غزة عُيِّنَتْ له الصَّبيبة فتوجه إليها واسترخمها وكَره المُقَام بها، فكتب إلى الأبواب السلطانية وإلى الأمراء شكا من وخمها، وسأل نقلته إلى غيرها فعيّن له صَرْخدَ، ثم اتفقت وفاة الأمير شمس الدين سُنْقُرْجَاه المنصوري نائب السلطنة بصَفَد في شعبان فكُتِبَ منشورة بإقطاعه وتقليده بنيابة السلطنة بها، فتوجّه إليها، ثم كان من خبره ما نذكره وفيها وصل الأمير فتح الدين بن صَبْرَة من أسْرِ التتار، وقد تقدم ذكر أسْرِه في بلاد سِيس.

وفي هذه السنة طلع النيل بالديار المصرية طلوعًا عامًا ورَوَى البلادَ وَزرَعَ وطَلَعَ الزرع طُلُوعًا حسنًا، فلما كان في شوال الموافق لبرمهات ـ وهو وقت كمال الغلال ـ هبّت ريح جَفّفت الزرع قبل أن يشتد فهاف جميعُ ما مَرّت عليه تلك الريح، وهو أكثر الزَّرْع حتى ترك أكثرهُ بغير حصاد وارتفعت أسعار الغلال بسبب ذلك فبلغ سعر القمح كل أردب تسعين درهمًا وفيها جُرّد جماعة من العسكر الشامي إلى الرحبة فتوجه الأمير علاء الدين أيْدغُدِي شُقير في طائفة من العسكر في ثاني جمادى الأولى، ثم تلاه الأمير سيف الدين قُطْلُوبك المنصوري في رابع عشر الشهر وتوجه الأمير سيف الدين بهادر آحي في التاريخ المذكور.

وفيها في يوم الاثنين العشرين من شهر رجب توجه الأمير جمال الدين نائب السلطنة بالشام إلى القُدْس الشريف لقَصْد الزيارة وتوجّه معه جماعة من أعيان دمشق وعاد إلى دمشق في تاسع شعبان.

وفيها توجه ركبٌ من الديار المصرية إلى الحجاز الشريف في السابع والعشرين من شهر رجب صُحْبَة الأمير ركن الدين الكُونْدِكي وجماعة المشار إليه منهم الشيخ نجم الدين بن عَبّود ونجم الدين بن الرفعة[١] وغيرهم ووصلوا إلى مكة في سادس شهر رمضان.

ذكر الاهتمام بقصد اليمن والاحتفال لذلك وتعيين العساكر المجردة إليه وتأخير ذلك وإرسال الرسل

وفي هذه السنة حصل عزم الأمراء ولاة الأمر على قصد اليمن وتجريد العساكر وتقرر أن يتوجه الأمير سيف الدين سلّار نائب السلطنة بالجيوش، وعيّن من يتوجه معه، وعرض رجال الحلقة واحتفل لذلك احتفالًا عظيمًا، ورسم لكل أمير مقدم ألف ومضافيه أن ينشئوا مركبًا كبيرًا وفلوه برسم حمل الأزواد وحصل الشروع في ذلك وندب الأمير عزد الدين أيبك الشجاعي شاد الدواوين لعمل المراكب فتوجّه إلى الوجه القبلي، وقطع الأخشاب لذلك، وكان سبب هذا العزم ما حصل للملك المؤيد هزبر الدين داود[٢] صاحب اليمن من اختصار الهدايا، وإعادة الرسول المتوجه إليه من الأبواب السلطانية بغير جواب، ولما حصل هذا العزم سأل أعيان الكارم[٣] مراحم السلطان في الإمهال إلى أن يتوجه إليه الرسل من الأبواب السلطانية ويعود جوابه، ودخل في هذا السؤال جماعة من المشايخ فأجيبوا إلى ذلك، وكتب لصاحب اليمن عن الخليفة المستكفي بالله أمير المؤمنين العباسي والسلطان، وتوجه

---

(١) نجم الدين ابن الرفعة: هو أحمد بن محمد بن مرتفع، نجم الدين، المعروف بابن الرفعة، توفي سنة ٧١٠ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٢٢، البداية والنهاية ١٤/ ٦٠).

(٢) هو الملك المؤيد هزبر الدين داود ابن الملك المظفر يوسف بن عمر التركماني، ملك اليمن، توفي سنة ٧٢١ هـ. تقدمت ترجمته.

(٣) أعيان الكارم: هم التجار الكارمية، وهم فئة من التجار كان بيدهم تجارة البهار مما يجلب من الهند عن طريق ثغور اليمن فعرف ذلك بهم، وكان معظمهم في الأصل من بلاد الكانم الإسلامية التي تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد في السودان الغربي، فنسبوا إلى أصلهم الجغرافي بعد تحريفه إلى الكارم، ثم أطلق ذلك اللفظ على جميع من مارس تلك التجارة بمصر (مصطلحات صبح الأعشى ص ٧٣).

القاضي شمس الدين محمد بن عدلان الشافعي أحد المفتيين بالقاهرة، وشمس الدين سُنْقُر السعيدي أحد مقدمي الحلقة المنصورة، فتوجها وحَمَلا مشافهة إليه، وتأخر تجهيز العسكر.

وفيها نزل الأمير سيف الدين كراي المنصوري عن إقطاعه بالديار المصرية، وكان إقطاع إمْرَة مائة فارس، وذلك أنه توجه للصعيد لكشف إقطاعه، وانتهى إلى مدينة إسنا من الأعمال القوصية ـ وهي من جملة إقطاعه وتجهز منها، وحمل ما يحتاج إليه من الروايا والقرب وغير ذلك، وتوجه هو ومن معه في البرية لقصد بلاد التاكة[1] فوردت مطالعة مُتَوَلّي الأعمال القوصية بذلك، فقطع خبره، وأنْعَم به على الأمير سيف الدين بَتْخَاص، وكان إخراج الإقطاع هو غرض الأمير سيف الدين كَراي، ثم رجع إلى الأبواب السلطانية بعد أن أوغل في البرية، وسأل الإعفاء من الإمرة والخدمة، وأن يتوجه إلى القُدْس الشريف ويقيم هناك ـ وما عُلِمَ مُوجِبُ ذلك ـ فأذن له فتوجه بحريمه ومماليكه وأقام بالقدس.

وفيها اهتم الأمير ركن الدين بِيَبرس الجَاشنكِير أستاذ الدار[2] بعمارة دار الوزارة خانقاه ورباطًا وتربة لدفنه ـ اهتمامًا عظيمًا، فعمر ذلك عمارة متقنة وحصَّل الرخام من كل جهة، ودلَّه الأميرُ ناصر الدين محمد بن الأمير بدر الدين بَكْتَاش الفخري أمير سلاح. على أن يظاهر دورهم بالقصر فَسَاقِي من الرخام الأبيض مدفونة تحت الرَّدْم، وأخرج منه فسقيتان من الرخام على غاية الكِبَر والحُسْنِ وإتقانِ الصنعة، وكل منهما قطعة واحدة، وهي طويلة عميقة متسعة الجوف والوسط، ثم تنخرط من طرفها إلى أن تَرقَّ فيكون طرفها كالمجراة، فأخرجتا وعمل لإخراجهما آلات مُعِينَة على ذلك، وحصل التعب في جَرِّهما، ثم نشرتا ألواحًا وفرش بهما أرض المكان ووقف الأمير رُكْن الدين على هذا المكان أوقافًا متوفرة جليلة المقدار، وعَيَّن في هذا الوقف عدّة كثيرة من الفقراء الصوفية، والجند البطالين وغيرهم، ورتَّب أن يكون بالمكان شيخين أحدهما بالخانقاه والآخر بالرباط وأئمة ومؤذنين ومقرئين وغير ذلك، وكملت عمارتها والأوقاف عليها في سلطنته، وخُلِعَ ومات قبل فتحها؛ فأغلقت مدة ثم أمر السلطان الملك الناصر بفتحها ففتحت، ورتب فيها جماعة من الصوفية وغيرهم بالخانقاه والرباط، وأما القبة التي بها المدفن فإنها مغلقة على ما هي عليه لم تفتح إلى أواخر

---

(١) بلاد التاكة: المقصود بها بلاد السودان (انظر: السلوك للمقريزي ٢/١: ٣٧).

(٢) أستاذ الدار: تقدم التعريف بهذا المصطلح.

سنة خمس وعشرين وسبعمائة ولم تستقر جُمْلَةُ الأوقاف على هذا المكان؛ فإن منها ما حُلّ ورَجَع إلى بيت المال، واستقر بعضها فصرف لمن استقر بها مِنَ الصوفية وغيرهم.

ذكر وفاة الأمير سيف الدين بيبغا المعروف بالتركماني وأنشأ تربته وما وقف عليها

وفي هذه السنة في العشر الأخير من شعبان توفي الأمير سيف الدين بَيْبُغا الناصري المعروف بالتركماني أحد أمراء العشرات بالديار المصرية، وهو من أكابر أخصَّاء المماليك السلطانية وأحد مَنْ أخرج في هذه السنة إلى الشام وأعيد، وكان متمكنًا عند السلطان خِصِّيصًا بخدمته، لا يتقدم عليه غيره في وقته، وكان السلطان قد مَلَّكَه جملةً من أملاكه بالقاهرة من ذلك تربيعة الجمالون بخط الشرابشين وأجرتها في كل شهر ألف درهم ومائة درهم واشْتُرِيتَ هذه التربيعةُ للسلطان بمائتي ألف درهم وأربعين ألف درهم، وحمامي بن سويد، وقيسارية أخرى وغير ذلك وأنعم عليه بجملة كثيرة من الأموال، والحوايص الذهب والجواهر مما لا يدخل تحت الإحصاء. ولما مات كنت يومئذٍ في خدمة السلطان فأمرني والأميرَ عزّ الدين الحاج أَزْدَمُر رأس نوبة الجمدارية بإيقاع الحَوْطَة على مَوْجُودِهِ ففعلت وحَرّزتُ ذلك وعرضت الأوراق على مولانا السلطان وحَمَلتُ من موجوده وذخائره إلى السلطان ما أمر بحمله ثم أمر لي ببقيّة بَيْع الموجود أو أن أعمر به تُرْبَةً بالقرافة، وقبة على قبره فبادرت إلى امتثال أمره، وشرعت في ذلك، وجمعت جماعة من المهندسين والصُّنَّاع لقسمة التربة ووضع الأساس، وحضر السلطان إلى التربة بالقرافة، ونزل عن فرسه، ووقف وقسم التربة وخَطَّها بعصا في يده ورتبها على حسب ما اقتضاه رأيه الشريف ثم رسم إلى أن أوقف عنه على هذه التربة من الأملاك المذكورة آنفًا التي ورثها عن بيْبُغا، وهي مما كان قد وَهبَه له، فوقفت تربيعة الجملون وغيرها على مصالح تربة سيف الدين بيْبُغَا بطريق الوكالة عن السلطان، وذلك بمجلسه بحضور قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعي وجماعة من العدول، ولما شرعت في ترتيب الوقف سألت السلطان خلَّد الله ملكه أن أرتبه وأوقفه على أيسر الوجوه وأهنئها، وأطيبها فأذن لي في ذلك، فشرطت في الوقف أن مَن مَرِض من أهل الوقف مِن إمام ومؤذن ومقرئين وغيرهم أو رمد يُصْرَفُ له معلومه الشاهد به كتاب الوقف بجملته ويُسْتَنَابُ عنه في مُدّة مرضه أو رَمدِه مَنْ يقُوم بوظيفته بنظير نصف معلومِه من مال الواقف، وأنّ من حَجّ من أهل

الوقف يُجْعَلُ له معلوم أربعة أشهر، ويستناب عنه بنظير نصف معلومه في مال الوقف، وغير ذلك من التيسيرات، وعرضت، ذلك على السلطان خلّد الله ملكه فأمر لي بإمضائه، فوقفته على هذا الحكم، وهو باقٍ على ذلك والحمد لله تعالى - والوقف ينمو ويزيد إلى وقتنا هذا.

وفي هذه السنة في ليلة يسفر صباحها عن يوم السبت خامس جمادى الآخرة وقت السحر توفي الصاحب الوزير تاج الدين محمد ابن الصاحب فخر الدين محمد ابن الصاحب الوزير بهاء الدين علي بن محمد بن سليم المعروف جده بابن حنا[١] بداره ببركة الحَبَش، ودفن بتربته بالقرافة رحمه الله تعالى ومولده في التاسع من شعبان سنة أربعين وستمائة.

وتوفي في دمشق الأمير علاء الدين مُغْلَطَاي البيسري[٢] أحد الأمراء الأعيان بها، في ليلة يُسْفِرُ صباحُها عن يوم الاثنين ثاني جمادى الأولى، ودفن في يوم الاثنين بقاسيون، وكان رحمه الله تعالى من أحسن الناس عِشْرَة، وأكملهم مروءة وأوفاهم بحقوق أصحابه كان لا يَدّخر عن صاحبه أو قاصده مالًا ولا جاهًا، صَحِبْتُهُ مُدَّةً فلم أر أحسن من صحبته ولا مودته، وكان لنا بهذا البيت البَيْسَري خدمة قديمة، ثم صحبة أكيدة، وتجددت بعد ذلك بيني وبينه بِدمشْق عند مقدمي إليها في جمادى الآخرة سنة إحدى وسبعمائة إلى أن عدت إلى الديار المصرية في رمضان سنة ثلاث وسبعمائة، وكان رحمه الله تعالى من أشجع الأمراء، وهو ذو فهم بالحروب والوقائع وترتيب الجيوش، وممن يُرْجَعُ إليه في ترتيب المحافل والمهمات، وعَرْض التقادم وغير ذلك من أحوال الملوك، وكان أيضًا قد انفرد في معرفة طَيْرِ الجَارح وتَدْرِيبه والاصطياد به وجَيِّده ورديئه، ومُدَاوَاة سقيمه وغير ذلك من أحواله، وكان أصله من مماليك زين الدين الحافظي وزير الملك الناصر صاحب الشام اشتراه الأمير بدر الدين بيْسَري الشمسي بعد هروب الزين الحافظي بما ينيف عن أربعين ألف درهم ويقارب الخمس ألفًا وحرص الملك الظاهرُ رُكْن الدين على تَملّكِهِ فما قدر على ذلك، واجتهد بكل طريق فلم يتهيّأ له حتى عزم في أواخر أمره على القبض على الأمير بدر الدين بِيْبرس أستاذه ليتمكن من أخذه فمات الملك

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٢٢٨، وشذرات الذهب ٦/ ١٤، والسلوك للمقريزي ٢/ ٤١، والوافي بالوفيات ١/ ٢١٧.

(٢) علاء الدين مغلطاي البيسري: انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٣٥٥.

الظاهر قبل ذلك، ولما اعتقل مخدومه الأمير بدر الدين بيسري في أوائل الدولة المنصورية ضبطَ موجودَه وخدم أولاده ورَبَّاهم وحفظهم وكانوا ستة، وأنفق عليهم أمواله، ولازم باب أستاذه في مدة اعتقاله، ورغب السلطان الملك المنصور في استخدامه ورتبه في جمداريته، ووعده بالإمرة، وأسكنه بالقلعة فاستغفى من ذلك وكَرِه مفارقة باب أستاذه والاشتغال عن حفظ أولاده، ولم يزل يتنصلُ من الخدمة حتى أُعْفِي منها، وكان إقطاعه في جنديته أمير مَن خاص جماعة من الأمراء، قال لي يومًا بدمشق وهو أمير تسعة وستين فارسًا: وددت أن إقطاعي الآن وإقطاع أصحابي نظير إقطاعي في الجندية فسألته عن متحصل إقطاع جنديته، فأخبرني أنه كان يحصل له منه لخاصة ولأربعة أتباع في كل سنة مائة ألف درهم وخمسة آلاف درهم وخمسة آلاف إردب غلة ومات رحمه الله تعالى وعليه جُملة من الديون، صرفها في المكارم ومَحَاسنُه رحمه الله كثيرةٌ.

وتوفي الأمير ركن الدين بيبرس العجمي الجمدار الصالحي النجمي المعروف بالجالق[١] أحد الأمراء الأعيان مقدمي الألوف بدمشق وكانت وفاته بظاهر الرّمْلة في العشر الأوسط من جمادى الأولى في خامس عشر الشهر، وقيل في تاسع عشرة، ونقل إلى القدس فدفن هناك، وكان رحمه الله تعالى أميرًا خيّرًا دَيِّنًا، كثير البِرِّ، كان يرْصُد من ماله جملةً يُقْرِضُها للجند عند تَجْرِيدِهم، ويصبر عليهم بذلك إلى أن يَتَيَسَّر لهم إعادته، وعُدِمَ له جملة كثيرة من أمواله بسبب ذلك، ولا يَرُدُّه ذلك عن هذه الحسنة رحمه الله تعالى.

وفيها ـ في ثاني جمادى الآخر ـ كانت وفاة الشيخ الصالح العابد عمر السعودي[٢] بزاويته بالقرافة، ودفن بها رحمه الله تعالى وفيها توفي الشيخ القاضي شرف الدين محمد ابن القاضي فتح الدين عبد الله بن محمد بن أحمد بن خالد القَيْسَراني الحلبي، أحد أعيان كُتَّاب الدَّرَج بالباب الشريف السلطاني، وكانت وفاته بعد العصر من يوم الجمعة، ودفن يوم السبت بالقرافة الصغرى، وكان رحمه الله تعالى رجلًا جيّدًا خيّرًا ديّنًا متواضعًا فاضلًا أمينًا، لا يَغْتاب أحدًا من الناس، ويكره الغَيْبَة من غيره، ولا يسمعها، وسمع الحديث النبويّ الكثير، وكان متمكنًا من صناعة الإنشاء، طاهر اللسان والقلم كثير الأدب غزير المروءة رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/٢٢٨، البداية والنهاية ١٤/٤٧، الدرر الكامنة ٢/٤١.

(٢) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/١:٤١، الدرر الكامنة ٣/٢٧٥.

وفيها في يوم السبت خامس عشر رجب توفي الشيخ تقي الدين الرجيحي بن سابق بن هلال بن يونس[١]: شيخ الفقراء اليونسية بدمشق، وصلى عليه بجامعها، وأعيد إلى داره فدفن بها، وجلس مكانهُ في مشيخة اليونسية وَلده الشيخ حسام الدين فضل.

وفيها في يوم السبت تاسع عشرين شهر رجب الفرد توفي الأمير علي ابن الملك القاهر عبد الملك ابن الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وكانت وفاته بدمشق، ودفن بقاسيون رحمه الله تعالى.

وتوفي بدمشق أيضًا الأمير فارس الدين الردَّادي[٢] أحد الأمراء بها في ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان المعظم وتوفي بها الأمير سيف الدين كاوركا المنصوري[٣]، وهي من المماليك المنصورية في زمن الإمرة، وكانت وفاته في الخامس عشر من ذي القعدة.

وتوفي الأمير بهاء الدين أسلم بن دَمُرْدَاش أحد الأمراء بدمشق في يوم الجمعة رابع ذي القعدة وتوفي بالكرك الطواشي شمس الدين صواب السهيلي الخازندار[٤]، وقد قارب المائة سنة، وكان الملك الظاهرُ ركن الدين بيبرس قد سلّم إليه قلعة الكَرَك كما تقدم واستمر بها إلى سنة إحدى وثمانين وستمائة في أيام الملك المسعود نجم الدين خضر ابن الملك الظاهر فتوجه إلى الحجاز الشريف في جملة الركب الشامي فلما وصل إلى تَبُوك لحقه الأمير عُبَيَّة أمير بني عُقْبة في نحو مائتي فارس، فقبض عليه وحمله إلى الأبواب السلطانية المنصورية، فلما مَلَك السلطان الملك المنصور قلعة الكَرَك أعاده إليها وثوقًا بأمانته وديانته، فلم يزل بها إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وتوفي في ليلة الاثنين حادي عشر شعبان القاضي جمال الدين أبو بكر محمد بن عبد العظيم بن علي بن سالم الشافعي المعروف بابن السقطي[٥] خليفة الحَكَمِ العزيز

---

(١) انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٤/ ٤٤، والدارس في تاريخ المدارس ٢/ ٢١٦، وفيهما: «سيف الدين» بدل «تقي الدين».

(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٢٢٥، وفيه: سيف الدين بن أسلم بن عبد الله الردّادي.

(٣) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٢٣٠.

(٤) انظر ترجمته في: الدليل الشافي ١/ ٣٥٦، والدرر الكامنة ٢/ ٣٠٧.

(٥) ابن السقطي: انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١٦، والسلوك للمقريزي ٢/ ١: ٤٢، والدرر الكامنة ٤/ ١٨.

بالقاهرة، ودفن من الغد بالقرافة وولي نيابة الحكم بالقاهرة نحو أربعين سنة وكان دَرِبًا بالأحكام الشرعية، وترك النيابة عن الحكم في آخر عمره، ومولده في سنة ثمان وعشرين وستمائة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير بهاء الدين يعقوبا بن نور الدين بدر الشَّهْرَزُوريّ أحد الأمراء مقدمي الألوف بالديار المصرية قديم الإمرة - وكانت وفاته في ليلة تسفر عن سابع عشر ذي الحجة.

وتوفي الأمير الطواشي شهاب الدين فاخر المنصوري[١]، مقدم المماليك السلطانية، وأحد الأمراء أصحاب الطبلخاناه، بالديار المصرية في سابع عشر ذي الحجة وكان رحمه الله تعالى ذَا مَهَابَةٍ وسَطْوَةٍ على المماليك السُّلْطَانِيّة يحترمه كبيرهم ويخافه صغيرهم وكان كريم النفس رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة ثمانٍ وسبعمائة

في هذه السنة في مستهل شهر ربيع الأول أخرج الأمير نَجْمُ الدّين خِضْر الملقب بالملك المسْعُود ابن الملك الظَّاهِرِ ركن الدّين بيبرس من البُرَج بقلعة الجبل، وسكن مضرَ على شاطىء النيل بدار الأمير عزّ الدِّين، أَيْبَكْ الأفرم وكانت اشتريت له، ولم تطل مُدَّتُه فإنه توفي خامس شهر رجب بالقاهرة بدار الحلبي.

وتوفي ولده قبل وفاته بيوم، وخَلّفَ ولدًا ذكرًا وابنة، رحمه الله تعالى.

وفيها في ثالث شهر ربيع الآخر فوضَتْ الخطابة بجَامِعِ قَلْعَة الجبل لقاضي القضاة بدر الدّين مُحَمّد بن جماعة عِوَضًا عن الشَّيخ شمس الدِّين محمّد الجزري.

وفيها وصلت رُسُلَ صَاحِبِ سيس بالقطيعة المقررة عليه وهديته، ووصل في جملة ذلك طَشْتٌ وإبريق ذهب مرصع بالجوهر.

وفيها في جمادى الآخرة وصلت طائفة من التّتَار الذين هم شرقي الفرات إلى بلد كركَرْ، وأغاروا عليها، وكان هناك سيف الدين بتخاص أحد مماليك الأمير شمس الدين قراسنقر نائب السلطنة بحلب، فتوجّه بجماعة من الرجالة وكبس التتار، وأوقع بهم واستظهر عليهم، وأسَرَ بعضهم وحضر إلى الأبواب السلطانية فأنعم عليه.

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/٢٩٩، والدليل الشافي ٢/٥١٩، وفيه: توفي سنة ٧٠٦ هـ.

ذكر توجه السلطان الملك الناصر إلى الكرك وإقامته بها

وفي هذه السنة أظهر السلطان أنه قد عزم على الحجاز الشريف وأشاع ذلك وأذاعه، وأظهر الاهتمام به وأمر بجهازه: وتجهز معه جماعة من مماليكه الذين اختارهم، وبَرَزَ من قلعة الجبل المحروسة في يوم السبت الرابع والعشرين من شهر رمضان، وركب الأمراء في خدمته لوِدَاعِهِ فأعاد الأمير سيف الدين سَلّار وركن الدّين بيبرس إلى قلعة الجبَل، واستقل ركابه، وعَيَّدَ عيد الفِطْرِ بالصالحية ثم سار ووصل إلى قلعة الكركَ في يوم الأحد العاشر من شوال منها ولما صعد إلى الكرك تقدمت الأثقال والبيوتات السلطانية، ومرت على الجسر الخشب المنصوب على الخندق بباب القلعة، ثم مر السلطان على الجسر المذكور وحوله مماليكه، الخاصكية وأرباب الوظائف، وازدحموا على الجسر فضعف عن حملهم فتكسرت أخشابه، وقد صارت يدا فرس السلطان داخل باب القلعة وأطراف حوافر رجليه على الجسر فوثب الفرسُ به فصادر داخل القلعة، فسلم وانكسر الجسر بمن كان عليه من الخاصكية فسقطوا إلى أسفل الخندق، وهو من أعمق الخنادق وأبعدها، فسقط بعضهم على بعض فسلموا كلهم إلا اثنين منهم أحدهما الأمير عز الدين أَزْدَمُر الحاج رأس نوبة الجمدارية فإنه انقطع نخاعه، وبطل نصفه مما يلي رجليه، وعاش كذلك إلى أن مات في سنة عشر وسبعمائة بعد عود السلطان إلى الديار المصرية.

ولما استقر السلطان بقلعة الكَرَك طلبَ ورقةً بالحاصل بِخَزَانتها من الأموال، فَكُتِبَتْ له ورقة بمبلغ مائتي ألف درهم، وكان الحاصلُ أضعافَ ذلك مِرَارًا وإنما كُتِبَت بأمر النائب بها خشية أن السلطان يأخذ ما بها من المال بجملته. فلما أخذ الورقة أظهر ما كان قد أضمره وأخرج النائب بالكَرَكِ وهو جمال الدين آقُش الأشرفي، وجماعة من البحرية، وجماعة من الرَّجَّالة، واستقر بها بمماليكه الذين رضيهم، وأعد ما كان قد استصحبه من شعار السلطنة والبيوتات إلى الديار المصرية، والممالك الشامية يُعْلمهم أنه قد اسْتَقَرّ بالكرك، ونَزَل عن السلطنة أو أنْ يُدَبِّروا الأمر على ما يختارونه، وإنما فعل ذلك لما حصلَ له من الأمير ابن سيف الدين سلّار ورُكْن الدين بِيَبْرس من المضايَقَةِ والحجر والاستبداد بالأمر دُونه ففعل ذلك وتحقق أنهما لا يتفقان بعده، وأن الأمر يؤول إليه كما يختار، فوردت مكاتباته إلى الأمراء بقلعة الجبل في يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال من هذه السنة.

ذكر سلطنة الملك المظفر ركن الدين بيبرس العثماني المنصوري

لما وصلت كتب السلطان الملك الناصر إلى الأمير سيف الدين سلّار والأمراء بما قدمناه اجتمعوا في يوم السبت الثالث والعشرين من شوال بدار النيابة، وتشاوَرُوا فيمن يُنصب في السلطنة فمال جماعة إلى الأمير سيف الدين سَلَّار النائب فقال لمن اخْتَارَهُ أنتم رَضِيتُم بي أن أكون عليكم سلطانًا، وأنا قد رَضِيتُ لي ولَكُم هذا وأشار إلى الأمير ركن الدين بيبرس العثماني أستاذ الدار، وكان ذلك رأي جماعة الأمراء البرجية[١] خواشداشيته[٢]، فوافقَ قَوْله رأيهم، فاجتمعت الكلمة بالديار المصرية عليه وإنما صرفها الأمير سيف الدين سَلَّار عن نفسه إليه لعلمه بعاقبة الأمر وأن ذلك لا يتم له، فعند ذلك حَلَف له الأمراء، وركب من دار النيابة بعد العصر من اليوم المذكور ودخل إلى دور السلطنة داخل باب القلعة والأمراء مشاة في خدمته إلى أن استقر على تَخْتِ السلطنة ولُقب بالملك المظفر، وزُفّت البشائر، وكُتب بذلك إلى سائر الممالك الإسلامية وتوجه إلى الشام الأمير عزُّ الدِّين أيبك البغدادي والأمير سيف الدين ساطي فوصلا إلى دمشق على خيل البريد في مستهل ذي القعدة، وخُطِبَ له بالقاهرة في يوم الجمعة التاسع والعشرين من شوال سنة ثماني وسبعمائة وحضر الخليفة المستكفي بالله أبو الربيع سليمان وقلده السلطنة بالديار المصرية والبلاد الشامية، وكتب عهده بذلك وقد تقدم ذكر هذا العهد وما اشتمل عليه فيما سلف من كتابنا هذا في الجزء الثامن منه في ترجمة القاضي علاء الدين بن عبد الظاهر وركب الملك المظفر في يوم السبت السابع من ذي القعدة بِشِعَار السلطنة وعليه خلعة الخليفة، وهي خلعة سوداء بطرحةٍ وتَقَلَّد سَيْفَيْن على العادة، وسَيَّر في الميدان الأسود وخَلَعَ على الأمير سيف الدين سلّار وأقرّه على نيابة السلطنة وأقر سائر النواب بالممالك الشامية، ولم يَغيِّرْ منهم إلا الأمير ركْن الدِّين بيبرس الْعَلائي النائب بغزة فإنه أعاده إلى الإمرة بدمشق وَوَلَّى نيابة غزة الأمير سَيف الدين بَلَبَان البدري وذلك في المحرم سنة تسع وسبعمائة.

---

(١) البرجية: هم من مماليك السلطان، وقد كان السلطان المنصور قلاوون أفرد من مماليكه ثلاثة آلاف من الجركس والآص، وجعلهم في أبراج القلعة، وسماهم بالبرجية (السلوك للمقريزي ١/ ٢: ٧٥٦).

(٢) الخواشداش: هي خشداش: كلمة فارسية الأصل، أصلها «جوجاناش» ومعناها: الزميل في الخدمة.

ولما وصل كتاب الملك المظفر إلى دمشق صُحْبَةَ من ذكرنا توقَّف الأمير جمال آقُش الأفرم نائب السلطنة بالشام عن الحَلِف إلا بعد أن يثبت على حاكم من حكام المسلمين أن السلطان الملكَ الناصر نَزَلَ عن السلطنة، وخَلَعَ نفسَه، فأحضر كتابُ السلطان الملك الناصر الذي قد كان وصل إليه وشهد جماعةٌ من الموقعين أن الكتاب بخط القاضي علاء الدين بن الأثير كاتب السلطان وأن الخط الذي أعلاه خط السلطان الملك الناصر، فثبت ذلك لذلك وعمل بمقتضاه، وحَلَف الأمير جمال الدين نائب السلطنة بالشام ومَن عنده من الأمراء وغيرهم، وكذلك سائر النواب بسائر الممالك وأقر الملك المظفر الصاحب ضياء الدين النِّشَائي على وزَارته على عادته - وليس له من الأمر شيء وإنما الأمر لتاج الدين بن سعيد الدولَة وزاده بسطة وتمكينًا، وكان الملك المظفر لا يكتب على تقليد أو توقيع أو كتاب إلا بعد أن يكتب تاج الدين عليه ما مثاله يحتاج إلى الخط الشريف ورسم للدوادارية أن لا يقدموا له ما يعلم عليه إلا بعد خط تاج الدين صح المذكور، وتطاوَل إلى أن قصد أن يقف على أجوبة البريد إلى النواب وغيرهم ويكتب عليها فقام القاضي شرف الدين بن فضل الله صاحب الديوان في ذلك وَعَرّفَ السلطان ما يترتب على ذلك من المفسدة، من إذاعة أسرار السلطنة وإفشائها، فاستقر الأمر أنه يكتب على ما يتعلق بالأموال والإقطاعات دون ما هو متعلق بِسِرِّ الدولة وكتب الملك المظفر للسُّلْطَان الملكِ الناصر تقليدًا بالكرك، ومنشورًا بإقطاع مائة فارس، ثم أبطل المنشور الأول، وكتب منشورًا ثانيًا بريع المغل ولخاصه ولمائة طواشي وقال فيه بعد إبطال ما كتب به أولًا وسَيّر المنشور إلى دمشق وكتب عليه النائب ونزل في الدواوين وكتب عليها الكُتَّابُ ثم لم يلبث الملك المظفر أن كَتَبَ إلى الملك الناصر يَطْلُبُ منه ما عنده من الأموال الحاصلة بالقلعة، ويطلب إعادة المماليك السلطانية الذين استقروا عنده، وكان عدةُ من استقر في خدمة السلطان نحو مائتي مملوك، وطلب أيضًا الخيول التي للسلطان معه، وقال إن القلاع لا تحتاج إلى كثرة الخيول ولا الأموال، فأرسل إليه السلطان الملك الناصر مائتي ألف دِرْهم فأعاد الجواب بتجديد طلب الأموال، فكتب إليه: إن خط نائبكم عندي أنه لم يكن بخزانة الكرك غير مائتي ألف درهم وقد أرسلتها، ولم يرسل غيرها، وأهان رسول الملك المظفر وهو الأمير علاء الدين مغلطاي أبتغلي وأمر بإخراجه ماشيًا من قلعة الكرك إلى الغور وتحقق الملك الناصر سوء رأي الملك المظفر، وأنه لا يبقى عليه، فشرع عند ذلك في التدبير، فكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة في ليلة السبت ثاني المحرم توفي الشيخ الصالح أحمد بن أبي القاسم المراغي بمصر ودفن من الغد بالقرافة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي القاضي برهان الدين إبراهيم بن أحمد بن ظافر البرلسي، ناظر بيت المال في خامس صفر، وكان من الفقهاء الفضلاء المالكية ممّن عين لقضاء القضاة، وكان طاهر اللسان عفيف البد كثير المروءة رحمه الله تعالى.

وفيها في ليلة الثلاثاء تاسع عشر شوال توفي عز الدين أَيْدَمُر الرشيدي أستاذ دار الأمير سيف الدين سلّار نائب السلطنة، وكان رجلًا عاقلًا مُثْرِيًا اتَّسَعتْ أمواله، وعَرُضَ جاهُه، وعلا محله، وكان قد مرض وطال مرضه وحصل له مالينخوليا ـ ثم مات رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الشيخ المحدث شمس الدين محمد بن عبد الرحمٰن بن سامة الطائي بمصر في يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من ذي القعدة وصلى عليه بجامع عمرو بن العاص ودفن بالقرافة بالقرب من تربة الإمام الشافعي وكان مشهورًا بقراءة الحديث والاشتغال به والرحلة إليه ومولده في سنة اثنتين وستين وستمائة رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة تسع وسبعمائة

في هذه السنة وصل الأمير علاء الدين أَيْدَغدِي التليلي، والأمير علاء الدين أَيْدغُدْي الخُوَارزمِي من بلاد المغرب، ووصل معهما الشيخ أبو يحيىٰ زكريا اللِّحْيانِي نائب تونس بطرابلس المغرب لقصد الحج وعاد الأميران المذكوران وقد نَهَبتْ العُرْبَانُ ببلاد المغرب ما كان قد أرسل معهما من الهدية وغيرها وكان في جملة الهدية من الخيل والبغال والجمال سبعمائة رأس.

وفيها أيضًا عاد القاضي شمس الدين محمد بن عدلان الذي كان قد جهز إلى اليمن في الرسالة في الدولة الناصرية، ومات رفيقه شمس الدين سنقر السعيدي ببلاد اليمن، بعد انفصالهما من الملك المؤيد صاحب اليمن.

وفيها في أوائل شهر ربيع الآخر تَوَجَّهْت من القاهرة إلى الكرك والتحقت بالأبواب السلطانية إلى أن عاد الركاب الشريف السلطاني الملكي الناصري، وعدتُ إلى القاهرة في سلخ رمضان.

ذكر ما كان من أمر النيل في هذه السنة

كان من خبر النيل في هذه السنة أن زيادته بمقياس مصر انتهت إلى العشرين من شهر ربيع الأوّل وهو الموافق للثالث من أيام النسيء إلى أربعة عشر ذراعًا ونصف فغَلَتْ الأسعار بسبب ذلك وانتهى سعر القمح إلى خمسين درهمًا ثمن كل إردب واستسقى الناس بالمُصلّى بالقرافة الكبرى، وكسر خليج مصر في التاسع والعشرين من شهر ربيع الأول بغير وفاء وأيس الناس من زيادة النيل في هذه السنة، وفات وقته المعتاد، ثم أخذ في الزيادة فانتهت زيادته إلى ستة عشر ذراعًا وإصبعين، وذلك إلى آخر الثالث والعشرين من بابه، وزرع الناس على هذه الزيادة.

وفي هذه السنة في ثالث عشر شهر ربيع الآخر فُوِّضَ قضاءُ القضاة على مذهب الإمام أحمد بن حنبل للشيخ سعد الدين مسعود بن أحمد بن مسعود بن زيد الحارثي[١]، وخلع عليه يوم الأربعاء، وحكم في يوم الخميس خامس الشهر، وذلك بحكم وفاة القاضي شرف الدين عبد الغني بن يحيىٰ بن محمد بن عبد الله الحراني[٢] وكانت وفاته في ليلة الجمعة رابع عشر شهر ربيع الأول ودفن من الغد بالقرافة ومولده بحران سنة خمس وأربعين وستمائة رحمه الله تعالى، وكان في مبدأ أمره شافِعي المذهب إلى آخر الأيام الأشرفية بالحسامية الصلاحية وبعدها، ثم قَلَّدَ الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بعد ذلك واستقل وولي القضاء.

ذكر اضطراب أمر الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير وما كان من أخباره إلى أن خَلَع نفسَه وفارق قلعة الجبل

كان ابتداء اضطراب أمرِ دَولتِه أنه خرج من القاهرة الأمير سيفُ الدين أبغية قبجق والأمير علاء الدين مغلطاي القازاني، والأمير سيف الدين طقطاي أمير مجلس، وجماعة من المماليك السلطانية فارين إلى خدمة السلطان الملك الناصر، وكان خروجهم من القاهرة بعد أذان المغرب من ليلة يسفر صباحها عن يوم الأربعاء خامس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وسبعمائة ووصولهم إلى خدمة السلطان الملك الناصر إلى الكرك، وطلوعهم إلى قلعتها في بكرة نهار الأربعاء الثامن والعشرين منه، فأحْسَنَ الملك الناصر إليهم، وخلع عليهم، ولما تُوّجوا اتَّهم بعض المماليك السلطانية

---

(١) سعد الدين مسعود بن أحمد بن مسعود بن زيد الحارثي: تقدمت ترجمته.

(٢) انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٤/ ٥٧، والدرر الكامنة ٢/ ٤٩٨.

بمواطأتهم فأمسك منهم نحو ثلاثمائة نفر، وقطعت أخبازهم وأخباز المتسحبين وجرّد الأمير سيف الدين بُرُلْغِي مقدمًا وصحبته الأمير جمال الدين آقُش الأشرفي، والأمير عز الدين أيبك البغدادي والأمير شمس الدين الدكن ومن معهم من مضافيهم، فبرزوا في يوم السبت التاسع والعشرين من شهر رجب وخيموا بمسجد التين، ثم عادوا بعد أربعة أيام وكان سبب عودهم أن الأمير جمال الدين نائب السلطنة بالشام وَرَدَ كتابه على يد أستاذ داره سيف الدين الطنقش يتضمن أن الملك الناصر وصل إلى البرج الأبيض قاصدًا دمشق، ورجع إلى الكَرَك، ثم وصلت كتبه بعد ذلك تتضمن أن الأمراء بالشام مالوا إلى الملك الناصر وأنه يخشى من انتقاض الأمر فعند ذلك شرع الملك المظفرُ في النفقة العامة على سائر الجيش، وكملت في سبعةَ أيام، وكان الجند يأخذون النفقة ويقول بعضهم لبعض: ادعوا للملك الناصر، وأمر الملك المظفر جماعة من مماليكه، فركب منهم من أمراء الطبلخانات سبعة عشر، ومن أمراء العرب ثلاثة عشر وذلك في مستهل شهر رمضان من السنة.

وفي هذا التاريخ خرج الأمير سيف الدين بُرلغِي مجرّدًا في أربعة آلاف فارس، ثم أردفه بالأمير سيف الدين طُغْرِيل الإيغاني في أربعة آلاف أخر فمرض طُغْرِيل فرجع ومات في عاشر شهر رمضان، وتوفي الأمير عز الدين أيبك الخزندار قبله في سابع الشهر. ولما خرج هذا العسكر أرسل الملك المظفر للأمراء نقودًا ذهبًا غير النفقة الأولى فيقال: إن الذي وصل إلى الأمير سيف الدين بُرلْغي في هذه الحركة ستون ألف دينار عينًا.

وفي يوم الجمعة الثاني عشر من شهر رمضان خرجت جماعة من المماليك السلطانية على الهجن، وقصدوا اللحاق بالسلطان الملك الناصر، فجرّد الملك المظفر في آثارهم فأدركوهم وقد وردوا الماء بمراكع موسى واقتتلوا فجرح الأمير سيف الدين سُمُوك أخو سلّار، وصارم الدين الجرمكي، وقتل من الفريقين ونجا المماليك السلطانية، والتحقوا بالسلطان الملك الناصر، فجرّد الملك المظفرُ جماعة من الأمراء لحفظ الطرقات، من جملتهم الأمير جمال الدين آقش الرومي الحسامي، فساق في إثر هذه الطائفة من المماليك فلم يدركهم، فلما رجع نزل ليستريح ويريح، فوثب عليه من مماليكه فقتلوه، وتوجهوا برأسه إلى الملك الناصر وحملت جثته إلى القاهرة، وفي أثناء هذه المدة تجمع خلق كثير من الغوغاء والعامة والسوقة وجاؤوا تحت القلعة، وأعلنوا بسَبّ الملك المظفر فأمسك بعضهُم وضُرِبَ وطيف به فلم يرتدعوا، ثم جلس المظفر في يوم الخميس الحادي عشر من شهر رمضان جلوسًا عامًا وأحضر

الخليفة المستكفي بالله أبا الربيع سليمان، وجدَّد البيعة لنفسه والتولية بحضور الحكام والأمراء وكتب كتابًا بتجديد البيعة، ورسم بقراءته على المنابر، فلما شرع القارىء له في قراءته استغاثت العامة من كل جانب ليس لنا سلطان إلّا الملك الناصر، وهموا برجم الخطباء وأخرت قراءة كتاب البيعة وكتب إلى الأمير سيف الدين بُرُلْغي ومن معه من الأمراء والمقدمين وغيرهم أن يجددوا الحَلِفَ للسلطان، فاجتمعوا بجملتهم وقرىء عليهم كتابُ الخليفة، ونسخة البيعة الثانية، وطُلب منهم أن يُجَدِّدُوا الحَلِفَ فامتنع بعضهُم وقال بعضهم قد حلفنا وإن كنا لا نفي باليمين الأولى فلا نفي بالثانية، وانفصلوا من المجلس على غير حلف فلما تفرقوا ركب بعض الأمراء وتوجه نحو الشام للقاء السلطان الملك الناصر خدمة، ودخولًا في طاعته وأَنْقَلَ الجيش المجرد، فعلم برُلغي أن النظام قد انحل وأتاه خبر مقتل آقش الرومي، فعند ذلك ركب وتوجه إلى خدمة السلطان الملك الناصر هو وسائر الأمراء المجردين ورجع بعض الحلقة إلى القاهرة وكان السلطان قد أنفق جملة كثيرةً من الأموال، وفرق خيولًا كثيرة، وعزم على الخروج بنفسه لحرب السلطان الملك الناصر ودفعه فلما بلغه أن بُرُلْغي ومن معه توجهوا إلى السلطان الملك الناصر فت ذلك في عضُدِه وسقَط في يده وعلم أنه لا بقاء لملكه.

ذكر خلع الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير نفسه من السلطنة، ومراسلته الملك الناصر وخروجه من القلعة وتوجهه نحو الصعيد

ولما كان في يوم الثلاثاء سادس عشر شهر رمضان اجتمع الأمير سيف الدين سلّار والأمير بدر الدين بَكْتُوت الفتّاح أمير جندار، والأمير سيف الدين قجماز بتخاص بالملك المظفر وقالوا له: إنا قد رأينا من المصلحة أن نراسل الملك الناصر وتسأله قلعة تكون بها أنت ومن معك من مماليكك وإلزامك فوافقهم على ذلك وتقرر أن يتوجه بالرسالة الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري فتوجه ضحى يوم الثلاثاء وكان مضمون سؤاله أن ينعم عليه بأحد ثلاث جهات إما الكرك وأعمالها، أو حماة وبلادها أو صهيون ومضافاتها ونزل عن الملك وخلع نفسه من السلطة، ثم اضطرب أمره في عشية النهار اضطرابًا شديدًا، فدخل إلى الخزائن واستصحب معه جملةً من الأموال والذخائر، وخرج من القلعة وصحبته مماليكه وهم نحو سبعمائة مملوك، وصحبته من الأمراء الأمير بدر الدين بَكْتُوت الفَتاح أمير جندار، والأمير عز

الدين أيدمر الخطيري أستاذ دار والأمير سيف الدين قجماز بتخاص ومماليكهم، وأخذ الخيول الجياد من الإسطبلات السلطانية، وشعر العوام بخروجه فتجمعوا وسبُّوه وتبعوه فقيل إنه شغلهم بدراهم نثرها عليهم فاشتغلوا بجمعها، وتوجه بمن معه إلى إطفيح ثم منها إلى الصعيد: ولما فارق القلعة خرج من بقي من الأمراء والعساكر لتلقي السلطان الملك الناصر، واستقر الأمير سيف الدين سلّار بالقلعة يحفظها للسلطان وأفرج عن المعتقلين من المماليك السلطانية، وطالع السلطان الملك الناصر بما اتفق، وأعلم باسم السلطان والدعاء له على أسوار قلعة الجبل في صبحة نهار الأربعاء السابع عشر من شهر رمضان، وخُطب له يوم الجمعة التاسع عشر من الشهر، وانتهت أيام سلطنة الملك المظفر، وكان مدة جريان اسم السلطنة عليه عشرة أشهر وأربعة وعشرين يومًا.

ذكر سلطنة السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبي الفتح محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي وعود دولته ثالثًا

ولنبدأ بسياقة أخباره منذ وصل إلى الكرك إلى أن ملك الممالك الشامية، ثم الديار المصرية.

قد قدمنا آنفًا وصول السلطان الملك الناصر إلى الكرك واستقراره بقلعتها وإخراجه الأمير جمال الدين آقش الأشرفي النائب بها، وجماعة من البحرية[1] وبعض الرجال فيها ولما استقر بها اعْتَبَر ما بها من الأموال والذخائر فوجد بها فيما بلغني سبعة وعشرين ألف دينار عينًا، وألف ألف درهم وسبعمائة ألف درهم، فاحترز على ذلك وادخره ولم يصرف منه شيئًا في النفقات وغيرها بل جعله ذخيرة لمهماته، واقتصر في النفقات، وكلّف الدولة وأقام المملكة على ما يتحصل من الكرك وأعمالها خاصة وسيّر إلى الديار المصرية من جملة الحاصل ما تقدم ذكره وهو مائتا ألف درهم وكان السلطان قد جهز زوجته أم ولده وولده وحريمه إلى الحجاز الشريف صُحْبَة الركب، فلما استقر بالكرك أرسل الأمير سَيف الدين كُسَتاي في جماعة من المماليك السلطانية إلى عقبة أيلة فأحضرهم إلى الكرك وأمر السلطان بالخطبة للملك المظفر

---

(١) البحرية: طائفة من الأجناد السلطانية كان عملهم المبيت بالقلعة وحول دهاليز السلطان في السفر كالحرس، وأول من رتب هذه الطائفة وسماها هو السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب (مصطلحات صبح الأعشى ص ٦١).

بجامعي مدينة الكرك وقلعتها فخطب له، وأمر الحراس بذكره في الصباح فكانوا يفعلون ذلك وهو يسمعهم، وانتهت حاله في الأدب معه إلى أن كان يكتب في الكتب الصادرة عنه بعد البسملة الملكي المظفري، وسلك معه من التواضع والأدب ما لا يزيد عليه نواب السلطنة، وقصد بذلك أن تكون الأحوال ساكنة، والأمر ماشيًا على سداد وانتظام واتفاق هذا والمظفر من جملة مماليك والده وليس من أكابرهم وتنازل معه إلى هذه الغاية وسلك معه مسلك النواب لا الملوك، فلم يرْض المظفر منه بذلك، ولا قنع به بل شرع في الغض من عَالِي رُتْبِته والتضييق عليه، فكان أول ما بدأ به أن كتب إليه يطلب منه الأموال الحاصلة بالكراك، والمماليك والخيول التي عنده كما تقدم ذكره، ثم أعاد المكاتبات ثانيًا بتجديد الطلب من غير تحاشٍ ولا حياء منه، ولا مُراعاة لإحسانه وسالف عتق أبيه، ولا حفظ لحق ولا ذمام فعند ذلك تحقق السلطان سوء رأي المظفر فيه، وآيس من خير يحصل له من جهته، وتوقع منه الشر، فأخذ عند ذلك في استئناف ما فرط وراسل من يثق بمودته ومحافظته وموالاته من الأمراء وكاتب الأمير حسام الدين مهنا، وأمراء العرب، ووردت عليه أجوبتهم وترددت قصَّادهم، ولم يزل الأمر على ذلك سرًا إلى أن التحق بخدمة السلطان والأمراء الثلاثة الذين خرجوا من الديار المصرية كما تقدم، ووصلوا إلى خدمته وهم، الأمير سيف الدين أبغية قبجق في ثمانية وعشرين نفرًا من مماليكه والأمير علاء الدين مُغْلَطَاي القازاني في ثلاثة عشر نفرًا، والأمير سيف الدين طُقْطَايَ أمير مجلس في اثني عشر نفرًا ومن المماليك السلطانية نحو أربعين فارسًا، وكان عدة جمعهم يقارب التسعين نفرًا، وكان وصول أوائلهم إلى الكرك يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وسبعمائة، ووصلوا والسلطان بالصيد في برية الكرك، فركب إليه الأمير سيف الدين أيْتَمُس المحمدي أحد مماليكه من القلعة وتوجه إليه وهو يتصيد، وعرفه خبر من وصل فعاد السلطان من الصيد ووصل إلى الكرك في نصف الليل ففتح له الأمير سيف الدين أرغون نائبه بالقلعة والمدينة وطلع إلى القلعة وأذن في دخول من وصل إليه ممن ذكرنا فدخلوا إلى الكرك في بكرة نهار الأربعاء الثاني والعشرين من الشهر، ومثلوا بين يدي السلطان، فأحسن إليهم وخلع عليهم، وكانوا لما خرجوا من القاهرة وجَدُوا تقدمة الأمير سيف الدين طُوغان نائب السلطنة بقلعة البيرة قد وصلت من جهته إلى الملك المظفر، فأخذوها بجملتها، وأحضروها إلى السلطان ودخلوا إلى قطْيا أوخذوا ما بها من المال الحاصل وأحضروه فأنعم السلطان عليهم به وأحضروا معهم أيضًا خيل البريد التي وجدوها بما مَرُّوا عليه من المراكز،

وكان خروجهم من القاهرة باتفاق من الأمير سيف الدين سلّار ومباطنه، فعند ذلك أظهر السلطان من أمره ما كان يبطنه، وأعلن بما كان يسرُّه وخرج بما كان يخفيه ويضمره، وأمر بالخطبة لنفسه فخطب له بجامعي القلعة والمدينة في يوم الجمعة الرابع والعشرين من الشهر، وأنفق فيمن وصل إلى خدمته وتجهز للمسير وأجمع على قصد دمشق واستقل ركابه العالي من قلعة الكرك بمن عنده من مماليكه، ومن وصل إلى خدمته في الساعة الثالثة من يوم الاثنين السابع والعشرين من جمادى الآخرة، وترك بقلعة الكرك نائبه الأمير سيف الدين أرغون في طائفة من المماليك السلطانية حتى انتهى إلى منزله الخمان بالقرب من أذرعات، وكان قد كاتب الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائب السلطنة بحلب وغيره من النواب فلما وصل إلى هذه المنزلة وركب منها لقصد دمشق ورَدَ عليه مملوك الأمير شمس الدين قراسنقر المذكور بأجوبة مخدومة تتضمن وفاة ولده الأمير ناصر الدين محمد وأنه لا يمكنه اللحاق بالسلطان في هذا الوقت ويقول: إن كان السلطان قد خرج من الكرك فيعود إليها ويظهر أنه إنما خرج للصيد ونحو هذا من الكلام المخذل له عن القصد ولم يكن قَرَاسنْقر كتب ذلك وإنما كتب ببذل الطاعة والنصيحة والموافقة فلما وصل مملوكه إلى دمشق ظفر به الأمير جمال الدين آقش الأفرم نائب السلطنة بالشام، فتحيل عليه وبذل له ذهبًا وأخذ منه الكتب وغيّر ما تضمنته إلى هذا القول، فلما وصل كتاب قَرَاسُنْقُر إلى السلطان بذلك عاد إلى الكرك، وكان قد التحق بركابه في هذه السفرة من الأمراء بدمشق الأمير ركن الدين بيبرس الشرفي المعروف بالمجنون، والأمير ركن الدين بيبرس العلمي، وغيرهما من أمراء العشرات والجند، فعاد السلطان بهم جميعًا إلى الكرك وكان وصوله إليها في الساعة السابعة من يوم الجمعة لثمان خلون من شهر رجب فأسكن الأمراء الذين معه بالكرك، ووصلهم بصلات وأنعم عليهم، وشرع في إعمال الفكرة وتجهّز لقصد دمشق ثانيًا فلما بلغ المظفر عوده إلى الكرك ظنّ أن ذلك عن عجز وخور، فكتب إليه كتبًا وسيّرها صحبة الأمير علاء الدين مغلطاي ابتغلي يتضمن الإنكار، والوعيد وأنه لا بد أن يفعل معه ما فعل بابن الملك المعز أولاد الملك الظاهر، ولم يراقب الله تعالى في مقالته، ولا خشي غيرة الله تعالى فلما وصل كتابه بذلك حملت السلطان أَنَفَةُ الملك على أن ضَرَبَ مُغْلَطَاي ابتغلي ضربًا وجيعًا واعتقله.

وكان أيضًا قد وصل إلى السلطان كتابه عند وصول الأمراء والمماليك السلطانية إلى الكرك على يد بينجار يتضمن أن طائفة هربوا من القاهرة خشية من القبض عليهم،

وتوجهوا نحو الشام وربما يقصدون الكرك فإن وصلوا إليه لا يقربوا، ولا يرجع إليهم ويقبض عليهم ويعيدهم فاعتقل السلطان قاصده الأول أيضًا، وترادفت المكاتبات والرسلُ إلى السلطان الملك الناصر من جهة النواب والأمراء تتضمن أنهم على الطاعة والموالاة وبذل النفوس والأموال بين يديه، ولم يبق من النواب ما لم ترد مطالعته بالانقياد والطاعة إلّا الأمير جمال الدين الأفرم فإنه أظهر المخالفة، وأصَرّ على الامتناع، وكان قد جرّد الأمير سيف الدين قُطْلُوبَك وأردفه بالأمير سيف الدين الحاج بهادر في أربعمائة فارس وأمرهم أن يكونوا بأذرعات يمنعان السلطان الملك الناصر إن قصد دمشق ويكونا بمن معهما يَزَكًا[1] على تلك الجهة.

فلما كان في يوم الثلاثاء حادي عشر شعبان استقل ركاب السلطان من الكرك وفي خدمته من التحق به من الأمراء والمماليك السلطانية، وترك الأمير سيف الدين أرغون في طائفة بقلعة الكرك.

فلما وصل السلطان إلى بركة زيزا وهي المنزلة الثالثة من الكرك إلى جهة دمشق وصل إلى خدمته الأميران سيف الدين بَهَادُر وسيف الدين قُطْلُوبَك ومن معهما، وقَبَّلا الأرض بين يديه، وبذلا الطاعة والمناصحة والمؤازرة، فسار بهم إلى أذرعات ورسم بجميع خيل البريد وسياقتها من المراكز إلى دمشق فجمعت من بَيْسَان من الغور وما بعدها من المراكز إلى دمشق، وقصد بذلك تعذر وصول البريد من الديار المصرية إلى الشام وترادفت الأمراء من دمشق إلى خدمته أولًا فأولًا، ولما شاهد الأمير جمال الدين نائب السلطنة بالشام ذلك من حال الأمراء، ولم يكن قد قدَّمَ من الخدمة ما يقضي اللحاق بخدمة السلطان والانضمام إلي، ثم أجمع أَمْرَه على مفارقة دمشق، وتوجَّه بعض مماليكه إلى شقيف أرنون وكان خروجه من دمشق في ليلة الأحد سادس عشر شعبان، وصحبه الأمير علاء الدين بن صبح مقدم الجبلي، والتحق بركاب السلطان جماعة من مماليكه، واستمر السلطان على المسير إلى أن وصل إلى دمشق

---

(١) اليزك: كلمة فارسية، ومعناها الطلائع، وقد استعملها القلقشندي في «صبح الأعشى» ١٠/ ١١٠ «وتحريض الجند على تخير واقتفاء جيادها وبذل الجهد في قيامهم من الكراع واليزك والسلاح بما يلزمهم». ويورد الدكتور أحمد السعيد سليمان لفظًا مغوليًا نعتقد أنه الأقرب إلى المعنى المراد في عبارة القلقشندي أعلاه فيقول: «ياساق: في المغولية معناها القانون، وفي التركية معناها المنع، ومنها اليسقي واليسقجي وهو القواس الذي يحرس القناصل والسفراء ويحميهم (انظر: التعريف بمصطلحات الصبح ص ٣٦٥، وتأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص ٢٠).

في الساعة السابعة من يوم الثلاثاء ثامن عشر شعبان ونزل، بالقصر الأبلق وانتظم له الأمر واستوثق.

وكان كتاب الملك المظفر قد وصل إلى سائر النواب والأمراء بالممالك الشامية: أنه متى استدعاهم الأمير جمال الدين نائب السلطنة بالشام لا يتأخرون عن خدمته، فأوّل مَن اسْتُدْعِي الأمير سيف الدين بُكْتُمر الجُوكَنْدَار نائب السلطنة بالشام بالمملكة الصفدية فحضر بعسكر صفد فلما وصل السلطان تلقاه بالطاعة وحَلَفَ له، ثم أرسل السلطان الأمير جمال الدين آقش الأفرم في العود، وبَذَلَ له الزمان، ووعده بمضاعفة الإحسان والعفو عما سلف من ذنبه فحضر إلى الخدمة السلطانية في يوم السبت ثاني عشر شعبان وهو مشدود الوسط بمنديل فتلقَّاه السلطان، وترجّل لترجله وأحسن إليه وخلع إليه، وتحدث معه في النيابة على عادته، ثم ترادف وصولُ نوَّاب السلطنة بالممالك الإسلامية وعساكرها، فوصل الأمير سيف الدين تمر الساقي بعسكر حمص ثم وصل الأمير سيف الدين قبجق نائب السلطنة بحماة، والأمير سيف الدين أسَنْدمر نائب السلطنة بالفتوحات وعساكرهما في يوم الاثنين رابع عشرين الشهر فركب السلطان وتلقاهما، وعاملهما بما عامل به الأمير جمال الدين الأفرم، ثم وصل الأمير شمس الدين قَرَاسُنْقُر المنصوري نائب السلطنة بحلب في يوم الجمعة ثامن عشرين الشهر، فتلقاه السلطان كما تقدم، ووصل العسكر الحلبي في بُكْرَة نهار السبت بأحسن زي وأفخر ملبوس وأكمل عدة، وقدم سائر النواب من الأموال والمماليك والخيول والأقمشة والتحف وغير ذلك ما يخرج عن الإحصاء، وظهر من حسن إخلاصهم ما لا يزيد عليه، وخُطب للسلطان الملك الناصر على منابر دمشق في يوم الجمعة ثامن عشرين شعبان، وأقيمت الجمعة بالميدان، وحمل إليه منبر وصناجق وخطب خطيب الجامع واستناب عنه، وصلّى السلطان الجمعة بالميدان، والقضاة والنواب والأمراء وكذلك أيضًا في الآتية في خامس شهر رمضان وأعاد السلطان قاضي القضاة تقي الدين سليمان الحنبلي(١)، وكان قد عُزِلَ في أيام المظفر ـ فأعاده السلطان في يوم الاثنين رابع عشرين شعبان وخلع عليه في يوم الأربعاء، وحكم في يوم الخميس.

---

(١) تقي الدين سليمان الحنبلي: هو سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر المقدسي الحنبلي، تقي الدين قاضي القضاة، توفي سنة ٧١٥ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٣٥، طبقات الحنابلة ٢/ ٢٦٤، الدرر الكامنة ٢/ ١٤٦، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٣١، البداية والنهاية ١٤/ ٧٥).

ولما تكامل وصول النواب والعساكر أمر السلطان بالنفقة في سائر الجيوش، وابتدى بها في يوم الاثنين مستهل شهر رمضان وجُرِّدت العساكر أولًا فأولًا، فجرّد السلطان الأمير سيف الدين اسندمُر والأمير سيف الدين تُمر الساقي وأمرهما أن يتقدما إلى غزة بمن معهما، فتوجها، واستدعى السلطن الأمير سيف الدين كراي المنصوري - وكان بالقدس كما تقدم ذكر ذلك - فوصل إلى دمشق مسرعًا بهمة عالية، ورغبة في الخدمة ظاهرة، فرسم السلطان له ولمن معه من مماليكه بالنفقة، فامتنع من قبولها وسأله أن يُؤْذَن له في النفقة من ماله على جماعة من العسكر فشكر له ذلك، وخلع عليه وسأل أن يتقدم إلى غزة فأذِنَ له بالتقدم بمن معه، وجمع طائفة من العرب ونفق فيهم من ماله ووصل إلى الخدمة السلطانية في ثامن شهر رمضان من الديار المصرية أربعة من المماليك السلطانية، وأنهَوْا له الأحوال على جَليَّتها وأن جماعة من الأمراء المصريين يترقبون قرب ركاب السلطان ليحضروا إلى الخدمة وأنهم على وجل أن يُعْلَم بحقيقة حالهم فيقبض عليهم فبرز السلطان بالعساكر والنواب من دمشق في بكرة نهار الثلاثاء تاسع عشر رمضان، وصَحِبَه قاضيًا القضاة نجم الدين الشافعي وصدر الدين الحنفي، والخطيب جلال الدين، وكاتب الدرج[1] وجماعة من الأعيان.

ووصل إلى الخدمة الشريفة بين منزلتي إربد والقصير قبل وصوله إلى العقبة جماعة من المماليك السلطانية، وهم يستحثون ركاب السلطان، فساق في هذا اليوم منزلتين في منزلة، ثم ترادف وصول المماليك وبعض الأمراء إلى أن حَلّ ركابُ السلطان بغزة في يوم الخميس ثامن عشر الشهر، وكانت المياه بها قليلة والعساكر ومن انضم إليها قد طبقت الأرض، وشق على الناس قلةُ المياه، وازدحموا عليها، فأرسل الله تعالى سحابة في بقية ذلك اليوم فأمطرت مطرًا كثيرًا غزيرًا إلى أن جَرَت منه الغُدْرَان، واجتمع منه ببركة بِغَزَّة ما شاهدتُ في اليوم الثاني منه الخيل تسبح في البركة، فحصل للعسكر بذلك غاية الرفق.

ولما استقل رِكَاب السلطان بغزة وصل إلى باب الدّهليز الشريف الأميرُ رُكْنُ الدين بيبرس الدَّوادار والأميرُ سيف الدين بَهَادُر آص وكان بهادر آص قد توجّه إلى الملك المظفر في شهر رجب وتأخر عوده فعاد الآن في ليلة السبت العشرين من الشهر، وكان وصول الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار بمطالعة المظفر يسأل قَلْعَة كما تقدم، ثم وصل الخبر بعودته.

---

(١) كاتب الدرج: تقدم التعريف به.

وفي يوم السبت العشرين من الشهر وصل إلى الخدمة السلطانية الأمراء الذين كانوا جُرِّدوا من الديار المصرية، وهم الأمير سيف الدين بُرلْغي، والأمير جمال الدين أقش الأشرفي والأمير عز الدين أيبك البغدادي، والأمير شمس الدين الركن وغيرهم من الأمراء فتلقاهم السلطانُ وأحسن إليهم، وخلع عليهم.

واستقل ركاب السلطان بسائر العساكر من غزة في يوم الاثنين الثاني والعشرين من شهر رمضان ثم ترادف الأمراء بعد ذلك في طول منازل الرمل يصل منهم في كل منزلة جماعة، والسلطان يشمل مَنْ وصل إليه منهم بخلعه وإنعامه، وجهز الأمير سيف الدين سلّار إلى السلطان الكوسات[1] والعصائب[2]، وكان وصولها بمنزلة السعيدية ثم وصل السلطان إلى بركة الجب في يوم الثلاثاء سلخ شهر رمضان وتلقاه الأمير سيف الدين سَلّار وبات السلطانُ بهذه المنزلة وعيّدَ بها عيد الفطر، وركب منها ووصل إلى قلعة الجبل في التاسعة من يوم الأربعاء، وهو يوم العيد وبات بالإسطبل ثم أصبح وصعد إلى القلعة وجلس على تخت السلطنة بقلعة الجبل في يوم الخميس ثاني شوال، وسأل الأمير سيف الدين سَلّار دستورًا في التوجه إلى الشُّوبَك وكانت جارية في إقطاعه ـ فأجيب إلى ذلك وخلع عليه خلعة العزل من النيابة وأنعم عليه بحياصة[3] من الذهب مجوهرة وكان توجهه إلى الشوبك في يوم جمعة ثالث شوال، وودعه الأمراء فكانت مدة نيابته عن السلطان منذ فوضها السلطان إليه في يوم الاثنين سادس جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وستمائة وإلى أن عزل إحدى عشرة سنة وأربعة أشهر وستة وعشرين يومًا ورسم بإقامة ولده علاء الدين أميرًا على الأبواب السلطانية، وأنعم عليه بأمره عشرة طواشية.

وفي يوم الخميس سادس عشر شوال جلس السلطان بالإيوان الكبير بقلعة الجبل وحضر الأمراء إلى الخدمة على العادة، فأمر بالقبض على اثنين وعشرين

(١) الكوسات: هي صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير، يدقّ بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص، ومع ذلك طبول وشبّابة، يدق بها مرتين في القلعة كل ليلة، ويدار بها في جوانبها مرة بعد العشاء الآخرة، ومرة قبل التسبيح وعلى المآذن، وتسمّى الدورة بذلك في القلعة، وكذلك إذا كان السلطان في السفر تدور حول خيامه (صبح الأعشى ٤/٨).

(٢) العصائب: هي من الأعلام السلطانية، منها راية عظيمة من حرير أصفر مطرّزة بالذهب، عليها ألقاب السلطان واسمه، وتسمّى العصابة، وراية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تسمّى الجاليش، ورايات صفر صغار تسمّى السناجق (صبح الأعشى ٤/٧).

(٣) الحياصة: هي الحزام أو المنطقة، وهي في الأصل السير الذي يشد به حزام سرج الحصان. تقدم التعريف بها.

أميرًا من جملتهم عز الدين أيبك البغدادي، وسيف الدين بتاكز وغيرهم واعتقلوا.

ذكر استعادة ما أخذه الملك المظفر بيبرس من أموال الخزائن وعود الأمراء الذين توجهوا صحبته والقبض عليهم

ولما استقر السلطان الناصر بقلعة الجبل أرسل الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري والأمير سيف الدين بهادر آص إلى المظفر ركن الدين بيبرس فتوجها إلى الأعمال الإخميمية من الصعيد وحلفاه للسلطان واستعادا ما اعترف أنه التمسه من أموال الخزائن وتسلمها الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار وحضر بها في البحر، وسافر المظفر بيبرس ومن معه والأمير سيف الدين بهادر آص في البر الشرقي ليتوجه إلى صهيون فلما وصل إلى إطفيح فارقه الأمراء الذين كانوا معه وهم الأمير بدر الدين بكتُوت المفتاح والأمير عز الدين الخطيري والأمير سيف الدين قجماز بجاص وحضروا إلى الأبواب السلطانية وصحبتهم من مماليك المذكور نحو ثلاثمائة مملوك والخيل التي كان قد أخذها من الإسطبلات السلطانية، فخلع السلطانُ على الأمراء الثلاثة، وأمر بسياقة الخيل والبغال إلى الإسطبلات، وفرّق أكثر المماليك على الأمراء، وأقر بعضهم في الخدمة السلطانية، ثم أمر بالقبض على الأمراء الثلاثة واعتقلهم.

ذكر ما رتبه السلطان وقرره من النواب والوزارة وأرباب الوظائف بأبوابه وممالكه الشريفة

لما عزل الأمير سيف الدين سلّار وتوجه إلى الشَّوبك جلس الأمير شمس الدين قَرَاسُنقُر المنصوري في مرتبة النيابة من غير تقليد ولا تفويض، ثم رسم له بنيابة السلطنة بالشام عوضًا عن الأمير جمال الدين الأفرم، ونقل الأمير جمال الدين المذكور إلى صَرْخَد وأنعم عليه بمائة فارس، وفَوّضَ السلطان نيابة السلطنة بمقر مملكته وكرسي سلطنته للأمير سيف الدين بكتمر الجُوكُنْدَار وأمير جند أركان وفوّض الوزارة للصاحب فخر الدين عمر بن عبد العزيز بن الخليلي وذلك في الثاني والعشرين من شوال وعوّق النشائي عوضًا عن الصاحب ضياء الدين النشائي بالقلعة أيّامًا، ثم أفْرج عنه من غير مصادرة، وفوّضت نيابة السلطنة بالمملكة الحلبية للأمير سيف الدين قبجاق المنصوري، ونيابة السلطنة الحموية للأمير سيف الدين

أسندمُركُرجي، ونيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية والفتوحات للأمير سيف الدين الحاج بهادر الحلبي، ونيابة السلطنة بالمملكة الصَّفَدِيَّة للأمير سيف الدين قطلوبك المنصوري، وعيّن للأمير سيف الدين أَبْغِية قَبْجَق إقطاع الأمير سيف الدين قُطْلُوبك بدمشق، واقتطع ما كان فيه من الزيادات وأَقَرَّ السلطان الأمير شمس الدين سُنْقُر الكمال في الحَجَبَة على عادته، والأمير سَيف الدين بَلَبَان المحمّدي المعروف طُرْناه أمير جَنْدَار، والأمير حسام الدين قَرالاجِين أمير مجلس إستاد دار العالية، والأمير ركن الدين بِيَبْرس الدّوادار المنصوري في نيابة دار العدل الشريفة، ونظر الأحباس والأوقاف بالديار المصرية والبلاد الشامية.

وفي يوم الأربعاء الخامس عشر من شوال أفرج السلطان عن جماعة من الأمراء الذين اعتقلوا في الأيام الزينية كتبغا وهم: الأمير علاء الدين الشيخ علي، وسيف الدين جاورشي قنقز وموسى وغازي ملك أخوا حَمْدَان بن صلغاي، أخوا حمدان وناصر الدين منكلي التتاري، وسيف الدين منكجار وغيرهم، وأنعم عليهم بالإقطاعات بالشام، وأفرج عن الشيخ تقي الدين بن تيمية وقد تقدم ذكر ذلك.

وفي الشهر المذكور أيضًا حضر ناصر الدين محمد ابن الأمير جمال الدين آقش الرومي الحسامي مُطَالبًا بدَم أبيه فأمر السلطان بالقصاص ممّن قتله فَقُتلوا ـ وكانوا سبعة.

وفي نفس الشهر أمَّر السلطان جماعة من مماليكه وغيرهم منهم من المماليك السلطانية الأمير سيف الدين تَنْكز، والأمير سيف الدين طغاي والأمير سيف الدين خاص ترك، والأمير عز الدين أَيْدَمُر الخازن، ثم أمَّرَ طائفة أخرى بعد هذه منهم: الأمير سيف الدين أَرْغُون الدوادار، ولم يؤخره عن هؤلاء إلا أنه كان قد تأخر بالكرك حتى أَحْضَر أدُر السلطان[1] وولده الملك المنصور علاء الدين علي.

ذكر القبض على المظفر ركن الدين بيبرس وقتله

لما فارقه الأمراء والمماليك من إطفيح كما تقدم توجَّه وصحبته الأمير سيف الدين بَهَادُر آص، وعز الدين أَيْدَمُر الشجاعي إلى قصد صهيون، وساروا على الطريق البرية فلما انتهى إلى شرقي غزة على أميال منها اعترضه الأمير شمس الدين قراسُنْقُر المنصوري نائب السلطنة بالشام ومن معه من الأمراء، وقبضوا عليه وعلى من معه من

(١) أدر السلطان: أي حريمه وجواريه.

المماليك من غير ممانعة ولا مدافعة، وعاد به الأمير شمس الدين المذكور بشرذمة يسيرة من مماليكه، وهو على بغل مشدود الوسط بمنديل، ووصل به إلى مَنْزلة الخطارة ـ وهي على مسافة يومين من القاهرة ـ فوافاه لها الأميرُ سيف الدين أسندمر كُرْجي نائب السلطنة بحماة وقد جُرِّدَ من الباب الشريف في جماعة من المماليك السلطانية ـ فتسلَّمه بهذه المنزلة من الأمير شمس الدين، وعاد به إلى القاهرة، ووصل إلى قلعة الجبل سحر يوم الخميس رابع عشر ذي القعدة سنة تسع وسبعمائة، وأدخل من باب الإسطبل السلطاني، ومثل بين يدي السلطان في مجلس خلوة حضرة الأمراء الخاصكية، ويقال إن السلطان وبَّخَهُ وأنكر عليه تجرّيه وتطاوله إلى ما لا يستحقه من الملك وآخر الأمر أن السلطان سأله عن مُغْلَطاي السَّويْدِي أحد رَجَّالة الحلقة، وكان قد حضر بين يدي نائب السلطنة الأمير سيف الدين سلّار وتضرر من ضعف إقطاعه فعارضه بيبرس في حال إمرته، فقال له السُّوَيْدي: أنت قد وَسَّعَ الله عليك أو أعطاك ما أعطاك، وأنا رجل جنديّ أشكو لنائب السلطان ضَعْف إقطاعي، فما يحل لك أن تتعَصَّبَ عليَّ فغضب منه وأحضره إلى داره وضربه بالدبابيس ضَربًا مؤلمًا فمات ويقال إن بيبرس اعترف بذلك، فأمر السلطان بقتله قَوَدًا بمُغْلَطَاي السُّوَيْدي، فقُتلَ خَنقًا في بقية يوم الخميس المذكور، ودفن ليلة الجمعة منتصف ذي القعدة، وأخرج من باب السِّرِّ من جهة القرافة وعُفِّيَ أثر قبره، ثم أمر السلطان في سابع وعشرين الشهر بنقله إلى تربته التي بالقرافة، فنقل إليها ودُفن بها ليلًا، ثم أمر السلطان بنقل الأمراء الذين قبض عليهم من قلعة الجبل إلى ثغر الإسكندرية، فتوجه بهم الأمير ناصر الدين ابن أمير سلاح.

وفي هذه السنة أمر السلطان بالقبض على الأمير علاء الدين مُغْلَطَاي القازاني أحد من توجه إليه إلى الكَرك، وسبب ذلك أنه شرع يُدِل بخدمته، وأنعم السلطان عليه بإقطاع بالديار المصرية فرده فأعطاه غيره فرد الثاني والثالث فنقم السلطان عليه ذلك، وأمر باعتقاله له بالزردخاناه[١] ثم نقله إلى البُرج في عشية النهار إلى الجب، ثم إلى الإسكندرية، وبلغه أيضًا عن الأميرين سيف الدين أبغيه قبجق وركن الدين بِيَبْرس

---

(١) الزردخاناه: ومعناها بيت الزرد، وربما قيل السلاح خاناه، ومعناها بيت السلاح. وتشتمل على أنواع السلاح: من السيوف، والقسي العربية والنشاب، والرماح، والدروع المتخذة من الزرد الماتع (أي الجيد البالغ الجودة) والقرقلات (نوع من الدروع)، المتخذة من صفائح الحديد المغشّاة بالديباج الأحمر والأصفر، وغير ذلك من الأطبار (هو الفأس). وسائر أنواع السلاح. (صبح الأعشى ٤/ ١١).

العلمي بدمشق أنهما تطاولا على الرعيّة ومد أيديهما إلى الظلم فأمر بالقبض عليهما: فقبض علي أبغية في يوم الأحد ثالث عشرين ذي الحجة وقبض على بيبرْس العلمي في يوم الاثنين رابع عشرين الشهر، واعتقلا بقلعة دمشق، فمات أبِغْية في معتقله في جمادى الآخرة سنة عشر وسبعمائة.

وفيها في العشر الآخر من ذي الحجة رسم السلطان للأمير سيف الدين سَلَّار بأمرة مائة طواشي وعَيَّن لخاصة وأصحابه من بلاد الكَرَك أجْودَ ضِيَاعِهَا مُضَافًا إلى الشَّوْبك، فنظر إلى ذلك مع كثرته فوجَدَه يسيرًا بالنسبة إلى ما كان بيده بالديار المصرية.

وفي هذه السنة توفي القاضي عز الدين بن عبد العزيز ولد القاضي شرف الدين بن محمد بن القيسراني[١] أحد أعيان كتاب الدرج الشريف وفضلائهم، والمدرس بالمدرسة الفَخْرِيّة، وكانت وفاته في يوم الخميس عاشر صفر، ودفن بكرة نهار الجمعة بالقرافة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير شمس الدين سُنْقُر الأغسر المنصوري[٢] بداره بالقاهرة في شهر ربيع الأول، ودفن بتربته التي أنشأها خارج باب النصر، وكان من الأمراء الأكابر مقدمي الألوف بالديار المصرية.

وتوفي الشيخ العارف العالم تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله بن عبد الرحمٰن بن محمد بن الحسن الجُذَامي الإسكندري[٣] في ليلة السبت حادي عشر جمادى الآخرة، وكان من الصلحاء، يتكلم على كرسيّ ويعظ الناس، وله معرفة بكلام الصوفية وأرباب الطريق والسلف، وله كلام حسن مفيد في هذا الشأن رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي نبيه الدين حسن بن بدر الدين نصر بن الحسن الإسْعَرْدي[٤] بالقاهرة في مستهل جمادى الآخرة، وكان قد ترشَّح للمناصب العالية رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٢٨٠، الدرر الكامنة ٢/ ٤٩٢.
(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٢٧٨، الدرر الكامنة ٢/ ١٧٧، البداية والنهاية ١٤/ ٥٧.
(٣) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٠، الدرر الكامنة ١/ ١٤٢، طبقات الشافعية ٥/ ١٧٦.
(٤) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٢٠، الدرر الكامنة ٢/ ٤٧.

وتوفي الأمير عز الدين أيبك الخَزِنْدَار المنصوري في سابع شهر رمضان وكان من أكابر أمراء الديار المصرية مقدمي الألوف ومن المماليك المنصورية في زمن الإمرة.

وتوفي الأمير سيف الدين طُغْريل الإيغاني[١] في عاشر الشهر وقد تقدم ذكر ذلك.

وتوفي من الأمراء بدمشق الأمير شرف الدين قيران الدواداري[٢] المنصوري المشد ـ كان ـ بدمشق في يوم الجمعة سابع عشرين شهر ربيع الآخر ودفن بقاسيُون وكان بعد انفصاله من شد الشام ونكبته قد أمِّر بحلب، ثم قطع خُبْزَه، وحضر ليتوجه إلى الأبواب السلطانية فأدركته منيته، فمات رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين بلغاق ابن الأمير بدر الدين كونجك الخوارزمي في سابع جمادى الأولى بقرية المغاربة من عمل بيروت الجارية في أوقاف القدس، وحمل إلى قاسيون فدفن به، وكان أميرًا صالحًا جيّدًا سمع الحديث وولي آخر عمره نظر أوقاف القُدْس والخليل رحمه الله تعالى.

وتوفي أيضًا الأمير علاء الدين أقْطَوان الدواداري[٣] بدمشق.

واستهلت سنة عشر وسبعمائة

في هذه السنة في المحرم ولي الأمير سيفُ الدين بكْتَمر الحاجب نيابةَ السلطنة وتقدمة العسكر بغزة، عوضًا عن الأمير سيف الدين بَلَبَان البدري، وتوجّه إلى دمشق في رابع عشرين الشهر، واجتمع بنائب السلطنة، وتوجه إلى غزة في يوم الجمعة سابع عشرين الشهر.

وفيها فُوّضَت وزارة دمشق لنجم الدين البَصْروي[٤] على عادة تقي الدين توبة التكريتي[٥] فوصل إلى دمشق سابع صفر.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٢٧٩.

(٢) الداوادار والدواتدار والدويتدار والدوالدار، من الكلمة العربية: دواة، ومن اللاحقة الفارسية: دار، ومعناها الصاحب والقيم، أي صاحب الدواة (تأصيل الدخيل ص ١٠٩).

(٣) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٣٩٤.

(٤) هو نجم الدين محمد بن عثمان البصروي، انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٤/ ٥٨.

(٥) تقي الدين توبة التكريتي: هو توبة بن علي بن مهاجر بن شجاع الدين بن توبة الربعي التكريتي. تقي الدين، ولي وزارة دمشق سبع مرات، توفي سنة ٦٩٩ هـ (انظر ترجمته في: شذرات=

وفي هذه السنة رُسم لي أن أتوجه إلى المملكة الطرابلسية صاحبَ الديوان بها وكُتِبَ توقيعي بذلك وهو من إنشاء المولى الفاضل شهاب الدين محمود الحلبي، وبخط ولده القاضي جمال الدين إبراهيم، وهو مُؤَرخ في الخامس عشر من المحرم، وتوجهتُ في مستهل صفر، ووصلت إلى طرابلس وباشرتُ الوظيفة ثم انتقلت إلى نظر الجيوش بها في مستهل شوال من السنة عوضًا عن نجم الدين القصير، واتَّفَقَتْ وفاته في سابع شوال قبل وصول توقيعي بذلك فباشرت في أول هذه السنة عوضًا عن التاج الطويل، وفي آخرها عوضًا عن النجم القصير.

ذكر الاستبدال بقاضي القضاة الشافعي والحنفي بالديار المصرية

وفي هذه السنة في يوم السبت التاسع والعشرين من صفر عزل قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة[1] عن القضاء بالديار المصرية وفوّض ذلك إلى نائبه القاضي جمال الدين سليمان بن عمر بن سالم الأذرعي المعروف بالذرعي[2] وخلع عليه واستَقَلّ بالقضاة، وطُلب قاضي القضاة شمس الدين محمد ابن الشيخ صفي الدين الحريري الحنفي من دمشق إلى الديار المصرية لولاية قضاء القضاة على مذهب أبي حنيفة فوصل البريد بطلبه إلى دمشق فركب منها في العشرين من شهر ربيع الأول، ووصل القاهرة، وفوّض إليه قضاء القضاة الحنفية في رابع شهر ربيع الآخر عوضًا عن القاضي شمس الدين أحمد السَّروجي وخلع عليه ولم تطل مدة القاضي شمس الدين السُّروجي بعد العزل فإنه مات في هذه السنة على ما يذكر إن شاء الله تعالى.

وفيها بلغ السلطان عن إخوة الأمير سيف الدين سلّار ما أوجب القبض عليهم واعتقالهم وكتب إلى أخيهم يعرفه ذلك وقبض أيضًا على جماعة من الأمراء بالديار المصرية، وكتَبَ إلى الشام بالقبض على جماعة من أمراء دمشق في شهر ربيع الأول؛ فقبض على سبعة منهم الأميرُ علاء الدين أقْطَوان الأشرفي، والأمير سيف الدين

= الذهب ٥/ ٤٥١، فوات الوفيات ١/ ٢٦١، الدليل الشافي ١/ ٢٢٩، النجوم الزاهرة ٨/ ١٨٨، السلوك للمقريزي ١/ ٢: ٨٨١).

(١) هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، قاضي القضاة، بدر الدين الكناني الحموي الشافعي، توفي سنة ٧٣٢ هـ. تقدمت ترجمته الوافية.

(٢) جمال الدين الذرعي: تقدمت ترجمته.

الأقُوش، والأمير علاء الدين الشيخ علي التتاري وغيرهم وكتب إلى طَرَابُلس بالقبض على الأمير حسام الدين طَرُنْطَاي المحمدي، وناصر الدين مَنْكُلِي، وسيف الدين منكجار ومرسي وغازي أولاد صُلْغَاي.

ذكر القبض على الأمير سيف الدين سلَّار ووفاته رحمه الله تعالى

وفي هذه السنة قبض على الأمير سيف الدين سلَّار المنصوري الصالحي العلائي وسبب ذلك أن السلطان اتصل به أنه كاتب جماعة من الأمراء، وشرع في استفسادهم وإثارة فتنة، فبادر السلطان بالقبض على من ذكرنا من الأمراء ممن اتهم بمباطنته، وكتب إلى الأمير سيف الدين سَلَّار المذكور يستدعيه إلى الأبواب السلطانية، وجهز إليه الأمير ناصر الدين محمد ابن أمير سلاح، فتوقَّف واعتذر عن الحضور، فأرسل إليه الأمير علم الدين سَنْجر الجاولي، ثم الأمير ركن الدين بيبرس الدَّوادَار المنصوري، فحضر وكان حضوره في سلخ شهر ربيع الآخر تحت الطاعة، وحَالَ وصوله اعتُقل واسْتَرجعَ السلطانُ قرية المُعيْصِرَة والإسطبل من قرى المرْج بدمشق، وكان السلطان قد ملَّكه من هذه القرية الذي انتقل إليه من ميراث الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري وزوجته الأشرفية، وهو الربع والسدس في سنة ثلاث وسبعمائة، ثم ابتاع سلَّار من الورثة ما بقي منها، فاسترجعها السلطان منه الآن بمكتوب شرعي، ولم تطل مدة اعتقال سلَّار فإنه توفي إلى رحمة الله تعالى في رابع عشرين جمادى الأولى من السنة، ودفن في الخامس والعشرين من الشهر بتربته التي أنشأها بجوار الكبش بظاهر القاهرة، ووقعت الحوطة على موجوده وأمواله وحواصله وذخائره، ووصل طُلْبُهُ[1] من الشَّوْبك ففُرّقَت مماليكهُ على الأمراء ثم ماتت والدته بعده بأيام يسيرة ودفنت عنده.

وسلَّار هذا رحمه الله تعالى كان من مماليك السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون في أيام إمرته، وهو من كسْبِ التتار في وقعة ابلُستين في أواخر الدولة الظاهرية، وأعطاه السلطان لولده الملك الصالح علاء الدين، فاختص به وخدمه وتقدم عنده، أخبرني الأمير بدر الدين بكتُوت الشرفي المنصوري، وكان من الدَّوَادارِيَّة المنصورية - قال: توجه الملك الصالح ابن السلطان الملك المنصور إلى الصيد فأرسل

(١) الطلب: تقدم التعريف به.

إلى السلطان من صَيْدِه خمسين جِمْلًا، وأرسل إلى الأمير حسام الدين طرنْطَاي خمسة أحمال، وأرسل إلى غيره وأرسل بذلك الأمير سيف الدين سلّار قال: ففرح السلطان بذلك فرحًا شديدًا، وحضر الأمير حُسَام طُرُنْطاي إلى خدمة السلطان والصيد بين يديه، فأراه ذلك وقال له أي شيء تنعم به على سَلّار، فقال له طُرَنْطَاي، سلّار مملوك مولانا السلطان ومملوك ولده الملك الصالح، والسلطان الملك الصالح يُحبّ أن يفرح بمملوكه أمير عشرة، قال فنظر إليه السلطانُ وقال: يا طُرنْطَاي، والله إن دَوْلَة يكون فيها سلّار أمير عشرة دولة كذا وأمر له بخمسة آلاف دِرْهم إنعامًا ولم يسمح له بإمرة عشرة، ثم أمِّرَ بعد ذلك، وبلغ في نيابته من التمكن ونفاذ الكلمة والاستقلال بالأمر وكثرة الإقطاعات، وسعة الأموال والمتاجر وغير ذلك ما لم يبلغه نائب سلطنة قبله، وكان يُعَد من الشجعان، ومن عقلاء الناس رحمه الله تعالى.

ذكر تفويض نيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية للأمير جمال الدين الأفرم

في هذه السنة فوّض السلطان نيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية والفتوحات للأمير جمال الدين آقش الأفرم وسبب ذلك أن الأمير سيف الدين بَهَادر الحلبي الحاج ـ نائب السلطنة بها ـ توفي إلى رحمة الله تعالى في يوم الأحد ـ العاشرة من النهار ـ ثامن عشر ربيع الآخر بطرابلس، ودفن بها، وطولع السلطان بذلك، فرسم للأمير جمال الدين المذكور أن يتوجه إليها من صَرْخَد، فاستعفى من ذلك، فرسم بعود الأمير سيف الدين أسنْدُمر كُرْجِي إليها، فاستعفى أيضًا، وصمم أن لا يعود إلى طرابلس، فرسم ثانيًا للأمير جمال الدين أن يتوجه إليها وكتب تقليده بالنيابة ومنشوره بالإقطاع، وتوجّه إليه بذلك من الأبواب السلطانية الأميرُ ركن الدين بيبرس الأوْحَدي، فنقله من صَرْخَد إلى طرابلس، وكان وصوله إليها في نصف شهر رجب سنة عشر وسبعمائة.

ذكر تفويض نيابة السلطنة بالمملكة الحموية للأمير عماد الدين إسماعيل وانتقال الأمير سيف الدين أسَنْدُمر إلى حلب

وفي هذه السنة وصل الأمير حُسَام الدين مُهَنَّا[1] إلى الأبواب السلطانية فعامله السلطان بالإحسان والقبول على عادته فشكا من الأمير سيف الدين أسندُمر كُرْجي

(١) حسام الدين مهنا: تقدمت ترجمته.

نائب السلطنة بحماة أو ذكر سوء اعتماده، ففوّض السلطان نيابة السلطنة بالمملكة الحموية للأمير عماد الدين إسماعيل ابن الملك الأفضل علي، ورسم بانتقال الأمير سيف الدين أسنذُمر إلى طَرَابُلس، فتوقف عن العَوْد إليها. ووصل الأمير عماد الدين إلى مدينة حماة ونزل بظاهرها في أواخر جمادى الآخرة، وما أمكنه الدخول إليها، والأمير سيف الدين أَسَندَمُر بها، واتفقت وفاة الأمير سيف الدين قَبْجَق المنصوري نائب بالمملكة الحلبية، فتوجه أَسَندَمُر من حماة إلى جهة حَلَب، وكتب إلى السلطان يقول: إن المواعيد الشريفة تقدمت للملوك أنه متى شَغَرَتْ نيابة حلب تكون للمملوك، وقد شغرت الآن وتوجَّه المملوك إليها حسب المواعيد الشريفة فأجابه السلطان إلى ذلك وأدركه تقليدُ النيابة ومنشورُ الإقطاع قبل دخوله إلى حلب، واستقر بها الأمير عماد الدين بحماة.

وفي شهر ربيع الأول قبض على الأمير فخر الدين إياز نائب السلطنة بقلعة المسلمين، وأوقعت الحوطةُ على موجوده، ووصل إلى دمشق في أواخر الشهر، ونسب إلى أنه كان يظهرُ الطاعة ويضمر العصيان ثم فوض إليه شاد الدواوين بدمشق عوضًا عن الأمير سيف الدين كَتْبُغَا المنصوري رأس نوبه، ووصل إلى دمشق في يوم الاثنين رابع عشر رمضان، وباشر في يوم الخميس سابع عشر الشهر، وكان كَتْبُغَا قد وَليَ شاد الشام في الثالث والعشرين من شوال سنة تسع وسبعمائة، عوضًا عن الأمير سيف الدين أقجبا المنصوري.

ذكر تفويض الوزارة بالديار المصرية للأمير سيف الدين بكْتمُر الحسامي الحاجب

في هذه السنة اسْتُدْعِيَ الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الحُسَامِي من نيابة السلطنة بغزة إلى الأبواب الشريفة، وفُوّضَت إليه الوزارة وتدبيرُ الدولة في حادي عشر رمضان، وعزل الصاحب فخر الدين عُمَر الخليلي من الوزارة، وولي نيابة غزة الأمير سيف الدين قَطْلُقْتَمُر وفيها وصلت رسل الأشكري وصحبتهم رسل الكرج إلى الأبواب السلطانية يسألون إعادة كنيسة المصلبية بالقدس الشريف إليهم وكان الشيخ خضر قد انتزعها في الدولة الظاهرية وجعلها زاوية ـ كما تقدم ـ فأعيدت إليه بمقتضى فتاوى العلماء أنه لا يجوز اغتصابها. . . وسأل الأشكري إجراء أهل الذمة بالديار المصرية على عادتهم، وفتح كنائسهم، فأجيب إلى ذلك وفتحت لهم كنيستان للملكية

واليعاقبة، وكنيسة لليهود بمصر، ورسم لهم بالاستواء، في الركوب وكانوا قبل ذلك يركبون عرضًا من جهة واحدة.

ذكر تفويض الوزارة بدمشق
للرئيس عز الدين حمزة بن القلانسي

وفي ذي القعدة من سنة عشر وسبعمائة وصل تقليد الوزارة بدمشق للرئيس عز الدين بن القلانسي فتوقف عن القبول واستعفى فألزم بالمباشرة، ولَبِسَ التشريف في يوم الخميس ثالث ذي القعدة وركب من داره وشاد الدواوين في خدمته، وأرباب الدولة توجه إلى نائب السلطنة وباشر وجلس بالدار الحسامية المشرفة على الديوان.

ذكر القبض على الأمير سيف الدين أسنْدُمر كُرْجِي
وتفويض نيابة السلطنة بحلب للأمير شمس الدين قَرَاسُنْقُر المنصوري
وتفويض نيابة السلطنة بالشام للأمير سيف الدين كَرَاي

وفي هذه السنة اتصل بالسلطان عن الأمير سيف الدين أسندمر نائب السلطنة بحلب أشياء لا يمكن الإقرار عليها من الظلم والعسف وأخذ الأموال وأضاف إليها ما اعتمده بحماة، فجرّد السلطان من الديار المصرية الأمير سيف الدين كَرَاي المنصوري والأمير شمس الدين سُنقُر الكمالي الحاجب، والأمير سيف الدين بَايْنْجار والأمير عز الدين أيْبَك الرُّومي ومضافيهم، وجعل التقدمة على الجيش للأمير سيف الدين كراي المذكور، وتوجهوا ووصلوا إلى دمشق في يوم الأحد ثالث عشر ذي القعدة، ونزلوا بمنزلة القابون، وجُرِّدَ من دمشق جماعة والمقدم عليهم الأمير سيف الدين بَهَادُرآص، وتوجهوا بجملتهم وجرِّد جماعة من الجيش الطرابلسي واجتمعوا بجملتهم على حِمْص ووقعت الشائعة أن قصد العسكر الدخول إلى بلاد الأرمن، ثم ركب هذا الجيش من حِمْص في ليلة عيد النحر قبل غروب الشمس، فساقوا طول الليل ونهار العيد بجملته، وثلث الليلة المستقبلة، فوصلوا إلى حلب وقد تقطعت أكثرُ الجيوش لشدة السوق، ووصلوا والأمير سيف الدين أسنْدُمر بدار السلطنة، فأحاطوا بها، وكان الخبر قد وصل إليه فأغلق باب الدار، وكان بالقرب من دار السلطنة أخشاب وعَجَل قد هيئت لجرِّ أعوادِ المجانيق إلى سِيس، فأمر الأمير سيف الدين كَرَاي بجرها إلى رحبة باب الدار وتوعير الطريق بها خوفًا من أن يركب ويهجم على العسكر، واستمرت

العساكر تتواصل في طول تلك الليلة، ثم أرسل إليه ناصر الدين أمير سلاح فدخل عليه واجتمع به، ودخل إليه أيضًا غيره من الأمراء، ثم خرج هو في بكرة نهار السبت حادي عشر ذي الحجة، ونقل إلى قلعة حَلَب وقد أوقعت الحوطة على موجوده، ثم جهز إلى الأبواب السلطانية صحبه جماعة من الأمراء منهم الأمير سيف الدين مَنْكُوتَمُر الطباخي، فوصلوا به فاعتقل بقلعة الجبل، ثم نقل إلى الإسكندرية، ثم إلى قلعة الكَرَك ومات بها.

وفيها أيضًا بعد القبض على أسندُمر قبض على الأمير سيف الدين طُوغَان نائب قلعة البيرة وكان القبض عليه باتفاق من رجَّالة القلعة. وذلك أن الأمراء كتبوا إليه أن بعض مماليك أسندُمر قد خربوا فَرَكِّبْ مماليكَكَ ومَن تثق به خلفهم إلى أن تعيدهم، ففعل ذلك، وبقي بالقلعة وحده، فقبض عليه رجال القلعة واعتقلوه إلى أن حضر من العسكر من تسلّمه وسُيِّر إلى الأبواب السلطانية تحت الاحتياط.

ولما قبض على الأمير سيف الدين أسندُمر رسم بنقل الأمير شمس الدين قَرَاسُنْقُر المنصوري من نيابة السلطنة بالشام إلى حلب بسؤاله لذلك، وتوجّه الأمير سيف الدين أرْغُون الدوادار الناصري إلى الشام بتقليدين أحدهما للأمير شمس الدين قَرَاسُنْقُر بنيابة السلطنة بحلب، والثاني للأمير سيف الدين كَرَاي المنصوري بنيابة السلطنة بدمشق، فوصل إلى دمشق في يوم السبت خامس عشر ذي الحجة، فتجهز الأمير شمس الدين للسفر، فلما كان في يوم الثلاثاء ورَدَ عليه كتابٌ من أحد مماليكه بحلب يذكر أن الأمير شمس الدين سُنْقُر الكمالي تحدث في نيابة السلطنة بحلب، فخشي قراسُنْقُر أن يكون الغرض القبض عليه فشاع أنه فَرَّقَ ما في خزائنه من الذهب على مماليكه، وعزم على الهرب، ونقل حريمه من القصر إلى داره التي بدمشق داخل باب الفراديس، واتصل هذا الخبر بالأمراء فركب الأمير ركن الدين بيبرس العلائي وجماعةٌ من العسكر وأحاطوا بالقصر الأبلق في ليلة الأربعاء فلما أصبح اجتمع هو والعلائي وسأله عن السبب الحامل له على ما فعل، فذكر ما بلغه عنه، ثم توجّه الأمير شمس الدين إلى حلب من دمشق في يوم الأحد ثالث محرم سنة إحدى عشرة وسبعمائة وتوجه الأمير سيف الدين أرغون إلى حلب لإحضار الأمير سيف الدين كَرَاي إلى دمشق، في سنة إحدى عشرة وسبعمائة على ما نذكره.

ذكر حادثة الأميرين مظفر الدين موسى ابن الملك الصالح وسيف الدين بتخاص والقبض عليهما

كان القبض على الأمير سيف الدين بتخاص في سلخ ذي الحجة سنة عشر وسبعمائة، وسبب ذلك أن السلطان بلغه أن المذكور حسَّن للأمير مظفر الدين موسى ابن أخيه السلطان الملك الصالح الخروج على عمه السلطان الملك الناصر، وطلب الملك لنفسه، واتفقا على ذلك وعزما على إثارة فتنة، واعتضد بمماليك بيبرس المنعوت بالمظفر، وكانوا قد تفرقوا عند الأمراء، فقرر معهم أن كل مملوك يثب على أميره فيقتله ثم يتجمعون على الأمير مظفر الدين وبَتْخَاص، وتثور الفتنة. فلما تحقق السلطان ذلك جلس في ليلة الخميس سلخ ذي الحجة، وطلب الأمير سيف الدين بَتْخاص. وكان يسكن بقلعة الجبل بدار العدل الكاملية. فعلم المراد بطلبه وتحقق أن السلطان بلغه ما اتفقا عليه فأغلق داره وامتنع من الإجابة؛ ووقف مماليكه بأعلى الدار وبأيديهم قسيهم للممانعة عنه، وترددت الرسائل من السلطان في طلبه وهو لا يجيب إلى الحضور، وقصد خلع الشباك الكبير الذي بالدار المطل على دركات القلعة والخروج منه، فأرسل السلطان جماعة من المماليك الأوشاقية وغيرهم، فوقفوا تحت الشباك، فتعذر عليه ما دَبَّرَه وحضر إليه الأمير ركن الدين بَيبرَس الدوادار المنصوري وعَنَّفَه ولامه على ما فعله، وقال له إن السلطان في هذا الوقت قد طلب سائر الأمراء وطُلبتَ من جملتهم، فلا تجعل لك ذنبًا. وكان قد لبس عدة الحرب فنزعها وخرج وحضر بين يدي السلطان، فأمر بالقبض عليه واعتقاله، وطلب السلطان الأمير مُظَفَّر الدين موسى ابن أخيه الملك الصالح، فهرب من داره بالقاهرة، فرسم السلطان بهدم الأماكن التي يُظنُّ أنه اختفى بها وندب لذلك الأمير علاء الدين أيدغُدي شُقَير[1] وغيرَه، فهدموا بعض الأماكن واشتد الأمر يومي الخميس والجمعة مستهل محرم سنة إحدى عشرة وسبعمائة إلى بعد الصلاة، فحضر بعض فقهاء المكاتب وذكر أنه اختفى عند سيف الدين بَلَبَان أستاذ دار قُطز بن الفَارقانية في حارة الوزيرية، فقبض عليه وأحضر إلى السلطان، فأمر أن يسمر الذي أخفاه، فسمر وطِيفَ به على جمل، ثم شفعُ فيه فأطلق، وأحضر السلطان الأمير موسى وبَتخاص وقررهما فأقر كل منهما على الآخر فَعرفُ الأمير موسى ببعض قاعات القلعة، ثم أخرج منها في سنة إحدى عشرة

---

(١) الأمير علاء الدين أيدغدي شقير: كان من مماليك لاجين، قتل سنة ٧١٥ هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٢٥).

وسبعمائة، وأشيع أنه جهز إلى اليمن، ثم أظهر السلطان موته في العشر الأول من صفر سنة ثلاث عشرة وسبعمائة، وأمر بعمل عزائه فعملته أَمَةُ منكبك ابنة الأمير سيف الدين نُوكيه، وثبتت وفاتُه على الحكام، وكان ممن شهد بوفاته الطواشي شجاع الدين عَنْبر الَّلالَا، ولما قبض السلطان عليهما أمر بالقبض على جماعة من المماليك الركنية وقَطَعَ يَد أحدهم، وكان للأمير سيف الدين بتْخَاص؛ لأنه رَمَى فَردة نُشاب عند طلب بتخاص، ثم شفع في بقيتهم.

وفي سنة عشر وسبعمائة توفي قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني السّروجي الحنفي(١) معزولًا عن القضاء وكانت وفاته بالقاهرة في يوم الخميس ثاني عشرين شهر ربيع الآخر، ودفن بالقرافة الصُغرى، بقرب تربة الإمام الشافعي، ومولده سنة سبع وثلاثين وستمائة رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي عز الدين الحسن بن الحارث ابن مسكين الشافعي(٢)، بداره بمصر في ليلة السبت ثامن جمادى الأولى، ودفن من الغد بالقرافة، وكان من أعيان الفقهاء الشافعية، عين لقضاه القضاة ولم يَل.

وتوفي القاضي شهاب الدين أحمد بن علاء الدين بن عبادة وكيل الخواص الشريفة، وكانت وفاته بباب داره بالقاهرة، في ليلة الأحد سادس عشر جمادى الأولى ودفن من الغد بتربته بالقرافة، ووَلِي وَكالة الخَواصّ بعْدَه، القاضي كريم الدين عبد الكريم(٣)، وهو الذي كان ناظر ديوان بيبرس الجاشنكير المنعوت بالمظفر، وكان السلطان شديد الكراهية له، وصمم على قتله، ثم انتقل من هذه الرتبة إلى منزلة الخصوصية والتمكن من الدولة وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وتوفي القاضي أمين الدين أبو بكر ابن وجيه الدين عبد العظيم بن يوسف المعروف بابن الوقاقي ناظر الدواوين بالديار المصرية في ليلة الأحد الثالث والعشرين من جمادى الأولى، ودفن بتربته بالقرافة، وكان رحمه الله تعالى جَيدًا خيِّرًا كثير المروءة والإحسان إلى خلق الله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته في: الدليل الشافي ١/ ٣٤، البداية والنهاية ١٤/ ٦٠، الدرر الكامنة ١/ ٩٦، النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٢.

(٢) انظر ترجمته في: حسن المحاضرة ١/ ٤٢٢، السلوك للمقريزي ٢/ ١ : ٩٥.

(٣) كريم الدين عبد الكريم: هو عبد الكريم بن هبة الله بن السديد المصري، ناظر الخواص، قتله السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٤ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٦٣، النجوم الزاهرة ٩/ ٧٥، الدرر الكامنة ٣/ ١٥).

وتوفي في ثالث عشرين جمادى الأولى الأمير خضر ابن الخليفة المستكفي بالله أبي الربيع سليمان[١]، ودفن بتربته بجوار مشهد السيدة نفيسة.

وتوفي القاضي بدر الدين أبو البركات عبد اللطيف ابن قاضي القضاء تقي الدين محمد بن الحسين بن رزين الحموي[٢] بالقاهرة في يوم الأحد الثامن والعشرين من جمادى الآخر، ودفن من يومه عند والده بالقرافة، وكان قاضي العساكر المنصورة، ومولده بدمشق في تسع وأربعين وستمائة.

وتوفي الأمير سيف الدين بُرلْغي الأشرفي[٣] في ليلة الأربعاء ثاني شهر رجب ودفن، وذلك بعد القبض عليه واعتقاله، رحمه الله وتوفي الملك المنصور علاء الدين على ابن الملك الناصر في ليلة الجمعة المسفرة عن حادي عشر رجب بقلعة الجبل، ودفن من الغد بتربته بالقبة الناصرية بالقاهرة، وكان السلطان والده في الصيد، فنزل نائب السلطنة الأمير سيف الدين بكتمر والأمراء مشاة أمام تابوته إلى أن دفن، وكان عمره ست سنين وشهورًا، ولما مات وقفت والدته أردكين ابنة الأمير سيف الدين نوكيه ما خصها بالإرث الشرعي عن زوجها الملك الأشرف وابنتها منه من خان دار الطعم بدمشق وهو ثلاثة أسهم وثلث سهم وربع سهم وثمن سهم وسدس عُشر سهم، وشرطت أن يُرصد ما يُتَحَصّل من ربع هذه الحصة المذكورة لثمن خُبْز ويُفَرق على أهل المكان من القراء والمؤذنين والقومة وغيرهم.

وتوفي القاضي بهاء الدين عبد الرحمٰن ابن القاضي الخطيب عماد الدين علي بن عبد العزيز بن السّكري بمصر عشية الجمعة حادي عشر شهر رجب، ودفن بالقرافة في حياة والده رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ نجم الدين أحمد بن محمد بن الرِّفعة[٤] بمصر في ليلة الجمعة

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٨٤.

(٢) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٢٦، وفيه توفي سنة ٧١١ هـ.

(٣) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٩، والنجوم الزاهرة ٩/ ٢١٦.

(٤) ابن الرفعة: هو أحمد بن محمد بن علي بن مرتفع بن صارم بن الرفعة الأنصاري، نجم الدين أبو العباس المصري، المعروف بابن الرفعة الشافعي، ولد سنة ٦٤٥ هـ، وتوفي سنة ٧١٠ هـ، له من المصنفات: «الإيضاح والتبيان في المكيال والميزان»، «رسالة الكنائس والبيع»، «كفاية النبيه في شرح التنبيه لأبي إسحٰق الشيرازي» في الفروع، «المطلب العالي في شرح الوسيط للغزالي»، «النفائس في هدم الكنائس». (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٥/ ١٠٣، البداية والنهاية ١٤/ ٦٠، الدرر الكامنة ١/ ٢٨٤، الوافي بالوفيات ٧/ ٣٩٥، طبقات الشافعية ٩/ ٢٤، النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٣، شذرات الذهب ٦/ ٢٢).

ثامن عشر شهر رجب، ودفن من الغد بالقرافة، وكان رحمه الله تعالى من فضلاء الشافعية وأكابر المفتين، وصنّف كتابًا في الفقه على مذهب الإمام الشافعي[١] في نحو عشرين مجلدًا. وتوفي الأمير جمال الدين آقُش المُوصلي المعروف بقتال السبع[٢]، أمير علم أحد الأمراء مقدمي الألوف بالديار المصرية، في ليلة السبت تاسع شهر رجب رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ العارف كريم الدين أبو القاسم عبد الكريم بن الحسين الطبري[٣] شيخ الشيوخ بخانقاه الملك الناصر صلاح الدين في ليلة السبت سابع شوال رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير الطواشي شهاب الدين مرشد الخزنْدار المنصوري بداره بالقاهرة في ليلة الخميس ثالث ذي القعدة، ودفن من الغد بالقرافة، وكان من الخدام المنصورية في زمن إمرة السلطان الملك المنصور، وكان رجلًا جيّدًا خيّرًا. رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ المسند بهاء الدين أبو الحسن علي بن الفقيه عيسى بن سليمان بن رمضان الثعلبي المعروف بابن القيم[٤] بمنزله بالقاهرة، في يوم السبت سادس عشرين ذي القعدة، ودفن من الغد بالقرافة، وكان قد انفرد بالرواية عن الشيخ نجم الدين الفارسي سمع عليه في سنة عشرين وستمائة وروي عن ابن باقا وسبط السِّلفي، ومولده في سنة ثلاث عشرة وستمائة، ومات وقُوّتُه جَيّدة، وحواسُّه صحيحة رحمه الله تعالى.

---

(١) هو الإمام الشافعي محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف الهاشمي القرشي المكي، أبو عبد الله، أحد أئمة المذاهب الأربعة، وإليه ينسب الشافعية، توفي بمصر سنة ٢٠٤ هـ، ويتلخص مذهبه في إيثار العودة إلى نصوص القرآن والسنة، إلى جانب أخذه بفتاوى الصحابة لإثبات بعض الأحكام. (انظر: وفيات الأعيان ٤/ ١٦٣ ـ ١٦٩، الفهرست ص ٢٦٣، تاريخ بغداد ٢/ ٥٦ ـ ٧٣، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٢٩، تهذيب التهذيب ٩/ ٢٥).

(٢) انظر ترجمته في: الدليل الشافي ١/ ١٤٥، النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٦، الدرر الكامنة ١/ ٤٣٢، الوافي بالوفيات ٩/ ٣٥١.

(٣) انظر ترجمته في: الدليل الشافي ١/ ٤٢٥، السلوك للمقريزي ٢/ ١: ٩٥، الدرر الكامنة ٢/ ٣٩٧.

(٤) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٢٣، السلوك للمقريزي ٢/ ١: ٩٦، تاريخ دول الإسلام ٢/ ١٦٤، الدرر الكامنة ٣/ ٩١.

وتوفي من الأمراء بدمشق الأمير سيف الدين قشتُمر الشمسي مملوك الأمير شمس الدين قَرَاسُنْقُر المنصوري، كان من الأمراء بدمشق، وتقدم على الجيوش بحلب، وكانت وفاته في عشية الجمعة رابع عشرين شهر ربيع الأول رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين أقجبا المنصوري بدمشق، في ليلة الاثنين تاسع عشرين شهر ربيع الآخر، ودفن من الغد بتربته خارج باب الجابية، وكان أميرًا كبيرًا خيّرًا أمينًا، ولي نيابة السلطنة بدمشق، وتقدمة العسكر بغزة، وولي شاد الدواوين وأستاذ الدوادارية بدمشق رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة إحدى عشرة وسبعمائة

في هذه السنة عادت رسل السلطان الملك الناصر من جهة الملك طقطاي فأسرهم الإفرنج هُمْ درسل الملك طقطاي إلى السلطان، وكانوا هم وأتباعهم وغلمانهم نحو ستين نفرًا، وذلك في شهر ربيع الأول ومرُّوا بهم على البلاد الساحلية، وقصدوا بيعهم ووصلوا بهم إلى طرابلس الشام، وعرضوا بيعهم بها واشتطوا في الثمن، وطلبوا ستين ألف دينار عينًا ثم توجهوا بهم إلى أياس وعرضوهم على صاحب سيس بهذا الثمن، فامتنع أن يبتاعهم فتوجهوا بهم إلى جزيرة المصطكي، فعند ذلك أمر السلطان بالقبض على تجار الفِرنْج الذين بثغر الإسكندرية والاحتياط على أموالهم، والتزم أنه لا يطلقهم ولا يفرج عن أموالهم إلا بعد حضور رسله، فخرج سكران الجنوي التاجر إلى المَصطكي وخلصهم وأرسلهم إلى الديار المصرية وكان مثولهم بين يدي السلطان في سادس عشر ربيع الأول سنة ثنتي عشرة وسبعمائة.

ذكر انتقال الأمير سيف الدين بكتمر الحسامي من الوزارة إلى الحجبة وتفويض الوزارة للصاحب أمين الدين عبد الله

في هذه السنة في مستهل ربيع الآخر نقل الأمير سيف الدين بكتمر الحسامي من الوزارة، وتدبير الدولة إلى الحجبة، ورسم للأمير شمس الدين سُنْقُر الكمالي أمير حاجب بالجلوس، فجلس في رأس الميمنة، وفوّض السلطان الوزارة للصاحب أمين

الدين عبد الله بن الغنام[1] وخلع عليه في سادس الشهر وكان قبل ذلك قد ولي نظر النظار في وزارة الأمير سيف الدين بكتمر.

وفي الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر أعيد قاضي القضاة بدر الدين محمد ابن جماعة الشافعي إلى قضاء القضاة بالديار المصرية واستقر القاضي جمال الدين الأذرعي قاضي العسكر، وجلس بين قاضي القضاة شمس الدين الحنفي، وقاضي القضاة تقي الدين الحنبلي.

وفيها في مستهل جمادى الأولى فوّض السلطان نيابة السلطنة بغزة وتقدمة العسكر بها للأمير علم الدين سنجر الجاولي وقبض على نائب السلطنة بها للأمير سيف الدين قطلقتمرُ[2] ولبس الأمير علم الدين في التّشريف ثالث الشهر.

ذكر القبض على الأمير سيف الدين بكتمر نائب السلطنة وإلزامه، وتفويض نيابة السلطنة للأمير ركن الدين بيبرس الدوادار

وفي يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأول أمر السلطان بالقبض على نائبه الأمير سيف الدين بَكْتُمرَ وعلى إلزامه فقبض عليه وعلى صهره الأمير سيف الدين بكتمر وصهره الثاني علاء الدين أيْدُغدي العثماني، والأمير سيف الدين مَنْكُوتُمر الطباخي والأمير بدر الدين بُكمُش الساقي وعز الدين أيدمر الشمسي المعروف بالصفدي، وذلك بعد صلاة الجمعة، وقبض في يوم السبت على الأمير عز الدين أيدمر الشيخي واعتقلوا كلهم. وكان سبب ذلك أنه اتصل بالسلطان أنه شرع في التدبير عليه وطلب الأمر لنفسه، وأن هؤلاء ممن باطنه فقبض عليهم، وقتل منكوتمر الطباخي لوقته، لأنه فاجأ بالإقرار، وتكلم بكلام قوي فيما قيل، ولما قبض السلطان على الأمير سيف الدين بكتمر فوّض نيابة السلطنة للأمير ركن الدين بيبرَس الدوادَار المنصوري.

ذكر جلوس السلطان بدار العدل

وفي هذه السنة في يوم الاثنين العشرين من جمادى الأولى - جلس السلطان بدار العدل الشريف، وجلس معه قضاة القضاء الأربعة بعد أن نُودِي في المدينتين. أنه

(١) هو عبد الله بن تاج الرياسة بن الغنام، الوزير أمين الدين، أمين الملك، أبو سعيد (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/٣٢٥، الدرر الكامنة ٢/٢٥١).

(٢) هو صهر الجالق، ولي نيابة غزة قبل الجالق (انظر: الدرر الكامنة ٣/٢٢١).

من كانت له مظلمة فليحضر إلى دار العدل، ويرفع قصته ويشكو حاله. فحضر الناس وقرئت قصصهم بين يدي السلطان، وكان جلوسه بالإيوان الذي جدَّدَه في موضع الإيوان الكبير المنصوري، واستمر الملك يجلس بدار العدل في كل يوم اثنين إلى هذا الوقت في سنة خمس وعشرين وسبعمائة.

وفي جمادى الآخر عَزَلَ السلطان قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي[١] عن القضاء، بسبب مكتوب أَثْبَتَه فأراد السلطان أن يرجع عن إثباته فأبى قاضي القضاة وطعن السلطانُ فيمن شهد عند قاضي القضاة من الخدام، فلم يرجع قاضي القضاة، وصمم على حكمه، فقال له السلطان: قد أعزلتك. فقال: قد راحني الله، وقام من المجلس ولم يُول غيره، وسعى من له تَشَوّفَ إلى القضاء، فلما اتصل خبر سعيهم بالسلطان، أعاد قاضي القضاة زين الدين، وخلع عليه في يوم الأحد سادس شهر رجب من السنة.

ذكر عدة حَوَادث بالشام في سنة إحدى عشرة وسبعمائة

في هذه السنة في ثالث المحرم توجه الأمير شمس الدين قَراسُنْقُر المنصوري من دمشق إلى نيابة السلطنة بحلب كما تقدم، ولما توجه رسم للأمير سيف الدين بهادر السَّنْجري نائب السلطنة بقلعة دمشق بتنفيذ الأمور إلى أن يصل نائب السلطنة، فجلس بالقلعة، وحضر إليه الصاحب عز الدين وغيره، واستخدم الصاحبُ المذكور جماعةً من المباشرين في هذه المدة، فتغيّر الأمير سيف الدين كَراي عليه عند وصوله بسبب ذلك، ثم وصل نائب السلطنة الأمير سيف الدين كَراي إلى دمشق في يوم الخميس العشرين من المحرم، ونزل بدار الأمير علم الدين سَنْجَر الجَاولي المشرفة على الميدان، ونصب بالميدان خيمةً، ولبس تشريف النيابة في يوم الاثنين خامس عشرين الشهر، وقرىء تقليدهُ بالميدان بحضرة الأمراء، ثم قرىء ثانيًا في يوم الجمعة سلخ الشهر بالجامع، ثم توجه الأمير سيف الدين أرغون إلى الأبواب السلطانية في مستهل صفر، وكان لما عاد من حلب عرَّج إلى طرابلس، واجتمع بالأمير جمال الدين الأفرم نائب السلطنة بها، وأحضر إليه أمثلة السلطان تتضمن ذكر السبب الموجب القبض على أَسَنْدُمر، ويُطَيِّبُ قلبه. ولما حضر تَلَقَّاهُ نائبُ السلطنة والأمراء، وبات ليلةَ واحدة، وركب من الغد في الموكب، وجلس بدار العدل مع نائب السلطنة، ثم توجه

---

(١) زين الدين علي بن مخلوف: تقدمت ترجمته.

في بقية يومه، وركب نائبُ السلطنة والأمراء لوداعه، وسكن خاطر الأمير جمال الدين الأفرم بعد قلق كثير.

وفي يوم الخميس ثالث عشر صفر وصل الأمير سيف الدين طُوغَان المنصوري من الأبواب السلطانية إلى دمشق متوليًا وظيفةَ الشاد بها عوضًا عن الأمير فخر الدين إياز وقَبَضَ على إيَاز في يوم الثلاثاء من عَشر الشهر، وقرَّرَ عليه ثلاثمائة ألف درهم يحملها إلى بيت المال، وسلمه إلى الأمير سيف الدين طُوغَان يستخرج منه ذلك.
وفي شهر ربيع الآخر رُسم للأمير ركن الدين العلائي أن يكون نائب السلطنة بحمص، فتوجه لذلك.

ذكر عزل الصاحب عز الدين بن القلانسي عن وزارة الشام وانتداب أعدائه لمرافعته وخلاصه

وفي الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر أوقع نائبُ السلطنة بدمشق الأمير سيفُ الدين كراي الحوطة على الصاحب عز الدين حمزة بن القَلانِسي، ورسم عليه بالدار الحسامية، ومنع الناس من الاجتماع به، وأمر بالكشف عليه ومحاققته على مباشرته، وهل تعرض للأموال؟ فما وجد في مباشرته ما يشينه، فَعُدِل عن ذلك إلى مطالبته بما انساق من البواقي على ضمان الجهات في مدة مباشرته: وهو أربعون ألف درهم، فحملها إلى بيت المال.

ولما ظهر انحمال نائب السلطنة عليه انتدب لمرافعته نجم الدين عبد الرزاق بن الشهاب الدُّنَيْسَرِي، وكَتَبَ محضرًا يتضمن أنه لما اشترى من وكيل السلطان الحصة من الرمثاء والفضالية، والتوجه كانت القيمة عن ذلك مائتي ألف درهم وأربعين ألف درهم وأنه ابتاع ذلك بمائة ألف وخمسين درهمًا، وشهد في المحضر جمال الدين ابن شمس الدين ابن الشيخ صدر الدين سليمان الحنفي، وشرف الدين، وبهاء الدين أولاد عز الدين بن الشِّيرجي، وشمس الدين بن أَفْتكين. وقام في ذلك الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك السعيد ابن الملك الصالح إسماعيل وحضر من حماه وهو الذي كان توكَّل عن السلطان في بيع الحصص المذكورة للرئيس عز الدين، فأحْضَر محضرًا يتضمن أنه عزل نفسه قبل البيع من الوكالة السلطانية بخمسة عشر يومًا، وثبت ذلك على القاضي نجم الدين الدمشقي، وأشهد عليه في مستهل جمادى الأولى ببطلان البيع، لأنه بدون القيمة، ولعزل الوكيل البائع نفسه قبل صدور المعاقدة، ولوجود ما يوفَّى منه الدينُ غير العقار ثم نَفَّذهُ القضاة في يوم الجمعة ثالث جمادى

الأولى، وأحضر الرئيسُ عز الدين في يوم الاثنين سادس الشهر في مجلس نائب السلطنة، وادَّعى عليه بما تَحَصَّل من ريع المِلْكِ المذكور منذ تَسَلُّمه، واعتقل بدار السعادة، واستمر بها إلى أن وصل الأمير سيف الدين أرغون وقبض على نائب السلطنة في ثالث عشر الشهر، فأفرِجَ عنه، ثم وصل تقليدُه باستمراره على وكالة الخواص الشريفة في حادي عشرين جمادى الآخرة، وتوجه إلى الأبواب السلطانية في يوم السبت رابع عشرين الشهر، فشمله الإنعام السلطاني بالتشريف، والإشهاد بإمضاء البيع، والمسامحة بالريع في المدة الماضية، وعاد إلى دمشق في يوم الثلاثاء ثاني شعبان من السنة، ثم أثبتَ على قاضي القضاة تقي الدين الحنبلي مكتوبٌ بعداوة القاضي نجم الدين الدمشقي له، وإبطال ما حكم به عليه، ورسم السلطان أن يعاد إليه ما كان حُمِّله منسوبًا إلى البواقي، فأعيد إليه كملًا.

ذكر طلب أعيان دمشق وما قرر عليهم من استخدام الخيالة وما وقع بسبب ذلك من الفتن

كان سبب هذا الطلب أن الشناعة قويت بحركة العدو المخذول التتار فورد المرسوم السلطاني في عاشر شهر ربيع الآخر أن يستخدم الأمراء بدمشق على خواصهم نظير عدتهم من الجند، وأن يكونوا على أهْبَةٍ متى طلبوا، وأن يستخرج من أهل الشام خيل الحجر المقررة قديمًا فلما كان في يوم الأربعاء مستهل جمادى الأولى طلبَ أكابر دمشق وقرر عليهم استخدام ألفٍ وخمسمائة فارس، وكانت العادة المقررة مائتي فارس، فاجتمع الأعيانُ لتقرير ذلك على الناس، فقرروا استخدام ثمانمائة فارس على نحو ثلاثمائة إنسان، وعجزوا. فسألوا أن يقرروا على أهل الأسواق وخواص البلد، فأجيبوا إلى ذلك، وجلسوا في خامس الشهر بالمدرسة القليجية لتقرير ذلك، فَغُلِّقت أسواق البلد يومين، وتَعطَّلت جهاتُ الهلال بسبب ذلك، ثم فتحت الأسواق وحصل الشروع في تسقيع الأملاك، والأوقاف، وتحقيق أمِرها والمطالبة من نسبتها، فضجّ الناس لذلك، واجتمعوا بالقضاة والخطيب، وتواعدوا كلهم على الاجتماع بنائب السلطنة فلما كان في يوم الاثنين ثالث عشر جمادى الأولى أخرج الخطيب جلال الدين القزويني[1] المصحف الكريم العثماني

(١) جلال الدين القزويني: هو محمد بن عبد الرحمـٰن بن عمر، جلال الدين القزويني، ولد بالموصل، قدم دمشق ومصر، صار قاضيًا بالشام، وتوفي سنة ٧٣٩ هـ، من تصانيفه: «الإيضاح على صاحب المفتاح» في المعاني والبيان، «تلخيص المفتاح للسكاكي»، «المشذر المرجاني من=

ونعل النبيّ ﷺ، وصَحِبَهُ العلماءُ والفقهاءُ والقراء والمؤذنون وعامةُ الناس وحُملت صناجقُ الجامع، وخرجوا بجملتهم من باب الفرج إلى سوق الخيل، وكان قد تقدمهم العميانُ واستغاثوا وشكوا أنه قرر على الأوقاف التي عليهم أجرة أربعة شهور. فصرفهم الحاجبُ وقال قد أعفيتُم من الطلب، ثم تلاهم الجذماء وشكوا مثل ذلك، فقيل لهم مثل ذلك، ثم جاء صبيان مكاتب السبيل الأيتام، وهم يرفعون أصواتهم بالتهليل، فبكى الأمراء ومن حضر الموكب من الناس. ثم جاء الجمعُ الكثير وتقدمُوا الخطيبَ إلى الموكب، وهم يستغيثون، فضربهم النقباء بأمر نائب السلطنة وسقط المصحف الكريم والنعل المكرم النبوي إلى الأرض، والصناجق، ثم رفعت وأعيدت إلى البلد، ورسم أن يتوجه الخطيبُ إلى القصر فتوجه. فلما حضر إلى نائب السلطنة لكمه بيده ثلاث لكمات، وسبَّ قاضي القضاة نجم الدين كونه ما أنهى إليه هذه الصورة قبل وقوعها، ثم توجها إلى بيوتهما، وَمُدَّ السماط على العادة فما تقدم إليه أحد من الأمراء ولا نائب السلطنة ولا حاشيته، ثم تفرق الناسُ وطلب نائب السلطنة الخطيب جلال الدين، والشيخ مجد الدين التُّونسي فَضَربَ التونسي بين يديه تسعينَ عصاه ضربًا وجيعًا، ورسم عليه وعلى الخطيب، ثم ضُمِّن عليهما، وأفرج عنهما، ثم تقرر الحالُ في يوم الجمعة سابع عشر الشهر على استخدام أربعمائة فارس، وأن يؤخر استخراج المال إلى أن يحل ركاب السلطان بالشام، وسكن الحال بعض السكون، وتوقع الناس لنائب السلطنة حلول النقمة لما أمر بضرب العوام وحملة المصحف والنعل النبوي، وكان الأمر كما توقعوه.

ذكر القبض على الأمير سيف الدين كراي نائب السلطنة بالشام والأمير سيف الدين قطلوبك نائب السلطنة بالمملكة الصفدية

كان القبض على الأمير سيف الدين كراي في يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الأولى، وذلك أن الأمير سيف الدين أرْغُون الدَّوادَار الناصري وصل على خيل البريد في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من الشهر، ووصل أيضًا في هذا اليوم مملوك نائب السلطنة من الأبواب السلطانية بأجوبة تقادمه، وأحضر لمخدومه تشريفًا وحياصة وسيفًا، وكان على يد الأمير سيف الدين أرغون عِدَّة كتب من السلطان إلى الأمراء بالقبض على الأمير سيف الدين كراي. فلما وصل وجد الأمير سيف الدين

= شعر الأرجاني». (كشف الظنون ٦/ ١٥٠).

كُجْكُن[١] بظاهر دمشق وصحبته رسل التتار يتوجه بهم إلى الأبواب السلطانية، فاجتمع به وأوصله كتاب السلطان إليه، والكتب لبقية الأمراء، ورَدَّه إلى دمشق، ففرق كُجْكُنُ الكتبَ السلطانية على أربابها من أعيان الأمراء الأمير سيف الدين بَهَادُر آص وغيره في ليلة الخميس، وقَرَّر معهم الحال، وركب الأمير سيف الدين كَرَاي في يوم الخميس بالتشريف السلطاني، وقبَّل عتبة باب السر على العادة، ورجع من الموكب، ومد السماط، وكان قد احتفل به بسبب التشريف، وحضور رسل التتار، فلما رفع السماط رسُم للرسل بالانصراف فانصرفوا، ونهض الأمير سيف الدين أرغُوُن والأمراء، وأحدقوا بنائب السلطنة وأخرج مثال[٢] السلطان فقرىء عليه فإذا هو يتضمن القبض عليه، فأجاب بالسمع والطاعة، وقلع شاش التشريف والكلوتة وضرب بهما الأرض، وليس تخفيفة[٣] ونزع التشريف، وقيد في المجلس، وحمل على بغل وسُلِّم للأمير سيف الدين أغرلو وركن الدين بيبرس الشرفي المعروف بالمجنون، فتوجها به من ساعته إلى جهة الكرك، واعتقل بها، ورسم للأمير سيف الدين بَهادور آص أن يتحدث في النيابة إلى أن يصل نائب السلطنة.

وقبض على الأمير سيف الدين قُطْلوبَك نائب السلطنة بالمملكة الصفدية في يوم الجمعة الرابع والعشرين من الشهر، ونُقلَ إلى الكركَ أيضًا، وما علم الناسُ ذنبًا للأمير سيف الدين كَراي فيما سلف وقيل إن القبض عليه إنما وقع خوفًا من تغيره بسبب القبض على خوشداشه الأمير سيف الدين بُكْتُمر النائب.

---

(١) سيف الدين كجكن: هو كجكن بن عبد الله المنصوري، توفي سنة ٧٣٩ هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/ ٦٥).

(٢) المثال: أمر دون الفرمان والمنشور، استعمله سلاجقة الروم، وكان للوزير عندهم الحق في إصدار المثالات، واستعمله أيضًا الإيلخانيون، فقد كانت المثالات من المحررات التي تعد في ديوان الرسائل. وكان المثال في العصر المملوكي أمرًا يصدر عن ديوان الجيش بمنح إقطاع أو بتحويله أو بإعادته أو بزيادته، والظاهر في أصل التسمية أنه كان يحرر بترتيب خاص، فمثلًا: كان يعبر عن الإقطاع بكلمة «خبز» وتكتب في سطر واحد، ثم تكتب بقية الكلام في سطر ثان، ثم تكتب تحته عبارة كذا وكذا دينار، وتكون هذه العبارة بالقلم القبطي، ويوقع السلطان على المثال بكلمة (يكتب) ثم يوقع ناظر الجيش بعبارة (يمتثل الخط الشريف). وهكذا صار المثال كالورقة التي نسميها اليوم أنموذجًا أو أورنيكًا. وأما عند العثمانيين فلم يكن يفرق بين المثال والفرمان والتوقيع والنشان، بل ربما جمع بين الفرمان والمثال في عبارة واحدة (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص ١٨٣ ـ ١٨٤).

(٣) التخفيفة: هي العمامة الصغيرة. وقوله: ليس تخفيفة ونزع التشريف: إشارة إلى أنه صار من المغضوب عليهم.

ذكر تفويض نيابة السلطنة بالشام للأمير جمال الدين آقش الأشرفي المنصوري ونيابة السلطنة بالمملكة الصفدية للأمير سيف الدين بَهادرْ آص

لما قبض على الأميرين التائبين سيف الدين كراي وسيف الدين قُطْلوبك فوّضَ السلطانُ نيابةَ السلطنة بالشام للأمير جمال الدين آقُش الأشرفي المنصوري، وتوجه إلى دمشق، وكان وصوله إليها في يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الآخرة، ووصل معه لتقريره في النيابة الأميرُ عز الدين أيدمر الخَطَيريّ، وأحْضَرَ على يده مثالًا شريفًا بالمسامحة بالبواقي، وإبطال ما كان قد قرر على الرعايا، والإحسان إليهم، فقرىء في يوم الجمعة سادس عشر الشهر بالجامع بدمشق، فاطمأن الناسُ وتضاعفت أدعيتهم للسلطان، ثم خلع على الأمير سيف الدينَ بهَادُر آص بنيابة المملكة الصفدية في يوم الاثنين تاسع عشر الشهر، وتوجه إليها يوم الثلاثاء العشرين من الشهر.

وفي يوم السبت ثامن شهر رجب قُبِضَ بدمشق ـ على السماط ـ على الأمير بدر الدين بَكْتُوت الشُّجاعي، وسيف الدين جَقَّار[1]، وكانا من أمراء طرابلس، فرسم بنقلهما إلى دمشق على إقطاع الأمير سيف الدين بَهَادُر آص، فقبض عليهما الآن واعتقلا بقلعة دمشق، ثم سُفِّر إلى الكَرَك في ليلة التاسع والعشرين من شهر رمضان من السنة.

وفي ثامن شهر رمضان وصل إلى دمشق بتقليد للأمير بدر الدين بَكْتُوت القَرَماني بولاية شاد دمشق، وأستاذ دارية عوضًا عن الأمير سيف الدين طُوغان، ورسم للأمير زين الدين كتبغا المنصوري رأس نوبة أن يكون حاجبًا بالشام عوضًا عن الأمير سيف الدين قطلوبكَ الجاشْنَكير، وخلع عليهما.

وفي ثامن عشر شهر رمضان ورد المرسوم السلطاني إلى دمشق بولاية الأمير سيف الدين بَلَبَان البدري نيابة قلعة دمشق، عوضًا عن الأمير سيف الدين بَهَادُر السنجري، وكان المرسوم على يد الأمير عز الدين أَيْدَمُر الخازن، وتوجّه هو إلى نيابة السلطنة بقلعة المسلمين، وتوجه السنجري إلى الأبواب السلطانية بالهدايا والتقادم،

---

(١) سيف الدين جقّار: انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/٤٩٨، والسلوك للمقريزي ٢/١: ١٠٥، وفيه «جنقار» بدل «جقّار».

فرسم له بنيابة قلعة البيرة، وعاد وتوجه من دمشق إليها بعد عَوْدِهِ في ثاني شوال من السنة.

وفيها وصلت رسل مُتَملِّكِ اليمن إلى الأبواب السلطانية بالهدايا والتقادم، فقدمت هديتهم وقبلت في ثالث ذي الحجة وخلع عليهم في سابع المحرم.

وفيها في ذي الحجة فَوّض السلطان صحابة ديوان الإنشاء للقاضي علاء الدين علي ابن القاضي تاج الدين أبي الظاهر أحمد بن سعيد بن محمد بن الأثير الحلبي(١) عوضًا عن القاضي شرف الدين بن فضل الله العُمري، وتوجّه شرف الدين إلى دمشق بمعلومه عوضًا عن أخيه الصدر محيي الدين، واستقر محيي الدين في جملة كُتَّاب الإنشاء بدمشق بمعلومه، وسبب نقل المذكور إلى دمشق ثِقَل سَمْعِه وشيخُوخَته.

ذكر مفارقة الأمير شمس الدين قُرَاسُنْقُر المَنصُوري المملكة الحلبية، وخروجه عن الطاعة، ولحاق الأمير جمال الدين آقُشْ الأفرم ومن انضم إليه من الأمراء به، وتجريد العساكر إليهم وما كان من خبرهم إلى أن توجَّهُوا للعراق

كانت هذه الحوادث في سنة إحدى عشرة وبعض شهور سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، وقد رأينا أن نسردها بجملتها في هذا الموضوع إلى نهايتها لتعلق بعضها ببعض.

وذلك أن الأمير شمس الدين قراسُنقُر المنصوري كتب إلى السلطان في سنة إحدى عشرة وسبعمائة يسأل دستورًا إلى الحجاز الشريف، وأرسل في ذلك مملوكَهُ علاء الدين مُغْلَطَاي، فأذن له في ذلك، وأنعم عليه بألفي دينار عينًا، فتوجه من حلب وفوّض السلطان نيابة حلب في غيبته إلى الأمير شهاب الدين قَرَطَاي الحاجب، فلما وصل الأمير شهاب الدين إلى أطراف بلاد البلقاء بلغه أن السلطان قد جرد جماعة من مماليكه جرائد بالخيل والهجن، فخشي أن يكونوا جُرّدُوا لقصده والقبض عليه، فرجع إلى حلب وقصد الدخول إليها، فاجتمع الأمراء مع الأمير شهاب الدين قَرَطَاي ومنعوه من ذلك، وأرسل إليه الأمير شهاب الدين يقول إنك توجّهت إلى الحجاز بدستور سلطاني، ونحن فلا نمكنك من العبور إلا بعد عودك من الحج وبمرسوم سلطاني.

---

(١) انظر ترجمته في: الدليل الشافي ١/ ٤٤٧، الدرر الكامنة ٣/ ٨٢، البداية والنهاية ١٤/ ٦٣.

فطلب موجودَه الذي بحلب فمنع من ذلك، فجاء الأمير حسام الدين مهنا وأرسل إلى الأمراء في تمَكُّنِه من موجوده، وحلف أنهم متى استمروا على منعه منه هجم بمجموعة حَلَب ونهبها، فمكنُوه من أخذ موجوده وانصرف عن حلب، وقصد جهة البرية. ثم جهز ولدَه الأميرَ عز الدين فرج ونائبه عبدون إلى الديار المصرية، وجهز مع ولده جملة من أمواله، فوصل إلى القاهرة في أواخر ذي الحجة سنة إحدى عشرة وسبعمائة، وما علم مراده بذلك ولما وصل ولده عز الدين أحسن السلطان إليه وأنعم عليه بإمرة عشرة طواشية، واستقر بالقاهرة بدار أبيه مع أخيه الأمير علاء الدين علي - وهو أحد أمراء الطبلخاناه بالقاهرة - وبعد أن أرسل قَرَاسُنْقُر ولدَه المذكور وأموالَه ونائبه أظهر العِصْيان وتجاهر به، وخلع الطاعة وكاتب الأمراء، ورَاسَلَ الأمير جمَال الدين آقش الأفرم نائب السلطنة بالمملكة الطرابلسية، وبذَلَ له الطاعَةَ، وأن يكون هو صاحب الأمر دون قَرَاسُنْقُرَ، وبذل له المال مع ذلك ليُعينه به، فأرسل إليه مرة ثلاثة آلاف دينار عينًا، ومرة أخرى، ومرة ثالثة فوافقه على ذلك وباطنه وكتب إلى السلطان يخبره بما كاتبه به قَراسُنْقُر وَمُهَنًا، وبقي ذلك في يُسْر حَسْوًا في ارتغاء، واستمر الأمير جمال الدين يدافع الأيام، ويقدم رجلًا ويؤخر أخرى، ويكاتب السلطان ويرد عليه الأجوبة في بقية سنة إحدى عشرة وسبعمائة وكنت يوم ذاك - ناظر الجيش الطرابلسي وكان لي عليه إدلال كثير، فشرع يَكْتُم ذلك عنّي وعن غيري إلا مَن عَلم أنَّهُ يُوافقُه على رأيه ويباطنه على مقصده، وظهر لي من صفحات وجهه وحركاته واضطراب أمره وشلش بعض مماليكه ما دَلَّني على مُرَادِه، فدخلت عليه في أثناء ذي الحجة وهو بطرابلس، وكاشفته، وتحدثت معه وحذرته عاقبة هذا الأمر، وبذلت له النصيحة فكاد يكشف لي عن باطنه ويخبرني بما أضمره وعزم عليه، فلحظت بعض أكابر مماليكه وهو يغمزه ويشير إليه أن لا يفعل، فعدل عما أراد أن يخبرني به، ثم قال لي أنا أتحقق محبتك ونُصْحَك، وأنه ما حَمَلَك على أن ذكرت ما ذكرت إلا الشفقةَ علي. وجزاني خيرًا، ثم قال لي: هذا الأمر الذي لحظته وظننته قد طالعتُ السلطان مما وقع فيه، وأرسلت إليه ما ورد عليَّ من كتب قَرَاسُنْقُر والعرب، وهذا الذي يظهر لك أنني أفعله هو عن أمر السلطان، وسوف يظهر لك. فما شَكَكْتَ في قوله، واستَكْتَمَني هذا الأمْر فكَتمتهُ، ثم ظهر أن الأمر في باطنه بخلاف ما أظهر لي.

ولما اتصل بالأبواب السلطانية أظهر قَرَاسُنْقُر العصيان جهز السلطان الأمير حسام الدين قرا لاجين أستاذ الدار والأمير سيف الدين أرغون الدَوادار الناصري،

والأمير سيف الدين أيْدمُر الخطيري، والأمير حسام الدين لاجين الجاشنكير المعروف بالزيرباج ومضافيهم، فوصلوا إلى دمشق في العشرين من ذي القعدة، وجرَّد معهم من دمشق جماعةً من عسكرها، وتوجَّهوا إلى حِمص ثم إلى حَلَب لتمهيد البلاد ومنع قَرَاسُنْقر إن قصد الهجوم على المملكة الحَلبيّة، ثم أردف السلطان هذه العساكر المذكورة بالأمير سيف الدين قُلِيِّ السلاحدار، والأمير بدر الدين جَنكلي بن البابا، ومضا فيهما فوصلوا إلى حمص في ذي الحجة، ونزلوا بمرجها، فقلق الأمير جمال الدين الأفرم غاية القلق، وارتاع لنزولهم بالقرب منه، وخشي أن يُقْبَضَ عليه، وكان قد حذر منذ قُبِضَ على الأمير سيف الدين كَراي، والأمير سيف الدين قُطْلُوبَك، ورأى أن السلطان قد قبض على من لم يُسْلفْ ذَنْبًا ولا وَقَع منه مُخالفة فيما مضى ـ وإنما مُسِكا احتياطًا لما تقدم من القبض على خوشداشيتهما، فكيف يكون حال مَن له ذُنُوب قديمة، ومخالفة في ابتداء الأمر. فبقي ولا يزال في الصيد وهو يتنقل في المملكة الطرابلسية، فتارة يكون بالجون وتارة يكون باللاذقية وجبلة، ومرة بالجبال.

فلما كان في مستهل محرم سنة اثنتي عشرة وسبعمائة ركب من طرابلس وتوجه إلى الصيد بمرج جبلة على عادته، ونزل على رأس العين بالقرب من مدينة طرابلس مما يلي الجبل، فوصل إليه مملوكه مُغْلَطَاي الحلبي على خيل البريد بأجوبة السلطان يتضمن أنه أنعم عليه بنيابة السلطنة بالمملكة الحلَبيّة، ولم يحضر تقليدًا ولا تشريفًا، وذكر أن السلطان شافهه بطلبه إلى الأبواب الشريفة ليجدّد عهدًا برؤية السلطان، ويلبس التشريف، ويأخذ التقليد، ويتوجه إلى حَلَب وشافهه عن الأمير علاء الدين أيْدغدِي شُقير الحسامي بكلام رديء، وهو أنه أخبر عنه أنه قال له: قل له إياك أن تتأخر عن الحضور، فوالله لو اختار السلطان القبض عليك أرسل إليك من قدر وقبض عليك. فارتاع لهذه المشافهة، وخشي عاقبةَ حضوره، وركب من رأس العين إلى مرج جبل على مرحلتين من طرابلس، فلما استقر بالمرج جاءه الأمير عز الدين أيدمُر الزّرْدكاش المنصوري أحد الأمراء مقدمي الألوف، وكان الأفرم زوج انتبه والأمير سيف الدين أحد أمراء الطبلخاناه وبدر الدين بَيَسَري الحسامي أحد أمراء العشرات، وكلهم من أمراء دمشق، وكانوا قد خرجوا عقيب المواكب من دمشق في نيابة الأمير جمال الدين آقش الأشرفي، ولم يجرد خلفهم من يدركهم، وحال وصولهم إليه ذكروا أن الكلمة اجتمعت عليه فركب من المرج لوقته، واستصحب معه من كان في صحبته من أمراء طرابلس وهم علاء الدين مُغْلِطَاي الشيخي، وسيف الدين قَطَليجا الجاشنكير

من أمراء الطبلخاناه، من أمراء العشرات ستة وهم: علاء الدين أَيْدغدِيْ التَّقوي، وركن الدين بيبرس بن عبد الله، وعز الدين حسن بن يوسف السَّيْفِي الحاجب، وناصر الدين محمد الفارقي، وشمس الدين طشلق الشويخي، وعلاء الدين مُغْلطَاي الجمالي ومن أمراء التركمان أصحاب الطبلخاناه خمسة وهم: علاء الدين علي بن الدربساكي مقدم التركمان وعلاء الدين علي بن إلياس الفتقي، وحسام الدين حسن بن أسيجا وسيف الدين أبو بكر بن الحاج طُوغَان، وسيف الدين بن إليا، ومن أمراء العشرات منهم صارم الدين صاروجا بن ناصي وتوجه من مرج الجبل إلى مرج الأسل، وحُكِيَ أنه تلَقَّب بالملك الرحيم، وكتب لوقته كتبًا إلى الأمراء بطرابلس يتضمن: وصل إلى مخيمنا الكريم المقر العالي الأميري. الغِزّي الزردَكاش، والجناب العالي الأمير السيفي بلَبَان الدمشقي، والمجلس العالي الأميري البَدْرِي البَيْسَري الحسامي، وقد اجتمعت الكلمة علينا ولم يبق إلا الركوب. ويقول في كتابه لكل منهم فَمن قَدَم خيّره الله تعالى ويَعْجل بسُرْعة الحضور، ليكون من السابقين الأولين، ويحصل له فضيلة السبق، ويُعلم أنا لم نطلبه لحاجة بنا إليه. وإنما عرفناه بما حدده الله لنا يتأخر ويعتذر حيث لا ينفعه العذر. إلى غير ذلك، وتضمن كتابه للأمير شمس الدين سُنْقر الرُّومي. وقد حقق الله تعالى مناماتك التي كنت تراها وتخبرنا بها، ونحو هذا من الكلام.

ولما وصلت كتبه إلى الأمراء كنت يومئذ بطرابلس لم أتوجه في صحبته، وكان قد كتب إليّ يَطْلُبني وهو بمرج الجبل، فاعتذرت ولم أتوجّه إليه ـ لطفًا من الله بي ـ فقمت حين وصَلَتْ كتُبه واجتمعت بأعيان الأمراء ونهيتهم عن الدخول في الأمر، وعرفتهم سُوء عاقبة الخروج عن الطاعة، ومفارقة الجماعة، وجدّدتُ على أكثرهم الأيمان للسلطان الملك الناصر فحلفوا، واجتمع جماعة منهم عند الأمير شمس الدين سُنْقُر الرومي. فتأخروا عن اللحاق به ولم يتوجه من طرابلس إليه غير علاء الدين أيْدُغدي الأتقوي أحد أمراء العشرات فإنه هرب إليه ولم يُشعر به، وكنت قد حذرته هذا الأمر قبْل ذلك بيوم أو يومين، وحلفته فحلف، وتوثقت منه أنه لا يفارق الطاعة والجماعة فلذلك أهملته عند وصول المكاتبات إلى الأمراء، وانتظر الأمير جمال الدين وصول العسكر الطرابلسي إليه وهو بمرج الأسل ليكبس بهم العسكر المصري الذي بحمص، فلم يلتحق به غير أيْدغدي الأتقوي المذكور، فلما أيس منه ركب من مرج الأسل، ونزل إلى منزل القصب بالقرب من حمص ومرّ على جانب خيام العسكر المصري، وقصد جهة البرية، فركب بكتمر خلفه الأمير سيف الدين وبكتمر الجمدار

الناصري في شرذمة يسيرة، وتتبعه فلحق أثقاله فأخذها ورجع، واستمر السير بالأفرم ومن معه حتى دخل البرية.

ولما بلغ الأمير شَمس الدين قَرَاسُنْقُر دخوله إلى البرية خَلْفَه ظن أن ذلك مكيدة عليه، وتقدم في البرية، وبقي الأفرمُ إذا نزل منزلة وجد قَرَاسُنْقُر قد رحل عنها، فاستمر كذلك أيامًا، ثم أرسل إليه من أدركه وأعلمه أنه إنما جاء في ميعاده، فأرسل إليه يقول: إن كان الأمر كذلك فتحضر إلى عندي بمملوكين، وتؤخر هذا الجمع حتى نجتمع. فركب إليه على الهجن هو ومملوكان من مماليكه، وأدركه واجتمعا. فلما تحقق قَرَاسُنْقُر أنه حضر لموافقته اطمأن إليه، وتربَّص حتى التحق به بقية أصحاب الأفرم، فاختار الأفرم ممن معه ومع قَرَاسُنْقُر أربعمائة فارس، وأمرهم أن يتوجهوا ويكبسوا الأمير سيف الدين أرْغُن الناصري ليلًا في خيامه ويقتلوه، وكان الأمير سيف الدين أرْغُن بقرب حلب ـ وقال: إنه إذا قتل هذا احتاج مَن معه إلى الانضمام إلينا خوفًا من السلطان كَوْنَ مملوكه قتل بينهم، وتمّ لنا الأمر بهذا ولا يختلف علينا أحدٌ بالشام، فتوجّه أولئك غير بعيد ثم رَدَّهم قَرَاسُنْقُر وجَهّز الأفرم لمضاء هذا الأمر فلم يوافق عليه، ثم قال له قَرَاسُنْقُر، إن هذا الجمع الذي معك لا نقدر أن نملك بهم البلاد، ولا نلقى بهم الجيوش، وهؤلاء يضيقون علينا، ويأكلون ما معنا، ولا يحصل لنا بهم انتقاع، والمصلحة تقتضي أن نردهم. فأعمل الأفرم الحيلة وجردهم على أن يكونوا يَزَكًا في مكان عَيّنه لهم، وقال: لا تفارقوا هذا المكان حتى نأتيكم بما تعتمدونه، وركب هو وقَرَاسُنْقُر ومماليكها والأمراء الثلاثة الذين وصلوا من دمشق ومغلطاي الشيخي وقطليجا الجاشنكِير وتوجهوا هم والأمير حسام الدين مُهَنا إلى الرحبة، وعاد بقية الأمراء العشرات، وأمراء التركمان إلى طرابلس ثم فارق الأميرَ جمالَ الدين الأفرم جماعةٌ من أعيان مماليكه وعادوا إلى طرابلس وتبع العسكرُ الناصري الأفرمَ وقَرَاسُنْقُر ومن معهما إلى الرهبة ففاتوا ولزموا البرية، ثم كتب الأفرم وقراسُنْقُر إلى خَرْبَنْدَا ملك التتار يستأذناه في الوصول إليه بمن معهما، وسيَّرا بذلك بدر الدين بيسري الحسامي، فتوجّه إليه وعاد بجوابه إليها وخلعه عليهما، فتوجها إليه وصحبتهما بعض مماليكهما والأمير عز الدين الزردكاش والأمير بَلَبَان الدمشقي وبيسري الحسامي ورجع بقية الأمراء الذين كانوا مع الأفرم.

فأما أمراء التركمان وأمراء العشرات الذين ليسوا من مماليك السلطان وهم: حسن السيفي، ومحمد الفَارقي وطشلق الشويخي، فاستمروا في الخدمة بطَرَابُلس على عادتهم، وقبض على أمراء التركمان ثم أفرج عنهم واستمروا في الخدمة.

وأما بيبرس بن عبد الله، وأيدغدي الأتقوي فورد المرسوم بالقبض عليهما، فقبض عليهما وسُيّرا إلى الأبواب السلطانية، فماتا في محبسهما.

وأما قطليجا الجاشنكير فإنه غَيَّر هيأته واختفى إلى أن وصل إلى الأبواب السلطانية، فما شعر السلطان به إلا وهو قائم بين يديه في الإيوان، فأمر باعتقاله، ثم نقل إلى ثغر الإسكندرية، وقيل إنه مات.

وأما علاء الدين مُغْلَطاي الشَّيخي فإنه توجّه إلى الأمير فضل بن عيسى ودخل إليه، فحضر به إلى الأبواب السلطانية وشفع فيه، فأمر السلطان بإرساله إلى مدينة قوص، ثم إلى ثغر أسوان، ورتب له كل يوم أربعة دراهم، فأقام هناك مدة، ثم طُلب إلى الأبواب السلطانية، ورتّب في جملة المماليك أرباب الجامكيات[1] ثم أنعم عليه بإقطاع، وجُعلَ من جملة مقدمي الحلقة، هذا ما كان من أمر هؤلاء.

وأما الأمراء الذين توجهوا إلى خَرْبَنْدا فإنه أكرمهم وأقاموا في خدمته مدة، فأعطى الأمير جمال الدين الأفرم همذان، فَتوجَّه إليها ومات بها ودفن بها. وبلغنا أنه عَمَّر له تربة، ووقف عليها في كل سنة جملة من أموال هَمَذَان.

ومات الزَّردكاش، وبَيْسرِي الحسامي فيما بلغنا واستمر قَراسُنْقُر عند التتار إلى أن مات في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

نعود إلى سياقة الأخبار في سنة إحدى عشرة وسبعمائة

فيها كانت وفاة القاضي مجد الدين أبي الرَّوح عيسى بن عمر بن عبد المحسن بن الخشاب المخزومي الشافعي[2] بالقاهرة، في يوم الاثنين ثامن شهر ربيع الأول، ودفن بتربته بالقرافة، وكان من أعيان الفقهاء الشافعية، ومن رجال الدهر دَهَاءً، وولي المناصب الجليلة: وكالة بيت المال سنين كثيرة، وولي نظر الحسبة بالقاهرة، ودرس بأجلّ المدارس، وعين للقضاء مرار وحرص على ذلك فلم ينله، وفرقت مناصبه بعده، فولى القاضي بدر الدين محمد بن جماعة تدريس الناصرية، وولي ولده صدر

(١) الجامكيات: جمع جامكية، من الفارسية: جامة، بمعنى اللباس، والجامكية في الاصطلاح الجراية الشهرية تعطى من غلة الوقف، فهي من ناحية أجر ومن ناحية أخرى منحة (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص ٥٩).

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٢٠٦.

الدين أحمد وكالة بيت المال، وولى الصاحبُ ضياء الدين النشائي تدريس زاوية الشافعي بمصر.

وتوفي القاضي جمال الدين أبو الفضل محمد ابن الشيخ الإمام جلال الدين أبي العز المكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم الأنصاري الخزرجي الإفريقي[١] الأصل من ولد رُوَيْفِع بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، وكانت وفاته بالقاهرة في حادي عشر شعبان، ودفن بالقرافة، ومولده بالقاهرة في يوم الاثنين الثالث والعشرين من محرم سنة ثلاثين وستمائة، وكان من أعيان كتاب الإنشاء وفضلائهم، رَوَى الحديثَ النبوي، وكان عَالِي السَّند رحمه الله تعالى، وله شعر وقصائد.

وتوفي الصاحب الوزير فخر الدين عمر ابن الشيخ مجد الدين عبد العزيز بن الحسن الخليلي التَّيمِي الدَّارِمي[٢] وكانت وفاته في يوم عيد الفطر، معزولًا عن الوزارة ـ ودفن بالقرافة الصغرى، ومولده في سنة أربعين وستمائة، وقد تقدم ذكر مناصبه وولايته الوزارة، رحمه الله تعالى.

وتوفي الحكيم الفاضل الرئيس شرف الدين عبد الله بن شهاب الدين أحمد بن محيي الدين رشيد ابن الشيخ جمال الدين أبي عمر وعثمان بن أبي الحوافر في ليلة الجمعة الثالث والعشرين من شوال، ودفن من الغد بالقرافة، وكان رحمه الله تعالى من أجود الناس صحبة، وأكثرهم مروءة، وأحسنهم أخلاقًا وأصحهم عقيدة رحمه الله تعالى.

---

(١) هو ابن منظور صاحب لسان العرب، وهو: محمد بن جلال الدين مكرم بن نجيب الدين أبي الحسن علي بن أحمد الأنصاري الرويفعي الإفريقي، جمال الدين أبو الفضل المعروف بابن منظور، الأديب اللغوي، نزيل مصر، ولد سنة ٦٣٠ هـ، وتوفي بمصر سنة ٧١١ هـ، من مصنفاته: «تهذيب الخواص من درة الغواص للحريري»، «الجمع بين صحاح الجوهري والمحكم لابن سيده»، «ذيل على تاريخ ابن النجار»، «سرور النفس في مختصر فصل الخطاب للتيفاشي»، «لسان العرب» في اللغة، «لطائف الذخيرة في محاسن أصل الجزيرة»، «مختار الأغاني في الأخبار والتهاني»، «مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر»، «نثار الأزهار في الليل والنهار» في الأدب، «نوادر المحاضرات» وغير ذلك. (انظر: كشف الظنون ٦/ ١٤٢، الدرر الكامنة ٤/ ٢٦٢، الوافي بالوفيات ٥/ ٥٤، وفوات الوفيات ٤/ ٣٩، شذرات الذهب ٦/ ٢٦، الدليل الشافي ٢/ ٧٠٦).

(٢) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٢٨، السلوك ٢/ ١: ١١٣.

وتوفي تاج الدين عبد الرحمٰن المعروف بالطويل[١]، ناظر النظار بالديار المصرية، وكانت وفاته في ليلة السبت الثاني والعشرين من ذي القعدة، وهو من مسالمة القبط، وكان علم صناعة الكتابة الديوانية انتهى إليه في زمانه.

وتوفي القاضي محيي الدين قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف[٢] المالكي ليلة الخميس حادي عشر ذي الحجة، وكان رحمه الله تعالى ينوب عن والده في القضاة في حياته، ورُسم باستقلاله بعد وفاته، فمات قبل والده - أصيب - وكان يعد من نجباء الأبناء رحمه الله تعالى.

وتوفي قاضي القضاة الشيخ الإمام الحافظ سعد الدين أبو محمد مسعود بن محمد بن مسعود بن زيد الحارثي الحنبلي[٣] بالمدرسة الصالحية بالقاهرة، في يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ذي الحجة، ودفن من يومه بالقرافة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير بدر الدين بكتوت أمير شكار[٤] متولي ثغر الإسكندرية - كان - في ثامن عشرين شهر رجب، وكانت وفاته بالقاهرة بعد أن نُكِبَ وصُودر.

وتوفي في التاريخ المذكور الشيخ الصالح محمد العُريان رحمه الله تعالى.

وتوفي بدمشق الأمير شجاع الدين يوسف نقيب نقباء العساكر المنصورة بالشام، في يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الأولى، بمولده فيما قيل وفي ثلاثة عشرة وستمائة، وَلِي نقابة العساكر بدمشق في الأيام الناصرية إلى أن توفي، وكان عدلًا مقبول القول عند قضاة القضاة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير شمس الدين سُنقر جاه الظاهري[٥] بدمشق في يوم الاثنين ثامن ذي الحجة، ودفن بكرة الثلاثاء بمقابر الصوفية رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١١٤.

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٩٠. (٣) سعد الدين مسعود: تقدمت ترجمته.

(٤) أمير شكار: هو لقب على الذي يتحدث على الجوارح من الطيور وغيرها وسائر أمور الصيد، وهو مركب من لفظين: أحدهما عربي وهو أمير، والثاني فارسي وهو شكار (بكسر الشين المعجمة وكاف وألف ثم راء مهملة في الآخر) ومعناه الصيد فيكون المراد «أمير الصيد» (صبح الأعشى ٥/ ٤٣٣ - ٤٣٤).

(٥) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ١٧٤.

واستهلت سنة ثنتي عشرة وسبعمائة

في هذه السنة كملت عمارة الجامع الناصري بساحل مصر في صفر، وكان موضعه بشونة التبن، وكان الابتداء بعمارته في بعض شهور سنة إحدى عشرة وسبعمائة، وولي خطابته قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعي، ورسم أن يبني في سطح الجامع المذكور بيوتًا لشيخ وجماعة من الصوفية، وطهارة ومزملة، وبني في أسفله مزملة، ولما كملت عمارته حضر إليه السلطان وشاهده، ووقف على مصالحه مَوَاضع من أملاكه، منها قيسارية العنبر بالقاهرة، وحمام بن سويد، وأنشأ رَبْعًا بجواره، ووقفه عليه، وعَمَّرَ بظاهره طهارة للسبيل، وبها فسقية، وساقية ورتب السلطان بالجامع إمامًا ومؤذنين وقَوَمة وشيخهم وشحنة وبوابًا، وجعل لكل منهم جامكية وجراية، ورتب بالخانقاه الشيخ قوام الدين الشيرازي شَيخًا للصوفية، وثمانين صوفيًا أربعين مجردًا بسطح الجامع في البيوت التي عُمِّرت لهم وأربعين متأهلين، ورَتَّب لكل صوفي منهم في كل شهر خمسة عشر درهمًا، وفي كل يوم ثلاثة أرطال من الخبز العلامة، وللمجردين خاصة في كل يوم ثلث رطل لحم مطبوخ، وزبدية مرق، ورتب للشيخ مثل ما رتب للصوفيين منهم، وأفرد للصوفية مقصورة بالجامع بحائطه الغربي. وهو البحري، يجتمعون فيها لصلاة العصر في كل يوم، ويقرؤون القرآن بعد الصلاة، ويَدْعُون للواقف، وينصرفون ويحضرون أيضًا لصلاة الجمعة، وليس بشرط.

ذكر تفويض نيابة السلطنة بالمملكة الحلبية والمملكة الطرابلسية للأميرين سيف الدين سَودي الجمدار[١] وسيف الدين تَمُر الساقي[٢]

وفي هذه السنة فَوَّضَ السلطانُ نيابةَ السلطنة بالمملكة الحلبية للأمير سيف الدين سَودي الجَمَدار في صفر، وتوجه إليها من الديار المصرية، ووصل إلى دمشق في ثامن شهر ربيع الأول. وفوّضَ نيابةَ السلطنة بالمملكة الطَرَابلسية للأمير سيف الدين تمر الساقي، فوصل إلى دمشق في ثامن عشرين شهر ربيع الأول بطُلبِه[٣] وجماعته،

(١) سيف الدين سودي الجمدار: انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ١٧٩.
(٢) سيف الدين تمر الساقي: انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٥١٩.
(٣) الطلب: تقدم التعريف به.

ووصل إلى طَرابُلس في العشر الأوسط من شهر ربيع الآخر. وكان سبب تأخره هذه المدة تَوَجّهُهُ إلى حمص للقبض على نائبها على ما نذكره.

وفيها: في عاشر ربيع الأول أمر السلطان بالقبض على القاضي فخر الدين ناظر الجيوش، وكان قد تقدّم عنده وعَظُمَ شأنُه، وارتفع محلهُ وعَلَت كلمتهُ، فَحُسد على ذلك، ونُقل إلى السلطان عنه ما غيَّر خاطِره عليه، فأمر بالقبض عليه ومصادرته، فأخذ من أمواله ـ فيما قيل ـ أربعمائة ألف درهم، وفوّض نظر الجيوش للقاضي قُطب الدين ابن شيخ السلامية ناظر جيش الشام نَقَلهُ إلى الديار المصرية، فلم يَقم مقام القاضي فخر الدين، ولا نَهضَ بسَد الوظيفة وتَصَحَّفَتْ عليه أسماء البلاد، ثم أفْرجَ السلطانُ عن القاضي فخر الدين في خامس عشر شهر ربيع الآخر، واستقر صاحب ديوان الجيوش مُدّة، ثم شَركَهُ في النظر، فصارا ناظِرَيْن بغير صاحب ديوان، ثم أعادَه إلى النظر مُستقلًا به منفردًا، وأعاد قُطَب الدين إلى الشام على عادته، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها في عاشر شهر ربيع الأول فُوِّض قضاء القضاة على مذهب الإمام أحمد بن حنبل للقاضي تقي الدين أحمد ابن قاضي القضاة عز الدين عمر بن عبد الله بن عمر بن عوض المقدسي.

ذكر القبض على الأمير ركن الدين بيبرس العلائي نائب السلطنة بحمص ومن يذكر من الأمراء بدمشق

كان الأمير ركن الدين بِيبرْس العلائي المذكور في هذه السنة قد طالع الأبواب السلطانية وسأل دستورًا في الحضور إلى الأبواب، فأذِنَ له، فحضر على خيل البريد في العشر الآخر من صفر وشمله الإنعام السلطاني بالتشريف، وعاد إلى نيابته في العشر الأول من شهر ربيع الأول، ثم تحقق السلطان منه سوء طويَّتِهِ وخبث نيته وأنه كان قد باطن الأمير شمس الدين قَرَاسُنْقر، والأمير جمال الدين الأفرم، وأنه كان يُظْهر خلافَ ما يُبْطن. فكتب السلطان إلى الأمير سيف الدين تَمُر الساقي قبل وصوله إلى طرابلس أن يتوجه إلى حمص ويقبض عليه، وكتب بمثل ذلك إلى الأمير بَدْر الدين بَكْتُوت القَرمَانِي أحد الأمراء بدمشق، وكان مجردًا بجهة حِمصْ، فتوجّها إليه وقَبَضا عليه في بكرة نهار الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر، وتوجّها به إلى دمشق، ورسم عليه الأمير سيف الدين كُجْكُن، وقبض على جماعة من الأمراء بدمشق، وهم: الأمير ركن الدين بِيبرْس الشَّرفي المعروف بالمجنون، والأمير علم الدين سَنْجر البَرْواني، والأمير

سيف الدين طُوغان المنصوري، والأمير ركن الدين بيبَرس التاجي، وذلك في يوم الاثنين عاشر شهر ربيع الآخر، وصل في هذا اليوم إلى دمشق الأمير ركن الدين بِيبَرس العلائي، وحال وصوله قبض عليه الأمير سيف الدين كجكن، وهو المرسوم عليه، وسُيِّرُوا في ليلة الأربعاء ثاني عشر الشهر إلى قلعة الكرك، واعتقلوا بها وفيها في سادس شهر ربيع الآخر.

ذكر القبض على الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري نائب السلطنة بالباب الشريف، والأمير جمال الدين آقش الأشرفي نائب السلطنة بالشام وغيرهما من الأمراء بالديار المصرية

وفي هذه السنة استدعى السلطان الأمير جمال الدين آقش الأفرمي نائب السلطنة بالشام إلى الأبواب العالية، فحضر على خيل البريد، وكان ركوبه من دمشق في ثاني شهر ربيع الأول، ووصل إلى الأبواب السلطانية يوم السبت تاسع الشهر، ولما وصلا إلى الأبواب السلطانية أكرمه السلطان وأحسن إليه وشمله بالإنعام، واستقر عَوْدُه إلى نيابة السلطنة بالشام. فأُنهِيَ إلى السلطان عنه أنه كان ممن باطنَ الأمراء المنسحبين الثلاثة الذين لحقوا بالأمير جمال الدين الأفرم، وأنه كان يقدر على التجريد خلفهم والقبض عليهم وما فعل، وإنما كان امتنع من التجريد خلفهم أنه توهم من كثير من الأمراء بدمشق مباطنة الأمراء المخالفين فخشي إن هو جرّد من يَرُدّ هؤلاء أن يلتحق بهم فيضطرب الأمر وتعم المفسدة، فاقتصر على حفظ من بقي عنده، وترك الإرسال خلفهم، لهذا الأمر وبلغهم وبلغ السلطان أيضًا عن جماعة من الأمراء مثل ذلك، فأمر بالقبض عليهم، وهم: هذا المقدم الذكر والأمير شمس الدين سُنْقُر الكمالي الحاجب ـ كان ـ والأمير علاء الدين مُغْلطاي المسعودي، والأمير شمس الدين الدُّكن الأشرفي والأمير حسام الدين لاجين الجَاشنكير، والأمير سيف الدين باينجار وكل هؤلاء من مقدمي الألوف بالديار المصرية، وقبض أيضًا على الأمير حسام الدين لاجين العمري، وذلك في يوم الاثنين ثالث شهر ربيع الآخر من السنة، وشغرت نيابة السلطنة بالباب السلطاني بقية الشهر والله أعلم.

ذكر تفويض نيابة السلطنة بالشام للأمير سيف الدين تنكز

وفي هذه السنة بعد القبض على الأمير جمال الدين فوّض السلطان نيابة السلطنة بالشام للأمير سيف الدين تنكز وتوجه إلى دمشق على خيل البريد، فكان وصوله إلى

دمشق في الخميس والعشرين من شهر ربيع الآخر، ووصل معه جماعة من المماليك السلطانية على أخبار الأمراء المعتقلين منهم الأمير سيف الدين الحاج أرقُطاي الجمدار[١].

وفيها أمر السلطان بعرض أجناد الحلقة بالديار المصرية، وانتصب لذلك بنفسه وأعرضوا بين يديه، وابتدىء بالعرض في خامس عشر شهر ربيع الآخر وكمُل في مستهل جمادى الآخرة، وأبقَى منهم من صَلُح للخدمة على إقطاعه، وقطع من ظهر عجزه، ورتب للمشايخ العاجزين عن الخدمة الرواتب.

ذكر تفويض السلطنة بالباب الشريف للأمير سيف الدين أرغن

وفي هذه السنة في يوم الاثنين مستهل جمادى الأولى فوّض السلطان نيابة السلطنة بأبوابه الشريفة لمملوكه وعَتيقه وغذي نعمته، ومن نشأ من صغره في خدمته، وقرأ القرآن معه، الأمير سيف الدين أرغن الدوادار، وهو من المماليك المنصورية السيفية وكان السلطان الملك المنصور قد ابتاعه هو وأمه، وخَصّه بخدمة السلطان الملك الناصر ولده من صغره وحال طفولتيه، فنشأ معه ولم يفارق خدمته في وقت من الأوقات، وتوجه في خدمته إلى الكرك في السفرتين، ففوّض السلطان إليه نيابة السلطنة الآن، وهو أعرف الناس بخلق السلطان، وأكثرهم سياسة وسكونًا وديانة وخيرًا وعفة وطهارة، واشتغل بالعلوم الشرعية، وسمع الحديث وكتب صحيح البخاري بيده، وحصل الكتب النفيسة، وهو مستمر في نيابة السلطنة إلى وقتنا هذا في سنة خمسة وعشرين وسبعمائة، وجرت أحوال الدولة في مدة أيام نيابته على أحسن سداد وأكمل نظام.

وفي جمادى الأولى سنة ثنتي عشرة وسبعمائة أيضًا فوض السلطان نيابة السلطنة بالمملكة الصفدية للأمير سيف الدين بَلَبان طُرْنَا أمير جاندار[٢] ورسم بعود الأمير سيف الدين بهادر آص إلى دمشق أميرًا على عادته فكان وصوله إلى دمشق في تاسع عشر الشهر.

وفي يوم الخميس ثامن عشر جمادى الأولى ولي نيابة قلعة دمشق الأمير عز الدين أيبك الجمالي عوضًا عن الأمير سيف الدين بَلَبان البَدْري.

---

(١) سيف الدين الحاج أرقطاي الجمدار: انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٣٥٤.

(٢) توفي سنة ٧٣٦ هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٣٠٤، الدرر الكامنة ١/ ٤٩٢).

ثم رَسَم في شهر رمضان من السنة أن يكون الأمير سيف الدين بَهَادُر الشمسي في القلعة شريكًا للأمير عز الدين الجمالي، فدخلها في سادس عشر شهر رمضان.

وفي هذه السنة حصل انفصالي من نظر الجيش بالمملكة الطرابلسية في منتصف جمادى الأولى، فتوجهت إلى الديار المصرية، فكان وصولي القاهرة في العشرين من شهر رجب من السنة.

وفي شهر رجب في أواخره وَصَلَت رسل الأشكري، ومثلوا بين يدي السلطان في عاشر شعبان بقلعة الجبل، وقدموا ما معهم من الأقمشة والسكلاط[1] والطيور الجوارح.

ذكر عرض العساكر والنفقة فيها وتجريدها وتوجه السلطان إلى الشام

كان السلطان قد توجه إلى الصيد في شهر رجب، وأقام بمنزلة الأهرام، وكثر الإرجاف وتواترت الأخبار بوصول خربندا ملك التتار بجيوشه وقصده الشام، فعاد السلطان إلى قلعة الجَبَل وجرد الاهتمام ونفق في عامة العساكر، واستخدم جماعة، وأقطعهم ساحل الغلة في شعبان، وأمر الأمراء والمقدمين بالعرض في سوق الخيل والخروج إلى الشام فابتدأ الجيش بالعرض والخروج في حادي عشر رمضان، واستمر ذلك إلى يوم الثلاثاء ثاني شوال، فركب السلطانُ في هذا اليوم من قلعة الجبل وتوجّه لقصد الشام ولقاء العَدُوّ ودفعه.

فلما وصل إلى منزلة السعيدية وهي على مسافة يومين من القاهرة وردت مطالعةُ الأمير سيف الدين تنكز نائب السلطنة بالشام قرين مطالعة نائب الرحبة يخبر أن جيش التتار كان قد نازل الرَّحبة في ثاني عشرين شعبان، وأنه في يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر رمضان عاد التتار إلى بلاد الشرق، وما عُلم سبب عودهم وأن النائب بالرحبة ركب في آثارهم، وحمل إلى القلعة ما كانوا قد أعدُّوه من آلات الحصار، وما تركوه من أثقالهم وخيلهم، وكانوا قد حاصروا الرحبة وأشرفوا على

(١) السكلاط: وهو السقلاطون، وهو نوع من الملابس الحريرية الفاخرة ملونة بالألوان القرمزية وغيرها، وهو اسم بلد بالروم تصنع فيه تلك الملابس وتنسب إليه، وكانت تصنع أيضًا ببغداد وتبريز (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ١٨١).

أخذها، فاستمر السلطان على المسير، ووصل إليها في يوم الثلاثاء سادس عشر شوال.

ذكر توجه السلطان إلى الحجاز الشريف

لما وصل السلطان إلى دمشق وتعذّر عليه الغزو، لعود التتار. صرف ذلك إلى الحج وقضاء الفرض الواجب عليه حين أمكنه، فأقام بدمشق أيامًا وجرد عساكره إلى الجهات بالشام صوب حلب وحمص وحصن الأكراد وغيرهما أرغون نائب السلطنة ونزل الأمير سيف الدين أرْغُون نائب السلطنة بدمشق، والصاحب أمين الدين لتحصيل الأموال وتقرير المصالح، وتوجَّه السلطانُ بجماعةٍ من مماليكه وأمرائه، وانتقل ركابه الشريف من دمشق في يوم السبت ثاني ذي القعدة، ووصل إلى الكرك، ومنها إلى المدينة النبوية فزار ثم توجّه إلى مكة شرفها الله تعالى يقضي فرض الحج ومناسكه، وتصدق وعاد إلى المدينة النبوية، وزار رسول الله ﷺ ثانيًا، وعاد على ما نذكره إن شاء الله تعالى في سنة ثلاث عشرة وسبعمائة.

وفي ذي الحجة ورَد البريد من دمشق بإيقاع الحوطَّة على دار الأمير شمس الدين قَراسُنْقُر المنصوري، وحمل ما يوجد بها من خزائنه، فوقعت الحوطةُ عليها وأخذ منها صناديق كانت وصلت مع ولده عز الدين فرج، فوُجِد في أحدها فيما قيل اثنان وثلاثون ألف دينار عينًا، وفي بعضها مائة ألف درهم وخمسون ألف درهم، وعدة سروج مسقطة محلاة بالذهب والفضة وغير ذلك فحمل إلى بيت المال.

وفي هذه السنة توفي الشيخ تاج الدين عبد الرحيم بن تقي الدين عبد الوهاب بن الفضل بن يحيىٰ بن السنهوري أحد النظار بالديار المصرية ـ كان ـ وكانت وفاته بمصر في سابع عشر ربيع الآخر، وكان من الأمراء الأخيار، والكتاب المشهورين، الذين يَرجعُ الكتَّاب إلى قولهم، وتَنقَّل من المباشرات في عمره إلى أن انتهى إلى نظر النظار، وعين للوزارة مِرارًا فكَرِهَها، وكان الوزراء يرجعون إلى قوله، ولا يخرجون عن رأيه في جليل الأمر ولا حقيره، ثم عُطّل قبل وفاته عن المباشرة، وتجاوز المائة سنة أخبرني والدي رحمه الله غير مَرّة أنه أسن منه بخمس عشرة سنة، وكان مولد والدي في سنة ثماني عشرة وستمائة فعلى هذا يكون عمره مائة سنة وتسع سنين تقريبًا رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي شهابُ الدين غازي بن أحمد بن الواسطي[١] ناظر حلب بها في ثامن عشر ربيع الآخر، وكان يتنقل في المناصب الجليلة، ولي نظر الدواوين بالديار المصرية، ونظر الصحبة[٢]، ونظر دمشق وحلب وطرابلس، وكَتَب بديوان الإنشاء مدة رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي تاج الدين أحمد ابن القاضي عماد الدين محمد بن هبة الله الشيرازي الدمشقي[٣] ببُسْتانه بالمزة في رابع عشر رجب، ودفن بقاسيون رحمه الله وكان من أعيان أهل دمشق، وولي نظر الدواوين بها وغير ذلك.

وتوفي الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين داود ابن الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب[٤] بالقاهرة بعد العصر من يوم الاثنين ثاني عشر رجب.

وتوفيت زوجته وهي ابنة عمة الملك المغيث ابن الملك المعظم وقت عشاء الآخرة، وخرجت جنازتهما جميعًا في يوم الاثنين، وكان قد حج وزار البيت المقدس، وتوجه إلى دمشق ثم عاد إلى القاهرة، فأقام نحو خمسة أيام ومات رحمه الله تعالى وكان من خيار المسلمين محترمًا مبجلًا معظمًا في صدور الناس، متواضعًا في نفسه، له فضيلة تامة، وروي الحديث، ومولده في ليلة السبت عاشر جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين وستمائة بقلعة الكرك.

وتوفي القاضي نور الدين أحمد ابن الشيخ شهاب الدين عبد الرحيم بن عز الدين بن عبد الله بن رواحة الحموي الأنصاري كان رأس كتاب الدرج بطرابلس، فلما هرب الأمير جمال الدين الأفرم في هذه السنة استصحبه معه، ثم رجع من البرية ووصل إلى طرابلس ومرض، فلما وصل الأمير سيف الدين تُمر الساقي إلى نيابة طرابلس عَزَله، فتوجه إلى حماة فمات بها في سادس عشر شعبان رحمه الله تعالى وكان رجلًا صالحًا جيدًا أمينًا طاهر القلم، رافقتهُ مدةً في السفر والحضر، فلم أر منه إلا خيرًا وعفةً وأمانةً ونزاهة رحمه الله تعالى.

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٢٩٤.

(٢) نظر الصحبة: هي من الوظائف الديوانية بالحضرة السلطانية أصحاب التواقيع، وموضوعها أن صاحبها يتحدث مع الوزير في كل ما يتحدث ويشاركه في الكتابة في كل ما يكتب فيه ويوقع في كل ما يكتب فيه الوزير (صبح الأعشى ١١/ ٣٢٤).

(٣) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٣٠، السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٢٠.

(٤) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٤، شذرات الذهب ٦/ ٣١، البداية والنهاية ١٤/ ٢٦٨.

وتوفي في يوم الاثنين خامس عشرين شعبان بالقاهرة شرف الدين محمد بن خليل المقدسي[١] الكاتب المنشىء، كان كاتبًا فاضلًا متمكنًا من صناعة الإنشاء، حسن النظم جيّد النثر، لكنه كان كثير الهجاء ـ سامحه الله تعالى وإيانا.

وتوفي الأمير سيف الدين قُطلوبك الشّيخي المنصوري[٢] أحد الأمراء بدمشق في خامس عشر شهر ربيع الآخر، وهذه النسبة إلى الشيخ عمر ابن الشيخ جاه.

وتوفي الأمير علاء الدين مُغْلَطَاي البهائي[٣] أحد الأمراء بطرابلس في حادي عشر شهر ربيع الآخر، وكان قد رسم بالقبض عليه، فوصل البريد بذلك بعد وفاته بيوم أو يومين رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة ثلاث عشرة وسبعمائة والسلطان الملك الناصر ـ خلّد الله سلطانه ـ ببرية الحجاز عائدًا

ففي يوم السبت مستهل محرم وصل إلى دمشق الأمير سيف الدين قجليس السلاح دار الناصري، وبَشَّر بعافية السلطانِ وعوده من الحجاز بعد أن قضى فريضة الله في الحج، وأَخْبَر أنه فارقه من المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ ثم وصل البريد بعد ذلك وأخبر أن السلطان وصل إلى الكرك في ثاني محرم، ثم وصل السلطان إلى دمشق في يوم الثلاثاء حادي عشر المحرم ونزل بالقصر الأبلق، وصلى الجمعة في رابع عشر بجامع دمشق، وكذلك الجمعة التي تليها ولعب بالكرة بالميدان الأخضر في يوم السبت خامس عشر المحرم، وفوَّض نظر الدواوين بالشام لشمس الدين عبد الله بن غبريال، في سادس عشر الشهر، وكان قبل ذلك يَلي نظر البيوت السلطانية، وتوجّه في خدمة السلطان إلى الحجاز فرأى منه نهضة وكفاية فنقله إلى نظر دمشق، وولي فخر الدين أياز الشمسي[٤] شدّ الدواوين بالشام نقله من شدّ مصر إليها، عوضًا عن الأمير بدر الدين القرماني، وولي القرماني نيابة الرحبة عوضًا عن الأمير بدر الدين موسى الأزكشي[٥]، ثم توجه السلطان إلى الديار المصرية، وكان استقلال ركابه من دمشق في بكرة نهار الخميس سابع

---

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٣٢، الدرر الكامنة ٥/ ٣٩، فوات الوفيات ٤/ ٤٢، الوافي بالوفيات ٥/ ٩٣، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٣.

(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٤، البداية والنهاية ١٤/ ٦٨.

(٣) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٤.

(٤) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٤٢٠.

(٥) توفي سنة ٧١٥ هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٣٨٤).

عشرين المحرم، وكان وصوله إلى قلعة الجبل في الساعة الثالثة من يوم الجمعة ثاني صفر.

وفي هذه السنة كملت عمارة الميدان الذي أمر السلطان بإنشائه تحت قلعة الجبل من الجانب الغربي مما يلي سوق الخيل، وكان الشروع في عمارته في جمادى الأولى سنة ثنتي عشرة وسبعمائة، وأدخل فيه بعض السور ما يلي باب القرافة إلى جهة القلعة، وجعل الحائط الدائر على هذا الميدان من جهات ثلاث سورًا، وردم قرار الميدان بالطين الأبليز، وأمُر السلطان بسد باب سارية، وفَتْحِ باب إلى جانبه، ثم أمر في هذه السنة بإدارة السواقي على البئر التي كانت عمرت في الدولة الأشرفية الصالحية خارج باب القنطرة بمصر بِشادّ الأمير عز الدين الأفرم، فركب على فوهتها أربع مُحال وعُمل لها أربع مجاري على السور يجري الماء فيها إلى حُفْرَة ثانية على شكل بئر في أثناء الطريق، يتحصل الماء الجاري من البئر الأولى فيها. ورُكّب عليها ثلاث مُحال، ويجري الماء إلى بئر ثالثة تحت القلعة، ولم يزل ينقله إلى أن جرى الماء العذبُ من بحر النيل أعلى إلى قلعة الجبل وقسم على أماكن وقاعات بها.

ذكر تفويض نيابة دار العدل وشد الأوقاف للأمير بدر الدين محمد بن الوزيري

وفي هذه السنة في يوم الخميس السادس عشر من شهر ربيع الأول فَوَّض السلطان نيابة دار العدل الشريفة وشَدّ الأوقاف بالديار المصرية للأمير بدر الدين محمد بن الوزيري، أحد الحجاب، وكانت وظيفة نيابة دار العدل قد تَوفّرت منذ نقل الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار منها إلى نيابة السلطنة، وخلع عليه، وبسطت يده فأساء التصرف، ووسع الطلب، وضَيّق على الناس، وتعرض إلى العُدُول والأئمة وغيرهم، فلم تطل أيام ولايته، فإن السلطان اتصل به لسوء فعله فعزله، وأقره على وظيفة دار الحجبة خاصة على عادته الأولى، ولم تكن خرجت عنه، ثم أخرجه السلطان إلى الشام بعد ذلك فمات بدمشق.

ذكر عزل الصاحب أمين الدين عن الوزارة وترتيب الأمير بدر الدين بن التركماني في الشد

وفي هذه السنة في مستهل جمادى الآخرة عزل الصاحب أمين عبد الله من الوزارة، وصُودر وحُمل من أمواله ثلاثمائة ألف درهم، ثم أفْرِجَ عنه. ورُتّب في شادّ

الدواوين الأمير بدر الدين محمد ابن الأمير فخر الدين التركماني، وكان قبل ذلك يلي الأعمال الجبرية وألزم الصاحب أمين الدين داره إلى التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة أربع عشرة وسبعمائة، فَطُلِبَ في هذا اليوم ورُتّب ناظرَ النّظار والصحبةِ عَوضًا عن الصاحب ضياء الدين أبي بكر النشائي، ونقل النشائي إلى نظر الخزانة عن سعد الدين الأقفاصي بحكم وفاته.

ذكر روك[1] الإقطاعات بالشام

وفي هذه السنة رسم بكشف البلاد الشامية والقرى والضياع والنواحي والجهات بدمشق وأعمالها، وحِمْص وبَعَلْبَك وغَزَّة، والمملكة الصفدية، وانتصب لذلك بدمشق وأعمالها القاضي معينُ الدين بن هبة الله بن حشيش[2] ناظر الجيوش بالشام، فكان يَتَلقّى ما يرد من الكشوف ويحررها، وانتصب معه جماعة من الكُتّاب، ثم وصل إلى الأبواب السلطانية في شهر رمضان بعد إنجاز العمل بدمشق، ووصل القاضي شمس الدين عبد الله ناظر الشام، ورسم للأمير علم الدين سنجر الجاولي نائب السلطنة بغزّة أن يَحْضُر ذلك، فوصل أيضًا فانتصب مباشرو الجيوش بالديار المصرية: القاضي فخر الدين، وقطب الدين ابن شيخ السلامية، وجماعة من الكتاب لتحرير الرّوْك وقسمةِ الإقطاعات، وكان جلوسهم لهذا العمل داخل باب القلعة والرحبة في مكان أفرد لجلوسهم. فلما انتهى العمل حُوّلَتْ سنةُ ثنتي عشرة وسبعمائة الخراجية إلى سنة ثلاث عشرة بحكم دَوران السنين وكتبت الأمثلة بالإقطاعات، ثم رسم أن يستمر القاضي فخر الدين محمد في نظر الجيوش بمفرده على عادته، ورُتّب القاضي معين الدين هبة الله بن حشيش صاحب ديوان الجيوش، وأعيد القاضي قطب الدين ابن شيخ السلامية إلى نظر جيش الشام على عادته الأولى، وذلك في ذي الحجة، وخلع على كل

---

(١) الروك: الروك في الاصطلاح التاريخي معناه مسح أرض الزراعة في بلد من البلدان لتقدير الخراج المستحق عليها لبيت المال، وقد مسحت الأراضي المصرية لأول مرّة على يد ابن رفاعة عامل الخراج بمصر في خلافة الوليد وأخيه سليمان بن عبد الملك الأموي حوالي سنة ٩٧ هـ/ ٧١٥ م. والمرة الثانية كانت على يد ابن الحجاب في خلافة هشام بن عبد الملك في سنة ١١٠ هـ/ ٧٢٩ م. والمرة الثالثة كانت على يد ابن مدبّر في خلافة المعتز بالله العباسي حوالي سنة ٢٥٣ هـ/ ٨٦٧ م. ثم كان في عصر المماليك الروك الذي أجراه السلطان حسام الدين لاجين وتلاه الروك الناصري (انظر: خطط المقريزي ١/ ٨٧ ـ ٨٨، والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ١٦٥).

(٢) توفي سنة ٧٢٩ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٩٢، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨٠، السلوك للمقريزي ٢/ ٢: ٣١٥، الدرر الكامنة ٥/ ١٧٧).

منهم. وتوجه قطب الدين إلى دمشق وصحبته الأمثلة، فكان وصوله إليها في سادس عشرين ذي الحجة وقُرِنَت الأمثلة، وحصل في تفريقها اختلاف واضطراب، فاعتذر قطبُ الدين أنَّ الرَّوْكَ إنما رتَّبَهُ معين الدين فاقتضى ذلك توجهه إلى دمشق، فتوجه في سنة أربع عشرة وسبعمائة على خيل البريد، وفرقت الأمثلة بحضوره على ما استقر بالأبواب السلطانية، ثم عاد إلى الديار المصرية.

ذكر تجريد جماعة من الأمراء إلى مكة

وفي هذه السنة جرد السلطان جماعة من الأمراء إلى مكة شرفها الله تعالى وهم سيف الدين طُقصُبا الناصري وهو المقدم على الجيش، وسيف الدين يلوا، وصارم الدين صارُوجا الحسامي، وعلاء الدين أيْدغدِي الخَوارزمي، وتوجَّهوا في شوال في جملة الركب، وجُرِّدَ من دمشق الأمير سيف الدين بَلبان التتري، وسبب ذلك ما اتصل بالسلطان من شكوى المجاورين والحجاج من أميري مكة حُمَيْضَة ورُميثة ولدي الشريف أبي نمي، فَنَدب السلطانُ هذا الجيش وجهَّز أخاهما الأمير أبا الغَيْث بن أبي نُمَيّ، فلما وصل العسكر إلى مكة فارقها حميضة وأقام الجيشُ بمكة بعد عود الحاج نحو شهرين فقصّر أبو الغيث في حقهم، وضاق منهم ثم كتب خطه باستغنائه عنهم فعادوا، وكان وصولهم إلى الأبواب السلطانية في أواخر شهر ربيع الأول سنة أربع عشرة وسبعمائة، ولما علم حُميضةُ بمفارقة الجيش مكة عاد إليها بجمع، وقاتل أخاه أبا الغيث، ففارق أبو الغيث مكة والتحق بأخواله من هذيل بوادي نخلة وأرسل حَميضةُ إلى السلطان رسولًا وخيلًا للتقدمة، فاعتقل السلطانُ رسوله.

وفي يوم الاثنين لست بَقيْن من شوّال أمر السلطان بالقبض على الأمير عز الدين أيبك الرومي، واعتقاله فاعتقل.

وفيها في يوم السبت سادس عشرين ذي الحجة وصل إلى الأبواب السلطانية بقلعة الجبل رسل الملك أزبك الجالس على كرسي المملكة بصراي وما معها وهي مملكة بَيْت بَركة، ومعهم رسل الأشكري على العادة، فأنزل رسلُ الملك أزبك بمناظر الكَبش، وشملهم الإحسانُ السلطاني.

وفيها في ذي الحجة تسحب جماعة من الجند البطالين يقال إن عدتهم نحو مائتي فارس، وتوجهوا إلى بلاد المغرب، وتقدم عليهم ابن المحسني فرسم السلطان للأمير حسام الدين القليجي أن يتوجه خلفهم، فسار في آثارهم وجَدّ السيرَ فلم يدرك

منهم إلا رجلًا واحدًا كان قد ضلّ عن الطريق فأحضره في المحرم سنة أربع عشرة فاعتقل.

وفي هذه السنة في ذي الحجة أنشأ السلطان بقلعة الجبل القصر الأبلق، وهو مطل على الميدان الجديد وسوق الخيل، ولما كملت عمارته عمل السلطان وليمةً عظيمة، وجلس فيه وأحضر الأمراء وأنعم عليهم بمبلغ جملته ألف ألف درهم وأربعمائة ألف درهم وذلك في يوم الاثنين سابع عشر شهر رجب سنة أربع عشرة وسبعمائة.

وفي هذه السنة رسم السلطان أن يساق الماء من عين بلد الخليل إلى القدس الشريف، فتولى ذلك الأمير علم الدين سَنْجر الجاولي، ووصل الماء إلى القدس، وارتفق الناس به.

وفي سنة ثلاث عشرة أيضًا توفي القاضي عماد الدين أبو الحسن علي ابن القاضي فخر الدين بن عبد العزيز ابن قاضي القضاة عماد الدين عبد الرحيم بن السكري[١]، وكانت وفاته بالمدرسة المعروفة بمنازل العزّ في سحر يوم الجمعة سادس عشرين صفر ودفن بالقرافة، ومولده في الخامس والعشرين من محرم سنة ثمان وثلاثين وستمائة، وهو الذي كان قد توجّه في الرسالة إلى غازان، وكان يلي تدريس مدرسة منازل العزّ هو وأبوه وجده، وتدريس المشهد الحسيني بالقاهرة، وخَطَابَة الجامع الحاكمي، فَولِي ولدهُ القاضي تاج الدين التدريس بمنازل العز والخطابة وَوَلي تدريس المشهد الحسيني صدر الدين محمد بن المُرحَّل.

وتوفي الخطيبُ قطب الدين يوسف ابن الخطيب أصيل الدين محمد بن إبراهيم بن عمر بن علي العُوفي الأسعردي[٢]، خطيبُ الجامع الصالحي خارج باب زويلة في ليلة السبت العشرين من شهر رجب فجأة ودفن بسفح المقطم وولي الخطابة بعده الشيخ زين الدين عمرو بن مؤنس الكتاني[٣] الشافعي.

وتوفي الشيخ تاج الدين محمد بن علي بن همام بن راجي الله بن أبي الفتوح ناصر بن داود بن عبد الله بن أبي الحسن العسقلاني الشافعي[٤] الإمام بالجامع

---

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٣٢، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٥، السلوك للمقريزي ٤/ ١: ١٣٣.

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٥/ ٢٤٣. (٣) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١١٧.

(٤) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٥، الدرر الكامنة ٢/ ٣٨٣.

الصالحي، وكانت وفاته بمسكنه بالجامع في ليلة السبت الحادي عشر من شعبان رحمه الله تعالى ومولده في الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة سبع وأربعين وستمائة، وولي الإمامة بعده بالجامع وَلَدُه القاضي تقي الدين محمد.

وتوفي عز الدين بن عبد العزيز بن منصور الكولمي التاجر الكارمي بثغر الإسكندرية في شهر رمضان، وكان والده من يهود حلب يُعْرف بالحموي، وأسلم والده في أول الدولة الظاهرية هو وأخواه وتوفي أول الدولة المنصورية فجمع عز الدين هذا ما يملكه وتوجّه إلى بغداد ويقال إن جملة ما توجه خمسة عشر ألف درهم أو دونها، وانحدر من بغداد إلى البصرة، ثم توجه إلى كبش وركب منها في الزو إلى بلاد الصين فدخل الصين وخرج منه خمس مرات ودخل إلى الهند، وكان يحكي عجائب كثيرة يذكر أنه شاهدها، لا يقبل بعضها العقل، والقدوة صالحة أغضينا عن ذكرها، وما كان يُتَّهم بكذب، ثم عاد من الهند إلى عدن من بلاد اليمن في الزَّو الهندي، وأخذ صاحبُ اليمن جملةً من ماله، وما أحضر من تحف الصين، والصيني زيادة على ما جرتْ عادتهم بأخذه، ثم وصل إلى الديار المصرية أرى في سنة أربع وسبعمائة ومعه ما قيمته أربعمائة ألف دينار عينًا، ولما مات خَلَّفَ تركة جليلة، وكان كثير الصدقة والمعروف والبر رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير جمال الدين آقش الكنجي النائب بحصن مصياف به يوم الأحد ثامن عشر ذي القعدة، وكان قد بلغ تسعين سنة، وولي نيابة الحصن سنين كثيرة، وكان أهل الحصن الفداوية[1] يحبونه ويجيبون إلى ما أمرهم به من بذل نفوسهم وهو يكرمهم ويبرهم ويحسن إليهم رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة أربع عشرة وسبعمائة

في أول هذه السنة ـ في يوم الأربعاء مستهل محرم الموافق الحادي والعشرين من برمودة القبطي ـ تغيَّر نهر النيل بمصر تغيُّرًا ظاهرًا مائلًا إلى الخضرة، وتغير طعمُه

(١) الفداوية: هم طائفة من الإسماعيلية المنتسبين إلى إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وهم فرقة من الشيعة معتقدهم أن الإمامة بعد النبيّ ﷺ انتقلت بالنص إلى علي بن أبي طالب ثم إلى ابنه الحسن، ثم إلى أخيه الحسين، ثم تنقلت في بني الحسين إلى جعفر الصادق، ثم هم يدعون انتقال الإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل، ثم تنقلت في بنيه. وسمّوا الفداوية لأنهم يفادون بالمال على من يقتلونه، ويسمّون في بلاد العجم بالباطنية لأنهم يبطنون مذهبهم ويخفونه، وهم يسمّون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية. (صبح الأعشى ١/ ١٥٤ ـ ١٥٥).

وريحه حتى شرب كثير من الناس من الآبار العَذْبَة والصهاريج التي يخزن بها الماء والعادَة أن يكون ماء النيل في هذا الفصل في غاية الصفاء، وما عُلِمَ سبب تَغَيُّره، ثم عاد إلى صَفْوِه بعد ذلك.

ذكر واقعة الشيخ نور الدين علي البكري(١) وغضب السلطان عليه وخلاصه

كان سبب ذلك أن الشيخ نور الدين المذكور انتصب بمصر للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حسبةً من غير ولاية سلطانية ولا إذْن حُكْمي، ورأى أن ذلك قد تَعَيَّن عليه، وهو من أعيان الفضلاء وأكابر المفيدين، واجتمع معه جماعة من البكْريِّين وغيرهم يأتمرون بأمره، فاتصل به في شهر المحرم من السنة أن النصارى بمصر اجتمعوا في كنيسة من كنائسهم لعيد لهم، وأنهم استعاروا من الجامع العمري بمصر قناديل وبَصَّاقات وأطْبَاق وأشعلوها في الكنيسة، فما صبر على ذلك، وجاء إلى الكنيسة ودخلها بمن معه وأخذ ما استعاروه من قناديل الجامع وماعُونِه، وأعاد ذلك إلى الجامع، وأحضر مُباشرَ الجامع وأنكر عليه إقدامه على عارية ذلك للنصارى، فاعتذر أن الخطيب هو الذي أمر بذلك، فطلبه الشيخ وأنكر عليه، وكلّمه بكلام غليظ فانضم للخطيب القاضي فخر الدين ناظر الجيش، وأنهى إلى السلطان ما فعل الشيخُ بالخطيب، وعرّفه أن الخطيب رَجَلٌ صالح من بيت كبير، وأن مثله لا يعامل بمثل هذه المعاملة، وأنهى إلى السلطان أن الشيخ نور الدين فيه جُرْأة عظيمة واطِّرَاح للدولة وغضٌّ منها، إلى غير ذلك من الإغراء، وطلع الشيخ نور الدين إلى قلعة الجبل في يوم الجمعة الرابع والعشرين من شهر محرم، واجتمع بنائب السلطنة وبات عنده ليلة السبت، واجتمع أيضًا بالأمير رُكْن الدين بيبَرْس الأحمدي أمير جَانْدار وقصد الاجتماع بالسلطان وكان طُلب في بكرة نهار الخميس الثالث والعشرين من محرم إلى مجلس السلطان، وأحضر قضاة القضاة والعلماء، فحصل للشيخ قُوّة نَفَس، وكلّم السلطان بما لا يَليق أن يكلّم به الملوكُ عُرْفًا، فكان مما قال له: أنتَ ولّيْتَ القبط والمَسالمة وحَكَّمتهُم في دولتك وأموال المسلمين، وأضعتَ أموال بيت المال في العمائر والإطلاقات التي لا تجوز، إلى غير ذلك من

---

(١) نور الدين علي البكري: هو علي بن يعقوب بن جبريل البكري، نور الدين، توفي سنة ٧٢٤ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٦٤، طبقات الشافعية ٦/ ٢٤٢، الدرر الكامنة ٣/ ٢١٤، البداية والنهاية ١٤/ ١٤٤).

الكلام الخشن الذي لا تَصْبِرُ الملوكُ على مثله، فغضب السلطانُ لذلك غضبًا شديدًا، وانزعج له انزعاجًا عظيمًا، وظهر منه اضطرابٌ وألفاظٌ دلّت على أنه نُقِلَ إليه عن الشيخ ما أوجب انحماله، فكان فيما قال السلطان - فيما بلغني - إما أنا وإما هذا؟ وقال أما أنا ما أخذت الملكَ بخلافة وإنما أخذته بسيفي إلى غير ذلك من الكلام الدال على شدة الحرج، وقال السلطان للقضاة، ما الذي يَلْزَمُ هذا عَلى تجرئه على ما قال؟ فقال قاضي القضاة زين الدين المالكي: هذا لا يلزمه عندي شيء. وقال قاضي القضاة بدر الدين الشافعي يلزمه التعزير بحسب رأي الإمام. فقال الشيخ لقاضي القضاة بدر الدين كيف تقولُ هذا القول؟ وقد صَحّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الجهاد كلمةُ صِدق عند سلطان جائر»[1] ورفع بها صوته، وأشار بيده إلى جهة السلطَان، بها صوته، وأشار بيده إلى جهة السلطان، فعند ذلك اشتد غضب السلطان، ورسم بقطع لسانه، وما تجاسر أحد أن يشفع فيه إلا الأمير سيف الدين طُوغاي، فإنه بالغ في أمره حتى نزل وانفصل المجلس، ورسم عليه، ثم طُلِبَ مَرّة ثانية قبل العصر من اليوم إلى مجلس السلطان، فكان المجلس فيما بلغني أشد من الأول، حتى هَمَّ السلطان بقتله فتقدم إليه الأمير سيف الدين طُغاي أيضًا وقال: والله لأقتل السلطان هذا أبدًا ويكون الصدِّيق جدّه خَصْمَ السلطان عند الله يوم القيامة. فاستكان السلطانُ لمَّا سَمع هذا الكلام وأطلقه. وهذا يدل على حِلْم السلطان وخَيْره، ولولا ذلك لما أبقاه لما خاطبه به. وكان القاضي كريمُ الدين وكيل الخاص الشريف أيضًا قد اعْتنَى به عند السلطان موافقة للأمير سيف الدين طُغَاي، وخرج هو والشيخ من مجلس السلطان بعد العصر من اليوم المذكور، فشرع بعض الجماعة يقول للشيخ وهو إلى جانب القاضي كريم الدين: ما فَعَلَه القاضي كريم الدين في أمره من الاعتناء به وتسكين حرج السلطان فقال: نعم هو كان من خيار الظلمة، وكريم الدين يسمع ذلك فما أجابه عنه بشيء، واجتمع تحت القلعة خلقٌ كثير من العوام حتى امتلأت بهم تلك الجهة، وهم يظهرون الفرح بسلامة الشيخ نور الدين، فأشار كريمُ الدين ألا يتوجّه الشيخ إلى مصر بهذا الجمع خشية أن يشاهد السلطان ذلك فيَخرج بسببه. فصرفهم وتوجّه من جهة أخرى، وانقطع

---

(١) وروي الحديث أيضًا بلفظ: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر» أخرجه أبو داود في الملاحم باب ١٧، والترمذي في الفتن باب ١٣، والنسائي في البيعة باب ٣٧، وابن ماجة في الفتن باب ٢٠، وأحمد في المسند ٣/١٩، ٦١، ٤/٣١٤، ٣١٥، ٥/٢٥١، ٢٥٦.

بمنزله، ولم ينقطع الناسُ وبعضُ الأمراء عن التردد إليه وسلامتهُ من هذه الواقعة دَلَّت على أن قيامَه كان لله تعالى.

وفيها في صفر أمر السلطان بالقبض على الأمير سيف الدين بَلبان الشمسي أمير الحاج واعتقاله، لسوء اعتماده على الحجَّاج وكان ساق سوقًا مزعجًا، ووصل إلى القاهرة بالمحمل قبل الوقت المعتاد بأيام فهلك كثير من المشاة بسبب ذلك فرسم السلطان أن يتوجه جماعة على الهجن بالماء والزاد بسبب من انقطع والله أعلم.

وفي هذه السنة أمر السلطان بمسامحة البلاد الشامية بحملة كثيرة من البواقي لاستقبال سنة ثمان وتسعين وستمائة وإلى آخر ثلاث عشرة وسبعمائة وقرىء كتاب المسامحة بجامع دمشق في يوم الجمعة عاشر المحرم بحضور نائب السلطنة بدمشق، ثم قرىء في يوم الجمعة التي تليها بالجامع بدمشق مثال بإطلاق ضمان السجون وأن لا يؤخذ ممن يسجن أكثر من نصف درهم يكون أجرة السجانين، وكان قبل ذلك يؤخذ من المسجون ستةُ دراهم فما دونها، وتضمن المثال أيضًا إعفاء الفلاحين من السُّخَر ومُقرّر القصب، وكان جملةً، فتضاعفت الأدعيةُ بسبب ذلك للسلطان، ثم قرىء مثال ثالث في مستهل صفر بإطلاق ضمان القَّواسِين ونقابة الشَّد والولاية.

وفي شهر ربيع الأول وصلت الأخبارُ بإغارة طائفة من العسكر الحلبي على دُنَيْسِر، وقتل جماعة بها وأسر جماعة، ووصل بعض الأسرى إلى دمشق في شهر ربيع الآخر.

ذكر وفاة الأمير سيف الدين سَوْدي[1] نائب السلطنة بحلب وتفويض نيابة السلطنة بها للأمير علاء الدين الطنبغا الحاجب

وفي يوم السبت الثاني والعشرين من شهر رجب وردَ الخبر إلى الأبواب السلطانية بوفاة الأمير سيف الدين سودي الجمدار نائب السلطنة بالمملكة الحلبية، وكانت وفاته بعد العصر من يوم السبت منتصف الشهر، فَفوَّض السلطانُ للأمير علاء الدين الطنبُغا الصالحي أحد الحجاب نيابة السلطنة بها في هذا اليوم، وتوجَّه على خيل البريد في يوم الأحد الثالث والعشرين من الشهر.

(١) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/١: ١٤٠، الدرر الكامنة ٢/٧٩، البداية والنهاية ١٤/ ٧١، النجوم الزاهرة ٩/٢٢٩.

وورد الخبر أيضًا بوفاة بهاء الدين أبي سوادة[١] كاتب الدرج بحلب، وكانت وفاته في ضحى منتصف شهر رجب، فَرُتّب وظيفته في القاضي عمادُ الدين إسماعيل ابن القاضي المرحوم شرف الدين بن القصيراني[٢]، وتوجه إلى حَلَب بعد أن سأل واستعفى من الوظيفة، ثم لما عزل سعى في الاستمرار فلم يُجَبْ.

ذكر عزل الأمير سيف الدين بلبان طرناه نائب السلطنة بالمملكة الصفدية، والقبض عليه، وتفويض النيابة للأمير سيف الدين بَلبان البَدْري

وفي شوال من هذه السنة تكررت مطالعات الأمير سيف الدين طرناه نائب السلطنة بالمملكة الصفدية يسأل الإقالة، ثم أُنهِيَ عنه أنه قال والله لئن لم يُقلني السلطان من النيابة بصفد حَلَقْت رأسي ولحيتي وتركت الإمارة. وكان سبب ذلك أن المملكة رجع أكثرها إلى دمشق عند الرَّوْك، وصارت مراسيم السلطنة بدمشق والمشد ترد إلى صَفد، فضاق من ذلك. ضيقًا كثيرًا واستعفى، فبرز المرسوم بعزله، وأن يتوجّه إلى دمشق من جملة الأمراء على إقطاع الأمير سيف الدين بلَبان البدري، وأن يتوجّه البدري إلى نيابة السلطنة بصفد، فتوجَّه إلى دمشق، وكان وصوله في يوم الخميس حادي عشرين ذي القعدة، فقبض عليه حال وصوله واعتقل، ثم نقل إلى قلعة الجبل فاعتقل بها، وتوجه الأمير سيف الدين بَلَبان البدري من دمشق إلى صفد في يوم الجمعة ثاني عشرين ذي القعدة.

وفي يوم الجمعة سلخ ذي القعدة ثار بالقاهرة رجلُ اسمه علي بن السابق، من سكان الحُسَيْنية، فركب فرسًا، وجرّد سيفًا، وشقّ المدينة وصار يضرب بالسيف من يظفر به من اليهود والنصارى، فَجَرح ثلاثةً، منهم مَن قطع يده، ومنهم من ضربه في وجهه، ثم قُبضَ عليه خارج باب زويلة مما يلي جهة القلعة، وسئل عن سبب فعله فقال: قمت لأنصر دين الله وأقتل أهل الذمة فأمر السلطان بقتله؟ فَضُربَت عنُقه.

---

(١) بهاء الدين أبي سوادة: هو بهاء الدين علي بن أبي سوادة الحلبي (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٨).

(٢) توفي سنة ٧٣٦ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١١٣، الدرر الكامنة ١/ ٤٠٤، النجوم الزاهرة ٩/ ٣١١).

وفي يوم الجمعة تاسع عشرين شهر رجب قتل بدمشق موسى بن سمعان النصراني الكركي، كاتب الأمير سيف الدين قُطلوبك الجَاشَنْكير لتجرئه على رسول الله ﷺ، وكان قد استمال رجلًا من ضعفة العقول والقلوب من المسلمين ونَصّرَه وكَوَاه على يده مثال صَلِيب، فحكم قاضي القضاة جمال الدين المالكي بقتله فقتل.

وفي ذي الحجة من هذه السنة تسحّب جماعة من الجند البطالين[1] إلى بلاد الغرب، لم نحرر عُدَّتَهم.

وفيه منها جردت العساكر إلى ملطية، وكان من فتحها ما نذكره إن شاء الله تعالى في سنة خمس عشرة وسبعمائة.

وفي هذه السنة في ليلة الثلاثاء سادس عشر صفر توفي الشيخ الصالح شرف الدين أبو الهدى أحمد ابن الشيخ الإمام قطب الدين أبي بكر محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن الحسن بن القسطلاني المالكي[2] وكانت وفاته بزاويته بالكؤكؤة من القاهرة، ودفن من الغد بالقرافة، ومولده بمكة في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وستمائة رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ الصالح المُعَمَّر محمد حيَّاك الله بسلام بن محمود بن الحسين بن الحسن الموصلي[3] بزاويته بسويقة الريش ظاهر القاهرة في يوم الخميس تاسع شهر ربيع الأول ودفن بكرة نهار الجمعة بالقرافة بقرب مدفن الشيخ محمد بن أبي حمزة، وكان من الصلحاء الأخيار المعمّرين، عمّر نحو مائة وستين سنة فإنه سئل عن مولده فذكر أنه وصل إلى القاهرة في أوائل الدولة المعزيَّة وله يومئذٍ خميس وثمانون سنة، وكان مع ذلك حاضر الحس جيد القوة، وله شِعْر حسن.

وفيها توفي الأمير عماد الدين إسماعيل ابن الملك المغيث شهاب الدين عبد العزيز ابن الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي

---

(١) البطّال أو الطرخان: هو اصطلاح مملوكي يقصد به الذي يعيش من إقطاعه فقط، وكانت الطرخانية تكتب للأمراء تارة وللأجناد أخرى، وأكثر ما تكتب لمن كبرت سنه وضعفت قدرته وعجز عن الخدمة السلطانية، وقد جرت العادة أن يسمى ما يكتب فيها مراسيم يعدد فيها من مزاياهم واستحقاقهم (انظر: صبح الأعشى ١٣/٤٨ ـ ٥١، ٥٢، ونزهة النفوس ١/٤٩، ١٦٢).

(٢) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ١/٢٥٩، والعقد الثمين ٣/١٤٦.

(٣) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/٣٥، والنجوم الزاهرة ٩/٢٢٧.

أحمد بن أيوب[١] وكانت وفاته بحماة في ثامن عشر شهر ربيع الآخر، سَمع الحديث من خطيب مَرْدًا وغيره، وحدَّث رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير فخر الدين أقْجبا الظاهري[٢]، أحد الأمراء بدمشق، في ليلة الاثنين العشرين من شهر ربيع الآخر، ودفن بقاسيون، وكان رجلًا جيّدًا ملازمًا للصلوات الخمس بجامع دمشق، ثابت العدالة قديم الهجرة في الإمرة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين مِلْكتَمُر الناصري المعروف بالدم الأسود[٣] أحد الأمراء بدمشق بها في يوم السبت ثالث عشر جمادى الآخرة وكان يُنسبُ إليه ظلم فاحش في جهات إقطاعه.

وتوفي القاضي شرف الدين يعقوب بن مجد الدين مَظفر بن شرف الدين أحمد مُزْهِر[٤] بحلب وهو ناظرها في الثامن والعشرين من شعبان، ومولده في سنة ثمان وعشرين وستمائة وتَنَقّلَ في الأنظار الكبار فلم تبق مملكة بالشام إلا باشرها وعاد إليها، رافقته بطرابلُس مدة، وكان من أرباب المروءات، إذا سئل أجاب، وإذا عُونِد نفر، وكان أجود ما يكون إذا باشر، وإذا عُطّل عن المباشرة أكثَرَ القول في المباشرين والأكابر رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين كهرداش الزرّاف[٥] أحد الأمراء بدمشق في ليلة الاثنين سلخ شعبان رحمه الله تعالى حكى الشيخ شمس الدين الجَزري عنه أنه كان قد حَجَّ في صحبة السلطان في سنة ثنتي عشرة وسبعمائة، فلما وصل إلى المدينة النبويّة عاهد الله تعالى أنه لا يشرب الخمر أبدًا، ولا يرتكب مُحرَّمًا، وعقد التوبة، وحَلَفَ على ذلك، وغلَظ اليمين. فلما عاد إلى دمشق لم يلبث أن نقض التوبة حال وصوله، وفعل ما حلف أنه لا يفعله، فأصابه فالج وبطل نصفه، وعولج بالأدوية فلم ينجح، ومات ولم يصح. قال: وربما كان ركب في بعض الأحيان مع مرضه ـ سامحه الله تعالى وإيانا.

---

(١) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٤١.

(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٨.

(٣) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٩، الدرر الكامنة ٥/ ١٢٨.

(٤) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٣، السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٤١، الدرر الكامنة ٤/ ٤٣٦.

(٥) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٨، السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٤١، الدرر الكامنة ٣/ ٢٦٩.

وتوفي القاضي صدر الدين أحمد ابن القاضي مجد الدين عيسى بن الخشاب، وكيل بيت المال بالديار المصرية، وكانت وفاته بالقاهرة في يوم الاثنين تاسع شعبان رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ العالم علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد خطاب الباجي الشافعي[١] بالقاهرة في يوم الأربعاء سادس ذي القعدة، ودفن من يومه بالقرافة، وكان رجلًا عالمًا فاضلًا يَرجعُ الناسُ إلى فتاويه، ويعتمدون على نقله رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي سعد الدين محمد بن فخر الدين عبد المجيد بن صفي الدين عبد الله الأقفهسي[٢] ناظر الخزانة فُجاءَةً في ليلة الجمعة ثامن عشرين ذي الحجة بعد أن باشر بقلعة الجبل وظيفته إلى آخر نهار الخميس ونزل إلى بيته. فمات رحمه الله تعالى. ونقل الصاحب ضياء الدين النشائي من نظر الدواوين إلى نظر الخزانة في يوم السبت سلخ ذي الحجة.

واستهلت سنة خمس عشرة وسبعمائة

ذكر إرسال العسكر إلى مَلْطيَة صحبة الأمير سيف الدين تنكر وفتحها

كان السلطان في ذي الحجة سنة أربع عشرة قد أمر بتجريد جماعة من الجيوش المنصورة المصرية وهم، الأمير سيف الدين بكتمر الأبو بكري، والأمير سيف الدين قُليّ، والأمير علم الدين سنَجْر الجَمْقدار، والأمير بدر الدين محمد بن الوزيري، والأمير ركن الدين بيبرس الحاجب الناصري، والأمير سيف الدين أركْتَمرُ الجمدار، ومضافيهم، وكتب إلى الشام أن يتوجّه الأمير سيف الدين تَنْكُز بعساكر الشام، ويتقدم على سائر الجيوش، فَنَدب الجيوش الشامية وأمرهم بالخروج، فتوجهت ميسرة العسكر الشامي في السابع والعشرين من ذي الحجة، والميمنة في يوم الجمعة الثامن والعشرين، ووصل العسكر المصري في يوم السبت التاسع والعشرين من الشهر إلى دمشق، وتوجه الأمير سيف الدين تنكُز نائب السلطنة بالشام في يوم الاثنين مستهل محرم من هذه السنة ببقية العسكر، واستصحب معه قاضي القضاة نجم الدين

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٣٤، السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٤١، الدرر الكامنة ٣/ ١٠١.

(٢) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٤٢.

صَصْرَى، وشرف الدين بن فضل الله، وجماعة من الموقعين، وجردت العساكر الصفدية والطرابلسية والحمصية، وصاحب حماة وعسكرها، وركب الأمير سيف الدين تنكُزْ بالكُوسَات والعصائب على عادة الملوك، ووصل إلى حلب في يوم الجمعة ثاني عشر محرم، وترجّلَ في خدمته الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماة فمن دونه من سائر النواب والأمراء مقدمي الجيوش وغيرهم، ورحل منها في يوم السبت ثالث عشر، فلما وصل عينتاب أقام قاضي القضاة نجم الدين بها، وتوجَّهت العساكر إلى ملطية في بكرة الأحد الحادي والعشرين من المحرم، وتقدمهم الجاليش[١] وهو الأمير سيف الدين أركتمر ومن معه، وحَاصَر مَلَطْية، فتحصن أهلها وضايقها ثلاثة أيام. فلما وصلت العساكر صحبة الأمير سيف الدين تُنْكُز خرج مُتَوَلي ملطية وقاضيها وسألوا الأمان فأمنوا وفي خلال ذلك فتح الأمير سيف الدين أركتمر البلد مما يليه عنوة فسير إليه الأمير سيف الدين تنكز يأمره بكف أصحابه عن النّهب، وقال إن البلد قد فتح بالأمان. فأجاب إنني فتحته بالسيف وحاصرته ثلاثة أيام، وقاتلني أهلهُ قبل وصول العسكر، ومَكَّن من مَعَه من الدخول والنَّهَب، ومنعهم من الازدحام على الباب، فكان يمكنهم من الدخول مرة بعد أخرى حتى دخلوا البلد، فنهَبوا وقُتل خلق كثير من الأرمن والنصارى، وأسرُوا خَلْقًا كثيرًا منهم حتى تعدّى ذلك إلى جماعة من المسلمين، واختفى أكثر الأرمن بالمقابر، وخَرَّبَ قطعة من البلد، ورمى النارَ فيه، ورجع الجيش عنها في يوم الأربعاء الرابع والعشرين من المحرم إلى عينتاب، ثم إلى مَرْج دَابقٍ.

ولما فتحت مَلْطية جُهّزَ الأمير سيفُ الدين قجليس السلاح دار إلى الأبواب السلطانية على خيل البريد بالبشارة، فكان وصوله إلى قلعة الجبل في يوم الخميس الثالث من صفر، وذكر أنه وجد بملَطْيَة عند الاستيلاء عليها تسعةَ عشر ألف نول ينسج الصوف، ونقل أهلها إلى حلب، ولما عادت العساكر عن ملطية نزل بها نائب السلطنة الأميرُ بدر الدين مُوسى الأزْكشي في طائفة من العسكر، وبعد توجّه العسكر منها بثلاثةُ أيام ظهر مَنْ كان قد اختفى بها من الأرمن وغيرهم، فوصل إليها أهل كَخْتَا

(١) الجاليش: كلمة فارسية ومعناها: الحرب والمعركة، والجاليش في الكتب العربية علم كبير في أعلاه خصلة من شعر الخيل، وقد كان من التقاليد المملوكية إذا عزم السلطان على الخروج للقتال أن يرفع هذا العلم أربعين يومًا قبل يوم الخروج فوق مبنى الطبلخانة (مكان في القلعة)، والجاليش أيضًا تستعمل بمعنى طليعة الجند، وقد ذكرها المقريزي بشينين «شاليش» وتجمع على «جواليش» (انظر تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص ٥٨، وصبح الأعشى ٤/٧).

وكرْكَر فأحاطوا بها وقتلوا ثلاثمائة من الأرمن، وأسروا مائة أسير وغنموا جملة كثيرة من الأقمشة والأمتعة، ونقلوا جملة من الغلال والحبوب وجُهّز إلى الأبواب السلطانية نائب مَلْطية وهو بدرُ الدين ميزامير ابن الأمير نور الدين وولدُه وصهره في نحو ثلاثين نفرًا، فوصلوا في صفر ثم وصل قاضي ملْطيةَ وحريم نائبها وجماعة منهم في نحو مائة وخمسين نفرًا إلى دمشق في نصف صفر، ورسم لقاضيها بالإقامة بدمشق، وأحسن السلطان إلى نائب مَلْطية وولده وصهره، وجعل لكل منهم إقطاعات وعُدّة، واستمرت الجيوش مقيمة ببلاد حلب إلى شهر ربيع الأول، فرحلت يوم الخميس ثامن الشهر، ووصل نائب السلطنة إلى دمشق في يوم الجمعة سادس عشر ربيع الأول، ثم وصلت بقية العساكر إلى الديار المصرية، ودخلوا القاهرة في يوم الثلاثاء خامس شهر ربيع الآخر، وشملهم السلطان بالإنعام والتشريف.

وأما ملطية فإنه بعد أن عادت العساكر منها وصل إليها جُوبان نائب خَرْبَنْدا ملك التتار، وكان خَرْبَنْدا قد أعطاها له فآمن مَن بَقي بها من المسلمين، وسَدَّ ستَّة من أبوابها، وترك بابًا واحد، وجرّد بها ألفي فارس يحمونها، وأمرهم بعمارة ما خرب منها.

وفيها بعد عود العسكر من مَلطية أغارت طائفة من العسكر الحلبي على بلاد سيس مَرّة بعد أخرى، وغنموا وقتلوا وسبوا.

ذكر القبض على مَن يذكر من الأمراء بالديار المصرية

وفي يوم الخميس مستهل شهر ربيع الأول أمر السلطان بالقبض على الأميرين سيف الدينَ بكْتُمر الحسامي أمير حاجب، وعلاء الدين أيْدُغدِي شُقَير الحسامي وهما من أمراء المائة مقدمي الألوف، وطلب الأمير سيف الدين بكْتمر بعد نزوله من الخدمة. ووصوله إلى داره وطَلَع إلى دار النيابة فَقبُض عليه بين يدي نائب السلطنة الأمير سيف الدين أرْغُن. وقبض على أيْدُغْدي شُقَير بداره بالقلعة واعتقلا، فأما أيْدُغدي شُقير فكان آخر العهد به، واستمر سيف الدين بكْتمر في الاعتقال إلى يوم الخميس ثالث عشر شوال سنة ست عشرة وسبعمائة فأفرج عنه على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفي يوم السبت العاشر من الشهر المذكور قبض أيضًا على الأمير سيف الدين بَهادر الحسامي المعروف بالمعزي وهو أيضًا من أمراء المائة، واعتقل بها وإنما أخّر عمن قُبضَ عليه قبله لأنه كان قد توجّه لكشف الصعيد الأعلى، وحَفْرِ تُرعِهِ وإتقان

جُسُوره، فوصل إلى مدينة إسنا من الأعمال القوصية، فلما عاد ومثل بين يدي السلطان وأنهى ما اعتمده وخرج من بين يدي السلطان وقُبِضَ عليه واعتقل، وكان السبب في القبض عليهم أن السلطان كان قبل ذلك بأيام قد قبض على سيف الدين جَاوُلجين الخازن أحد المماليك الخاصكية لأمر أنكره منه وعذّبه عذابًا شديدًا فأقر على هؤلاء وغيرهم، فلما أيس من الحياة أبرأ الأمير سيف الدين بَكْتُمر الحاجب، وقال للسلطان إنما ذكرته من ألم الضرب والعقوبة، وهو بريء مما قلته، فلا ألْقى الله تعالى بذنبه، وأما من عداه ممن ذكرته فلم أقل عنهم إلا الحق، ومات رحمه الله تعالى، وتكلم على الأمير سيف الدين طُغاي في جملة من تكلم عليه، فأثر كلامه فيه بعد ذلك على ما نذكره إن شاء الله تعالى وأراد السلطان الإفراج عن الأمير سيف الدين بَكْتمر الحاجب إثر القبض عليه فلم تقتض سياسةُ السلطنة ذلك، لكنه كان موسَّعًا عليه في اعتقاله ورتب له في كل يوم من اللحم خمسة وأربعون رطلًا يطبخ له من أفخر الأطعمة ودَجاج وحلْوى وأقسماء وفاكهة وغير ذلك، ووهبه السلطان نجارية جميلة من جواريه في معتقله، فاحتملت منه وولدت له ولده محمدًا ولم يُمنع في معتقله غير ركوب الخيل والاجتماع بالناس، وأخبرني أنه كان يكاتب السلطان في اعتقاله ويَرُد عليه الجواب الخير.

ذكر القبض على الأميرين سيف الدين تمر الساقي[(١)]

نائب السلطنة الطرابُلسية، وسيف الدين بَهَادُرآص[(٢)] أحد الأمراء بدمشق وتفويض نيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية للأمير سيف الدين كُسْتَاي[(٣)].

وفي العشر الأوسط من شهر ربيع الآخر جَهَّزَ السلطان الأمير سيف الدين قجليس السلاح دار على خيل البريد، فوصل إلى دمشق في يوم الخميس رابع عشر الشهر، وتوجه إلى طَرابُلس، وكان الأمير سيف الدين تمرُ النائب بها قد خرج إلى الصيد، فوصل إليه وهو بمخيمه وكان قد أرسل إلى الأمير شهاب الدين قَرَطاي النائب

---

(١) هو الأمير سيف الدين تمر بن عبد الله الساقي الناصري أحد أمراء الألوف، وأعيان الخاصكية للناصر محمد بن قلاوون، توفي سنة ٧٤٢ هـ (انظر: النجوم الزاهرة ١٠/ ٧٧).

(٢) سيف الدين بهادرآص: توفي سنة ٧٣٠ هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٨١، الدرر الكامنة ٢/ ٢٩).

(٣) سيف الدين كستاي: توفي سنة ٧١٥ هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٣٧، الدرر الكامنة ٢/ ٢٩).

بحمص أن يوافيه بعسكر حمص في وقت السّحر إلى منزلة تمرُ الساقي. فلما وصل الأمير سيف الدين قَجْليس إليه أظهر أنه حضر لكشف القلاع، وشكا من التعب فأنزله في خيمة وأرسل إليه بعض مماليكه ليخدموه، وأمرهم أن يحفظوا ما يقول، وكان قد خشي من حضوره، وأدرك قجْليس ذلك، فشرع يسأل المماليك عن القلاع والحصون ونوابها، وما يحصل له من جهتهم، لا يزيدهم على هذا فتوجهوا إلى مخدومهم وأعلموه بمقاله، فما شَكّ في ذلك، وطابت نفسه، واطمأن ونام. بخيمته، فما طلع الفجر إلا والأمير شهاب الدين قَرَطاي النائب بحمص والعسكر قد وافاه بالمنزلة، وأحاطوا بخيمته فقبضوا عليه، ورجع به الأمير سيف الدين قَجليس إلى الأبواب السلطانية، فوصل إلى دمشق عائدًا في بكرة الاثنين ثامن عشر الشهر، وقبض على الأمير سيف الدين بَهَادُر آص في هذا اليوم، واعتقل بالكرك، وتمر الساقي بقلعة الجبل، وفوّض السلطان نيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية إلى الأمير سيف الدين كُسِتاي أمير سلاح، فاستعفى من النيابة، فلم يعف، فتوجه على كره منه، ووصل إلى دمشق في ثاني عشر جمادى الأولى يطلبه، وتوجّه إلى طرابلس.

وفي مستهل شهر ربيع الآخر رسم السلطان بالإفراج عن الأمير سيف الدين قجماز بَتْخَاص، وفخر الدين داود، وحسام الدين جيًا أخوَيْ سَلّار وأنعم على الأمير سيف الدين قَجْمَاز، بَتَخاص ذلك بإمرة طبلخاناه.

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر جمادى الأولى وصلت رسل صاحب اليمن الملك المؤيد هزبر الدين داود بالتقادم والتحف والهدايا والخيول وغير ذلك، فقبلت هديته، وأنعم على رسله وعليه، وكتب جوابه وجهز رسوله بما جرت العادة به من الإنعام والهدايا، والله أعلم.

ذكر وصول السيد الشريف أسد الدين رُمَيثة إلى الأبواب السلطانية وتجريد العسكر معه إلى الحجاز الشريف

وفي هذه السنة في ثالث جمادى الآخر ـ وصل الأمير السيد الشريف أسد الدين أبو عَرَادةَ رُمَيْثَة بن أبي نُمي من الحجاز الشريف إلى الأبواب السلطانية، وأظهر التوبة والتنصل والاعتذار من سالف ذنوبه، وأنهى أنه استأنف الطاعة وسأل العفو عنه، وإنجاده على أخيه عز الدين حُمَيضة، فقبل السلطان عُذْره وعَفا عن ذنبه وجرد طائفة من العسكر مقدمهم الأمير سيف الدين دَمُرْخَان بن قرمان، والأمير سيف الدين طَيْدَمَر

الجمَدَار، فتوجها هما والأمير أسد الدين رميثة إلى الحجاز الشريف في ثاني شعبان، ورحلوا من بركة الْجُبّ في رابعه، فلما وصلوا إلى مكة - شرّفها الله تعالى - فارقها حُمَيْضَةُ، فقصدوه وكَبسُوا أصحابه وهم على غرة فقتلوا منهم ونهبوا، وفرّ هو في نفر يسير من أصحابه إلى العراق، والتحق بخربندا ملك التتار واستنصر به، فمات خرْبَنْدَا قبل إعانته.

ذكر الإفراج عن الأمير جمال الدين آقش الأفرمي

وفي يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شهر رجب رسم السلطان بالإفراج عن الأمير جمال الدين آقُش الأشرفي المنصوري فأفرج عنه، وخلع عليه على عادة نواب السلطنة تشريفًا أطلس أحمر معدنيًا بطُرز زركش، وقباء أطلس أصفر وشاشَ رقْم وكِلوتة زركش، وحياصة ذهبًا، ونزل إلى داره بالقاهرة واتفقت وفاة الأمير حسام الدين قرالاجين المنصوري أستاذ الدار في يوم الثلاثاء الثاني عشر من شعبان، فأنعم السلطان عليه بإقطاعه، ووفّرتْ وظيفة أستاذ الدارية بعد وفاة قرالاجين، وقام بالوظيفة الأمير سيف الدين بكتمر أحد نُواب أستاذ الدارية، ونَقَصتْ هذه الرتبة عما كانت عليه بعد أن كانت عظمت إلى الغاية التي تقدم ذكرها.

وفي أول شعبان من هذه السنة توَجَّهت طائفة من العسكر الحلبي، والأمير ناصر الدين العين تابي عليهم إلى حصار قلعة آفقين وهي قلعة من أعمال آمد، فتسلموها من غير قتال، وقُتِلَ أخو مندو وقُطع رأسُه وعُلق على باب القلعة، وكان الغرض من هذه الإغارة القبضَ على مندو فلم يوجد هناك، وأغار العسكر على عدة ضياع للأكراد والأرض، ويقال إن الخمس بلغ خمسة آلاف رأس غنم وخمسًا وعشرين جارية.

وفيها في شعبان وصل إلى الإسطبلات السلطانية مُهْرةٌ تعرف ببنت الكرْكَا كان السلطانُ قد طلبها من العرب، وبذل في ثمنها مائتي ألف وسبعين درهم وضيعة من بلاد حماه قيل إنها تقوّمت على السلطان بستمائة ألف درهم.

وفي هذه السنة في ثالث شوال ضربت عنق رجل بدمشق اسمه أحمد الرُّويس الأقباعي، وسبب ذلك أنه شُهد عَليه في شهر رمضان بارتكاب أمور من العظائم من تَرْك الواجبات، واستحلال المحرمات، والتهاون بالشريعة والغض من منصب النبوة، وثبت ذلك على قاضي القضاة المالكي، وأعذر إليه فلم يأت يدافع، عن نفسه فحكم بهَدْرِ دمه فَقُتِل.

وفيها في ثالث شعبان توجّه السلطان إلى الصيد بجهة الصعيد، ووقعت النار في غيبته في سابع شهر رمضان في البرج المنصوري، وطباق السلحدارية. بقلعة الجبل، واستمرت طول الليل، ثم أطفئت.

وفيها في العشر الآخر من شهر رمضان عادت رسل السلطان من جهة الملك أزْبُك فتوجّه رسل السلطان إليه وهم الأمير سيف الدين أرج، وحسام الدين حسين بن صارُو، وصحبتهم رُسل الملك أزْبك فتوجّه رسل السلطان إليه إلى الصعيد، ومثلوا بين يديه، أعاد السلطان إلى قلعة الجبل بعد أن قضى من الصيد وَطرًا، وكان وصوله في ثامن عشرين شوّال، واستحضر رسل الملك أزبك، ورسل الأشكريّ، ورسل صاحبَ ماردين، وسمع رسائلهم وأعادهم وسيّر إلى الملك أزْبك من جهته الأمير علاء الدين أيْدُغْدِي الخُوارزمي، وحسين بن صارُو، وأرسل صحبتهما الهدايا والتحف.

وفي ذي القعدة ورَدَت الأخبار إلى الأبواب السلطانية أن طائفة من العسكر الحلبي توجَّهُوا وفتحوا قلعة بقرب مَلَطية تسمى درنده، وكان فيها نحو ألف رجل من الأرمن، فقتلوا بجملتهم، وأخربت القلعة وغنم المسلمون ما فيها من الأموال، وسبوا النساء والصبيان.

وفي أواخر ذي القعدة أغار سليمان بن مهنا بن عيسى وجماعته من العرب والتتار تزيد عدتهم على ألف فارس على جماعة من التركمان والقريتين وذلك بغير رضًا من أبيه.

وفي ثامن ذي الحجة وُلد لمولانا السلطان الملك الناصر ـ أعز الله أنصاره ـ ولد مبارك لم يعلم اسمه، وزفت البشائر لمولده والله أعلم.

ذكر ما أمر السلطان بإبطاله من المكوس والمظالم وما أسقطه من أرباب الوظائف

وفي شعبان سنة خمس عشرة وسبعمائة ندب السلطان أعيان الأمراء لقياس الديار المصرية وجهز إلى كل عمل أميرًا من المقدمين ولبعض الأعمال أمراء ورسم أن لا يستخرج على هذا القياس أجرة من الفلاحين ولا غيرهم ورسم لسائر الأمراء أن يكون عودهم إلى قلعة الجبل بعدما توجهوا بسببه في نصف شوال وتوجه مع كل أمير مستوف من مستوفيّي الدولة وتوجه السلطان إلى الصعيد الأعلى ورتب الأمراء

والكتاب في أعمال الوجه القبلي في مسيرة وأظهر الاحتفال بذلك والاهتمام به فانتهت مساحة الديار المصرية أجمع وتحرير نواحيها في نحو أربعين يومًا فإن الشروع في ذلك حصل في مستهل شهر رمضان والعود إلى أبواب السلطان والوصول إلى قلعة الجبل في نصف شوال وأعان على سرعة ذلك تقسيم البلاد شققًا، ولما تكامل هذا الكشف أمر السلطان القاضي فخر الدين ناظر الجيوش ومن عنده من المباشرة ونظار النظار والمستوفين بالانتصاب لتحرير ذلك ورتبه على ما اقتضاه رأيه الشريف وهم بين يديه فانتهى العمل وكتابة الأمثلة في ذي الحجة من السنة فعند ذلك جلس السلطان لتفرقة الأمثلة بين يديه وجعل لكل أمير بلادًا معينة وأضاف إليه جميع ما في بلاده من الجيوش السلطانية والجوالي[1] وغير ذلك فصارت البلاد لمقطعيها دربستا[2] وكذلك جهات الحلقة وأفرد لخاصيِّه بلادًا ولحاشيته بلادًا مقررة مرصدة لجامكياتهم، ولجامكيات نظار الدولة ومباشري الباب جهات مقررة لهم وكذلك أرباب الرواتب وجعلت سائر المعاملات بمصر والقاهرة في جملة الخاصة وكان هذا برأي تقي الدين ناظر النظار المعروف بكاتب برلغي وترتيبه فأخرج عن الخاص الجوالي التي ما زال الملوك يجعلونها مرصدة لمأكلهم لتحقق حلها، وجعلها في الأقطاع وأرصد لراتب السماط السلطاني ونفقات البيوتات ودار الطراز ومشتري الخزانة جهات المكس التي ما زال الملوك يحذرونها وأكثر المقطعين يتنزهون عنها ويستعفون من أخذها والذي تحققته من أمره وغرضه في هذا الترتيب أنه من مسالمة القبط ممن أكره على الإسلام فأظهره وجَرت عليه أحكامه وكان ميله ورغبته واحتفاله بالنصارى، فأراد تخفيف الجالية عنهم فجعلها في جملة الأقطاع فانتقل كثير من النصارى من بلد إلى آخر فتعذر على مقطع بلده الذي انتقل منه طلبه من البلد الذي انتقل إليه وإذا طالبه مباشرو البلد الذي انتقل إليها اعتذر أنه ليس من أهل بلدهم وأنه ناقله إليه فضاعت الجوالي بسبب ذلك واحتاج مقطعو كل جهة إلى مصالحة من بها من النصارى النوافل على بعض الجوالي فأخبرني بعض

---

(١) الجوالي: جمع جالية وتطلق على أهل الدمة. وقد قيل لهم ذلك لأن عمر بن الخطاب أجلاهم عن جزيرة العرب، ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية من أهل الذمة وإن لم يجلوا من أوطانهم، وقال المقريزي: أما في زماننا هذا فإن الجوالي قلّت جدًّا لكثرة إظهار النصارى للإسلام في الحوادث التي مرّت بهم (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٩٤، وخطط المقريزي ١/١٠٧). وقال القلقشندي في صبح الأعشى ٣/٥٣٠: الجوالي هي ما يؤخذ من أهل الذمة عن الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة.

(٢) الدربست: لفظ فارسي، معناه: كامل.

العدول الثقات شهود دواوين الأمراء أنهم يستأدون من النصراني أربعة دراهم ونحوها، وكانت قبل ذلك ستة وخمسين درهمًا ولما كانت الجوالي جارية في الخاص السلطاني كانت الحشار تسافر إلى سائر البلاد ويستأدونها منسوبة إلى جهاتها، وإذا وجد نصراني في ثغر دمياط وهو من أهل أسوان أو من أهل حلب أو عكس ذلك أخذت منه الجزية في البلد الذي يوجد به، ويكتب المباشرون بها له وصلًا فيعتد له ببلده ويأخذ من كل بلدة منسوبة إلى جهتها، فانفرط ذلك النظام وهي الآن على تقريره، ولعمري لو ملك هذا التقي المسلماني البلاد وعليه جريان اسم الإسلام ما تمكن أن يحسن إلى النصارى، ويخفف عنهم بأكثر من هذا.

وأبطل السلطان في هذه السنة عند عدم الروك جملة عظيمة من الأموال المنسوبة إلى المكوس[١] والمظالم، منها سواحل الغلال وكان يتحصل منها بساحلي مصر والقاهرة نحو أربعة آلاف درهم نقرة وأبطل نصف السمسرة[٢] ورسوم الولاية ونوابهم والمقدمين وتقرير الحوايص والنعال وحق السجون وطرح الفراريج، ومقرر الفرسان ورسوم الأفراح، وثمن العبي التي كانت تستأدى من البلاد، ومقرر الأتبان التي كانت تؤخذ لمعاصر الأقصاب بغير ثمن وحماية المراكب وزكاة الرجالة بالديار المصرية، وغير ذلك من المظالم سطر الله هذه الحسنات في صحيفته ورسم بالمسامحة بالبواقي الديوانية والإقطاعية إلى آخر مغل سنة أربع عشرة وسبعمائة، ورسم بإسقاط وظيفتي النظر والاستيفاء من سائر أعمال الديار المصرية، ورسم أن يستخدم في كل بلد من بلاد الخاص شاهد وعامل، ورتب بالقاهرة ناظر الجهات الهلالية ولمصر ناظرًا، ثم استخدم في بعض الأعمال النظار، وجعل هذا الروك الهلالي لاستقبال صفر سنة ست عشرة وسبعمائة والخراجي لاستقبال مغل سنة خمس عشرة وسبعمائة ورسم بإسقاط متوفر الجراريف السلطانية، وأن يرصد جميعها لعمل الجسور، وكان يتوفر منها بعد عمل الجسور أموال جليلة كثيرة.

وفي سنة خمس عشرة وسبعمائة توفي الشيخ العالم القاضي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن عبد السلام بن جميل العونسي المالكي[٣] بالقاهرة،

---

(١) المكوس: جمع مكس: وهي الضريبة يأخذها المكاس ممن يدخلون البلد من التجار.

(٢) السمسرة: وهو أن من باع شيئًا فإن دلالته على كل مائة درهم درهمان، يؤخذ منها واحد للسلطان، والثاني للدلّال. وسمسر فلان: توسط بين البائع والمشتري نظير أجر معين، والسمسار: الوسيط بين البائع والمشتري لتسهيل الصفقة.

(٣) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/٣٧، السلوك للمقريزي ٢/١: ١٥٨، الدرر الكامنة=

في ليلة الاثنين الحادي والعشرين من صفر، ودفن بالقرافة، ومولده في سنة تسع وثلاثين وستمائة، وكان قد ولي قضاء الإسكندرية، وكان قبل ذلك ينوب عن الحكم بالحسينية عن قاضي القضاة زين الدين المالكي، وهو أول من درس من المالكية بالمدرسة المنكوتمرية بالقاهرة، وكان من علماء مذهبه ومن الفضلاء المشهورين رحمه الله تعالى وإيانا.

وتوفي الصدر الرئيس شرف الدين أبو عبد الله محمد ابن العدل الرئيس جمال الدين أبي الفضل محمد بن أبي الفتح نصر الله بن المظفري أسعد بن حمزة بن أسعد بن علي بن محمد التميمي الدمشقي بن القلانسي[١]، وكانت وفاته بداره بدمشق، في ليلة السبت الثاني عشر من صفر، ودفن من الغد بقاسيون بمقبرة بني صَصْرَى، ومولده بدمشق في السابع والعشرين من شعبان سنة ست وأربعين وستمائة، وكان رحمه الله تعالى من أكابر أعيان دمشق، رافقته مدة تزيد على سنتين ونصف في ديوان الخاص الناصري بدمشق، وكان حسن العشرة والرفقة، كثير الاحتمال والإغضاء والحياء والسكون، ولما انفصلت عن المباشرة، وعدت إلى الديار المصرية. ما زالَتْ كُتُبه تَرِدُ تدل على استمرار مودته، وجميل تعهده، وتصل إلى هداياه وهو ممن سُعِدَ في أولاده، فإنهم من نجباء الأبناء ورؤساء الشام أبقاهم الله تعالى ورحم وَالدهم.

وتوفي الشيخ العالم صفي الدين محمد بن عبد الرحيم بن محمد الأرموي، المعروف بالهندي الشافعي[٢]، بمنزله بالمدرسة الظاهرية بدمشق في ليلة الثلاثاء ثالث عشرين صفر، ودُفنَ من الغد بمقابر الصوفية، ومولده في ليلة الجمعة ثالث شهر ربيع الآخر سنة أربع وأربعين وستمائة وكان رجلًا فاضلًا، وله تصانيف مفيدة في الأصول، رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير عز الدين الحسين بن عمرو بن محمد بن صبرة بطرابلس، وكان قد نقل إليها من دمشق، وكانت وفاته في يوم الاثنين تاسع عشر شهر رجب، وكان قبل ذلك ولي حَجَبة الشام مدة، وكان حسن العشرة كثير البسط رحمه الله.

وتوفي الأمير بدر الدين موسى ابن الأمير سيف الدين أبي بكر محمد الأزكشي، بداره بميدان الحصى ظاهر دمشق، في يوم الجمعة ثامن شعبان، ودفن عند القبيبات،

= ٤/١٤٩، الوافي بالوفيات ٤/١٤٩.

(١) انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٤/٧٣. (٢) هو صفي الدين الهندي: تقدمت ترجمته.

وكان أميرًا شهمًا شجاعًا مقدامًا، أظهر في مصاف مرج الصفر عن شهامة وفروسية وإقدام، وكان يومئذ من مقدمي الحلقة المنصورة الشامية فلما شاهد السلطان فعله أمَّره بطبلخاناه، وولاه نيابةَ قلعة الرحبة رحمه الله تعالى.

وتوفي قاضي القضاة تقي الدين أبو الفضل سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر ابن الشيخ أبي عمر محمد بن أحمد بن قُدَامة المقدسي[١] قاضي الحنابلة بدمشق في ليلة الاثنين الحادي والعشرين من ذي القعدة بعد صلاة المغرب بمنزله بقاسيون، ودفن بكرة الاثنين بتربة جده، ومولده في نصف شهر رجب سنة ثمان وعشرين وستمائة، وكان رحمه الله تعالى حسن الأخلاق، غزير الفضيلة، سمع الحديث وأسمعه.

واستهلت سنة ست عشرة وسبعمائة بيوم الجمعة

في هذه السنة في يوم السبت الثالث والعشرين من المحرم الموافق للثاني والعشرين من بَرْمودة من شهور القِبْط بعد العصر سُمِعَ بالقاهرة هَدَّةٌ عظيمة تشبه الصاعقة ورَعْد وبرق، ووقع مَطر كثير وبرد على قلعة الجبل والقاهرة وضواحيها ولم يكن مثل ذلك بمصر، وقع مطرٌ كثير بمدينة بُلْبَيْس حتى خرَّب كثيرًا من البنيانَ بها، وكان ذلك كلّه في مُضِيّ ساعة ونصف ساعة.

وفي هذه السنة فُوِّضَ قضاة القضاء الحنابلة بدمشق إلى شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن الشيخ الصالح محمد بن مسلم بن مالك بن مزروع الحنبلي[٢] أعاد الله من بركته ووصل إليه بتقليد القضاء من الأبواب السلطانية في يوم السبت ثامن صفر، وقرئ بجامع دمشق بحضور القضاة والأعيان، وخرج القاضي شمس الدين المذكور من الجامع ماشيًا إلى دار السعادة، فسلم على نائب السلطنة ثم نزع الخلعة السلطانية وتوجه إلى جبل الصالحية، وجلس للحكم في سابع عشر صفر وما غير هيئته ولا عادته في مشيه وحَمَل حاجته، ويجلس للحكم على مئزر غير مبسوط، بل يضعه بيده ويجلس عليه، ويكتب في محبرة زجاج، ويحمل نعله بيده فيضعه على مكان، وإذا قام من مجلس الحكم حَمَله بيده أيضًا حتى يصل إلى آخر الإيوان فيلقيه ويلبسه، هكذا أخبرني من أثق بأخباره، واستمر على ذلك، وهذه عادة السلف.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٣١، شذرات الذهب ٦/ ٣٥، البداية والنهاية ١٤/ ٧٥.

(٢) توفي سنة ٧٢٦ هـ (انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٧٣، الدرر الكامنة ٤/ ٢٥٨، البداية والنهاية ١٤/ ١٢٦).

ذكر حادثة السيول والأمطار ببلاد الشام
وما أُثِر ما وقع من العجائب التي لم تُعْهَد

وفي هذه السنة في أوائل صفر وقع بالشام مطر عظيم على جبال قارا وبعلبك، وعلى مدينة حمص والمُنَاصَفَات، وامتد إلى بلاد حماه، وحلب، وسقط مع المطَر بَرَد كبارٌ، البردَةُ منها قدر النارنجة وأكثرُ منها وأصغر، ووُزِنَ بعضُها بعد يومين أو ثلاثة فكان وزن البردة ثلَاثَ أواقي بالشامي، وجرى من ذلك المطر سيلٌ عظيم من سائر تلك الجبال، وملأ الأودية وتحامل وجاء على جُوسية إلى قرية الناعمة وقَدَس، وانصب في بحرة حِمْص فَفَاضَتْ منه، ومَرّ السيلُ بقرية جسمل، وهي بالقرب من الناعمة، فاقتلعَها بجميع ما فيها من الغلال والحواصل، وأهلك أهل القرية، ولم يسلم منهم إلا خمسة أنفس: ثلاثة رجال وصبي وصبيّةٌ وكانت سلامتهم من الغرائب، وذلك أنهم وجدوا ثَوْرًا عائمًا في السيل فتعلق رجلان بقرنيه، وركب الصبي والصبية على ظهره، ثم أدركه رجلُ ثالث فتعلق بذنبه، وحملهم الثورُ وهو عائم إلى أن انتهوا إلى أرض جلدة مرتفعة، فوقفوا عليها وسَلِمُوا، وحمَلَ هذا السيلُ عدَّةً كثيرةً من خركاهات[1] التركمان، وبيوت العرب والأكراد الذين بتلك الأرض، فاحتملهم وأهلكهم، وأهلك مواشيهم، وألقاهم ببحرة حِمْص، وعَلِقَ خلقٌ كثير من الغرقاء والدواب بأشجار جُوسِيَّة لمّا مرَّ بهم السيلُ عليها.

وأما الْبَرَدُ الذي سقط فإن معظمه وقع في وادٍ بين جَبَلَيْن فملأه، وبقي كذلك مدةً، وخرج إليه الولاةُ والقضاةُ من حمص وبَعْلَبَك وشاهدوه، هكذا نَقَلَ الأميرُ جَلالُ الدين الصَّفَدِيَ أحد الأمراء البريدية بالديار المصرية، وكان قد توجّه إلى الشام في بعض المهمات السلطانية، وهو ثقَة فيما ينقله.

وأخبرني الأمير العدلُ علاء الدين أَيْدُغْدِي الشهرَزُوري أستاذ دار الأمير شمس الدين قَرَاسُنْقر المصري ـ وهو عدل ثقة في أجناده ـ أن كتاب والده شهاب الدين أحمد وصل إليه من حَلَب أنه وقع إليه في التاريخ المذكور مَطَرٌ عظيم على مدينة غَرَار، وهو المطر الذي تقدم ذِكره، وأنه سقط مع المطر سَمَكٌ كِبَارٌ وصغَارٌ، وجُمعَ منه شيء كثير وأكِلَ، وأن المطر الذي وقع في التاريخ على بلد سرمين وحارم سقط فيه ضفادع فيها الرُّوح باقيةٌ، وأنه شاهد ذلك.

---

(١) الخركاه: هي بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة ويغشّى بالجوخ ونحوه، تحمل في السفر لتكون في الخيمة للمبيت في الشتاء لوقاية البرد (صبح الأعشى ٢/١٤٦).

ذكر تفويض إمرة العرب بالشام للأمير شجاع الدين فضل وانفصال الأمير حُسَام الدين مُهَنّا، ودخوله إلى بلاد التتار وعودِه وإعادة الإمرة إليه

وفي شهر ربيع الآخر سنة ست عشرة وسبعمائة فوّض السلطان الملك الناصرُ إمْرَة العرب بالشام للأمير شجاع الدين فضل ابن الأمير شرف الدين عيسى بن مُهَنَّا، وخلع عليه تشريفًا أطلس معدنيًا بطرد وحش[1]، على عادة أخيه مُهَنا، وأقطعه خبز مُهَنَّا، وعاد إلى الشام، وكان وصوله إلى دمشق في يوم الثلاثاء تاسع عشر شهر ربيع الآخر، وأقام بدمشق إلى يوم الخميس غُرة جمادى الأولى، وتوجه إلى بلاده.

وسبب ذلك أن الأمير حسام الدين مُهَنَّا كان قد امتنع من الحضور إلى الأبواب السلطانية منذ أعان الأمير شمس الدين قَرَاسُنْقُر المنصور ووافقه كما تقدم، وعلم أنه أسلَف ذنبًا كبيرًا، وجُرْمًا عظيمًا لا يتَجَاوَزُ الملوكُ عن مِثْلِه، فخاف على نفسه إنْ هو حضر أن يقابَلَ على ذلك بالقتل وإن شمله الإحسان فالاعتقال، واجتهد السلطانُ في ملاطفته، والإحسان إليه وتأمينه، وزيادةٍ في الإقطاعات، وشموله بالإنعام، وَوَسَّعَ على أولاده وأهله وألْزَامِهِ في الإنعامات والإطلاقات والزيادات، وفعل في ذلك ما لم يفعله ملك قبله مع أمثالهم، وراسله مِرَارًا فلم يزدد إلا تماديًا على إصراره، فلما آيس منه جعل الإمرة لأخيه الأمير شجاع الدين هذا، وتوجّه الأمير حسام الدين مُهَنّا إلى العراق، وتُلُقِّيَ من جهة التتار وأكْرم غاية الإكرام ببغداد، ثم توجه إلى الأردو واجتمع بالملك خَرْبَنْدَا فأكرمه وأحسن إليه وأقطعه، وخيّره في المقام ببلاده أو العود، فاختار العودَ إلى الشام لإصلاح ذات البين، وعاد واجتاز الفُرَات في شهر رَمَضَان، ونزل بالقرب من أخيه فضل، ووصل أخوه الأمير شمس الدين محمد بن عيسى إلى الأبواب السلطانية في سنة سبع عشرة، وأخبره بمراجعة الأمير حسام الدين أخيه الطاعة، فأنعم عليه بجملة عظيمة من الأموال، وكذلك على أخيه الأمير حسام الدين مُهَنّا، وكتب تقليدَه بالإمرة على عادته، وجُهِّز إليه وقَرِينه الخِلَع، وذلك في أوائل شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة وسبعمائة.

---

(١) طرد وحش: هو نوع من القماش الحرير المنقوش بمناظر الصيد والطرد (السلوك ١/ ٢: ٧٨٨).

وفي يوم الاثنين السادس والعشرين من جمادى الأولى سنة ست عشرة - ولي قاضي القضاة نجم الدين أحمد بن صَصْرَى مشيخةَ الشيوخ بدمشق، وجلس بالخانقاة السميساطية، وقرىء تقليده، وكانت ولايته بسؤال الصوفية لذلك، وذلك بعد وفاة شيخ الشيوخ السيد الشريف شهاب الدين أبي القاسم محمد بن عبد الرحمٰن بن عبد الله الكاشْغَرِيّ، وكانت وفاته في يوم الاثنين تاسع عشر الشهر المذكور رحمه الله تعالى.

ذكر وفاة الأمير سيف الدين كستاي[١] نائب السلطنة بالفتوحات وتفويض نيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية وحِمْص والكَرَك لمن يذكر

كانت وفاة الأمير سيف الدين كُسْتَاي نائب السلطنة بالمملكة الطرابلسية في ليلة الأربعاء تاسع عشرين جمادى الآخرة بطرابلس، ودفن بها، وكانت مُدّة مرضه نحو عشرين يومًا، وكان قبل ذلك قد توجَّه من طرابلس لكشف المملكة الطرابلسية وما هو مضاف إليها من الحصون، وأظهر النَّزَاهة عن قبول تقادم النواب، فكان مَن قَدَّم له شيئًا من الخيل والقماش عرضه وأمر بكتابته، وأعاده على مَن قَدَّمه، ولما سمع نُوَّاب الحصون بذلك أكثروا في التقادم، وأرادوا بذلك التجمل عنده، وعلموا أن ذلك يعود إليهم، وكان من عزم على تقدمة شيء ضاعفه، واستعار بعضهم من بعض، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن وصل إلى ثغر لاذقية، وهو آخر العمل، فقدم له الأمير بدر الدين بكتوت التاجي مقدم العسكر بالثغر تقدمة جليلة من الأقمشة والبخاتي وغير ذلك، وتجمل وظن أن ذلك يعاد إليه كما أعيد على غيره، فقبل جميع ذلك وقال: أنت خوشداشي ولا يليق أن أرد عليك، ولما عاد من لاذقية مرّ على وادٍ هناك به عدة من البخاتي للأمير بدر الدين بكتوت التاجي المذكور، فانتقى ثلاثين بختيًا من خيارها، وأرسل إليه يقول: إنني مررت على جمالك وأخذت منها خمسة قطر لضرورة التقدمة للسلطان، فأرسل ولدك لتقرير ثمنها وقبضه. ثم كتب إلى سائر من كان قد قدم له تقدمة يطلبها بجملتها، وكان من استعار من النواب قماشًا من صاحبه قد أعاده عليه، فاضطروا إلى إرسال قصادهم إلى حماه وغيرها، لابتياه عِوَض ما كانوا استعاروه وكملوا تقادمهم وأرسلوها إليه، وحصل لهم الضرر بذلك، ولَم تطل

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/٢٣٧، الدرر الكامنة ٣/ ٣٥٣، الدليل الشافي ٢/ ٥٥٨.

مدته بعد ذلك ووعد الجميع في تركته، وكانت تركة طائلة، وورثه أخواه الأمير سيف الدين قجليس أمير سلاح، وسيف الدين أولاق وزوجته، ولم يتعرض السلطان من تركته إلى شيء.

ولما مات فوّض السلطان نيابة السلطنة بالمملكة الطرابلسية والفتوحات للأمير شهاب الدين قرطاي الصالحي العلائي. نقله من نيابة حمص إليها، وفوّض نيابة السلطنة بحمص للأمير سيف الدين أرقطاي الجمدار أحد مقدمي الألوف بدمشق، فتوجه إليها في يوم الأحد السابع من شهر رجب، واستناب بالكرك الأمير سيف الدين طقطاي الناصري، أحد الأمراء بدمشق، فتوجه في شهر رجب، ونقل الأمير سيف الدين بيبغا الأشرفي من نيابة الكرك إلى الإمرة بدمشق، وجعله من أمراء المائة مقدمي الألوف بها.

ذكر تجريد العسكر إلى النوبة
وملك عبد الله برشنبوا النوبة، ومقتله

وفي شهر رجب الفرد سنة ست عشرة وسبعمائة رسم بتجريد طائفة من الأمراء إلى بلاد النوبة، وهم: الأمير عز الدين أيبك الجهادكسي عبد الملك، وهو المقدم على العسكر، والأمير صلاح الدين طرخان ابن الأمير المرحوم بدر الدين بيسري، والأمير علاء الدين علي الساقي، والأمير سيف الدين قيران الحسامي، كل أمير منهم بنصف عدته، ورسم أن يكون سفرهم في العشرة الآخرة من شعبان، فبرزوا من القاهرة مطلبين في يوم الاثنين الثالث والعشرين من شعبان من السنة، وصحبتهم سيف الدين عبد الله برشنبوا النوبي، وهو ابن أخت داود ملك النوبة، وكان قد رُبِّيَ في البيت السلطاني من جملة المماليك السلطانية، فرأى السلطان أن يقدمه في ذلك الوقت على أهل بلاده ويملكه عليهم، واتصل خبر هذه الحادثة بالملك كرنبس متملك النوبة، فأرسل ابن أخته كنز الدولة ابن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز إلى الأبواب السلطانية، وسأل شموله بالإنعام السلطاني في توليته الملك، وقال: إذا كان يقصد مولانا السلطان بأن يولي البلاد لمسلم، فهذا مسلم وهو ابن أختي والمُلك ينتقل إليه بعدي، فوصل كنز الدولة إلى الأبواب السلطانية فلم يجب إلى ما طلب، ورسم السلطان بمنعه من العود إلى بلاده، فأقام بالأبواب السلطانية، وتوجه العسكر وصحبته عبد الله برشنبوا، فلما وصلوا إلى دنقلة فارقها متملكها كرنبس وأخوه إبرام، وتوجها إلى جهة الأبواب، واستجار كرنبس متملكها فقبض عليه، وتركه في

جزيرة، وكتب إلى مقدم العسكر فخبره أنه قبض عليه وعلى أخيه واحترز عليها، وسأل أن يسير إليه من يتسلمهما فسير إليه جماعة من رجال الحلقة، فتسلموهما وأحضروا إلى الأبواب السلطانية تحت الاحتياط، واعتقلا، وملك عبد الله برشنبوا دنقلة، واستقر ملكه، وعاد العسكر إلى القاهرة. فكان وصوله في جمادى الأولى سنة سبع عشرة وسبعمائة، ولما وصل متملك النوبة وأخوه إلى الأبواب السلطانية سأل كنز الدولة الإذن له في العود إلى ثغر أسوان، وأنهى أن له بالثغر سواقي وعليه خَرَاجًا للديوان السلطاني، فرسم بعوده إلى بلده، فتوجه إلى الثغر ثم توجه منه إلى جهة دنقلة، وكان عبد الله برشنبوا لما ملك غيّر قواعد البلاد، وتعاطى نوعًا من الكبر لم تجر عادة ملك النوبة بمثله، وعامل أهل البلاد بغلظة وشدة، فكرهوا ولايته. فلما قصدهم كنز الدولة ووصل إلى بلد الدو ـ وهي أول بلاد النوبة ـ استقبله أهل البلاد بالطاعة وحيّوه بتحية الملك، وهي قولهم: موشاي موشاي، وهذه لفظة لا يخاطب بها غير الملك، وانضموا إليه ودخلوا تحت طاعته، فتقدم إلى دنقلة، فخرج إليه برشنبوا والتقوا، فقتل برشنبوا، وملك كنز الدولة بلاد النوبة إلى أنه لم يضع تاج الملك على رأسه رعاية لحق أخواله، وتعظيمًا لهم، وحفظًا لحرمتهم. ووصل الخبر إلى الأبواب السلطانية بقتل برشنبوا في شوال سنة سبع عشرة وسبعمائة، فعند ذلك رسم السلطان بالإفراج عن إبرام أخي كرنبس وأرسله إلى النوبة، وأمره أن يحتال في القبض على ابن أخته كنز الدولة وإرساله إلى الأبواب السلطانية، ووعده أنه إذا فعل ذلك أفرج عن أخيه كرنبس وملكه وأرسله، وتوجه إبرام إلى دنقلة فاستقبله ابن أخته كنز الدولة بالطاعة، وسلم إليه الملك، وصار في خدمته، وخرجا لتمهيد البلاد مما يلي ثغر أسوان، فلما قرب إلى الدو قبض إبرام على الكنز الدولة وقيده، وعزم على إرساله، فمرض إبراهم وهلك بعد ثلاثة أيام من حين القبض على ابن أخته، فاجتمع أهل النوبة على كنز الدولة وملكوه عليهم، فَمَلَكَ البلاد حينئذٍ ولبس تاج الملك، واستقل بالمملكة، وضم إليه العرب واستعان بهم على من ناوأه، وكان من خبره بعد ذلك ما نذكره إن شاء الله تعالى في مواضعه على ما نقف عليه.

ذكر تجريد العسكر إلى العرب ببرية عيذاب ودخوله إلى بلاد هلنكة وغيرها وعوده

وفي سنة ست عشرة وسبعمائة أمر السلطان بتجريد جماعة من العسكر إلى جهة الصعيد، وأن يتوجهوا خلف العَرَبِ حيث كانوا من البرّيّة. فجرد الأميرَ علاء الدين

مُغْلَطَاي أمير مجلس وهو المقدم على الجيش، وهو من جملة مُقَدَّمي الألوف، والأميرَ عزّ الدين أَيْدُمُر الدَّوَادَار، والأمير علمَ الدين سَنْجَرَ الدُّمَيْثَرِي، والأمير علاء الدين علي ابن الأمير شمس الدين قَرَاسُنْقُر المنصوري، والأمير سَيف الدين بَهَادُر التَّقوي، والأمير سيف الدين الدمْيَاطي، والأمير صارمَ الدين الجَرْمَكي، والأمير سيفَ الدين طقْصُبَا متولي الأعمال القُوصِيَّة والإخميمية، وسبعةً من مقدمي الحلقة المنصورة، وتوجهوا في نحو خمسمائة فارس، وكان رَحِيلُهم من القاهرة في يوم الأربعاء العشرين من شوال من السنة، وكان سبب ذلك أن العُرْبَان ببرّيّة عَيذَاب قطعوا الطَّريقَ على رسول اليَمنَ الواصل إلى الأبواب السلطانية، وأخذوا ما كان معه من التقادم ومَنْ رافقه من غِلْمَان التُّجّار، والذي حملهم على ذلك أن الأمير سيف الدين طَقْصُبّا متولي الأعمال القوصيّة اعتقل فَيَّاضًا أميرَ هذه الطائفة من العرب، فحملت أصحَابَهُ الحَمِيَّةُ على فعل ذلك، فلما اتصل فعلهُم بالأبواب السلطانية جَرَّدَ هذا العسكر في طلبهم، ورَسَمَ أن يتوجهوا إلى مدينة قُوص ويتوجهوا منها إلى البريّة ويَتْبَعُوا العَربَ حيثُ كانوا، فأخبرني الأمير عز الدين الدَّوَادَار أحد الأمراء الذين توجَّهُوا ـ وهو الثقة في أخباره ـ أنهم توجّهوا في التاريخ المذكور حتى انتهوا إلى مدينة قُوص، فأقاموا بظاهرها خمسة وخمسين يومًا، وفي مدة مُقَامهم توجّه متولي الأعمال، والأمير صَارِمُ الدين الجرْمَكِي إلى البَرِّيّة ليجتمعا بالعُرْبَان في رَدِّ ما أخذوه من الأموال، ومراجعة الطاعة، فاجتمعا بهم ولم تتهيأ الموافقةُ على ما أرادوا ولما توجَّها طُولِعَ السلطانُ بتوجههما وأنَّ العسكر تأخَّر لقلة الظَّهر وسعة البرية، وقلّة الماء، وجهز بذلك الأمير بدر الدين بكتَمُش الحسامي أحد مقدمي الحلقة المنصورة.

فلما وصل إلى الأبواب السلطانية حَصَل من السلطان الإنكار الشديد بسبب تأخّر العسكر عن دخول البَرِّيّة، فعندها توجّه العسكرُ من مدينة قُوص في العشر الأول من المحرم سنة سبع عشرة ودخلوا إلى البرية فانتهوا إلى ثغر عَيذاب في خمسة عشر يومًا، واجتمع العسكر بالأميرين سيف الدين طَقْصُبَا، وصارم الدين الجَرْمَكِي بَعيْذَاب، وأقاموا بها اثني عشر يومًا، وكان متولي الأعمال قد استصحب معه فَيّاضًا أمير العَرَبِ الذي كانت الفتنة بسبب اعتقاله، ثم رحل الجيشُ من ثغر عيذاب، وساروا حتى انتهوا إلى سَوَاكِن في اثني عشر يومًا يسلكون رؤوس الجبال والأوعار، وحصل لهم ضررٌ كثيرٌ بسبب المياه وقلّتها حتى كادوا يهلكون في ماء منها يقال له دَنْكنَام، فإن العُرْبَان كانوا قد غَوَّرُوا المياه أمام العسكر، فأقام الجيش أربعة أيام،

ووصل إلى ذلك الماء في اليوم الخامس، فوجدوا جِفَارًا واحدًا وهو متغيِّر اللون والطعم والريح، فبينما هم كذلك إذ قدمت كَشَّافةُ العسكر وكانوا قد قَدَّمُوا مَن يَسْتَقرِىء لهم خبر تلك الجبال علّهم يجدون ماءً، فأخبروهم أنهم وجدوا مياه الأمطار بتلك الجبال فرحلوا من هناك وقت المغرب، وانتهوا إلى مياه قد اجتمعت من الأمطار، فأقاموا بها بقية تلك الليلة إلى نصف النهار من اليوم الثاني، وحملوا منها وارتحلوا حتى انتهوا إلى سَوَاكِن، فخرج إليهم متملكها بالطاعة والانقياد إلى أوامر السلطان، وقرَّر على نفسه قطيعةً يحملها إلى الأبواب السلطانية في كل سنة، وهي من الرقيق ثمانون رأسًا، ومن الجمال: ثلاثمائة رأس، ومن العاج: ثلاثون قنطارًا، واستقر بسَوَاكِن نيابةً عن السلطنة، وأقام العسكرُ بسواكن ستة أيام، واستصحب معه أولاد مُهَنّا، وكان فَضْلُ أحد مُقَدَّمِي العُرْبَان قد التحق بالعسكر فيما بين سَوَاكِن وعِيذَاب وصحبهم، وتوجّه الجيشُ خَلْفَ العُرْبَان ودخلوا البرية يتبعون آثارهم، فساروا سبعة عشر يومًا، وفي أثناء مسيرهم ظفرُوا بطوائف من السودان بقرب المياه في أودية هناك، فَقَتَلَ العسكرُ منهم، وأَسَرَ وسَبَى وغنم من مواشيهم من الأبقار والأغنام ما ارتفق به الجندُ، وانتهوا إلى وادي إيتريب في اليوم السابع عشر، فأقاموا بها يومين، ولم يجدوا من سواكن إلى هذا الوادي غير ماء واحد، وكان شربهم من مياه الأمطار، وأمطِرَت البَرِّيَّة في غير الوقت المعتاد، لطفًا من الله تعالى بعباده وإبقاءً عليهم.

ثم ساروا إلى أن وصلوا إلى أرنيباب وهو جبل صغير على شاطىء نهر أتبرا وهو فرع من فروع نيل مصر يخرج من بلاد الحبشة، فأقاموا عليه يومًا واحدًا، ثم توجهوا يتبعون آثار الغرماء وهم يسيرون على شاطىء ذلك النهر ثلاثة أيام والنهر على يمين العسكر، ثم فَوَّزُوا ودخلوا البَرِيّة إلى أرض التاله فانتهوا في اليوم الثالث من يوم دخولهم المفازة إلى جبل كشلاب وهو جبل أقرع ليس في تلك البرية غيره، وجبل ألوس وبين الجبلين وادٍ، وهذا الجبل هو حد بلاد التاله من الحبشة، فلما وصلوا إليه وقد قربوا من الماء، وهم في أرض صفراء التربة تشبه أرض بَيْسَان من غور الشام، وهي كثيرة الأشجار من السنط وأم غيلان وشجر الأهليلج والأبنوس والبقس والحمر وهو الذي يطرح التمر هندي، إذْ طلعَ عليهم غبار أمامهم، فندبوا من يكشف الخبر، فعاد الكشافة وأخبروهم أن طائفة من السُّودان تسمى هلنكة قد اجتمعوا لقتال العسكر، وهم خلق كثير، فتقدم العسكر إليهم وقد عبؤوا أطلابهم، ولبسوا لأمة حربهم، واجتمع العسكر في أرض خالية من الأشجار، وهي من طُرُق السيول وقد صارت مثل

البركة ولها فَجَّة يدخل العسكر منها، فتبعهم الأثقال فسَدّت جمالُ أثقالهم تلك الفجة، وهلنكة من أعلا البركة وبأيدي هلنكة الحراب والمزاريق والسيوف، ومع بعضهم النبل، فوقف العسكر وأرسل إليهم: إنَّا لم نأت لقتالكم وإنما جئنا في طلب طائفة من العرب أفسدوا وعَصَوْا وقطعوا السبيل، وأمّنُوهُم، فَرَدُّوا الأمان وأبوا إلا القتال، فقاتلهم العسكرُ ورموهم رَشْقًا واحدًا واحدًا بالسهام، فقتل من هلنكة أربعمائة وستون نفرًا، وجرح منهم خلق كثير، ولم يتمكن العسكر من أسرهم فإنهم كانوا يرون القتل أحب إليهم من الأسر، وقُتِلَ منهم اثنان من ملوكهم على ما حكاه مَن اجتمع بهم من غِلْمَان العسكر، وكان سبب اجتماعهم بهم وسلامتهم منهم أنهم كانوا انقطعوا وراء العسكر وناموا، فلحقهم كشافة هلنكة فمسكوهم وأتوا بهم إلى أكابرهم، فسألوهم من أين أنتم؟ وكان فيهم من يعرف لغة القوم، فقالوا: نحن تجار أغار علينا هذا العسكر ونهبونا، وأخذوا أموالنا وأسرونا. فلما قاتلتموهم هربنا منهم، فَرَقُّوا لهم وأطلقوهم، وذكروا لهم عدة من قُتِل منهم.

ولما انهزمت هذه الطائفة من هلنكة تحصنوا بالأشجار وتركوا أحمالهم فأخذ العسكر منها ما قدروا على حمله من الذرة ـ وليس لهم طعام غيرها ـ وحملوا حاجتهم من الماء ورجعوا من هناك من يومهم على آثارهم، وذلك في سادس شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة، وعادوا حتى انتهوا إلى أرنيباب، ولم يمكنهم الرجوع على الطريق الذي دخلوا منه لقلة المياه والأقوات والعلوفات، فعدلوا إلى جهة الأبواب من بلاد النوبة، وأخذوا على نهر أتبرا فساروا على شاطئه عشرين يومًا، وكانت دوابهم ترعى من الحلفاء، ثم انتهوا إلى قبالة الأبواب فأقاموا هناك يومًا وتوجه سيف الدين أبو بكر بن وَالِي الليلَ في الرسلية من جهة متولي الأعمال القوصية الأمير سيفُ الدين طَقْصُبًا إلى متملك الأبواب، فخاف ولم يأت إلى العسكر، وأرسل إليهم بمائتي رأس بقر وأغنام وذرة، ونهب العسكر ما وجدوه بتلك الجهة من الذرة، وتوجهوا إلى مدينة دُنْقُلة في سبعة عشر يومًا في أرض كثيرة الأشجار والأفيلة والقرود والنسانيس والوحش الذي يسمى المرعفيف، فأقاموا ثلاثة أيام ـ ومَلِكُها عبدُ الله برشنبوا كما تقدم ـ وأضافَ العسكَر وزوَّدَهم، وتوجهوا إلى ثغر أسوان ثم إلى مدينة قوصي، وأقاموا بها خمسة عشر يومًا، وحصل للعسكر في هذه السفرة مشقة كثيرة وكلفة عظيمة، حتى أُبيعَت تطبيقة النعال بينهم بخمسين درهمًا، وأبيع رطل البَقْسَماط بدرهم ونصف إذا وُجد، ونَفَق أكثر خيل العسكر وجمالهم، ورجع أكثرهم إلى ساحل مصر في المراكب لأمور، منها: عدم الظهر،

ومنها أن النيل كان قد عَمّ البلاد، وقطع الطرق إلا الجبال، وكان وصول العسكر إلى القاهرة المحروسة في يوم الثلاثاء التاسع من جمادى الآخرة سنة سبع عشرة وسبعمائة.

ذكر الإفراج عن الأمير سيف الدين بُكْتمر الحُسَامِيّ الحاجب وإرساله إلى نيابة السلطنة الشريفة بالمملكة الصفدية

وفي يوم الخميس الرابع عشر من شوال رَسَمَ السلطانُ بالإفراج عن الأمير سيف الدين بُكْتمر الحسامي الحاجب ـ كان ـ وخلع عليه تشريفًا كاملًا طرد وحش مذهب، وقباء، وكَلُوتَه زَرْكَش، وشاش رقم، وحياصة ذهب، ورسم له نيابة السلطنة بالمملكة الصفدية والفتوحات الأشرفية، وخَلَع عليه تشريفًا ثانيًا كاملًا وسيفًا وحياصة، وأنعم عليه بمائتي ألف درهم، وتوجّه على خيل البريد في يوم الاثنين الخامس والعشرين من الشهر إلى دمشق، وكان نائب السلطنة الأمير سيف الدين تَنْكُز قد توجّه لزيارة القُدْسِ والخليل، وطلب الصيد بجهة الساحل، فاجتمع به ووصل معه إلى دمشق، وتوجّه منها إلى صفد في عاشر ذي القعدة.

وفي هذه السنة توجه الأمير سيف الدين أرْغُن نائب السلطنة الشريفة إلى الحجاز الشريف بعد سفر المحمل بأيام

وفي يوم السبت العشرين من ذي الحجة منها وردت مطالعةُ الأمير علاء الدين أُلْطنْبُغَا نائب السلطنة بالمملكة الحلبية إلى الأبواب السلطانية يتضمن أن جماعة من التتار المغول نحو ألف فارس أغاروا على أطراف البلاد الحلبية، وانتهوا إلى قرب قلعة كختا فنزل إليهم من القلعة نحو مائتي فارس ومن انضم إليهم من التركمان، واقتتلوا يومًا كاملًا حتى حجز بينهما الليل، ثم باكروا القتال واقتتلوا حتى أشرف التتار على أخذهم، وأنهم لما تحققوا الموت صدقوا في القتال وحملُوا حملة رجل واحد فكانت الهزيمة على التتار، فقتل أكثرهم وأسر منهم ستةٌ وخمسون فارسًا من أعيانهم، فمنهم: ثلاثة من مقدمي الألوف، واسترجع العسكرُ ما كانوا نهبوه من أطراف البلاد، وغنموا ما كان معهم من الخيل والعدة، فرسم السلطان بالإنعام والزيادة لهذه الطائفة المجاهدة، وكتب إلى نائب السلطنة بحلب بحمل الأسرى ورؤوس القتلى إلى الديار المصرية، وأن يؤدي خمس الغنيمة في المجاهدين، فوصلت الأسرى في صفر سنة سبع عشرة وسبعمائة.

وفي ذي الحجة من هذه السنة وردت الأخبار إلى الأبواب السلطانية بوفاة خربندا ملك التتار، وذُكِر أنه توفي في سادس شوال من السنة، وأنه كان قد أمر بإشهار النداء أن لا يُذْكَر أبو بكر وعُمَرُ رضي الله عنهما، وكان ذلك في يوم سبت فمات قبل أسبوع، وذكر أنه كان قد عزم على تجهيز ثلاثة آلاف فارس مع حُمَيْضَة بن أبي نُمَيّ إلى المدينة النبوية، لنقل أبي بكر وعمر من مدفنهما، فعجّل الله هَلْكَه، وهذه عادة الله تعالى فيمن طَغَى وتجبَّر.

وفي هذه السنة في مستهل شهر رجب تُوُفِّيَ القاضي عز الدين أحمد بن جمال الدين محمد بن أحمد بن مُيَسِّر المِصْري[١] بدمشق، ودفن بقاسيون، ومولده بمصر في ليلةِ يُسْفِرُ صباحُها عن الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وستمائة، وكان رجلًا ساكنًا، وَلي المناصَب الجليلة: نظر الدواوين بالشام، ونظر المملكة الطرابلسية، ونظر النُّظّار بالديار المصرية، وغير ذلك، وكان سَيِّىء التدبير رَدِيء التصرف في حق نفسه، لا يزال يزرع الأقصاب لنفسه بالديار المصرية، ويُدَوْلِبُ المعاصر وهو يَغْرَمُ ولا يستفيد، ويَقْتَرِضُ الأموال ويعيد الدَّوْلبة ويغرم، ولم يزل على ذلك إلى أن مات وعليه جملة كثيرة من الديون الشرعية أصلها من المتاجر والدَّوَالِيب، ولو اقتصر على معلوم مباشراته كان يزيد على كفايته رحمه الله تعالى.

وفيها في ليلة الخميس عاشر شعبان توفي الطواشي الأمير ظهير الدين مختار المنصوري المعروف بالبلبيسي[٢] أحد الأمراء والخزندار بدمشق، وكان شهمًا شجاعًا زكيًا دَيِّنًا خبيرًا رماحًا كريمًا، حسن الشكل واللباس، يتلو القرآن بصوت حسن، وفرق أمواله وجواريه وخيوله وعدده على عتقائه قبل وفاته، ووقف أملاكه على تربته وعتقائه، وقد رافقتُه بدمشق في ديوانه الخاص، فكان حسن الرُّفقة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير بدر الدين محمد بن الوزيري[٣] أحد الأمراء المقدمين بدمشق في يوم الأربعاء سادس عشر شعبان ودفن برأس ميدان الحصى رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٤/ ٧٧.
(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٣٧، الدرر الكامنة ٤/ ٣٤٤، البداية والنهاية ١٤/ ٧٨.
(٣) انظر ترجمته في البداية والنهاية ١٤/ ٧٩.

وتوفيت شيختنا أم محمد وزيرةُ ابنةُ الشيخ عمر بن أسعد بن مُنَجَّا الشَّوخِيَّة[(١)] بدمشق في الليلة المسفرة عن ثامن عشر شعبان سنة عشر وسبعمائة، ومولدها في سنة أربع وعشرين وستمائة ـ كذا نقلته من خط الشيخ علم الدين البِرْزَالي[(٢)].

وقال الشيخ شمس الدين الجَزَرِي في تاريخه سنة ثلاث وعشرين، رَوَتْ صحيح البخاري عن ابن الزبيدي، وسمعته عليها بالقاهرة في جمادى الأولى سنة خمس عشرة وسبعمائة، وسُمِعَ عليها وعلى الحَجَّار في هذه السنة بقلعة الجبل والقاهرة وظاهرها ومصر خمسَ مرات، أوَّلُها بقلعة الجبل بدار النيابة بالطبقة الحسامية في السادس والعشرين من صفر، وآخرها بالقلعة في أواخر جمادى الآخرة وأوائل شهر رجب رحمها الله تعالى.

وفي هذه السنة ـ في يوم الثلاثاء رابع عشر شعبان ـ توفي القاضي جمال أبو محمد عبد الله ابن شيخنا قاضي القضاة بدر الدين أبي عبد الله محمد ابن الشيخ برهان الدين إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الشافعي[(٣)]، وكانت وفاته بجامع الأقمر عند آذان العصر ودفن من الغد بتربة والده بالقرافة الصغرى بخط الخندق، وكان رحمه الله تعالى شابًا حسن الصورة والعشرة كريمًا كثير التردد إلى الناس والاستمالة لخواطرهم، وكان يدأب في نسج المودة بين والده والأكابر، ويجتهد في قضاء حوائج الناس، وكان يتصدق على الفقراء رحمه الله تعالى وأصيب والده فيه فصبر صبرًا جميلًا.

وتوفي الصاحب ضياء الدين أبو بكر بن عبد الله النشَّائي[(٤)] في الليلة المسفرة عن تاسع شهر رمضان بالقاهرة بحارة الجودرية، وهو يومئذٍ ناظر الخزَانة، ودُفن بالقرافة رحمه الله تعالى. ولما مات وَلِيَ نظرَ الخزانة بعده قاضي القضاة تقي الدين أحمد ابن قاضي القضاة عز الدين الحنبلي.

---

(١) هي ست الوزراء أم محمد وزيرة بنت عمر بن أسعد بن منجا الشوخية (انظر ترجمتها في: النجوم الزاهرة ٩/٢٣٧، السلوك للمقريزي ٢/١: ١٦٩، شذرات الذهب ٦/٤٠، البداية والنهاية ١٤/٧٩).

(٢) البرزالي: هو القاسم بن بهاء الدين محمد بن يوسف الحافظ، علم الدين أبو محمد البرزالي (بضم الباء الموحدة، بطن من البربر) الإشبيلي ثم الدمشقي المالكي، ولد سنة ٦٦٥ هـ، وتوفي بدمشق سنة ٧٣٩ هـ، من مصنفاته: «تاريخ البرزالي» جعله صلة لتاريخ أبي شامة، «معجم الشيوخ» يشتمل على ألفي شيخ. (كشف الظنون ٥/ ٨٣٠).

(٣) بدر الدين ابن جماعة: تقدمت ترجمته.

(٤) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/١: ١٧، والبداية والنهاية ١٤/٧٩.

وتوفي القاضي محب الدين علي ابن شيخنا الإمام العالم العلامة تقي الدين محمد بن وهب بن علي القُشَيْرِيّ المعروف بابن دَقِيق العيد[1]، وكانت وفاته في ليلة يسفر صباحها عن العشرين من شهر رمضان، ودفن بالقرافة في تربة والده رحمهما الله تعالى وكان قد انقطع بعد وفاة والده انقطاعًا حسنًا، وأكَبّ على الاشتغال بالعلم الشريف، وكان يدرس بالمدرسة الكهارية، ومولُده بمدينة قوص في ثاني صفر سنة سبع وخمسين وستمائة.

وفيها في عاشر ذي القعدة توفي الشيخ الكاتب المجيد المحمود نَجمُ الدّين مُوسَى بن عليّ بن محمد الحلبي ثم الدمشقي المعروف بابن البُصَيْص[2]، ودفن بمقابر باب الصغير، ومولده سنة إحدى وخمسين وستمائة، وكان شيخ الكتابة بدمشق، كتب وهو صغير، يقال: إنه كتب نحو خمسين سنة رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ صدر الدين أبو عبد الله محمد ابن الشيخ زين الدين عمر بن مكي بن عبد الصمد العُثْماني الشافعي المعروف بابن المُرَحِّل وابن الوكيل وابن الخطيب[3]، وكانت وفاته في بكرة نهار الأربعاء الرابع والعشرين من ذي الحجة بالقاهرة، ودفن بالقرافة بتربة القاضي فخر الدين محمد ناظر الجيوش المنصورة، ومولُده بثغر دمياط في تاسع عشرين شوال سنة خمس وستين وستمائة، وكان رحمه الله تعالى عالمًا فاضلًا كريمًا حسن الأخلاق والعشرة رقيق الشعر جيد البديهة رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة سبع عشرة وسبعمائة بالأربعاء

في هذه السنة في صفر حصل الشروع في إنشاء جامع بظاهر مدينة دمشق خارج باب النصر، أمَر بإنشائه الأمير سيف الدين تَنْكِزُ نائب السلطنة بالشام، وحضر القضاةُ والموقتون لتحريرَ سمتِ القبلة به، وتكرروا مِرَارًا حتى وضعوا محرابه وضعًا صحيحًا، وذلك في الخامس والعشرين من الشهر.

---

(١) هو ابن الحافظ الفقيه تقي الدين ابن دقيق العيد. (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٣٢، الدرر الكامنة ٤/ ٣٧٦، البداية والنهاية ١٤/ ٧٩).

(٢) انظر ترجمته في: الدليل الشافي ٢/ ٦٦٨، شذرات الذهب ٦/ ٤٠، طبقات الشافعية ٦/ ٢٣، تاريخ دول الإسلام ٢/ ١٧٠، الدرر الكامنة ٤/ ١١٥، الوافي بالوفيات ٤/ ٢٦٤، البداية والنهاية ١٤/ ٨٠).

(٣) تقدمت ترجمته.

ذكر حادثة السيل ببعلبك

وفي هذه السنة في العشر الأول من شهر ربيع الأول ورَدَ إلى الأبواب السلطانية مطالعةُ نائب السلطنة بدمشق تتضمن: أنه لما كان في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من صفر جاءت سيولٌ عظيمةٌ إلى مدينة بعلبك، فهدمت أسوارها ودُوَر المدينة، وأُحْصِيَ مَن دفن إلى يوم تسطير مطالعة نائب بعلبك إلى نائب السلطنة بالشام فكانوا ألفًا وخمسمائة نفر ـ خارجًا مَن هو تحت الردمُ.

وحكى الشيخ شمس الدين محمد إبراهيم الجَزَري[1] في تاريخه: أن هذه الحادثة لما وقعت جَهَّز نائبُ السلطنة بدمشق الشيخَ جمال الدين بنَ الشَّريشِي وكيلَ بيتِ المال إلى بعلبك لكشفها وإيقاع الحَوْطَة على موجود مَنْ هَلَكَ بسبب السيْلِ ولا وراث له غير بيت المال، وأن الشيخ توجّه لذلك وعاد في شهر ربيع الأول، وأحضر أوراقًا بصورة الكشف، قال: وقفتُ عليها ونقلها في تاريخه، وملخصها: أن الذي هدمه السيل الواقع بمدينة بعلبك في التاريخ المذكور، وسِعَتُهُ من الجامع والمساجد والسور والدور والحوانيت والحمامات والطواحين والاصطبلات، وما عدم فيه من الرجال والنساء والأطفال والخيول والدواب وغير ذلك، وخَصّ بيتَ المالِ منه نصيبٌ، وذلك مما أمكن ضبطه من المعروفين، خارجًا عن الغرباء الذين كانوا بالجامع والمساجد والطرقات ولم يعرفوا، وذلك خارجًا عن الكُرُوم والبساتين ظاهر المدينة، ما عِدَّتُه من الرجال والنساء والأطفال: مائة وسبعة وأربعون نفرًا، وبيوت ثمانمائة وخمسة وسبعون بيتًا «خرابًا» أربعمائة وواحد وثمانون، ومشعثةً: أربعمائة وأربعة عشر بيتًا، حوانيت: مائة وواحد وثلاثون حانوت خراب: أربعة وخمسون، ومشعثة: سبعة وسبعون. بساتين داخل البلد: أربعة وأربعون، الجامع المعمور والمدارس والمساجد: ثلاثة عشر عددًا أفدنه سبعة عشر دِمَن خراب: اثنتان، قنى السيل: أربعة، طواحين: إحدى عشرة، خراب: اثنتان، ومشعثة: تسع، المدبغَة: مشعثة، خيل: أربعة وبغال: اثنان، ودواب: خمسة وباقر رأس واحد، وذكر في الأوراق تفصيل ذلك بحاراته وبقاعه، وهَدَمَ من السور برجًا كاملًا ذرعه ثلاثة عشر ذراعًا في السُّفْلِ وارتفاعه ثمانية وثلاثون ذراعًا وبعض بَدَنَتَيْن، وذكر أشياء كثيرة من هذا النوع، وهذا لا ينافي ما تضمنته المطالعة الواردة

---

(١) شمس الدين محمد إبراهيم الجزري: كذا بالأصل، ولعله محمد بن إبراهيم المعروف بابن الجزري المتوفى سنة ٧٣٩ هـ، له «تاريخ دمشق» (كشف الظنون ٦/ ١٥٠).

إلى الأبواب السلطانية، فإن الأوراق إنما اشتملت على من لبيت المال نصيبٌ في ميراثه، والمطالعة شاملة.

ذكر حادثة الهواء بالبلاد الحلبية وما حصل بسببه

وفي يوم الأربعاء ثالث عشر شهر ربيع الأول في الساعة الثامنة من النهار ثارَ بمدينة حَلَب هواءٌ عظيم مزعجٌ أثار غبارًا عظيمًا، واقترن ببرق مترادف ورعد قوي، وأظلم الجَوُّ حتى لا يبصر الإنسان رفيقه إلى جانبه، ولا يستطيع أن يفتح عينه، حتى تَيَقَّنَ الناسُ الهلاك، ثم وقع مطرٌ عظيم وبَردٌ مع وجود الهواء، وامْتَدَّ الهواء والمطرُ على إقليم جبل سمعان غربي مدينة حلب، فاقتلع أشجارًا كثيرةً رومَانِيَّة من البَلُّوط والزيتون والكروم، وكان يقتلع الشجرة العظيمة من الأرض بعروقها، وأهلك من مرّ عليه من المسافرين، ومَا مَرّ على بلد إلا خَرَّبَه خرابًا فاحشًا، فأخرب عشر قرى وهي: تذبل، وكفر عمه وكفر جور، وبالّا، وأم تحنين، والربيعية، ومعاد، وعين جارا، وبراطون والأبزمو وأهلك مَن بهذه القرى من الناس والدواب والوحش والطير، واجتمع من المطر سيل عظيم مَرّ على وادي العَسَل وهو وادٍ كبيرٌ فيه الدَّرْب السلطاني، يسلكه المارون من مدينة حلب إلى جميع إقليم جبل سَمْعَان، وإلى أعمال حَارِم وغيرها، فامتلأ وغرَّق ما مَرّ عليه من الناس والدواب، وامْتُنِع من سلوكه مدة، وخرج من الهواء المذكور عمودٌ يرمي بشرر من نار، وجاء إلى كنيسة الربيعية، وهي كنيسة قديمة رومانية مبنية بحجارة هرقلية كل حجر منها لا يشيله عشرة من العتالين، محكمة البناء، ودخل العمود إلى هذه الكنيسة واقتلعها من أساسها وحملها في الجو صعدًا مقدار رَمْيَةِ نِشَابٍ وأكثر، وهي بحالها لم يتغير حجر عن حجر، وشاهدها على ذلك من سلم من الناس ممن كان خارجًا عن هذا العمود من الهواء، وجعلوا يستغيثون ويجأرون إلى الله تعالى، ويسبحونه ويستغفرونه، ولما انتهت الكنيسة في العلو إلى هذه الغاية انتقضت أحجارها وتساقطت إلى الأرض، فمن الحجارة ما غاص في الأرض وغاب، ومنها ما غاص نصفه وأقل من ذلك وأكثر، وبقي مكان أساس الكنيسة شبه الخنادق. أخبرني بذلك الأمير علاء الدين أيدُغْدِي الشهرزوري المتقدم ذكره عن كتاب شهاب الدين أحمد ولده إليه، قال: ولما وصل إليّ كتابُه بذلك أعَدْتُ جوابَه أسأله عن تحقيق هذا الأمر، فكتب إليّ: هذا أمر محقق وإن نائب السلطنة جهَّزَ جماعةً لكشف هذه الحادثة، وكان هو ممن ندب لكشف ذلك، وقد بلغتني هذه الواقعة من غير الأمير علاء الدين المذكور، واشتهرت، وآيَاتُ الله تعالى ومعجزاته كثيرة، نعوذ بالله تعالى من سخطه، ونسأله رضاه وعفوه ومغفرته.

وفي هذه السنة في شهر ربيع الأول أيضًا ورد كتابُ الأمير أَسَد الدين رُمَيْثَه أمير مكة إلى الأبواب السلطانية يتضمن: أن أخاه عز الدين حُمَيْضَة قَدِمَ من بلاد العراق، وكان قد تَسَحَّبَ إليها والتحقَ بَخَرْبَنْدَا كما تقدم، وأنه وصلَ الآن على فرس واحد ومعه اثنان من أعيان التتار، وهما: دَرْقَنْدِي ـ وقيل فيه دلقندي ـ وملك شاه ومعهم ثلاث وعشرون راحلة، وأنه كتب إلى أخيه رُمَيْثَة يستأذنه في دخول مكة؛ فمنعه إلا بعد إذن السلطان. فكتب السلطان إلى حُمَيْضَة أنه إن حضر إلى الديار المصرية على عزم الإقامة بها فله الأمان ويسامحه بذنوبه السالفة، وأما الحجاز فلا يقيم فيه، وكتب إلى درقندي ومَلِكْشَاه بالأمان، وأن يحضرا، وأخبر من وصل أنهم لقوا في طريقهم شدة من العراق إلى الحجاز، وأن العربان نهبوهم، فَنُهِبَ لدَرْقَنْدِي أموالُ جمة وأنه وصل على فرس واحد مسافة عشرين ليلة، وقد حكي عن الأمير محمد بن عيسى أخي مُهنَّا أن الملك خَرْبَنْدا كان قد جَهَّز دَلقنْدِي المذكور في جمعٍ كثير مع عز الدين حُمَيْضَة قبل وفاته إلى الحجاز لِنَقْلِ الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من جوار رسول الله ﷺ وأن الأمير محمد المذكور جمع من العُرْبَان نحو أربعة آلاف فارس وقصد المقدم المذكور وقاتله ونَهَبَهُ، وكسب العرب منه جملةً عظيمة من الذهب والدراهم، حتى إن فيهم جماعة حَصَل للواحد منهم نحو ألف دينار غير الدواب والسلاح وغير ذلك، وأخذوا الفؤوس والمجارف التي كانوا قد هيؤوها لنبش قبر الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وكان ذلك في الحجة سنة ست عشرة وسبعمائة، ولما ورد كتابُ الأمير أسد الدين رُمَيْثَة إلى السلطان بما تقدم ندب السلطان إلى مكة ـ شرفها الله تعالى ـ الأميرين سيف الدين أَيْتَمُشْ المحمدي، وسيف الدين بَهَادُر السَّعيدي أمير عَلَم، وأمرهما أن يَسْتَصْحِبَ كلُّ واحدٍ منهما عشرة من عدته وجَرَّد معهما من كل أمير مائةٍ جُنْدِيَّيْنِ، ومن كل أميرِ طبلخاناه جنديًا واحدًا، وتوجَّها إلى مكة لإحضار حُمَيْضَة ومن حضر من التتار، فتوجها في يوم السبت سادس عشر ربيع الأول بمن معهما، ووصلا إلى مكة وأرسلا إلى حُمَيْضَة في معاودة الطاعة، وأن يتوجّه معهما إلى الأبواب السلطانية، فاعتذر أنه ليس معه من المال ما يُنْفِقُهُ على نفسه ومن معه في سفره، وطلب منهما ما يستعين به على ذلك، فلما قبضَ المالَ تَغيَّبَ، وعَادا إلى القاهرة فوصلا في يوم الأحد السادس والعشرين من جمادى الآخرة من السنة.

وفي هذه السنة فُوِّضَ قضاءُ القضاة بدمشق على مذهب الإمام مالك بن أنس للقاضي فخر الدين أحمد ابن القاضي تاج الدين سَلامة بن سَلامَة الإسكندريّ

المالكي، في الثالثة والعشرين من شهر ربيع الآخر، عوضًا عن قاضي القضاة جمال الدين الزواوي، وكان قد عجز عن القضاء، واشتدت به الرعشة، وثقل لسانه، فعزل بسبب ذلك، وتوجّه القاضي فخر الدين إلى دمشق، فوصل إليها في السابع والعشرين من جمادى الأولى، ولم تطل مُدَّة القاضي جمال الدين بعد وصوله، فإنه مات في تاسع جمادى الآخرة على ما نذكرُ إن شاء الله تعالى.

ذكر توجه السلطان إلى الشام، ووصوله إلى الكرك وإفراجه عمن يذكر من الأمراء، وعوده

وفي يوم الخميس رابع جمادى الأولى من السنة توجّه السلطان إلى جهة الشام، وكان قد كَتَم مَقْصِدَه عن سائر الناس حتى عن خواصه، وأظهر أن مقصده بسبب الصيد واستكثر من الروايا فكان معه لخاصّه ما يزيد على ألف راوية، وحمل الأمراء كل أمير بحسب حاجته من ثمانين راوية إلى عشرين، وكذلك من معه من مقدمي الحلقة المنصورة، وصحبته جماعة من الأمراء والمقدمين، وتوجّه فوصل إلى غزة في الثامن عشر من الشهر، وتوجّه إلى زيارة القُدْس والخليل عليه السلام، ثم إلى الكَرَك، وحضر إلى خدمته بالكرك الأمير سيف الدين تَنْكِزْ نائب السلطنة بالشام، ثم توجّه السلطان من الكَرَك إلى الشَّوْبَك وتَصَيَّد هناك، وأفرج في هذه السَّفْرَةِ عن الأميرين ركن الدين بِيبَرْس الدَّوادار، وسيف الدين بَهَادُر آص المنصوريين في يوم الخميس ثاني جمادى الآخرة، وعاد السلطانُ إلى مَقَرِّ مُلْكِه، فكان وصولهُ إلى قلعة الجبل في الساعة الأولى من نهار الأربعاء خامس عشر جمادى الآخرة من السنة، ووصل الأميران إلى قلعة الجبل، فَخَلع السلطانُ عليهما، وأمَّرَ كلَّ واحدٍ منهما وقدَّمَه على ألف على عاداته.

واستقر الأمير ركن الدين بِيَبرس الدَّوادَار بالديار المصرية، وجلس رأس المَيْسَرَة، وأعيد الأمير سيف الدين بَهَادرُ آص إلى دمشق على عادته، فكان وصوله إليها في يوم الاثنين رابع شهر رجب.

ذكر خبر النيل المبارك في هذه السنة

وإنما خصصنا هذه السنة بذكره لأنه وقع فيه من الغرائب في أمره ما لم تَجْرِ بمثله عادة، وذلك أن النيل المبارك وَفَّى بمقياس مصر في يوم السبت الثالث عشر من جمادى الأولى الموافق التاسع عشرين أبيب سِتَّةَ عَشَر ذِرَاعًا، وحصل التخليق وكُسِرَ

سَدُّ الخليج في هذا اليوم، وما وقع مثل ذلك في هذا العصر؛ فإن العادة في غالب السنين أن يكون الوفاء في الآخر من مِسْرَى وفي الأوسط منه، وربما تأخّر عن ذلك فيكون في أيام النسيء، وأوائل توت، ثم زاد بعد ذلك وأخذ في النقص والزيادة، فكانت زيادته إلى آخر مِسْرَى ذراعًا واحدًا، ثم وقف مدةً وزاد أُخْرَى، فبلغت زيادته إلى آخر يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من جمادى الآخرة الموافق لتاسع توت سبعة عشر ذراعًا وتسع أصابع، وزاد في يوم الأربعاء عاشر توت خمس أصابع، وفي بُكْرَة الخميس الذي يَلِيه تسع أصابع، وفي يوم الجمعة ثاني عشر توت خمس أصابع، وفي يوم السبت والأحد أربع أصابع في كل يوم أصبعين؛ فكملت زيادته بمقياس مصر ثمانية عشر ذراعًا وست أصابع، ولمّا غلق الذراعَ الثامنَ عشر غرّق كثِيرًا من الأدر المجاورة له بساحل مصر والروضة، وغَرّق الأقصاب والبساتين، وقطع الطريق فيما بين القاهرة ومصر في عدة مواضع، فأمر السلطان بقطع الخُلْجَان التي عادتها تُكْسَرُ في عيد الصَّلِيب، مثل بحر أبي الرّجا والكينونة وغيرها، وذلك قبل الوقت المعتاد، والعادة جارية أن هذه الخلجان إذا قطعت ينقص بحر النيل بسبب قطعها نحو ثلثي ذراع؛ لما ينصب فيها منه، فلم يضطرب النيلُ لقطعها ولا تَوَقّفَ، بل زاد ما ذكرناه، ولعله لو لم تُقْطع هذه الخلجان العظيمة كانَ بَلَغَ في الزيادة إلى أكثر مما انتهى إليه، وعم فسادُه، ثم ثبت النيل بعد ذلك على البلاد ثبوتًا حسنًا إلى حد الاستغناء عنه، فأخذ في النقص، فكان ينقص قليلًا، ثم يثبت مدة، ثم ينقص، حتى أخذت الأراضي حاجتها من الري وهبط والحمد لله.

ذكر إفراد مصر عن قاضي الحنفية

وفي يوم الثلاثاء التاسع عشر من شهر رجب فُوِّضَ قضاءُ القضاة الحنفية بمصر للقاضي سراج الدين عمر بن شهاب الدين محمود، وخُلِعَ عَليه بطرحه على عادة القضاة، وجلس بجامع مصر، وحكم في هذا اليوم، واختزل ذلك من ولاية قاضي القضاة شمس الدين محمد بن الحريري الحنفي، واستقر بالقاهرة خاصة، وصار القضاة الأصول خمسة، وهم: قاضي القضاة بدر الدين الشافعي، وقاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف، وقاضيا القضاة الحنفيان المذكوران، وقاضي القضاة تقي الدين أحمد الحنبلي، وكان السبب في ولاية سِرَاج الدين المذكور القضاء أن قاضي القضاة شمس الدين الحنفي المذكور طُلِبَ منه أن يحكم بتعويض الورثة الظاهرية عن قرار إسطبل الأمير سيف الدين بكتُمر السّاقي المُطِلّ على بركة الفيل بظاهر القاهرة. ويمكّن هو قرار إسطبله. فامتنع من ذلك، ووافق سراجُ الدين على الحكم بصحة

ذلك إن هو وُلِّيَ، فَوُلِّيَ ذلك، ولم تطل مدته في القضاء فإنه توفي إلى رحمة الله تعالى في الثالث والعشرين من شهر رمضان من السنة، وأعيد قاضي القضاة شمس الدين بن الحريري إلى ولاية القضاء بمصر على عادته، وخُلِعَ عليه، ونَفَعَهُ الامتناعُ من الحكم بما فيه شبهة وما ضرَّهُ العزل ـ وجزاه الله خيرًا.

وفي هذه السنة في أواخر شعبان قطع جماعةٌ من التتار الفُرَاتَ إلى جهة الشام، ووصلَ إلى دمشق في سادس شهر رمضان مُقَدَّمُ ألفٍ من التتار اسمُه طاطي، كان منشؤه من العراق وديار بكر بمكان يعرف بقفر ابن زغل ووصَلَ صحبَتَه نحوُ مائة فارس بنسائهم وأولادهم، ثم تجهزوا من دمشق في الشهر المذكور فوصلوا إلى القاهرة في شوال من السنة.

ذكر عود رسل السلطان من جهة الملك أزبك ووصول رسله

وفي شهر رمضان من هذه السنة عادت رسل السلطان من جهة الملك أزبَك، وهم الأميرُ علاء الدين أيْدُغدِي الخوارزمي ومن معه، وصحبهم رسلُ الملك أزْبَك، فمثلوا بين يدي السلطان في يوم الخميس رابع الشهر، وكان السلطانُ قد خَطب إلى الملك أزبَك امرأةً من بنات الملوك من البيت الجنكزخاني، وبعث مع رسله هديةً طائلة جليلة المقدار، فلما جاءت الرسل اشتطوا في المهر فطلبوا مائة طمان من الذهب، والطمان عشرة آلاف دينار، فيكون جملة ذلك ألف ألف دينار، وألف ألف فرس، وألف عدة كاملة للحرب، وغير ذلك، واشترطوا أن يحضر لتسليمها جماعةٌ من الأمراء الأكابر ونسائهم، وغير ذلك من الشروط التي لا يمكن الإجابة إليها، فنزل السلطانُ عن هذه الخِطبة وعَدَل عنها إلى ما جرت العادة به من المكاتبات بينه وبين الملك أزْبَك، ثم كان من خبر إرسال المخطوبة من غير استدعاء من السلطان والصلة بما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر روك المملكة الطرابلسية وما يتصل بذلك من إبطال الجهات المنكرة بها وأخبار النصيرية[1]

وفي سنة سبع عشرة وسبعمائة رسم السلطانُ بروك المملكة الطرابلسية وما أضيف إليها من الأعمال والقلاع والحصون والثغور، فكُشِفَت النواحِي، ونُصِبَ

(١) النصيرية: فرقة من غلاة الشيعة، نسبة إلى رئيسها محمد بن نصير النميري من القرن الثالث الهجري المتوفى حوالي العام ٢٧٠ هـ. قالوا: حلّ الله في علي رضي الله عنه (موسوعة الفرق والجماعات ص ٣٩٤، معجم الفرق الإسلامية ص ٢٤٩).

لتحريك ذلك وإتقانه القاضي شرفُ الدين يَعْقُوب ناظر المملكة الحلبية، فحضر إلى طرابلس حسبَ الأمر الشريف، وانتصبَ لتحرير ذلك، وفي خدمته جماعةٌ مِن الكتاب، ولم يُعْتَمَدْ فيه على ناظر المملكة الطرابلسية شرف الدين يعقوب الحموي، ولما تكامل ذلك حضر القاضي شرف الدين يعقوب ناظر المملكة الحلبية ومعه المكتوب إلى الأبواب السلطانية، وجلس القاضي فخر الدين ناظر الجيوش ومن معه من المباشرين، وانتصبوا لقسمة الإقطاعات وتقرير الخواص، وأفراد جهات القلاع والحصون، وكلَتِ المملكة، فكمل ذلك في شهر رمضان من السنة واستقر لاستقبال شهر رمضان في الهلالي والخراجي لاستقبال فعل سنة سبع عشرة وسبعمائة وتوفر بسبب هذا الرَّوْك ما أقيم عليه ستَّة أمراء أصحاب طبلخاناه وثلاثة أمراء أصحاب عشرات، وخمسون نفرًا من البحرية والحلقة، ورُسِمَ بإبطال جهة الإفراج والسجون، وغير ذلك بالمملكة الطرابلسية فأبطلت، وجملة ذلك نحو مائة ألف درهم وعشرة آلاف درهم في كل سنة، رسمَ أن يُبنَى بقرى النصيرية في كل قرية مسجدٌ ويُفْرَد من أراض القرية رزقة برسم المسجد، وتمنع النصيرية من الخطاب ومعناه أن الصبي إذا بلغ الحلم وأنِسَ منه الرشد يتطاول إلى المخاطبة ويتوسل إلى أبيه وقرائبه في ذلك مدة، فيجمعون له مجتمعًا، يجتمع فيه أربعون من أكابرهم، ويذبح هو أو وليه رأس بقر وثلاثة أرؤس من الغنم، ويفتح لهم خابية من الخمر فيأكلون ويشربون، فإذا خالطهم الشراب أخذ كل واحد منهم يحكي حكاية عمن خُوطِب، وبَاح بما خُوطِب به أنه قُطِعَت يده، أو عمى أو سقط من شاهق فمات أو ابتُلي بعاهة، كل ذلك تحريض للمخاطب على كتمان ما يودع إليه من الذهب. فإذا استوثق منه تقدّم إليه المعلمُ فحلّفه أربعين يمينًا على كتمان ما يوجب إليه، ثم يوضح له الخطاب وكيفيته على ما نُقِلَ بإلَهِيَّة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأن محمدًا بن عبد الله كان حجابًا عليه بواسطة جبريل، ويسمون رسولَ الله ﷺ بالسيد صندل ويرفع عن المخاطب التكليف وعَرّفَه أن لا صلاة ولا زكاة ولا صوم ولا حج إلا إلى مكان يزعمون أن فيه ضريح علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأن الروح الإلـٰهي الذي كان فيه ينتقل في واحد واحد وأنه الآن في هذا العصر في رجل يسميه المخاطبة ويعرفه بأن يقف عندما يأمره به وينهاه عنه، ويحل له ويحرم عليه، ثم يعرفه أنْ لَا غُسْلَ من جنابة، ويأخذ عليه العهد أن لا ينصح مسلمًا في أكل ولا شرب ولا يسايرُه ولا يعامله، ويعرفه أن مالَ المسلمين فيء له إن استطاع ولهم سلام بينهم يَعْرِفُ بعضُهمْ بَعْضًا به عند المصافحة والمكالمة له.

وأخبرني من أثق به في هذه السنة، أن الذي تزعم النصيرية أن الروحَ الإلـٰهي حلّ بِه رجلٌ اسمُه شرف، وهو رئيس قرية سَلَغْنُو من عمل صِهيون. ومن ظريف ما بلغني عن شرف هذا أن بعض أهل تلك الناحية مَرِضَ فجاءه ولدُ المريض وسأله أن يعافى أباه فوعده بذلك، وأن أباه لا يموت في هذه المرضة فاشتد به الوجع فعاوده فأجابه بمثل ذلك، ثم مات المريض، فجاءه ابنه وقال له: لا أدعك حتى تُعِيدَه حَيًّا كما وعدتني فقال له شرف: دعْ هذا فإن الدولة ظالمة ولا تفتح هذا الباب فإنه يؤدي إلى إلزامنا بإحياء من أرادوا إحياءه ممن يموت.

وأخبرني المخبِرُ أنَّ شرفًا هذا المذكور فيه كَرَمُ نفسٍ وخدمةٌ لمن يَردُ عليه من الأضياف وغيرهم.

ولما رسَم بإبطال ما ذكرناه وبناء المساجد بقرى النُّصَيْريّة كُتِبَ مرسومٌ شريف سلطاني من إنشاء القاضي كمال الدين ابن الأمير مضمونه:

بسم الله الرحمـٰن الرحيم «الحمد لله الذي جعل الدين المحمديّ في أيامنا الشريفة قائمًا على أثبت عماد واصطفانا لإشادة أركانه وتنفيذ أحكامه من بين العباد، وسهل علينا من إظهار شعائره ما رام منْ كَان قبلنا تَسْهيلَه فكان عليه صَعْبَ الانقياد، وادّخر لنا من أجور نصره أجلَّ ما يدَّخَرُ ليوم يُفْتَقَرُ فيه لصالح الاستعداد، نحمده على نعم بَلَغَتْ من إقامة مَنَار الحق المراد، وأخمدتْ نارَ الباطل بمُظَافَرَتِنا ولولاها لكانت شديدة الاتقاد ونكّست رؤوس الفحشاء فعادت على استحياء إلى مُسْتَسِنّها أقبح معاد. ونشكره على أن سطَّر في صحائفنا من غرر السِّيَرِ ما تَبْقَى بهجتُه ليوم المعاد، ونشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له شهادة يجدها العبدُ يوم يقوم الأشهاد، وتَسْرِي أنوارُ هَدْيها في البرايا فلا تزال آخذة في الازدياد ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي بعثه الله بالإنذار ليوم التناد والإعذار إلى من قامت عليه الحجة بشهادة الملكين فأوضح له سبيل الرشاد، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ـ الذين منهم من رَدَّ أهْل الرِّدَّةِ إلى الدين القويم أحسن ترداد ومنهم من عم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سائر العباد والبلاد، ومنهم من بذل مَالَه للمجاهدين ونَفْسَه في الجهاد، ومنهم من دافع عن الحق فلا بَرِحَ في جِدَالٍ عنه وفي جلاد صلاة تهدي إلى السداد ويقوّمُ المعوج وتثقف الميّاد، وسلَّم تسليمًا كثيرًا وبعد فإن الله تعالى منذ ملكنا أمورَ خلقه، وبَسَط قُدْرتَنا في التصرف في عباده، والمطالبة بحقه، وفوَّض إلينا القيام بنصرة دينه، وفهَّمنا أنه تعالى قبض قبل خلق الخلائق قبضتين فرغبنا أن نكون من قبضة يمينه، وألقى إلينا مقاليدَ المماليك، وأقام

الحجة علينا بتمكين البسطة وعدم التشاقق في ذلك ومَهَّد لنا من الخير ما على غيرنا توعَّر، وأعد لنا من النصر ما أجْرانا فيه على عوائد لطفه، لا عن مَرَح في الأرض ولا عن خدٍّ مصعَّر وألهمنا إعلاء كلمة الإسلام، وإعزاز الحلال وإذلال الحرام، وأن تكُون كلمة الله هي العُلْيَا وأن لا نختار على الدار الآخرة دارَ الدنيا، وأن نَدُور مع الحقّ حيث دار، ونرغبَ عن هذه الدار بما أعدَّه الله من جنَّاتِه في تلك الدار، فلم نزل نقيمُ للدين شعارًا ونُعْفي المنكر ونعلن في النصيحة لله ورسوله ونسرّ إسرارًا، ونتتبع أثَرَ منكر نُعَفّيه، وممطول بحقه نُوَفّيه ومغلَم قُربَه نُشَيِّدُه ومَخذُولًا استظهر عليه الباطل نؤيِّده، وذَا كُرْبَة نُفَرِّجُها وغريبة فحشاء استطردت بين أدواء الحيل نخرجها وميتةً سيئة تَسْتَعْظِمُ النفوس زوالها فنجعلها هباء منثورًا، وجملة عظيمة أسست على غير التقوى مبانيها فيحطمها كَرَمُنا إذا الجزاء عنها كان موفورًا.

فاسْتقْصينا ذلك في ممالكنا الشريفة مملكة مملكة واستطردنا في إبطال كل فاحشة موبقة مهلكة، فَعَفَّيْنا من ذلك بالديار المصرية ما شاع خَبَرُه، وظهر بين الأنام أثره، وطُبّقَتْ محاسنه الآفاق ولهجت به ألسنة الرعايا والرفاق، من مُكوسٍ أبطَلْنَاها، وجهات سوء عَطَّلناها، ومظالم رددناها إلى أهلها، وظلمةً زجرناها عن ظلمها وغيّها وبواق تسامَحْنا بها وسمحنا وطلبات خففنا عن العباد بتركها وأرحنا، ومعروفًا أقمنا دعائمه وبيوتًا لله عَزّ وجَلّ آثرنا منها كل نائية، ثم بثثنا ذلك في سائر الممالك الشامية المحروسة، وجَنيْنا ثَمرَاتِ النصر من شجراتِ العَدْل التي هي بِيَدِ يَقْظَتِنَا مغروسة».

ولما اتصل بعلومنا الشريفة أن بالمملكة الطرابلسية آثار سوء ليست في غيرها ومواطن فَسْقٍ لا يقدر غيرنَا على دفع ضررها وضيرها، ومظان آثام يجد الشيطان فيها مجالًا فسيحًا، وقُوًى لا يوجَدُ بها من كان إسلامه مقبولًا ولا من كان دينه صحيحًا، وخمورًا يُتَظَاهَرُ بها، ويَتَّصِلُ سببُ الكبائر بسببها، وتُشاع في الخلائق، تجاهُرًا وتشاع على رؤوس الأشهاد فلا يوجد لهذا المُنْكَر مُنْكرًا، ويحتج في ذلك بمقررات سُحْتٍ لا تجدي نفعًا، وتبقى بين يَدَي آخذها كأنها حية تسعى.

ومما أنهي إلينا أن بها حانةً عُبِّر بالأفراح قد تطائر شررُها، وتفاقم ضَرَرُها، وجُوهِرَ فيها بالمعاصي وآذنت ـ لولا حلم الله وإمهاله ـ بزلزلة الصياصي[1] وغَدت

(١) الصياصي: جمع صيصية، وهو الحصن، وفي القرآن الكريم: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٢٦].

لأولي الأهوية مجمعًا، ولذوي الفساد مَرْبَعًا ومَرْتَعًا، يُتَظَاهرُ فيها بما أمرَ بستره من القاذورات، ويُؤتى ما يجب تَجَنُّبه من المَحْذُورَات، ويُسْتَرْسَلُ في الانشراح فيها إلى ما يؤدي إلى غضب الجبار وتتهافتُ النفوس بها كالفراش على الاقتحام في النار.

ومنها أن السجون إذا سُجِنَ بها أحدٌ يجمع عليه بين السجن وبين الطلب وإذا أفرج عنه ولو في يومه ـ انقلب إلى أهله من الخسارة أسوأ منقلب، فهو لا يجدُ سرورًا بِفَرَجِه ولا يَحْمَدُ عقبى مخرجه.

ومنها أن بالأطراف القاصية من هذه المملكة قرىً سكانُها يُعْرَفُون بالنُّصيريَّة لم يَلِجِ الإسلام لهم قلبًا ولا خالط لهم لُبًّا، ولا أظهروا له بينهم شعارًا، ولا أقاموا له منارًا، بل يخالفون أحكامه، ويجهلون حَلَالَه وحرامَه، ويخلطون ذبائحهم بذبائح المسلمين، ومقابرهم بمقابر أهل الدين، وكل ذلك مما يجب رَدْعُهُم عنه شرعًا، ورجوعهم فيه إلى سواء السبيل أصْلًا وفَرْعًا، فعند ذلك رَغِبْنَا أن نفعل في هذه الأمور ما يبقى ذكره مفخرة على ممَرِّ الأيام وتدوم بهجته بدوام دولة الإسلام ونمحو منه في أيامنا الشريفة ما كان على غيرها عارًا، ونسترجعُ للحق من الباطل ثوبًا طالما كان لَدَيْه مُعارًا ونُثْبِتُ في سيرة دولتنا الشريفة عوارفَ لا تزال مع الزمن تُذكَرَ ونَتْلو على الأسماع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النحل: الآية ٩٠].

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الناصري ـ لا زال بالمعروف آمرًا، وعن المنكر ناهيًا وزاجرًا، والامتثال لأوامر الله مسارعًا ومبادرًا ـ وأن يبطل من المعاملات بالمملكة الطرابلسية ما يأتي ذكره، وهو جهات الأفراح المحذورة بالفتوحات خارجًا عما لعله يستقر من ضمان الفرح الخيِّر وتقديرها سبعون ألف درهم، السجون بالمملكة الطرابلسية خارجًا عن سجن طرابلس بحكم أنه أبطل بمرسوم شريف متقدم التاريخ، وتقديرها عشرة آلاف درهم سُخر الأقصاب المحدث ما بين أقصاب الديوان المعمور التي كان فلاحو الكورة بطرابلس يعملون بها، ثم أعْفَوا عن العمل، وقرر عليهم في السنة تقدير ألفي درهم أقصابًا؛ أقصاب الأمراء بحكم أن بعض الأمراء كانت لهم جهات تَزْرَعُ الأقصاب، وقدروا على بقية فلاحيهم العمل بها أو القيام بنظير أجرة العمل، وتقدير ذلك، ثلاثة آلاف درهم، عفاية النيابة بكورة طرابلس وأَنَفَه البثرون وما معه بحكم أن المذكورين كانوا يبيتون على المراكز بالبحر، فلما سُدَّتْ المراكز بالعساكر المنصورة قرر على كل نفر في السنة ستة دراهم، وتقدير ذلك عشرة آلاف درهم حق الديوان بصهيون وبِلاطُنُس عمن كان

يعاني حصيها وتقدير متحصل ذلك ثلاثة آلاف درهم. هبة البيادر بنواحي الكهف، مستجدة مما كان يُسْتَأدى عن كل فدان ثلاثة دراهم، وتقدير متحصله ألف درهم ضمان المستغل بطرابلس مما كان أولًا بديوان النيابة بالفتوحات ثم استقر في الديوان المعمور في شهور سنة ست عشرة وسبعمائة وتقديره أربعة آلاف درهم. ما استجد في إقطاعات بعض الأمراء على الفلاحين مما لَمْ تَجْرِ به عادةٌ من حقّ حشيش وملح وضيافة، وتقديرهُ ستة آلاف درهم فَلْيَبْطُل ذلك على مَرّ الأزمنة والدهور إبطالًا باقيًا إلى يوم النشور، لا يُطْلَب ولا يستأدى ولا يَبْلُغُ الشيطانُ في بقائِه مرَارًا وليقرأ مرسومنا هذه على المنابر ويشاع ويستجلب لنا به الأدعية الصالحة فإنها نعم المتاع.

وأما النصيرية فليُعَمّ في بلادهم بكل قرية مسجد وليطلق له من أرض القرية المذكورة قطعة أرض تقوم به، وبمن يكون فيه للقيام بمصالحه على حسب الكفاية، بحيث يستنيبُ الجنابُ العالي الأميري الكبيري العالمي العادلي الزعيمي الكافلي الممهدي المشيّدي الذخري الشهابي نائب السلطنة الشريفة بالمملكة الطرابلسية والحصون المحروسة ضاعف الله نعمته - من جهته من يَثق إليه لإفْراد الأراضي المذكورة، وتحديدها وتسليمها لأئمة المساجد المذكورة، وفصلها عن أراضي المقطعين، ويعمل بذلك أوراقٌ وَيَخُلّدُ بالديوان المعمور حتى لا يبقى لأحد من المقطعين فيها كلام، ويُنَادى في المقطعين وأهلِ البلاد المذكورة بصورة ما رسمنا به فذلك وكذلك رسمنا أيضًا بمنع النصيرية المذكورين من الخطاب وأن لا يمكنوا بعد ورود مرسومنا هذا من الخطاب جملة كافة وتؤخذ الشهادة على أكابرهم، ومشايخ قراهم بأن لا يعود أحدٌ إلى التظاهر بالخطاب، ومن تظاهر به قوتل أشد مقاتلة فَلْتُعْتَمد مراسِمُنَا الشريفة ولا يُعْدل عن شيء منها، ولتجر المملكة الطرابلسية مَجْرَى بقيّة الممالك المحروسة في عدم التظاهر بالمنكرات وتعْقبه آثار الفواحش وإقامة شعائر الدين القويم ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٨١﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨١] والاعتماد على الخط الشريف أعلاه إن شاء الله عزّ وجلّ.

كتب في السابع من شوال سنة سبع عشرة وسبعمائة حسب المرسوم الشريف والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

هذا ما تضمنه المرسوم السلطاني ومنه نقلت وقد كانت كتبت فتيا في أمر النصيرية وتضمنت اعتقادهم وما هم عليه، وأجاب عن ذلك الشيخ تقي الدين بن

تَيْمِيَة، وقد رأينا أن نذكر نص الفتيا والجواب في هذا الموضع، لما في ذلك بيان ما تعتقده هذه الطائفة الملعونة، والذي كتب هذه الفتيا التي تُذْكَر، شهاب الدين أحمد بن محمود بن مري الشافعي ونُسْخَتُهَا بعد البسملة.

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين، وأعانهم على إظهار الحق المبين وإخماد الشغب المُبْطلين، في النصيرية القائلين باستحلال الخمر، وتناسُخ الأرواح، وقِدَمِ العالم، وإنكارِ البعث والنشور، والجنة والنار في غير الحياة الدنيا وبأن الصلواتَ الخمس عبارةٌ عن خمسة أسماء وهي: علي، وحسن، وحسين، ومحسن، وفاطمة، فذكر هذه الأسماء الخمسة على رأيهم يُجْزِيهم عن الغُسْل من الجنابة والوضوء وبقية شروط الصلوات الخمسة وواجباتها وبأن الصيام عندهم عبارة عن اسم ثلاثين رجلًا واسم ثلاثين امرأة يعدونهم في كتبهم، ويضيق هذا الموضع عن إيرادهم وبأن إلهَهُم الذي خلق السمٰوات والأرض هو، عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه فهو عندهم إلـٰه في السماء والإمام في الأرض، وكانت الحكمة في ظهور اللاهوت بهذا الناسوتَ على رأيهم أنهُ يؤنس خلقه وعبيده وليعلمهم كيف يعرفونه ويعبدونه.

وبأن النصيري عندهم لا يصير نُصيريًا مؤمنًا يجالسونه ويشربون معه الخمر ويطلعونه على أسرارهم، ويزوّجونه من نسائهم حتى يخاطبه معلمه. وحقيقة الخطاب عندهم أن يُحَلِّفُوه على كِتمانِ دينِه ومعرفة شيخه وأكابر أهل مذهبه وعلى أن لا ينصح مُسْلمًا ولا غيرَه إلا ما كان من أهل دينِه وعلى أن يعرِفَ ربَّه وإمامهُ بظهوره في أكواره وأدواره فيعرف انتقال الاسم والمعنى في كل حين وزمان فالاسم عندهم في أول الناس آدم، والمعنى شيث والاسم هُوَ يعقوبُ والمعنى يوسف، ويستدلون على هذه الصورة ـ كما يزعمون ـ بما في القرآن العزيز حكايةً عن يعقوب ويوسف عليهما السلام، فيقولون: أما يعقوب فإنه كان الاسم فما قدر أن يتعدى منزلته فقال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يُوسُف: الآية ٩٨] وأما يوسف فإنه كان المعنى المطلوب، فقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف: الآية ٩٢] فلم يُعَلِّق الأمْرَ بغيره لأنه علم أنه هو الإلـٰه المتصرف، ويجعلون موسى هو الاسم ويوشع هو المعنى ويقولون يُوشَع ردت له الشمس لما أمَرَها فأطاعت أمرَه. وهل ترد الشمس إلا لربها؟! ويجعلون سليمان هو الاسم وآصف هو المعنى ويقولون سليمان عجز عن إحضار عريش بلقيس، وقدَرَ عليه آصف؛ لأن سليمان كان الصورة وآصف كان المعنى القادر المقتدر، وقد قال قائلهم: هابيل سام يوسف يوشع آصف شمعون الصفا حيدر.

ويعدون الأنبياء والمرسلين واحدًا واحدًا على هذا النمط إلى زمن رسول الله ﷺ فيقولون: محمد هو الاسم وعلي هو المعنى ويوصلون العدد على هذا الترتيب في كل زمان إلى وقتنا هذا.

فمن حقيقة الخطاب والدين عندهم أن يُعْلَم أنّ عليًا هو الرَّبُّ وأن محمدًا هو الحجاب، وأن سليمان هو الباب وأنشدنا بعض أكابر رؤسائهم وفضلائهم لنفسه في شهور سنة سبعمائة فقال: [من المجتث]

أشهد أن لا إله إلا حيدرة الأنزع البَطِين
ولا حجاب عليه إلا محمد الصادق الأمين
ولا طريق إليه إلا سليمان ذو القوة المتين

ويقولون إن ذلك على هذا الترتيب لم يزل ولا يزال، وكذلك الخمسة الأيتام، والاثنا عشر نقيبًا، وأسماؤهم مشهورة عندهم ومعلومة من كتبهم الخبيثة فإنهم لا يزالون يَظْهَرون مع الرب والحجاب والباب في كل كَوْر ودَوْر أبدًا سَرْمَدًا على الدوام والاستمرار، ويقولون إن إبليس الأبالسة هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويليه في رتبة الإبليسية أبو بكر ثم عثمان رضي الله عنهم أجمعين وشرفهم وأعلى رتبتهم على أقوال الملحدين، وانتحال أنواع الغالين والمفسدين فلا يزالون موجودين في كل وقت دائمًا حسبما ذكر من الترتيب. ولمذاهبهم الفاسدة شعب وتفاصيل ترجع إلى هذه الأصول المذكورة.

وهذه الطائفة الملعونة استولت على جانب كبير من بلاد الشام، فهم معروفون مشهورون متظاهرون بهذا المذهب وقد حقق أحوالهم كُلُّ من خالطهم وعرفهم من عقلاء المسلمين وعلمائهم، ومن عامة الناس أيضًا في هذا الزمان، لأن أحوالهم كانت مستورة عن أكثر الناس وقت استيلاء الفرنج المخزولين على البلاد الساحلية، فلما صارت بلاد الإسلام انكشف حالهم وظهر ضلالهم، والابتلاء بهم كثير جدًا. فهل يجوز لمسلم أن يزوجهم أو يَتَزَوَّجَ منهم أو يحل أكل ذبائحهم والحالة هذه أم لا؟ وما حكم الجبن المعمول من أنفحة ذبيحتهم؟ وما حكم أوانيهم وملابسهم؟ وهل يجوز دفنهم بين المسلمين أم لا؟ وهل يجوز استخدامهم في ثغور المسلمين وتسليمها إليهم، أم يجب على ولي الأمر قطعهم واستخدام غيرهم من المسلمين الكفاة؟ وهل يأثم إذا أخر طردهم؟ أم يجوز له التمهل مع أن في عزمه ذلك وإذا استخدمهم وقطعهم، أو لم يقطعهم هل يجوز له صرف أموال بيت المال عليهم؟ وإذا صرفها

وتأخر لبعضهم بقية من معلومه المسمى فأخره ولي الأمر عنه وصرفه على غيره من المسلمين أو المستحقين، أو أرصده لذلك، هل يجوز له فعل هذه الصور؟ أم يجب عليه؟ وهل دماء النصيرية المذكورين مباحة وأموالهم فَيء حلال أم لا؟ وإذا جاهدهم ولي الأمر أيده الله تعالى بإخماد باطلهم، وقطعهم من حصون المسلمين، وتحذير أهل الإسلام من مناكحتهم وأكل ذبائحهم وأمرهم بالصوم والصلاة، ومنعهم من إظهار دينهم الباطل ـ وهم الذين يلونه من الكفار هل ذلك أفضل وأكثر أجرًا من التصدي والترصد لقتال التتار في بلادهم وهدم بلاد سيس، وديار الفرنج على أهلها أم هذا أفضل؟ وهل يُعَدُّ مُجَاهِدُ النّصيْريَّة المذكورين مرابطًا؟ ويكون أجره كأجر المرابط في الثغور على ساحل البحر خشية قصد الفرنج أكبر أم هذا أكثر أجرًا؟ وهل يجب على مَنْ عَرَف المذكورين ومذاهبهم أن يُشَهِّرَ أمرهم ويساعد على إبطال باطلهم، وإظهار الإسلام بينهم فلعل الله تعالى أن يَهْدِيَ بعضهم إلى الإسلام، وأن يجعل من ذريتهم وأولادهم ناسًا مسلمين بعد خروجهم من ذلك الكفر العظيم، أم يجوز التغافل عنهم والإهمال؟ وما قَدْر أجْر المجتهد على ذلك والمجاهد فيه، والمرابط له والعازم عليه؟ وليبسطُوا القول في ذلك مُثَابين مأجورين إن شاء الله تعالى إنه على كل شيء قدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فأجاب الشيخ تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني عن هذه الفتيا.

الحمد لله رب العالمين، هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكْفَر مِنَ اليهود والنصارى، بل وأكفر من كثير من المشركين، وضَرَرُهم على أمّة محمد ﷺ أعظم من ضرر الكفار المحاربين، مثل كفار التتار والفرنج وغيرهم، فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع، وموالاة أهل البيت، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله، ولا برسوله ولا بكتابه ولا بأمْرٍ ولا بنهي، ولا ثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار، ولا بأحد من المرسلين قبل محمد ﷺ ولا بملة من الملل السالفة، بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند علماء المسلمين يتأولونه على أمور يَفْتَرُونَها يَدَّعُونَ أنها علم الباطن، من جنس ما ذكره السائل ومن غير هذا الجنس، وأنهم ليس لهم حَدٌّ محدود مما يَدَّعُونه من الإلحاد في أسماء الله وآياته وتحريف كلام الله ورسوله عن مواضعه، ومقصودهم إنكار الإيمان وشرائح الإسلام بكل طريق، مع التظاهر بأن لهذه الأمور حقائق يعرفونها من جنس ما ذكره السائل؛ من جنس قولهم: إن الصلوات الخمس معرفة أسرارهم، و«الصيام

المفروض» كتم أسرارهم، و«حج البيت العتيق» زيارة شيوخهم وإن «يَدَا أبي لهب» هما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وإن النبأ العظيم والإمام المبين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولهم في معاداة الإسلام وأهله وقائع مشهورة وكتب مصنفة، فإذا كانت لهم مُكْنَة سفكوا دماء المسلمين، كما قتلوا مَرَّةً الحُجّاجَ وألقوهم في بئر زمزم وأخذوا مَرَّةً الحجر الأسود فبقي عندهم مُدَّة، وقتلوا من علماء المسلمين ومشايخهم وأمرائهم وجندهم ما لا يُحْصِي عَدَدَه إلا الله تعالى وصنفوا كتبًا كثيرة بها ما ذكره السائل وغيره وصنّف علماء المسلمين كتبًا في كشف أسرارِهم وهتك أستارهم، وبينوا فيها ما هم عليه من الكفر والزندقة، والإلحاد الذي هم فيه أكبر من اليهود والنصارى، ومن براهمة الهند الذين يعبدون الأصنام، وما ذكره السائل في وصفهم قليل من الكثير الذي يعرفه العلماء في وصفهم.

ومن المعلوم عندهم أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم، وهم دائمًا مع كل عَدُوٍّ للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين، ومن أعظم المصائب عندهم فتح المسلمين للسواحل وانقهار النصارى؛ بل ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار ومن أعظم أعيادهم إذا استولى ـ والعياذ بالله تعالى ـ النصارى على ثغور المسلمين، فإن ثغور المسلمين ما زالت بأيدي المسلمين حتى جزيرة قبرص يَسَّرَ الله فتحها من حين فتحها المسلمون في ولاة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فتحها معاوية بن أبي سفيان، ولم تزل تحت حكم المسلمين إلى أثناء المائة الرابعة فإن هؤلاء المحاربينَ لله ورسوله كَثُروا بالسواحل وغيرها، فاستولى النصارى على الساحل، ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره، فإن أحوالهم كانت من أعظم الأسباب في ذلك. ثم لما أقام الله ملوك المسلمين المجاهدين في سبيل الله تعالى؛ كنُور الدين الشهيد وصلاح الدين وأتباعهما وفتحوا السواحل من النصارى وممن كان بهم منهم، وفتحوا أيضًا أرض مصر، فإنهم كانوا مستولين عليها نحو مائتي سنة، واتفقوا هم والنصارى فَجَاهدهم المسلمون حتى فتحوا البلاد، ومن ذلك التاريخ انتشرت دعوة الإسلام بالديار المصرية والشامية.

ثم إن التتار مَا دَخَلُوا دِيارَ الإسلام، وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك الأمصار إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم، فإن مُنَجّم هولاكو الذي كان وزيره وهو النَّصِيرُ الطُّوسِي(١)

(١) الطوسي: هو نصير الدين الطوسي، محمد بن محمد بن الحسين الطوسي، الفيلسوف، أصله=

كان وزيرًا لهم بالموت وهو الذي أمرهم بقتل الخليفة وبولاية هؤلاء ولهم ألقاب معروفة عند المسلمين تارة يسمون الملاحِدَة، وتارة يسمون القرامطة[١] وتارة يسمون الباطنيَّة، وتارة يسمون الإسماعيلية وتارة يسمون النُّصَيْرِيّة، وتارة يسمون الخرمية[٢]، وتارة يسمون المحمرة[٣]، وهذه الأسماء منها ما يَعُمُّهم ومنها ما يَخُصُّ بعض أصنافهم كما أن الإسلام والإيمان يَعُمُّ المسلمين، ولبعضهم اسم يخُصُّه، إما لنسب، وإمَّا لمذْهَبٍ، وإما لبلد، وإما لغير ذلك. وشرح مقاصدهم يطول كما قال بعض العلماء فيهم ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكُفْر المحض، وحقيقة أمرهم أنهم لا

= من جهرود ساوة من أعمال قم، وولد بطوس واشتهر بها، ولد سنة ٥٩٧ هـ، وتوفي ببغداد سنة ٦٧٢ هـ. من تصانيفه: «آداب المتعلمين»، «إثبات العقل الفعال»، «أخلاق الناصري»، «تجريد الكلام»، «تحرير الاعتقادات»، «تلخيص المحصل لفخر الدين الرازي» في الكلام، «حل مشكلات الإشارات لابن سينا»، «شرح الإشارات لابن سينا»، «فرائض النصيرية»، «قواعد العقائد»، «كتاب البلاغ»، «المتوسطات بين الهيئة والهندسة»، «مدخل إلى علم النجوم»، «نقد المحصل لفخر الدين الرازي» وغير ذلك (كشف الظنون ٦/١٣١). وفي البداية والنهاية ١٣/ ٢٦٨: النصير الطوسي محمد بن عبد الله الطوسي، كان يقال له المولى نصير الدين، ويقال الخواجا نصير الدين، اشتغل في شبيبته وحصّل علم الأوائل جيدًا. وصنّف في ذلك في علم الكلام، وشرح الإشارات لابن سينا، ووزر لأصحاب قلاع الألموت من الإسماعيلية، ثم وزر لهولاكو، وكان معه في وقعة بغداد، ومن الناس من يزعم أنه أشار على هولاكو خان بقتل الخليفة فالله أعلم.

(١) القرامطة: فرقة باطنية إسلامية، أسسها حمدان قرمط ونسبت إليه (تاريخ العرب السياسي والثقافي ٢/٥٣٤). وقال القلقشندي في صبح الأعشى ١٣/٢٤٩ ـ ٢٥٠: القرامطة من فرق الشيعة الإسماعيلية، خرجوا من البحرين، نسبة إلى رجل منهم اسمه قرمط، خرج فيهم وادّعى النبوة وأنه أنزل عليه كتاب، ثم ظهروا بالمشرق بأصبهان، في أيام السلطان ملكشاه السلجوقي، واشتهروا هناك بالباطنية، وبالملاحدة، ثم صاروا إلى الشام ونزلوا فيما حول طرابلس وأظهروا دعوتهم هناك، وإليهم تنسب قلاع الإسماعيلية المعروفة بقلاع الدعوة، فيما حول طرابلس، كمصياف والخوابي وقدموس، ولما افترقوا إلى مستعلوية ونزارية، أخذ من فهم ببلاد المشرق بمذهب النزارية، عملًا بدعوة ابن الصباح وأخذ من فهم بالشام بقلاع الإسماعيلية بمذهب المستعلوية، وصاروا شيعة لمن بعد المستعلي من خلفاء الفاطميين بمصر، واشتهروا باسم الفداوية، ووثبوا على السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالشام مرات وهو راكب ليقتلوه فلم يتمكنوا منه، ثم صالحهم بعد ذلك على قلاعهم بأعمال طرابلس في سنة ٥٧٢ هـ، ثم انتموا إلى ملوك مصر في أيام الظاهر بيبرس، واشتهروا باسم الفداوية لمفاداتهم بالمال على من يقتلونه.

(٢) الخرمية: هي من فرقة القرامطة، وسمّوا بالخرمية لإباحتهم المحرمات والمحارم، وهم أتباع بابك الخرمي، وهي طائفة نشأت بخراسان.

(٣) المحمّرة: سمّوا بذلك للبسهم الحمرة في أيام بابك الخرمي.

يؤمنون بنبيٍّ من الأنبياء والمرسلين، لا نوح ولا إبراهيم ولا موسى، ولا عيسى، ولا محمد صلوات الله عليهم، ولا بشيء من الكتب المنزلة؛ لا التوراة، ولا الإنجيل، ولا القرآن، ولا يُقِرُّونَ بأنَ للعالم خالقًا خلقه ولا بأن له دينًا أمر به، ولا أن له دارًا يجري الناس فيها على أعمالهم غير هذه الدار.

وهم تارة يبنون قولهم على مذاهب الفلاسفة الطبيعيين والإلـٰهيين، وتارة يبنونه على قول المجوس[1] الذين يعبدون النُّور ويضمون إلى ذلك الرفض، ويحتجون لذلك من كلام النبوات، إما بقول مكذوب ينقلونه؛ كما ينقلون عن النبيّ ﷺ أنه قال: أول ما خلق الله العقل. والحديث موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث، ولفظه أن الله لما خلق العقل قال له: أقْبِل. فقال له: أدبر. فأدبر[2]، فيحرفون لفظه ويقولون أول مَا خَلَقَ اللهُ العقل ليوافق قول المتفلسفة اتباع أرسطو[3] في أن أول الصادرات عن واجب الوجود هو العقل، وإمّا بلفظ أنابت عن النبيّ ﷺ فيحرفونه عن مواضعه كما يصنع أصحابُ رسائل إخوان الصفا ونحوهم، فإنهم من أئمتهم، وقد دخل كثير من باطلهم على كثير من المسلمين، وراج عليهم حتى صار ذلك في كتب طوائف من المنتسبين إلى العلم والدين وإن كانوا لا يوافقونهم على أصل كفرهم؛ فإن هؤلاء لهم إظهار دعوتهم الملعونة التي يسمونها الدعوة الهادية. وهي درجات متعددة، ويسمون النهاية البلاغ الأكبر والناموس الأعظم ومضمون البلاغ الأكبر جحد الخالق تعالى، والاستهزاء به وبمن يُقِرُّ بِهِ حتى قد يَكتُبُ أحدُهم اسمَ الله في أسفل رجله، وفيه أيضًا جحد شرايعه ودينه وما جاء به الأنبياء، ودعوى أنهم كانوا من جنسهم طالبين للرئاسة فمنهم من أحسن في طلبها ومنهم من أساء في طلبها حتى

---

(١) المجوس: عم عبدة النيران القائلين إن للعالم أصلين نور وظلمة. وقال في كشاف اصطلاحات الفنون: المجوس فرقة من الكفرة يعبدون الشمس والقمر. وفي الملل والنحل: إنهم طائفة كان لهم كتاب فبدّلوه في الأصل، فأصبحوا وقد أسري بذلك الكتاب إلى السماء، فهم ليسوا من أهل الكتاب (كشاف اصطلاحات الفنون ٢/ ١٤٧٩).

(٢) لفظ الحديث: «لما خلق الله العقل قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر» أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٢٤٠، والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٨، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ١/ ٤٥٣.

(٣) أرسطو: ولد سنة ٣٨٥ ق.م، في إحدى مدن مقدونيا، وكان أبوه طبيبًا للملك فنشأ أرسطو في البلاط المقدوني، تتلمذ على أفلاطون، وتولى هو تربية الإسكندر الأكبر. أنشأ أرسطو مدرسة يعلم فيها، وسمي أتباعه المشاؤون. له مؤلفات كثيرة في الطبيعة وما وراء الطبيعة والأخلاق والسياسة، توفي سنة ٣٢٢ ق.م.

قتل. ويجعلون محمدًا وموسى من القسم الأول، ويجعلون المسيح من القسم الثاني، وفيه من الاستهزاء بالصلاة والزكاة، والصوم والحج وتحليل نكاح ذوي المحارم وسائر الفواحش ما يطول شرحه.

ولهم إشارات ومخاطبات يَعْرِفُ بها بعضهم بعضًا، وهم إذا كانوا في بلاد المسلمين التي يكون فيها أهل الإيمان فقد يخفون على من لا يعرفهم وأما إذا كثروا فإنه يعرفهم عامة الناس فضلًا عن خاصتهم.

وقد اتفق علماء المسلمين على أن هؤلاء لا يجوز مناكحتهم ولا يجوز أن ينكح الرجل مولاته منهم، ولا يتزوج منهم امرأة، ولا تباح ذبائحهم.

وأما الجبن المعمول بأنفحتهم ففيه قولان مشهوران للعلماء كسائر أنفحة الميتة، وكأنفحة ذبيحة المجوس، وذبيحة الفرنج، الذين يقال عنهم إنهم لا يذكون الذبائح، فذهب أبو حنيفة، وأحمد في إحدى الروايتين أنه يحل هذا الجبن، لأن أنفحة الميتة طاهرة على هذا القول، لأن الأنفحة لا تموت بموت البهيمة، وملاقاة الوعاء النجس في الباطن لا ينجس، ومذهب مالك والشافعي، وأحمد في الرواية الأخرى: أن هذا الجبن نجس؛ لأن الأنفحة عند هؤلاء نجسة، لأن لبن أنفحتها عندهم نجس؛ ومن لا تؤكل ذبيحته فذبيحته كالميتة. وكل من أصحاب القولين يحتج بآثار ينقلها عن الصحابة فأصحاب القول الأول نقلوا أنهم إنما أكلوا جبن المجوس وأصحاب القول الثاني نقلوا أنهم إنما أكلوا ما كانوا يظنون أنه من جبن النصارى فهذه مسألة اجتهاد للمقلد أن يقلد من يفتي بأحد القولين.

وأما أوانيهم وملابسهم فكأواني المجوس وملابس المجوس على ما عرف من مذاهب الأئمة والصحيح في ذلك أن أوانيهم لا تستعمل إلا بعد غسلها فإن ذبائحهم ميتة فلا بد أن يصيب أوانيهم المستعملة ما يطبخونه من ذبائحهم فيتنجس بذلك. فأما الآنية التي لا يغلب على الظن وصول النجاسة إليها فتستعمل من غير غسل كآنية اللبن التي لا يضعون فيها طبيخهم أو يغسلونها قبل وضع اللبن فيها، (وقد توضأ عمر بن الخطاب) رضي الله عنه من جرة نصرانية فما شك في نجاسته ولم يحكم بنجاسته بالشك ولا يجوز دفنهم بين مقابر المسلمين ولا يصلي على من مات منهم؛ فإن الله تعالى نهى نبيه ﷺ عن الصلاة على المنافقين كعبد الله بن أُبَيّ ونحوه وكانوا يتظاهرون بالصلاة والزكاة والصيام، والجهاد مع المسلمين، ولا يظهرون مقالة تخالف دين المسلمين، لكن يسرون ذلك فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ

عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ [التوبة: الآية ٨٤] فكيف بهؤلاء الذين هُمْ مع الزندقة والنفَاق يُظْهرون الكُفْر والإلحاد؟

وأما استخدام مثل هؤلاء في ثغور المسلمين أو حصونهم أو جندهم فإنه من الكبائر، وهو بمنزلة من يستخدم الذئاب لرعي الغنم فإنهم من أغش الناس للمسلمين ولولاة أمورهم، وهم أحرص الناس على فساد المملكة والدولة وهم شر من المخامر الذي يكون في العسكر، فإن المخامر قد يكون له غرض، إما مع أمير العسكر وإما مع العدو وهؤلاء لهم غرض مع الملة ونبيها ودينها وملوكها وعلمائها وعامتها، وخاصتها، وهم أحرصُ الناس على تسليم الحصون إلى عدو المسلمين وعلى إفساد الجُنْد على ولي الأمر وإخراجهم عن طاعته.

ويجب على ولاة الأمور قطعهم من دواوين المعاملة، ولا يتْرَكُون في ثغر ولا في غير ثغر، وضررهم في الثغور أشَدّ. وأن يَسْتَخدِمُوا بَدَلهم من يحْتَاج إلى استخدامه من الرجال المأمُونِينَ على دين الإسلام، وعلى النُّصْح لله ولرسولهِ ولأئمة المسلمين وعامتهم، بل إذا كان وليُّ الأمر لا يستخدم من يَغُشّه وإن كان مسلمًا، فكيف يستخدم من يغشه ويغش المسلمين كلهم؟!

ولا يجوز له تأخير هذا الواجب مع القدرة عليه، بل أي وقت قدر على الاستبدال بهم وَجَب عليه ذلك.

وإما إذا استُخْدِمُوا وعَمِلُوا العمل المشروط عليهم فلهم إما المسمى وأما أجرة المثل، لأنهم عُوقِدُوا على ذلك، فإن كان العقد صحيحًا وجب المسمى، وإن كان فاسدًا وجب أجرة المثل، وإن لم يكن استخدامهم من جنس الإجازة فهو من جنس الجعالة الجائزة، لكن هؤلاء لا يجوز استخدامهم فالعقد عقدٌ فاسد فلا يستحقون إلا قيمة عملهم، فإن لم يكونوا عملوا عملًا له قيمة فلا شيء لهم، لكن دماؤهم مباحة وكذلك أموالهم إذا لم يكن لهم ورثة من المسلمين وإن كان لهم ورثة من المسلمين فقد يقال إنهم بمنزلة المرتدين، والمرتد هل يكون ماله لورثته المسلمين؟ فيه نزاع مشهور. وقد يقال إنهم بمنزلة المنافقين، والمنافقون يرثهم ورثتهم المسلمون في أصح القولين لكن هؤلاء المسؤول عنهم لا يكاد يكونُ لهم وارثٌ من المسلمين وإذا أظهروا التوبة ففي قبولها منهم نزاع بين العلماء فمن قبل توبتهم إذا التزموا شريعة الإسلام أقر أموالهم عليهم. ومن لم يقبلها لم تنقل إلى ورثتهم من جنسهم، فإن مالهم يكون فَيْئًا لبيت المال، لكن هؤلاء إذا أخذوا فإنهم يظهرون التوبة إذ أصْلُ

مذهبهم التقية وكتمان أمرهم، وفيهم من يُعْرَف ومَن قد لا يُعْرَف. فالطريق في ذلك أن يُحتَاطَ في أمرهم، ولا يتركُون مجتمعين، ولا يمكَّنُون من حمل السلاح، ولا أن يكونوا من المقاتلة، ويُلْزَمُون بشرائع الإسلام من الصلوات الخمس وقراءة القرآن ويترك بينهم من يُعَلِّمُهم دين الإسلام، ويحال بينهم وبين مَعَلِّميهم، فإن أبا بكر الصديق رضي الله عنه وسائر الصحابة لما ظهروا على أهل الرِّدَّةِ وجاؤوا إليه قال لهم الصديق: اختاروا منِّي إما الحربُ المجلية وإما السلم المخزية؟ قالوا: يا خليفة رسول الله هذه الحرب المجلية قد عرفناها، فما السلم المخزية؟ قال: تدرون قتلانا ولا ندري قتلاكم، وتشهدون أن قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، ونغنم ما أَصَبْنَا من أموالكم وتُردُّون ما أصبتم من أموالنا، وننزع منكم الحلقة والسلاح، وتُمْنَعُون من ركوب الخيل، وتُتْركُون تَتْبَعُون أذناب الإبل حتى يُرِيَ الله خَليفَةَ رسوله والمؤمنين أمرًا يعذرونكم به فوافقه الصحابة في ذلك إلا في تضمين قتلى المسلمين، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: هؤلاء قُتِلُوا في سبيل الله وأجورهم على الله؛ يعني هم شهداء فلا دية لهم فاتفقوا على قول عمرَ في ذلك.

وهذا الذي اتفق الصحابة عليه هو مذهب أئمة العلماء، الذي تنازعوا فيه تنازع فيه العلماء فذهب أكثرهم أن من قتله المرْتَدون المجتمعون المحاربون لا يُضْمنُ كما اتفقوا عليه آخر، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايتين، ومذهب الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى: هو القول الأول. فهذا الذي فعله الصحابة، فأولئك المرتدين بعدَ عوْدِهِم إلى الإسلام يُفْعَل بمن أظهر الإسلام والتهمة ظاهرة فيه فَيُمْنع من أن يكون من أهل الخيل والسلاح والدروع التي يَلْبَسُها المقاتلة، فلا يترك في الجند كما لا يترَكُ في الجُنْد من يكون يهوديًا ولا نصرانيًا، ويلزمون بشرائع الإسلام حتى يظهر ما يفعلونه من خير أو شر، من كان من أئمة ضُلَّالِهم وأظهر التوبَة أُخْرِجَ عنهم، وسُيِّر إلى بلاد المسلمين الذين ليس لهم بها ظهور فإما أن يهديه الله تعالى وإما أن يموت على نفاقه من غير مضرة المسلمين. ولا ريب أن جهادَ هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات، وهو أفضل من جهاد من لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب فإن جهاد هؤلاء من جنس جهاد المرتدين، والصديق وسائر الصحابة بدؤوا بجهاد المرتدين قبل جهاد الكفار من أهل الكتاب فإن هؤلاء من جنس جهاد المرتدين، والصديق وسائر الصحابة بدؤوا بجهاد المرتدين قبل جهاد الكفار من أهل الكتاب، فإن جهاد هؤلاء حفظ لما فتح من بلاد الإسلام، وينبغي أن يدخل فيه من أراد الخروج عنه، وجهاد

من لم يقاتلنا من المشركين وأهل الكتاب من زيادة إظهار الدين، وحفظ رأس المال مقدم على الربح.

وأيضًا فضرر هؤلاء على المسلمين أعظم من ضرر أولئك بل ضرر هؤلاء من جنس ضرر من يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب، وضررهم في الدين على كثير من الناس أشد من ضرر المحاربين من المشركين وأهل الكتاب.

ويجب على كل مسلم أن يقوم في ذلك بحسب ما يَقْدِرُ عليه من الواجب فلا يحل لأحد أن يكْتُمَ ما يعرفُه من أخبارهم بل يُفْشيَها ويُظْهِرُها ليَعرفَ المسلمونُ حقيقةَ حالهم، ولا يحل لأحد أن يعاونهم على بقائهم في الجند والمستخدمين ولا يحل لأحد أن ينهي عن القيام بما أمر الله به ورسوله، فإن هذا من أعظم أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله تعالى، وقد قال الله تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: الآية ٩] وهؤلاء لا يخرجون عن الكفار والمنافقين، والمعاون على كفِّ شرهم وهدايتهم بحسب الإمكان له من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فإن المقصود بالقصد الأول هو هدايتهم كما قال الله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١١٠] قال أبو هريرة[١] رضي الله عنه: كنتم خير الناس للناس؛ تأتون بهم في القيود والسلاسل حتى تدخلوهم في الإسلام. فالمقصود بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هداية العباد لمصالح المعاش والمعاد بحسب الإمكان، فمن هداه الله منهم سَعِدَ في الدنيا والآخرة، ومن لم يهتد كُفَّ ضَرَرُه عن غيره.

---

(١) أبو هريرة: الدوسي، وقد اختلف في اسمه في الجاهلية والإسلام، واسم أبيه على أقوال متعددة، والأشهر أن اسمه عبد الرحمٰن بن صخر الدوسي اليماني، وهو من الأزد، ثم من دوس ويقال: كان اسمه في الجاهلية عبد شمس، وقيل: عبد نهم، وقيل: عبد غنم، ويكنى بأبي الأسود، فسمّاه رسول الله ﷺ عبد الله، وقيل: عبد الرحمٰن، وكناه أبو هريرة، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال له: «أبا هر». وثبت أنه ﷺ قال له: «يا أبا هريرة». كان أحفظ الصحابة لحديث رسول الله ﷺ بلغت مروياته ٥٣٧٤ حديثًا، قال البخاري: روى عنه نحو من ٨٠٠ رجل أو أكثر من أهل العلم، من الصحابة والتابعين وغيرهم. توفي سنة ٥٩ هـ. (انظر ترجمته في: البداية والنهاية ٨/ ١٠٩ ـ ١٢١، الكواكب الدرية ١/ ٨٤. الطبقات الكبرى لابن سعد ٤٠/ ٢٤٢، كتاب الثقات لابن حبان ٣/ ٢٨٤، كتاب الوفيات ص ٧١، تهذيب الكمال ٢٢/ ٩٠، المعارف لابن قتيبة ٢٧٧، حلية الأولياء ١/ ٣٧٦، النجوم الزاهرية ١/ ١٥١، تاريخ الخميس ٢/ ٢٩٦، صفة الصفوة ١/ ٢٢٣، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٢٢، تهذيب التهذيب ١٢/ ٢٦٢).

ومعلومٌ أن الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أفضل الأعمال، كما قال ﷺ: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله تعالى»[١] وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «إن في الجنة لمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض أعدها الله تعالى للمجاهدين في سبيله»[٢] وقال ﷺ: «رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه ومن مات مرابطًا مجاهدًا وجرى عليه عمله وأجرى عليه رزقه من الجنة وأمن الفتن»[٣] والجهاد أفضل من الحج والعمرة كما قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: الآيات ١٩ - ٢٢] والحمد لله رب العالمين، وصلاته وسلامه على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ذكر ظهور رجل ادّعى أنه محمد بن الحسن المهدي وقتله

وفي سابع عشر ذي الحجة سنة سبع عشرة وسبعمائة ظهر رجل من أرض قرطياوس من عمل جبلة فادعى أنه محمد بن الحسن المهدي، وقال للناس إنه بينما هو يحرث إذ جاءه طائر أبيض فنقب جنبه وأخرج روحه منه، ونقل إليه روح محمد بن الحسن. وصدقوه فيما ادعاه ودعاهم إلى طاعته فاجتمع عليه طائفة من النصيرية تقدير خمسة آلاف رجل وأمرهم بالسجود له ففعلوا وأحل لهم شرب الخمر وترك الصلاة وأعلن هو وأصحابه بقولهم لا إله إلا علي، ولا حجاب إلا محمد ورفع راية حمراء وشمعة كبيرة توقد بالنهار يحملها شاب أمرد ادعى أنه

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان باب ٨، وابن ماجة في الفتن باب ١٢، وأحمد في المسند ٥/ ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٤٥، ٢٤٦.

(٢) أخرجه الترمذي حديث ٢٥٣٠، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٥، ١٥٩، وابن كثير في تفسيره ٢/ ٣٤٢، والطبري في تفسيره ١٦/ ٣٠.

(٣) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الجهاد باب ٧٣، ومسلم في الإمارة حديث ١٦٣، والنسائي في الجهاد باب ٣٩، وابن ماجه في الجهاد باب ٧، والدارمي في الجهاد باب ٣١، وأحمد في المسند ١/ ٦٢، ٦٥، ٦٦، ٧٥، ٢/ ١٧٧، ٣/ ٤٦٨، ٥/ ٣٣٩، ٤٤٠، ٤٤١.

إبراهيم بن أدهم[(١)] وأنه أجباه وسمي [أخاه المقداد بن الأسود الكندي][(٢)] وأباه سلمان الفارسي[(٣)] وسمي آخر جبريل وكان يقول له، اطلع إليه فقال له كذا وكذا يشير إلى الباريء جلّ وعلا وهو يزعمه علي بن أبي طالب فيخرج ذلك المسمى جبريل عنه، ويغيبُ قليلًا ثم يعود فيقول: رأيتك أنت ثم جمع هذا الدعي أصحابه ودخل بهم مدينة جبلة في يوم الجمعة بعد الصلاة الثاني والعشرين من الشهر، وفرق جماعته ثلاث فرق عليها، فرقة أتت من قبلي البلد مما يلي الشرق فخرج عليهم العسكر المقيم بجبلة فكسرهم وقتل منهم مائة وأربعة وعشرين نفرًا واستشهد من المسلمين نفر يسير، وانهزمت هذه الفرقة الثانية التي أتت من قبلي البلد مما يلي الغرب على جانب البحر والفرقة الثالثة أتت من شرقي البلد لجهة الشمال، وكثروا على أهل البلد وكسروهم وهجموا على البلد ونهبوا الأموال وسبوا الحريم والأولاد وقتلوا جماعة من رؤوس المسلمين بجبلة وأعلنوا بقول لا إلٰه إلا عليّ ولا حجاب إلا محمد ولا باب إلا سلمان وبسب أبي بكر وعمرَ رضي الله عنهما ولَعْنِ هذه الطائفة، وجمَعَ هذا الخارجيّ ما انتهبه أصحابُه من جبلة وقَسَّمه على أصحابه بقرية وجاء الأمير بدر الدين التاجي مقدم العسكر باللاذقية إلى جبلة في آخر هذا اليوم وحماها ومَنَع الخارجيّ من العَوْد إليها، وكان مما قاله الخارجيُّ الدعي لأصحابه إنه لا حاجة لكم إلى القتال بالسيوف ولا السلاح وإن الرجل منهم يشير إلى عَدُوِّه بقضيب ريحان فينقطع هو وفرسه، فاتصل ذلك بالأمير شهاب الدين قرطاي نائب

---

(١) هو إبراهيم بن أدهم، أبو إسحٰق، من كبار الصوفية والزهاد، صحب سفيان الثوري، والفضيل بن عياض، توفي سنة ١٦٢ هـ (انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٠/ ١٤٠ ـ ١٥١، طبقات الصوفية ص ٢٧، الرسالة القشيرية ص ٨، نفحات الأنس ١٠٤، حلية الأولياء ٧/ ٣٦٧، النجوم الزاهرة ٢/ ٢١، الكواكب الدرية ١٠/ ١٤٢، صفة الصفوة ٢/٧٨٧، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٥٩، كشف المحجوب ١٢٩، مختصر دول الإسلام ١/ ١١٠).

(٢) مقداد بن الأسود: هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن ثمامة بن مطرود. أبو عمرو، المعروف بابن الأسود، صاحب رسول الله ﷺ، شهد بدرًا والمشاهد كلها، توفي سنة ٣٣ هـ، وهو ابن سبعين سنة. (انظر ترجمته في: الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ١١٩، كتاب الثقات لابن حبان ٣/ ٣٧١، البداية والنهاية ٧/ ١٦١، تهذيب الكمال ١٨/ ٣٤٩، مجمع الزوائد ٩/ ٣٠٧، تهذيب التهذيب ١٠/ ٢٥٥، الإصابة ترجمة رقم ٨١٨٥، الكواكب الدرية ١/ ١٣٨، حلية الأولياء ١/ ١٧٢، صفة الصفوة ١/ ١٦٧، كتاب الوفيات ص ٥٣).

(٣) هو سلمان الفارسي، أبو عبد الله، أصله من قرية بأصبهان، وهو الذي يقال له: سلمان الخير، قال عنه رسول الله ﷺ: «سلمان منا أهل البيت»، سكن الكوفة، وتوفي في خلافه علي بن أبي طالب، بالمدائن سنة ٣٦ هـ، بعد الجمل. (كتاب الثقات لابن حبان ٣/ ١٥٧ ـ ١٥٨).

السلطنة بالمملكة الطرابلسية فجرد إلى هذه الطائفة المارقة من العسكر الطرابُلسيّ الأمير بدر الدين بيْليك العثماني المنصوري والأمر شرف الدين عيسى البرطاسي والأمير علاء الدين علي بن الدربساك التركماني في ألف فارس، والتقوا بقرية من عمل جبلة بالجبل فاقتتلوا ساعة من النهار فانجلَت الحربُ عن قتلِ الدَّعِيّ ونحو ستمائة رجل من أصحابه وتفرّق بقية ذلك الجمع، ثم استأمنوا فأَمّنُوا، وعادوا إلى أماكنهم واستمروا على عمل فلاحتهم وطفيت هذه الثائرة وكان بين خروج هذا الدعِيّ وقتله خمسة أيام والله أعلم.

وفي هذه السنة في يوم الخميس التاسع من جمادى الآخرة توفي بدمشق قاضي القضاة جمال الدين أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أبي الربيع سليمان بن سومي الزواوي المالكي[١] وصُلّي عليه بعد صلاة الجمعة ودفن بمقبرة باب الصغير، ومولده في سنة ست وعشرين وستمائة وقدم ثغر الإسكندرية في سنة خمس وأربعين وستمائة قبل احتلامه كما حكى عن نفسه قال: ثم بلغني وفاة أبي في سنة سبع وأربعين فلم أعد إلى المغرب واشتغل بالعلم وولي المناصب بالديار المصرية ثم ولي قضاء دمشق كما تقدم في عاشر جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وستمائة، وحصل له ارتعاش من سنين كثيرة، ثم ثقل لسانه آخر عُمْرِه فَعُزِل عن القضاء كما تقدم ومات عقيب عزله رحمه الله تعالى.

وفيها في يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان توفي القاضي عماد الدين محمد ابن القاضي صفي الدين محمد بن شرف الدين يعقوب النويري وهو ابن خال والدي رحمهما الله وكانت وفاته بطرابلس، وهو يومئذ صاحب الديوان بها وولي قبل ذلك عدة أنظار منها: المملكة الصَّفَدِية مِرَارًا، ونظر المملكة الحموية، ونظر الكرك، وكان كريمًا شجاعًا خَيِّرًا اشتهر بالمكارم وبذل المال والإحسان إلى وليِّه وعَدُوّه، فكان يستديم مودة صديقه ويستجلب خاطر عدوه ويستزيلُ ما عنده بمكارمه، وكان لا يدخر شيئًا رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي الرئيس الفاضل شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب ابن الصاحب جمال الدين فضل الله بن المجلي القرشي العدوي العمري[٢] نسبه متصل بأمير

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٣٩، وشذرات الذهب ٦/ ٤٥.

(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٤٠، السلوك للمقريزي ٢/ ١ : ١٧٩، الدليل الشافي ١/ ٤٣٣، البداية والنهاية ١٤/ ٨٥، الدرر الكامنة ٣/ ٤٢، فوات الوفيات ٢/ ٤٢١.

المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه متولي ديوان الإنشاء بدمشق وكان قبل ذلك يلي صحابة ديوان الإنشاء بالديار المصرية ثم نقل إلى دمشق وكانت وفاته بها في يوم الثلاثاء الثاني من شهر رمضان، ودفن بقاسيون ومولده في سابع ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين وستمائة بدمشق وكان رجلًا فاضلًا أمينًا على أسرار الدولة حافظًا لها، يكتمها حتى عن أهله وأخصائه لا يتفوه بسر من أسرارها ولا يشير إليه.

وولي ديوان المكاتبات بدمشق بعده القاضي الفاضل شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان الحلبي، وكان أحد كتاب الدَّرج الشريف بالأبواب السلطانية في ديوان البريد، ووصل إلى دمشق في ثامن عشرين شوال وباشر الوظيفة.

وتوفي في آخر الليلة المسفر صباحها عن يوم الخميس رابع شهر رمضان القاضي الرئيس الفاضل علاء الدين أبو الحسن علي ابن القاضي الرئيس فتح الدين محمد ابن القاضي محيـي الدين عبد الله ابن الشيخ رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر بن علي بن نجدة السَّعْديّ[1] أحد أعيان كتاب الإنشاء الشريف بالأبواب السلطانية، وأحد من يجلس بين يدي السلطان ويوقع نقله في دار العدل الشريف ويوقع بين يدي نائب السلطنة الشريفة وكانت وفاته بداره بالقاهرة بدرب شمس الدولة، ودفن بعد الظهر بتربتهم بالقرافة بجوار جامع أبيه، وكان رحمه الله تعالى حسن الإنشاء لم يرث ذلك عن كلالة، غزير المروءة، ظاهر الرئاسة أبيّ النفس حسن الأخلاق والصحبة وقد ذكرنا من كلامه في السفر الثامن من كتابنا هذا ما هو مترجم باسمه هناك وذكرت من أوصافه ما استغنى به عن إعادته، ولما مات نتجت قريحتي بأبيات رَثَيْتُه بها، لولا التزامي أن لا أدوّن شعرًا إليّ لأوردتها، ورثاه القاضي شهاب الدين محمود الحلبي[2] المذكور آنفًا بقصيدة أولها: [من الرجز]

الله أكـــــبـــــرُ أيُّ ظِـــــلٍّ زالا عـــن آمـــلـيـــه وأيّ طَـــوْدٍ مـــالا

جاء منها:

أنعي إلى الناس المكارم والندا والـجـود والإحـسـان والإفـضـالا

---

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ١٨٣، شذرات الذهب ٦/ ٤٦.

(٢) شهاب الدين محمود الحلبي: هو شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان بن فهد بن محمود الحلبي الحنبلي، كاتب الدست المعيد بدمشق الشام المعروف بابن فهد، ولد سنة ٦٤٤ هـ، وتوفي سنة ٧٢٥ هـ، من تصانيفه: «أهنى الفاتح وأسنى المدائح» قصائد في مدح النبيّ ﷺ، «حسن التوسل في صناعة الترسل»، «مقامات العشاق»، «منازل الأحباب ومنارة الألباب». (كشف الظنون ٦/ ٤٠٧، وفيات الأعيان ٤/ ٨٢، ٩٦).

أنعي علاء الدين صدْرَ زمانهِ خُلقًا وخَلْقًا بارعًا وجلَالَا
ومهذبا ملأ القلوب مهابة والسمع فضلًا والألف نوالا

وتوفي الأمير بهاء الدين أرسلان الدوادار[(١)] في الثالث والعشرين من شهر رمضان وكان هو والقاضي علاء الدين المذكور صديقين، ومرضا في وقت واحد بعلة واحدة وخلف بهاء الدين المذكور تَرِكَةً طائلة استَكْثَرَها السلطان على مثله مع قرب مدته في الوظيفة والإمرة رحمه الله تعالى.

وتوفي الصدر الرئيس شرف الدين محمد ابن القاضي الرئيس جمال الدين إبراهيم ابن الصدر شرف الدين عبد الرحمٰن ابن أمين الدين سالم ابن الحافظ بهاء الدين أبي المواهب الحسن بن عبد الله بن محفوظ بن صَصْرَى البعلي الدمشقي[(٢)]، وكان وفاته في يوم الجمعة السابع من ذي الحجة حاجًا ملبيًا مُحْرِمًا بظاهر مَكة، ودفن ضحى يوم السبت يوم التروية بمقبرة الحجون على باب مكة شرفها الله تعالى وكان قد مرض بِبَدر، واستمر مريضًا سبعة أيام، ومات وله خمس وثلاثون سنة وكان رحمه الله تعالى كثير المكارم والإنفاق والبر والعطاء أنفق أموالًا كثيرة وبذل جملة عظيمة في المكارم، وكُنْتُ إذا قدِمْتُ دمشق أستحي من كَثرةِ تَفَضُّله وخدمته، وأتجنب النزول عنده فيحضر إليّ ويحلف عَلَيَّ وينقلني إلى داره، ولا يزال يعاملني بأنواع البر والإكرام والأدب والخدمة حتى انفصل عن دمشق فإذا فارقتها وتوجهت ركب معي وودعني إلى ظاهر البلد حتى يبعد وارده وهو يأبى ذلك حتى أحلف عليه فيرجع وختم الله له بخير كثير بوفاته في هذا المكان الشريف على هذه الحال رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ الفاضل الأديب الكاتب شرف الدين محمد أحمد بن يعقوب بن إبراهيم الطيبي الأسدي[(٣)] أحد كتاب الدرج بطرابلس في السادس والعشرين من شهر رمضان وكان رجلًا فاضلًا أديبًا شاعرًا، وكان في لسانه عجمة، وفي قلمه فصاحة رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٤١، الدليل الشافي ١/ ١٠٥، السلوك ٢/ ١: ١٧٩، الدرر الكامنة ١/ ٣٧٢، الوافي بالوفيات ٨/ ٣٤٦.

(٢) انظر ترجمته في: العقد الثمين ١/ ٣٩٨، البداية والنهاية ١٤/ ٨٦.

(٣) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٤٠، الدرر الكامنة ١/ ٣٣٦.

واستهلت سنة ثمان عشرة وسبعمائة بيوم الأحد الموافق لتاسع برمهات

في هذه السنة في أوائل صفر توجه القاضي كريم الدين ناظر الخواص الشريفة السلطانية ووكيلها إلى الشام، فكان وصوله إلى دمشق في يوم الاثنين سابع الشهر وتلقاه نائب السلطنة وأنزله عنده بدار السعادة، وأَحْضَرَ مِنْ جهته إلى نائب السلطنة هدية جليلة المقدار تساوي جملة عظيمة وأحضر معه كتابًا ببرود ليوقفها على مصالح الجامع الذي عمره نائب السلطنة بالشام الأمير سيف الدين تنكز وورد مثال السلطان إلى نائبه بقبول هديته بجملتها فقبلها وجهز له تقدمة لها قيمة كثيرة فلم يقبل كريم الدين منها غير إكديش[١] واحد وأعاد بقيتها وأقام بدمشق أربعة أيام وأمر بإنشاء جامع ينفق على عمارته من ماله ـ وهو بالقبيبات ـ فحصل الشروع في عمارته وعاد إلى الديار المصرية، وحدث في غيبته بالأبواب السلطانية حوادث كانت من تقريراته، خرج إلى دمشق قبل إبرازها فنفذت في غيبته، منها: إرسال الصاحب أمين الدين إلى طرابلس، وعزل الأمير بدر الدين محمد بن التركماني عن شاد الدولة، وأعظم من ذلك إخراج الأمير سيد الدين طغاي إلى صفد سنذكر هذه الوقائع مفصلة.

ذكر إرسال الصاحب أمين الدين إلى نظر المملكة الطرابلسية

وفي يوم الاثنين خامس عشر صفر من هذه السنة رسم السلطان بتفويض نظر المملكة الطرابلسية وما هو مضاف إليها إلى الصاحب أمين الدين عبد الله[٢] وكان قد عزل في شهور سنة سبع عشرة عن نظر الدواوين والصحبة ولزم داره إلى هذا التاريخ، فرسم له بهذه الوظيفة فاستعفى فلم يعف ورسم أن يتوجه على خيل البريد وخلع عليه تشريف كنجي[٣] وأنعم عليه بدواة ومرملة[٤] ولم يجر بمثل ذلك عادة

---

(١) إكديش: قال القلقشندي في صبح الأعشى ٢/١٤: الأكاديش هي البراذين والهماليج وكانت تجلب من بلاد الترك وبلاد الروم. دخلت التركية بصيغة (إيكيديش) بالكاف اليائية ومعناها في التركية الفرس الهجين (انظر: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل).

(٢) هو أمين الدين عبد الله بن غنام، انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/٣٥٧.

(٣) تشريف كنجي: أي مصنوع في كنجة من أعمال إيران، وهو مصنوع من قماش منسوخ من قطن وحرير (السلوك ١/٢: ٨٤٧).

(٤) المرملة: ما يوضع به الرمل لتجفف به الكتابة.

لناظر هذه المملكة وزيد في معلومها فاستقر له في كل شهر نظير ما كان له في نظر النظار بالديار المصرية، وتوجه في يوم الثلاثاء سادس عشر صفر ووصل إلى دمشق في يوم الخميس ثاني شهر ربيع الأول وتوجه منها إلى طرابلس.

ذكر عزل الأمير بدر الدين محمد بن التركماني عن وظيفة الشاد بالديار المصرية

وفي يوم الاثنين الثاني والعشرين من صفر عزل الأمير بدر الدين محمد بن التركماني عن وظيفة شاد الدواوين بالديار المصرية، وذلك بسؤاله وسعيه واستقر في جملة الأمراء على عادته ولم يتعرض إليه بطلب مال ولا غيره واستقر القاضي كريم الدين في النظر وغير ذلك.

ذكر إرسال الأمير سيف الدين طغاي نيابة السلطنة بالمملكة الصفدية، والقبض عليه ووفاته

كان الأمير سيف الدين طغاي الحسامي الناصري[1] قد تمكن في هذه الدولة الناصرية تمكنًا عظيمًا وعظم شأنه، وترشح للأمير الكبير، وكثرت أتباعه وعظَّمه الأمراء وغيرهم وبلغ من تمكنه أن السلطان أنعم عليه بدار أبيه السلطان الملك المنصور بالقاهرة، وأنعم عليه بغيرها، وميّز أقطاعه، فكان من جملته منية بني خصيب وغيرها ورتب له على الحوائج خاناه والمطبخ في كل يوم ما يصرف عليه نحو ثلاثمائة درهم، إلى غير ذلك، وارتفع بعد ذلك عن هذه الرتبة إلى أن حُكِي أن السلطان في مرضه في شهور سنة سبع عشرة أوصى أن يكون الأمر له من بعده وأن لا يختلف الناسُ عليه، وكان حسن الوساطة عند السلطان، لا يتكلم إلا بخير، ويُحسن إلى من يَعْرِفه ومن لا يعرفه، فاجتمعت عليه قلوبُ الناسِ ومالوا إليه، وكان قد تكلم عليه جاولجين الخازن في جملة من كلمه كما تقدم فقبض السلطانُ على مَن سواه من الأمراء وأرجأ أمر الأمير سيف الدين هذا، فلما كان يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من صفر سنة ثمان عشرة وسبعمائة دخل إلى الخدمة السلطانية على عادته، فرسم السلطان له أن يتوجه إلى نيابة السلطنة بالمملكة الصفدية فلم يمتنع ولا استعفى ولا توقف، بل بادر بتقبيل الأرض بين يدي السلطان ولبس التشريف، وأخرجه السلطان من ساعته، فتوجه وقد ذرفت عيون الأمراء والمماليك السلطانية بالبكاء

(١) انظر ترجمته في: الدليل الشافي ١/ ٣٦٤، الدرر الكامنة ٢/ ٣٢٢.

لخروجه، وتألم السلطان لذلك تألُّمًا شديدًا؛ لما فقده من حُسْن وساطته وجميل اعتنائه، ووصل إلى صفد في يوم الخميس تاسع عشر شهر ربيع الأول، وأحْضِرَ الأمير سيف الدين بُكْتُمر الحاجب النائب بصفد إلى الأبواب السلطانية، واستمر في جملة الأمراء مقدمي الألوف، ورسم له بالجلوس في مجلس السلطان، وأقام الأمير سيف الدين طغاي بصفد إلى جمادى الأولى فأرسل السلطان إليه الأمير علاء الدين مُغْلَطَاي الجمالي المعروف بخرز[1] على خيل البريد وأصْحبه تقليدًا له بنيابة السلطنة بالكرَك وتشريفًا وأراد بذلك إخراجه من المملكة الصفدية والقبض عليه، فوصل إلى صفد في ثامن الشهر فعلم المراد منه فلم يمتنع ولا أحْوج إلى إمضاء هذا التدبير، وجاء تحت الطاعة إلى الأبواب السلطانية على خيل البريد، ولما وصل إلى مدينة بلبيس خرج إليه الأمير سيف الدين قجليس وقيده بأمر السلطان، ونقله إلى قلعة الجبل فكان وصوله إليها في رابع عشر الشهر، فاعتقل بها أيامًا ثم رسم بنقله إلى ثغر الإسكندرية فنقل إليه وكان آخر العهد به، فلما كان في مستهل شعبان أمر السلطان عائلته بعمل عزائه رحمه الله تعالى.

ولما أخرج من صفد نقل الأمير سيف الدين أرقُطَاي الناصري من نيابة السلطنة بحمص إلى نيابة المملكة الصفدية فتوجّه إليها، وولي نيابة السلطنة بحمص الأمير بدر الدين بَكْتُوت القَرَماني، ونقل الأمير عز الدين أيبك الجمالي من نيابة قلعة دمشق إلى نيابة الكرك، واستقر بقلعة دمشق الأمير سيف الدين بَهَادُر الشمسي، وذلك كله في جمادى الأولى من هذه السنة.

ثم وليَ نِيابة السلطنة بقلعة دمشق الأمير علم الدين سنجر الدميثري وتوجه إلى دمشق على خيل البريد في عشية يوم الاثنين العشرين من ذي الحجة وخلع عليه بُكْرَة الثلاثاء، وجلس بالقلعة على عادة النواب، والله أعلم.

ذكر إنشاء الجامع بقلعة الجبل

وفي صفر من هذه السنة رسم السلطان بتوسعة الجامع بقلعة الجبل، وأمر بهدم بعض مساكن الأمراء التي كانت تلي الحائط القبلي من الجامع الأول فهدمت، وهدم الفراش خاناه، والحوائج خاناه، والمطبخ والطشتخاناه وأضاف ذلك كله إلى الجامع، وحصل الشروع في بنائه في الشهر المذكور، وتكملت رواقاته القبلية في شهر رجب

(١) توفي سنة ٧٣٢ هـ، انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٩١.

من السنة، وصلى فيه ورخّم صدره وجلس السلطان بالجامع في شعبان، وعرض سائر المؤذنين بالقاهرة ومصر بين يديه واستنطق كل واحد منهم وسمع صوته، واختار للجامع منهم ثمانية عشر مؤذنًا وثلاثة رؤساء وجعلهم ثلاث نوب ورُتِّبَ فيه أرباب وظائف، ووقف عليه أوقافًا أثابه الله تعالى.

ذكر وثوب الأمير عز الدين حميضة بن أبي نمي(١) بمكة شرفها الله تعالى وإخراج أخيه الأمير أسد الدين رُميثَة منها

وفي صفر من هذه السنة وردت الأخبار من مكة شرفها الله تعالى أن الأمير عز الدين حُمَيْضَة بن أبي نُميّ بعد عود الحاج من مكة وثَبَ على الأمير أسد الدين رُمَيْثَة(٢) بموافقة العبيد، وأخرجه من مكة، فتوجه رَمَيثة إلى نخلة وهي التي كان حُمَيْضَة بها، واستولى حميضة على مكة شرفها الله تعالى وقيل إنه قطع الخطبة السلطانية، وخطب لملك العراقيين، وهو أبو سعيد بن خَرْبَنْد بن أرْغون بن أبغا بن هولاكو، فلما اتصل ذلك بالسلطان أمر بتجريد جماعة من أقوياء العسكر فجرد الأمير صارم الدين الجرمكي والأمير سيف الدين بهادر الإبراهيمي وجماعة من الحلقة وأجناد الأمراء من كل أمير مائة فارس ومن كل أمير طبلخاناه جندي وأمرهم بالمسير إلى مكة وأن لا يعود إلى الديار المصرية حتى يظفروا بحميضة فتوجهوا في العشر الأواخر من شهر ربيع الأول من هذه السنة، ثم جرد السلطان صحبة الركب الأمير بدر الدين محمد بن التركماني إلى مكة في جماعة مددًا لهؤلاء فتوجه وأقام بمكة وقبض على الأمير أسد الدين رميثة وجهزه إلى الأبواب السلطانية، وعاد هؤلاء وكان من أمرهم ما نذكره.

وأقام الأمير بدر الدين بن التركماني بمكة شرفها الله تعالى إلى أن وصل الأمير عظيفة أميرًا على الحجاز الشريف واستقر في الإمرة فعاد وكان وصوله إلى القاهرة في يوم الجمعة الرابع والعشرين من شهر رجب سنة تسع عشرة.

ذكر حادثة الريح بالجون من طرابلس

وفي يوم الأربعاء ثاني صفر سنة ثمان عشرة وسبعمائة ثارت ريح شديدة وقت صلاة الظهر بأرض الجون من بلاد طرابلس ومرت على بيوت الأمير علاء

(١) انظر ترجمته في: العقد الثمين ٤/ ٢٣٢. (٢) انظر ترجمته في: العقد الثمين ٤/ ٤٠٣.

الدين علي بن الدربساكي مقدم أمراء التركمان بالجون بين قريتي الوكيل والمعيصرة، وكان خروجها من جهة البحر، فكسرت أخشاب بيوته ثم تقدمت إلى بيوت الأمير علاء الدين طوالي بن أليكي فلما انتهت إليه تكونت عمودًا أغبر متصلًا بالسحاب على صورة تنين وبقي ذلك العمود على بيوته ساعة يمر عليها يمينًا وشمالًا ثم يعود فما ترك ذلك العمود في البيوت شيئًا ولا منها إلا أهلكه واحتمله، فحكي عن طوالي أنه لما عاين ذلك قال: يا رب قد أخذت جميع الرزق، وتركت العيال بغير رزق فأي شيء تركت لهم حتى أطعمهم؟ فعاد ذلك العمود من الريح بعد خروجه عنه إلى بيوته فأهلكه وأهلك زوجته وابنته وابنتي ابنته وجاريته وأحد عشر نفسًا، وجرح ثلاثة أنفس من ملاقاة الأخشاب والحجارة عند هبوب تلك الريح وحملت الريح جملين ورفعتهما في الجو مقدار عشرة أرماح وتقطع القماش والأثاث وحملته الريح حتى غاب عن العين وطويت القدور النحاس والصاجات الحديد فصار بعضها على بعض، وحملت الريح جارية طوالي من مكان إلى مكان آخر مسافة وكان إلى جانب بيوت طوالي بيوت عرب فاحتملت الريح لهم أربعة أجمال وارتفعت في الجو وعادت قطعًا، وهلك دواب كثيرة، ووقع بعد ذلك برد ومطر زنة القطعة من البرد ثلاث أواق ودونها ورسم نائب السلطنة بكشف هذه الحادثة، وندب من جهته من توجه لكشفها فكشفت ونظم بصورة الحال محضرًا وقع الأشهاد فيه على مَنْ شاهده وجهزت نسخة المحضر إلى الأبواب السلطانية وغيرها.

ذكر هدم الكنيسة بحارة الروم

وفي يوم الاثنين الخامس من شهر ربيع الآخر أمر السلطان بهدم الكنيسة المعروفة بكنيسة بربارة بحارة الروم بالقاهرة، وكان سبب ذلك أن النصارى أنهوا أنه قد استهدم بعضها وسألوا تمكينهم من إعادته واعتنى لهم من اعتنى ممن كان منهم فرسم لهم بذلك فلم يقتصروا على إعادة ما رسم لهم بإعادته بل تحيلوا وتمحلوا وعمروها ظاهرًا بالأسرى والآلات العظيمة والمشدين من جنس المسلمين تجاهر النصارى بذلك ولا يكتمونه ولا يتحاشون من فعله فانتدب المسلمون لذلك ورفعوا قصصًا للسلطان وأنهوا فيها صورة الحال فأمر بهدمها فهدمها العوام في ساعة واحدة وبنوا بصدرها محرابًا وعلقوا فيه قنديلًا وأقاموا شعار الإسلام من الأذان والصلاة والتسبيح وقراءة القرآن، ثم رسم بعد ذلك بمنع المسلمين من الصلاة فيها وسد بابها في بقية الشهر، وجعلت مزبلة ألقى السكان من المسلمين الذين حولها زبائل بيوتهم

فيها، فلما كان في سلخ جمادى الأولى من السنة رسم بإعادة ما هدمه المسلمون فيها بالقصب دون البناء وسد بابها وعطلت.

ذكر الجوامع التي خطب وأقيمت صلاة الجمعة بها بظاهر مدينة دمشق في هذه السنة

وفي هذه السنة خطب بظاهر دمشق في ثلاثة جوامع مستجدة منها الجامع الذي أنشأه الأمير سيف الدين تنكز نائب السلطنة بالشام وهو بظاهر دمشق خارج باب النصر في الشارع المسلوك منه إلى القصر الأبلق بالميدان، وقد تقدم ذكر الشروع في عمارته وكملت في هذه السنة وأقيمت الخطبة به في يوم الجمعة العاشر من شعبان وخطب فيه وصلى بالناس الشيخ نجم الدين علي بن داود الحنفي المعروف بالقحفازي(١)، وحضر الصلاة فيه نائب السلطنة وسائر القضاة والأعيان وقراء القرآن وأنشدت المدائح في بانيه.

وخطب أيضًا في يوم الجمعة التي تلي هذه الجمعة في سابع عشر شعبان بالجامع الذي أنشأه القاضي كريم الدين(٢) وخطب فيه الشيخ شمس الدين محمد ابن الشيخ عبد الواحد بن يوسف ابن الوزير الحراني ثم الآمدي الحنبلي(٣) ثم أجرى إليه الماء من نهر داريا وعمل له قناة من النهر إلى كفر سوسية وكان وصول الماء إلى الجامع في العشر الأول من شوال سنة عشرين وسبعمائة وانتفع أهل تلك الناحية به انتفاعًا كثيرًا وخطب في يوم الجمعة السابع عشر من ذي الحجة بالجامع الذي أنشأه شمس الدين عبد الله(٤) ناظر النظار بالشام وهو بظاهر دمشق خارج الباب الشرقي بجوار قبر ضرار بن الأزور وخطب فيه الشيخ المقرىء محمد

---

(١) توفي بعد العشرين وسبعمائة (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/١١٦، وفيه وفاته سنة ٧٢٥ هـ، وفاة الوفيات ٣/٢٣، وفيه وفاته سنة ٧٤٤ هـ، الدليل الشافي ١/٤٥٥، شذرات الذهب ٦/١٤٣، البداية والنهاية ١٤/٢١٤).

(٢) القاضي كريم الدين: هو عبد الكريم بن هبة الله، انظر ترجمته في: الدارس في تاريخ المدارس ٢/٤١٦.

(٣) توفي سنة ٧٤٣ هـ (انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/٤٨٩، الدارس في تاريخ المدارس ٢/ ٤١٨).

(٤) شمس الدين عبد الله: هو عبد الله بن صنيعة، المعروف بغبريال الأسمري، توفي سنة ٧٣٤ هـ (انظر ترجمته في: الدارس في تاريخ المدارس ٢/٨ ـ ٩).

المعروف بالنيرباني[١] وكان ابتداء الشروع في عمارة هذا الجامع في شعبان من هذه السنة.

ووقف على كل من هذه الجوامع الثلاثة من الأوقاف ما يعرف ريعها في مصالحه أثاب الله تعالى واقفيها

وفيها في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من ذي الحجة عقد السلطان بدار السعادة مجلسًا حضره القضاة والفقهاء وأحضر الفقيه زين الدين عبد الرحمٰن بن عبيدان البعلبكي الحنبلي وأحضر خطه أنه رأى الحق سبحانه وشاهد الملكوت الأعلى ورأى الفردوس ورفع إلى فوق العرش وسمع الخطاب وقيل له: قد وهبتك حال الشيخ عبد القادر[٢] وأن الله تعالى أخذ شيئًا كالرداء فوضعه عليه وأنه سقاه ثلاثة أشربة مختلفة الألوان وأنه قعد بين يدي الله تعالى مع محمد وإبراهيم وموسى وعيسى والخضر عليهم السلام، وقيل له إن هذا مكان لا يجاوزه وليًا قط وقيل له إنك تبقى قطبًا عشرين سنة وذكر أشياء أخر فاعترف أنه خطه فأنكر عليه فبادر وجدد إسلامه وحكم قاضي القضاة الشافعي بحقن دمه وأمر بتعزيره فعزر وطيف به في البلد وحبس أيامًا ثم أفرج عنه، وكان قد أذن له في الفتيا وعقود الأنكحة فمنع من ذلك.

وفي هذه السنة في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر توفي الأمير شمس الدين سنقر الكمالي الحاجب[٣] كان في معتقله بقلعة الجبل، وكان قبل

---

(١) محمد النيرباني: هو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن محمد بن يوسف بن أبي العيش، أبو عبد الله الأنصاري النيرباني، توفي سنة ٧٣٤ هـ (البداية والنهاية ١٤/ ١٦٧).

(٢) الشيخ عبد القادر: هو عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست بن أبي عبد الله بن يحيىٰ الزاهدي بن محمد بن داود، محيي الدين، أبو محمد الجيلي، الجيلاني، البغدادي، العارف بالله الصوفي الحنبلي، ولد سنة ٤٧٠ هـ، وتوفي سنة ٥٦١ هـ، من تصانيفه: «تحفة المتقين وسبيل العارفين»، «حزب الرجاء والانتهاء»، «رسالة الغوثية»، «الغنية» في التصوف، «فتوح الغيب»، «الفيوضات الربانية في الأوراد القادرية»، «الكبريت الأحمر في الصلاة على النبي ﷺ»، «مراتب الوجود»، «معراج» لطيف المعاني، «يواقيت الحكم» وغير ذلك. (انظر ترجمته في: كشف الظنون ٥/ ٥٩٦، الإعلام للزركلي ٤/ ٤٧، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٧١، شذرات الذهب ٤/ ١٩٨، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ١٠٨، الكواكب الدرية ١/ ٦٧٦، فوات الوفيات ٢/ ٢، معجم المؤلفين ٥/ ٣٠٧، هدية العارفين ١/ ٥٩٦، البداية والنهاية ١٢/ ٢٧٦).

(٣) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٤٣.

ذلك معتقلًا بالكرك فرسم بإحضاره وإحضار الأمير سيف الدين كراي فأحضرا وما شكا ولا شك الناس في الإفراج عنهما، فاعتقلا بقلعة الجبل ببرج فمات الأمير شمس الدين الآن رحمه الله تعالى وتوفي قاضي القضاة زين الدين أبو الحسن علي ابن الشيخ رضي الدين القاسم مخلوف بن تاج الدين أبي المعالي ناهض المالكي النويري الجزولي[١]، وكانت وفاته في ليلة الأربعاء الحادي عشر من جمادى الآخرة بمنزله بالقاهرة، ودفن في يوم الأربعاء عند الزوال بتربته بسفح المقطع رحمه الله تعالى ومولده في سنة ست وعشرين وستمائة وكان رحمه الله تعالى كثير المروءة كثير الاحتمال والإحسان إلى الناس يحمل الجفوة من أصحابه ويصبر منهم على كثير من الأذى خصوصًا من أهل بلده وكانت أفعاله جميلة، ومقاصده حسنة وولي القضاء بالديار المصرية في سنة خمس وثمانين وستمائة، وكانت مدة ولايته ثلاثًا وثلاثين سنة تقريبًا، وعرضت عليه الوزارة في الدولة المنصورية فأباها وتنصل منها كل التنصل وبالغ في ردها كل المبالغة وانتهى حاله في التنصل منها إلى أن حضر إلى الدركاه بباب القلعة وقلع طيلسانه وقلع عمامته وفوقانيته، وبقي بقبع ودلق وهو قائم فقام الأمراء لقيامه وصاروا حوله حلقة وهم لا يعرفون موجب فعله لذلك ثم جاء نائب السلطنة الأمير حسام الدين طرنطاي وهو على هذه الصورة فتألم وسأله عن خبره فقال له: أنا إنما وصلت من بلدي بمثل هذا الملبوس الذي عليّ، وأنا اكتسبت بصحبتكم وخدمة السلطان زيادة على ما جئت به هذا الطيلسان وهذه الجبة والعمامة فإن ضمنت لي عند السلطان إعفائي من هذا الأمر الذي طلبني بسببه وإبقائي على ما أنا عليه وإلا فلا أرجع إلى لباس هذا أبدًا وأرجع إلى بلدي بهذه الحالة، فبكي الأمراء وعظموه وألبسه نائب السلطنة قماشة، وضمن له صرف الوزارة عنه واندفعت وأمن بذلك غائلة الأمير علم الدين سنجر الشجاعي فإنه كان إذا ذكر أحد للوزارة أو ذكرها عمل على هلاكه.

ولما مات قاضي القضاة زين الدين فوض السلطان القضاء بعده لنائبه القاضي تقي الدين محمد ابن الشيخ شمس الدين أبي بكر بن عتيق الإخنائي[٢].

---

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/٤٩، الدرر الكامنة ٣/٢٠٢، البداية والنهاية ١٤/٩٠.

(٢) هو محمد بن أبي بكر بن عيسى بن بدران بن رحمة الإخنائي، توفي سنة ٧٣٢ هـ (انظر ترجمته في: الدليل الشافي ٢/٥٨٢، الوافي بالوفيات ٢/٢٦٩، طبقات الشافعية للسبكي ٩/٣٠٩، شذرات الذهب ٦/١٠٣، البداية والنهاية ١٤/١٦٠، الدرر الكامنة ٤/٢٧٠، السلوك ٢/٢: ٨١٤ وفيه وفاته سنة ٧٥٠ هـ، حسن المحاضرة ١/٤٦٠، وفيه وفاته سنة ٧٥٠ هـ).

وفيها في عاشر شهر رمضان توفي الأمير علاء الدين أقطوان الساقي[١] الظاهري أحد الأمراء بدمشق بها، وصلى عليه بجامعها ودفن بالقبيبات وقد جاوز الثمانين رحمه الله تعالى.

وتوفي في ليلة الاثنين سلخ شوال الشيخ العالم كمال الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ جمال الدين أبي بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن سجمان البكري الوايلي الشريشي[٢] بمنزلة الحسابين الكرك ومعان وهو متوجه إلى الحجاز الشريف ودفن بالمنزلة ومولده في شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين وستمائة بمدينة سنجار وكان شيخًا فاضلًا من أعيان الشافعية المدرسين المفتيين وولي المناصب الجليلة الدينية بدمشق من التدريس ووكالة بيت المال ونيابة الحكم، وتعين لقضاء القضاة ولم يل ذلك رحمه الله تعالى.

وتوفي قاضي القضاة فخر الدين أبو العباس أحمد ابن القاضي تاج الدين أبي الخير سلامة ابن القاضي زين الدين أبي العباس أحمد بن سلامة الإسكندري المالكي[٣] قاضي المالكية بدمشق، وكانت وفاته بالمدرسة الصارمية في بكرة الأربعاء غرة ذي الحجة وصلى عليه بالجامع الأموي ودفن بمقابر باب الصغير، ومولده في شوال سنة إحدى وسبعين وستمائة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين الشمسي[٤] بقلعة دمشق في يوم السبت حادي عشر ذي الحجة ودفن بسطح المزة رحمه الله تعالى.

ذكر الغلاء الكائن بديار بكر والجزيرة وغيرها من بلاد الشرق

وفي هذه السنة وردت الأخبار إلى الشام بما حصل بديار بكر والموصل وإربل وماردين والجزيرة وميافارقين وغيرها من الغلاء العظيم والجلاء وخراب البلاد وبيع الأولاد.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٤٢.
(٢) انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٤/ ٩١، الدرر الكامنة ١/ ٢٥٢.
(٣) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٤٧، السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٨٧، الدرر الكامنة ١/ ١٤٠، البداية والنهاية ١٤/ ٩٢.
(٤) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٤٤.

أما ماردين فبلغ ثمن الرطل الخبز بالدمشقي بها من ثلاثة دراهم إلى أربعة دراهم وعُدم غالبًا مع عدم بقية الأقوات، ومات خلق كثير من أهلها وأكل الناس الميتة، ومنهم من باع أولاده.

وأما الجزيرة العُمرية فقيل إنه مات منها من أول هذه السنة إلى سلخ شهر ربيع الآخر خمسة عشر ألفًا بالجوع والوباء وأبيع من الأولاد نحو ثلاثة آلاف صبي، وكان الصبي يباع من خمسين درهمًا إلى عشرة دراهم ويشتريهم التتار وكان المار بها يمر من باب الجبل إلى باب الشط فلا يجد أحدًا إلا أنه يشم روائح الجيف خارجة من البيوت وصارت الكلاب تأكل جيف الناس وتأوي إلى المسجد الجامع، وبطلت الجمعة نحو شهر.

وأما ميافارقين فمات غالب أهلها بحيث إن المار بأسواقها لم يجد غير ستة حوانيت وأما الموصل فكان الغلاء والجلاء وبيع الأولاد فيها أشد من ماردين حتى خلت الدور من أهلها بعد أن باعوا كل عزيز ونفيس وأكلوا الميتة وحكى أن بعض أهلها باع ولده باثني عشر درهمًا وقال هذا الولد أنفقت على ختانه خمسين دينار وكان المشترون يمتنعون من شراء أولاد المسلمين وكانت المرأة والصبية تقول: إنها نصرانية لتشتري.

وأما مدينة إربل فأكل أهلها جميع النبات الموجود ثم أكلوا لحاء الأشجار وقلوبها ثم أكلوا الميتة وجاءهم الموت الذريع ثم شرعوا في الجلاء فنزح منهم جماعة من الحواضر نحو أربعمائة بيت لقصد مدينة مراغة فسقط عليهم ثلج وأصابهم برد شديد فماتوا بأجمعهم وخرجت طائفة أخرى أكثر من الأولى من البلد والسواد والفلاحين صحبة أردوا التتار[1] فوصلوا إلى عقبة فتركهم التتار أسفل العقبة، ومنعوهم من الصعود معهم لعجزهم عن إطعامهم فماتوا بجملتهم ووصل كتاب من البلد إلى الموصل وفيه إنا اعتبرنا جملة من بقي من أهل البلد فكانوا خمسمائة بيت من خمسة عشر ألف بيت المتعينون بمن بقي نحو خمسين بيتًا والباقون ضعفاء وفقراء.

وأما أهل سنجار فكان أمرهم أخف وكذلك أهل العراق خصوصًا بغداد ولم يصل آمرهم إلى بيع الأولاد وأكل الميتة ومما حكي أن رجل دخل ثلاثمائة وستين قرية زرع منها ست قرى وخرب باقيها لانقطاع ماء دجلة عنها والنخل أصابه في سنة

(١) الأردو: لفظ مغولي معناه العسكر، وقد استعمل في المراجع العربية والفارسية في هذا العصر للدلالة على معسكر إيلخان الدولة المغولية بفارس (مصطلحات صبح الأعشى ص ٢٦).

سبع عشرة وسبعمائة برد وسقط عليه ثلج أفسد بعضه وأضعف بعضه وانقطع المطر في سنة ثماني عشرة فلم يحصل منه شيء وكان سبب هذا الغلاء أولًا بمدينة سنجار وديار بكر ظهور الجراد في سنة ست عشرة وسبعمائة فأفسد المزروعات.

واستهلت سنة سبع عشرة بغير مطر فاشتد الغلاء وتضاعف فلما هلت سنة ثمان عشرة اشتد الغلاء وعظم البلاد لقلة الأمطار وموت الفلاحين وجلاهم من البلاد لما نالهم من جور التتار وغارات كانت ببلادهم من جهة الشام والأكراد ثم ارتفع الوباء في شهر رجب وشعبان ورمضان وقل الموت لكن الغلاء مستمر بالموصل والعراق وماسنجار وماردين فرخص القوت فيهما ونقلت هذه الحادثة من تاريخ الشيخ علم الدين البرزالي[١] وبعض ألفاظها أوردتها بالمعنى وقال المذكور إنه نقل ذلك من خط عز الدين الحسن بن أحمد بن ذفر الإربلي الصوفي الطبيب[٢] واختصر بعضه ـ نسأل الله العافية من بلائه.

ذكر مقتل الرشيد المتطبب

وفي النصف الثاني من جمادى الأولى من هذه السنة قتل رشيد الدولة أبو الفضل فضل الله بن أبي الخير بن غالي الهمداني الطبيب[٣] وهو الذي كان قد وصل صحبة غازان إلى الشام، وكان يتحدث في دولته حديث الوزراء، ولما مات خربندا عزل الرشيد من وظائفة ومناصبه، وداري عن نفسه بجملة كثيرة من الأموال، ثم نسب إليه سقي الملك خربندا السم فمات وطُلب على البريد إلى المدينة السلطانية، وأحضر بين يدي جوبان نائب الملك أبي سعيد وقيل له: أنت قتلت الملك؟ فقال كيف أفعل ذلك وقد كنت رجلًا يهوديًا عطارًا طبيبًا ضعيفًا بين الناس فصرت في أيامه وأيام أخيه أتصرف في أموال المملكة ولا تتصرف النواب والأمراء في شيء إلا بأمري وحصلت في أيامهما من الأموال والجواهر والأملاك ما لا يحصى فأحضر الطبيب الجلال ابن الحزان طبيب خربندا وسئل عن موت خربندا وقيل له: أنت قتلته فقال إن الملك أصابته هيضة قوية فانسهل بسببها نحو ثلاثمائة مجلس وتقايأ قيئًا كثيرًا، فطلبني وعرض عليّ هذا الحال فاجتمع الأطباء بحضور الرشيد على إعطائه أدوية قابضة

---

(١) علم الدين البرزالي: تقدمت ترجمته.

(٢) انظر ترجمته في: تاريخ دول الإسلام ٢/ ١٧١، السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٨٩، شذرات الذهب ٦/ ٤٤، الدرر الكامنة ٣/ ٢٣٢، البداية والنهاية ١٤/ ٨٧.

(٣) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٨٨، الدرر الكامنة ٣/ ٢٣٢.

مخشنة للمعدة والأمعاء فقال الرشيد عنده امتلاء وهو يحتاج إلى الاستفراغ بعد فسقيناه برأيه دواء مسهلًا، فانسهل بسببه نحو سبعين مجلسًا ومات وصدَّقه الرشيد على ذلك فقال جوبان فأنت يا رشيد قتلته، وأمر بقتله فقتل واستأصلوا جميع أملاكه وأمواله، وقتلوا قبله ولده إبراهيم من أبناء ست عشرة سنة، وحمل رأس الرشيد إلى تبريز ونودي عليه: هذا رأس اليهودي الذي بدل كلام الله، لعنه الله، وقطعت أعضاؤه وحمل كل عضو إلى بلد وأحرقت جثته وقام في ذلك الوزير تاج الدين علي شاه التبريزي، وقتل الرشيد وهو من أبناء الثمانين، وخلف عدة أولاد، وكان يتستر بالإسلام فيما قيل عنه.

وفيها في التاسع عشر أو العشرين من شهر رمضان قتل الحاجي الدلقندي قتله جوبان نائب الملك أبي سعيد وسبب ذلك أنه بلغه أنه اتفق هو وجماعة من الأمراء على قتله وقتل الوزير علي شاه فبادر بقتله ودلقند قوية من عمل منسوب إلى مدينة سمنان من مدن خراسان نقلته وما قبله من تاريخ البرزالي.

واستهلت سنة تسع عشرة وسبعمائة بيوم الجمعة

وفي أول ليلة من المحرم هبت ريح شديدة بمدينة دمشق رمت كثيرًا من الستائر[1] والطبلات[2] وسقط بسببها جدران كثيرة، وهلك تحت الردم جماعة واقتلعت أشجار كثيرة من أصولها وقصفت أغصانًا وامتنع كثير من الناس من النوم بسببها واجتمع خلق كثير بالجامع يتضرعون إلى الله تعالى في سكونها فسكنت، ثم ثارت في ليلة الثلاثاء المسفرة عن تاسع عشر الشهر، وهو أول الاعتدال الربيعي ولم يبلغ مبلغ الأول.

وفي يوم الخميس السابع من المحرم وصل الأمير شمس الدين آق سنقر الناصري أحد الأمراء من الحجاز الشريف إلى قلعة الجبل بعد أن وقف بعرفة مع الحاج في سنة ثمان عشرة وسبعمائة وصحب الركب إلى المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وصلى بها الجمعة وركب لست بقين من ذي الحجة سنة ثمان عشرة وردت الأخبار معه أنه قبض على الأمير أسد الدين رميثة أمير الحجاز الشريف

---

(١) الستائر: هي من آلات الحصار (كما سماها القلقشندي في صبح الأعشى ٢/ ١٥٢ ـ ١٥٣)، وهي آلات الوقاية من الطوارق وما في معناها مما يستتر به على الأسوار والسفن التي يقع فيها القتال ونحو ذلك.

(٢) الطبلات: كذا بالأصل، ولعلها الطبول.

وعلى الأمير سيف الدين بهادر الإبراهيمي أحد الأمراء وهو الذي كان قد جرّد بسبب الأمير عز الدين حميضة والذي ظهر لنا في سبب القبض عليهما أن رميثة نسب إلى مباطنة أخيه حميضة وأن الذي يفعله بحميضة هو القبض عليه ولكنه ركب إليه وتقاربا من بعضهما بعضًا، وباتا على ذلك ولم يقدم الإبراهيمي على مهاجمته والقبض عليه فاقتضى ذلك سجنه، واتصل بالسلطان أيضًا أن الإبراهيمي ارتكب فواحش عظيمة بمكة شرفها الله تعالى، فرسم بالقبض عليهما ووصل الأمير أسد الدين رميثة ورسم عليه بالأبواب السلطانية أيامًا، ثم حصلت الشفاعة فيه فرفع عنه الترسيم وأقام يتردد إلى الخدمة السلطانية مع الأمراء إلى أثناء شهر ربيع الآخر من السنة فحضر إلى الخدمة في يوم الاثنين رابع عشر ثم ركب في عشية النهار على هجن أعدت له وهرب نحو الحجاز فعلم السلطان بذلك في يوم الثلاثاء فجرد خلفه جماعة من الأمراء وهم: الأمير سيف الدين أقبغا آص والأمير سيف الدين قطلوبغا المعزي والأمير ناصر الدين الجرمكي وجماعة من عربان العايد فتوجهوا خلفه وتقدم الأميران المبدأ بذكرها ومن معهما من العربان فوصلوا إلى منزلة حقلي وهي بقرب أيلة مما يلي الحجاز فأدركوه بالمنزلة فقبضوا عليه وأعادوه إلى الباب السلطاني، فكان وصوله في يوم الجمعة الخامس والعشرين من الشهر فرسم السلطان باعتقاله في الجب فاعتقل واستمر في الاعتقال إلى يوم الخميس الثامن من صفر سنة عشرين وسبعمائة فرسم بالإفراج عنه وخلع عليه.

وفي العاشر من صفر نودي بدمشق بالصلاة للاستسقاء وقرىء صحيح البخاري بجامع دمشق تحت النسر في سبعة أيام واستسقى الخطيب على المنبر في أيام الجمع مرار ثم برز الناس كافة نائب السلطان والقضاة وغيرهم مشاة إلى ظاهر البلد عند مسجد القدم في يوم السبت نصف صفر وهو سابع نيسان، وصلى بهم الخطيب صدر الدين سليمان الجعبري، وخطب واستسقى وعاد الناس، وأمطروا بفضل الله تعالى ورحمته في بكرة يوم الأحد ويوم الاثنين حتى خرب المذاريب، ووصلت الأخبار بنزول الغيث على البلاد البرانية، وفي آخر صفر فوضت نيابة السلطنة بحمص للأمير سيف الدين بلبان البدري عوضًا عن الأمير بدر الدين بكتوت، فتوجه إليها، ووصل القرماني إلى دمشق في رابع شهر ربيع الأول، واستقر على عادته في جملة الأمراء المقدمين.

وفي هذه السنة فوض السلطان قضاء القضاة بدمشق على مذهب الإمام مالك بن أنس للقاضي شرف الدين محمد ابن القاضي معين الدين أبي بكر ابن القاضي سديد

الدين مظفر الهمداني المالكي الفيومي[١] وكان ينوب عن قاضي القضاة تقي الدين بن الإخنائي المالكي بالجامع الصالحي خارج باب زويلة، فنقل إلى دمشق، وتوجه إليها وكان وصوله يوم الثلاثاء خامس جمادى الآخرة، وكان المعتني به والقائم في حقه القاضي فخر الدين ناظر الجيوش المنصورة، وكان قد عين للقضاء بدمشق الشيخ فخر الدين أبو عمر ابن الشيخ القدوة العابد علم الدين يوسف النويري المالكي وأثنى عليه جماعة من الأمراء والأكابر في مجلس السلطان منهم الأمير بدر الدين جنكلي بن البابا[٢] واستقرار من أمره في الولاية ورسم السلطان بذلك وحضر الأكابر إليه وهنؤوه بالولاية فنهض القاضي فخر الدين في ولاية القاضي شرف الدين المذكور وبالغ في أمره أتم المبالغة وجوّد الاعتناء حتى ولي ورسم السلطان بتعويض الشيخ فخر الدين عن القضاء بما يليق به فولي إعادة المدرسة الناصرية، ونيابة الحكم بالجامع الصالحي نقل إليه من نيابة الحكم بالجامع الطولوني فولي ثم عزل نفسه، واقتصر على حضور الدروس ومشيخة الخانقاه الفخرية بمصر وتعاهد الحج نفع الله به.

وفي هذه السنة عاد الأمير سليمان ابن الأمير حسام الدين منها من بلاد العراق وكان قد التحق بالتتار فعاد الآن ووصل إلى دمشق في ثامن جمادى الآخرة وتلقاه نائب السلطنة وحضر إلى الأبواب السلطانية وأحضر عدة من الخيل الجياد، ومثل بين يدي السلطان وسأل الصفح عن ذنبه وتنصل وأظهر التوبة والندم على ما صدر منه، فشمله العفو السلطاني والصفح وأنعم عليه بالأموال الجزيلة والتشاريف وأنعم عليه من الأموال بدمشق بمائتي ألف درهم وخمسين ألف درهم وزاده السلطان على إقطاعه الذي كان بيده وعاد إلى دمشق في شهر رجب.

ذكر الخُلْف الواقع بين جوبان نائب سلطنة أبي سعيد بن خدبندا ملك التتار وبين الأمراء مقدمي التوأمين[٣] وقتالهم وانتصار جوبان عليهم وقتلهم

وفي هذه السنة تواترت الأخبار بوقوع الخلف بين مقدمي التتار والحرب بينهم وقد نقل الشيخ علم الدين البرزالي في تاريخه أن الشيخ محمد بن أبي بكر القطان

(١) توفي سنة ٧٤٨ هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ١٠/ ١٨٢، الدرر الكامنة ٣/ ٤٤، الوافي بالوفيات ٢/ ٢٧٠).

(٢) توفي سنة ٧٤٦ هـ (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ١٠/ ١٤٣، الدرر الكامنة ١/ ٥٣٩).

(٣) مقدمو التوامين: هم أمراء التومان، والتومان عبارة عن عشرة آلاف، أي أمير عشرة آلاف (صبح الأعشى ٤/ ٤٢١).

الإربلي ورد إلى دمشق وأخبره تفصيل ذلك على جليته قال: كان سبب هذه الحرب أن الملك أبا سعيد بن خربندا حصل له الحصار من نائبه جوبان وأنه استقل بتنفيذ الأمور دونه ولم يبق له في المملكة إلا مجرد التسمية، وأبعد أقوامًا كانوا مقربين من الملك أبي سعيد وقتل الأمير ربنوا وهو الذي تولى ترتيب الملك لأبي سعيد فذكر الملك ما حصل له من القلق للأمير إيرنجي خال أبيه خربندا، والأمير قرمشي ابن التياج، والأمير دقماق وهم من مقدمي التمانات فقالوا للملك: إن أردت أن نخرج عليه ونكبسه ونقتله فعلنا وإن أحببت أن ننابذه الحرب فعلنا ما أردت؛ فوقع الاتفاق على أنهم يفعلون به كيف ما تهيأ لهم فاتفق الحال من الأمراء الثلاثة ومن وافقهم الأمير أرُسْ أخو دُقْمَاق، ومحمد هرزه ويوسف بكا وبهاء الدين يعقوبا وهم من أعيان الأمراء على أن يعملوا لجوبان دعوة ويقبضوا عليه فيها، فسأله قُرمُشي أن يعمل له دعوة في نواحي عمله بالقرب من بلاد كرجستان وأرسل إليه تقادمَ وهدايا كثيرة، فقبلها جُوبان وأجاب إلى حضور الدعوة فعمل قُرْمُشِي الدعوة في مكان يسمى سرماري من نواحي كرجستان، وهي منزلة قرمشي ومَنْ انضاف إليه، وتهيأ جُوبان لحضور الدعوة، فبينما هو على ذلك إذ جاءه رجل أقطي من جماعة قرمشي في خفية وأخبره بما انطوى عليه الجماعة خفية وأخبره بما انطوى عليه الجماعة وأشار عليه بمفارقة مخيمه وقال له: الآن يكْبِسُوك. فرجع جُوبان إليه واحتاط لنفسه، وركب لوقته وترك مخيمه وخزائنه وخيوله بحالها، ولم يُخْبِر أحدًا من أصحابه، ولم يستصحب غير ولده حسن، وأقبل قُرْمشي في عشرة آلاف فارس من التتار والكُرْج والفُرْس، فسأل عن جوبان فقيل له، هو جالس في مخيمه ينتظر حضور الدعوة فقصده وهجم على مُخَيَّمِه وشهر السيف وثار أصحاب جُوبَان وهم لا يدرون ما الخبر، وقاتلوا قتالاً شديدًا، قتل من الفريقين نحو ثلاثمائة فارس، وخلص قُرمشي إلى خَيْمةِ جُوبَان فلم يجد غير إنسان اسمه أخي أبو بكر فسأله عن جُوبَان فقال: هرب ولم يعرفنا فضرب قرمشي عنق أخي أبو بكر، ونهب مخيم جُوبَان، وأمواله وخيوله وغير ذلك، وذلك في جمادى الأولى وساق خلف جُوبَان فلم يدركه.

وأما جوبان فإنه استمر به السير إلى مدينة مرند فوصل إليها وليس معه غير نفرين من أصحابه، فتلقاه الأمير ناصر الدين ملكها وأمده بالخيل والمال والسلاح، ووصل معه إلى قرية بالقرب من تبريز تسمى دية صوفيان، ووصل خبرُه إلى تَبْرِيز فخرج إليه الوزير تاج الدين علي شاة التبريزي - وزير الملك أبي سعيد - ومعه ألف

فارس فأنزله وأكرمه، وأخرج إلى لقائه أهل تبريز بالفرح بمقدمه، ونُصِبَتْ له القبابُ، وأمدوه بالخيول والسلاح، فبات بتبريز ليلة واحدة، وتوجّه إلى المدينة السلطانية، وصحبته الوزير علي شاه وتقدم الوزير واجتمع بالملك أبي سعيد وتلطّف في أمر جُوبَان وأحسن الثناء عليه، وذكر شفقته على الدولة واهتمامه بأمرها وحرمته وغض ممن نازعه، وخرج عليه، وقال: إن هؤلاء يحسدونه ويقصدون أن يتغير خاطر الملك عليه، فإذا قتله تمكنوا من الدولة وفعلوا ما أرادوا، وبلغوا أغراضهم الفاسدة قال: وقد بلغني عن الأمير إيرنجي أنه يقول إن ابنه عليًا أحق بالملك، لأنه من العظم الثاني، وأغراه به غاية الإغراء فمال إلى قوله ورضي عن جُوبان، وأذن له في الدخول عليه فدخل ومعه كفنه وبكى بين يدي الملك بكاءً شديدًا أو قال قتلت رجالي وأعواني الذين انتخبتهم لخدمة القان ونهبت أموالي التي جمعتها من نعمه، وانكسرت حرمتي التي أقامها فإن كان القان يقصد قتلي فها أنا بين يديه، وأنا من جملة مماليكه. فتبرأ أبو سعيد من ذلك وقال: لم أقصد بك سوءًا قط وهَؤلاء أعداؤك وقد حسدوك على قربك مني وخرجوا علي وعليك وقد مكنتك منهم، فإنهم ارتكبوا هذا الأمر بغير أمري. فاستأذنه في حربهم فأذن له فسأله، أن يمده بالجيش، فأمده بعشرة آلاف فارس يَقْدُمهم الأمير طاز بن كَتْبُغَانُوَيْنَ، الذي قُتِلَ بعَيْنَ جَالُوت، وركب قَراسُنْقَر المنصوري في ثلاثمائة فارس بالسلاح التام على عادة العساكر المصرية، وجاء ابنه تمرتاش من جهة ثغر الروم بطائفة كثيرة من الجيوش وركبوا وركب الملك أبو سعيد أيضًا في خاصته وساق معهم ليتحقق جُوبان أنه معه لا معهم.

وأما قرمشي وإيرنجي ودقماق فإنهم ساقوا خلف جُوبان إلى أن وصلوا إلى بتبريز، فغلقت أبوابها دونهم، وخيف منهم القتل والنهب وخرج إليهم نائبها وهو الحاجي قطق بمأكول ومشروب وعلوفات فعلقوه برجليه وأخذوا منه سبعين ألف دينار - الصرف عن كل دينار ستة دراهم - كَوْنَ أهل البلد تلقوا جُوبَان وخدموه وأغلقوا الأبواب دونهم، ثم ساقوا من يومهم حتى وصلوا إلى مدينة من أعمال أذربيجان اسمها ميانه، ثم ساقوا منها إلى مدينة زنكان[1] ومنها إلى ضيعة اسمها دية منارة فتوافوهم وجُوبَان في هذا المكان فلما شاهد الأمير إيرنجي الملك أبا سعيد وأعلامه تحيّر في أمره واستشار من معه فيما يفعل فقال له قُرمشي لا بُدّ من الحرب

(١) زنكان: هي زنجان من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها.

فإن الملك في الباطن معنا، فتصاف الجيشان، وخاف إيرنجي أنْ يَبْدَأَ الملك بالحرب، وكذلك مَن معه إلا قُرمُشِي فإنه سيّر إلى جُوبَان يقول له اجعل لي إشارة أقصدها وأحضر إلى خدمتك وطاعتك، فرفع له جُوبَان علمًا ولم يقف تحته بل تحيّز إلى جهة أخرى، فحمل قُرْمُشي على ذلك المكان بمن معه حَمْلَةً مُنْكَرَة، ظنًا أن جُوَان ثم فلم يجده فالْتَحم القتال، وقاتل الأمير طاز وقراسنقر المنصوري قتالًا شديدًا، فانهزم إيرنجي ومن معه وانضم أكثرهم إلى عسكر الملك جُوبان وقبض على إيرنجي وقرمشي ودقماق وأخيه وغيرهم. وحملوا إلى المدينة السلطانية وعمل لهم يزغو ومعناه عقد مجلس، وسئلوا عن سبب تعديهم وخروجهم وارتكابهم لهذا الأمر العظيم، فقالوا بأجمعهم إنما فعلناه عن أمر الملك وإذنه وقال قرمشي لجوبان: أنا جاءني يوسف بكا، ومحمد هرزه برسالة الملك أبي سعيد في حَرْبِك وقَتْلك، فأحضرهما جوبان وسألهما عن ذلك فاعترفا به فأنكر الملك ذلك وقال كذبا علي فافعل معهما ما يجب عليهما من حد الكذب والافتراء علي. فحكم على جميعهم بالقتل بمقتضى ياسا جنكيزخان[١]، فعند ذلك أخرج إيرنجي من خريطته ورقة وقال للملك أبي سعيد هذا خَطُّكَ مَعِي بقَتْل جُوبَان. وشتم الملك واجترأ عليه، لأنه خال والده، فأنكر الملك ذلك وقال لجوبان أعمل معهم بمقتضى الياسا؛ فإن هؤلاء خرجوا عليَّ وعليكَ وقصدوا إفساد الحال. فتسلمهم جُوبان وقتلهم، وبدأ بإيرنْجِي وقال: هذا ينبغي أن يعذب قبل قتله. فقيدوه من أضلاعه بقناطير الحديد فبسط لسانه بالسب الفاحش للملك، فأرادوا قطع لسانه فعجزوا عن ذلك، فضربوه بسيخ حديد تحت حنكه خرج من دماغه فمات وبقي مقيدًا يومين ثم قطعوا رأسه وطافوا به بلاد خراسان وأذربيجان، والعراقين والروم، وديار بكر وقتلوا قرمشي ودقماق نقلت ذلك ملخصًا، وبعضه بالمعنى من تاريخ الشيخ علم الدين البرزالي.

---

(١) ياسا جنكيزخان: ياسا: كلمة مغولية تعني: السياسة. وياسا جنكيزخان: هي قوانين خمنها جنكيزخان من عقله وقرّرها من ذهنه، ورتب فيها أحكامًا وحدّد فيها حدودًا. بما وافق القليل منها الشريعة المحمدية، وأكثرها مخالف لذلك، سماها الياسة الكبرى، وقد اكتتبها وأمر أن تجعل في خزانته تتوارث عنه في أعقابه وأن يتعلمها صغار أهل بيته. منها أن من زنى قتل، ومن أعان أحد الخصمين على الآخر قتل، ومن بال في الماء قتل، ومن أعطي بضاعة فخسر ثم أعطي ثانيًا فخسر ثم أعطي ثالثًا فخسر قتل، ومن وقع حمله أو قوسه فمرّ عليه غيره ولم ينزل لمساعدته قتل، ومن وجد أسيرًا أو هاربًا أو عبدًا ولم يردّ، قتل، ومن أطعم أسير قوم أو سقاه أو كساه بغير إذنهم قتل، إلى غير ذلك من الأمور التي رتبها (صبح الأعشى ٤/ ٣١٤ ـ ٣١٥).

وقال في تاريخه ثم ورد علاء الدين علي بن التخت التاجر السَّفار من المدينة السلطانية، وأخبرني بنحو الذي تقدم، وقال: كنت بالمدينة المذكورة وجوبان قد تتبع الأمراء الذين خرجوا عليه فقبض منهم من أول جمادى الآخرة إلى آخر شوال نحو ستة وثلاثين أميرًا فقتلهم، وأخذ أموالهم، وصادر عمالهم وتجارهم، وحَصَّل من الأموال أضعاف ما عُدِمَ له قال: وبقي إيرنجي ثلاثة أيام مقيدًا ميتًا وقتل معه في يومه دقماق وأخوه أرس والأمير بكتوت.

قال: وفي اليوم الثاني قتلوا يوسف بكا وأخاه الأمير نوماي، وفي اليوم الثالث قتل لدقماق ابنان عمر كل واحد منهما سبع سنين وفي اليوم الرابع قتلوا ابنًا لإيرنجي اسمه وفادار من أبناء خمس عشرة سنة وقتل له ابن في الوقعة اسمه الأمير علي وقطعوا رأسه وألقوه إلى أمه كيخشك ابنة السلطان أحمد بن أبغا وكانت حاضرة المصاف، فحملت على أبي سعيد فصرعت وماتت تحت أرجل الخيل قال: وفي اليوم السابع أحضروا قرمشي بن النياج فحلقوا ذقنه وألبسوه طرطورًا وسمروه، وطافوا به المدينة السلطانية، ثم أحضروه بين يدي جوبان وقتل بالنشاب إلى أن مات، ثم أحضروا أخاه من ثغر خراسان، وقتل حال وصوله قال: وأحضروا بنت إيرنجي واسمها قطلو شاه خاتون وكانت إحدى زوجات الملك خَرْبَنْدَا فقال أبو سعيد: هذه سقت أبي السَمّ فقصد قتلها فشفع فيها الوزير، علي شاه وزوجها في الحال بخواجا دمشق أحد أولاد جُوبَان.

قال: وأما امرأة دُقْماق فتزوجت بالأمير طاز بن كتبغانوين، وولي وظيفة قرمشي على ثغر خراسان، وسكنت الفتنة وأحرق جميع من قتل بالنار ولم يدفنوا.

وفي هذه السنة في الساعة الثانية من يوم السبت الخامس من شهر رمضان الموافق للعشرين من تشرين الأول والثالث عشر من بابه جاء سيل ظاهر مدينة دمشق وارتفع على وَجْه الأرض مقدار قامة وكان جريانه من جبل عربا وآيل السوق ووادي هريرة والحسينية وأمطرت هذه الأماكن مطرًا عظيمًا وسال منه هذا السيل وحمل ما كان أمامه من الحجارة حتى سد عين الفيحة وانقطع جريان الماء منها يومين وليلتين، ثم خرجت على عادتها ومر إلى البحيرة.

وفي عاشر شهر رمضان أمر نائب السلطنة بدمشق بهدم العمائر التي على جسر باب الحديد إلى باب الفراديس فهدم منها إلى حد باب الفرج، ثم أقر ما بقي على حاله.

وفي التاسع والعشرين من شهر رمضان جمع القضاة والفقهاء بدار السعادة في مجلس نائب السلطنة، وقرىء عليهم مثال سلطاني يتضمن الإنكار على الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية بمسألة الطلاق[١] وكان أيضًا قد تقدم المرسوم قبل ذلك بمنعه من الفتيا بها، فامتنع ثم أفتى بها فحصل الإنكار عليه الآن وتأكد المنع وصنف في هذه المسألة كلامًا كثيرًا ليس هذا موضع إيراده.

ذكر توجه السلطان إلى الحجاز الشريف وهي الحجة الثانية

وفي هذه السنة أمر السلطان بتجهيز ما يحتاج إليه إلى الحجاز الشريف وأظهر لذلك احتفالًا عظيمًا قبل الخروج إلى الحجاز بستة أشهر وحمل من الإقامات والحوائج خاناه والشعير بالمنازل شيئًا كثيرًا، وتوجّه في صحبته جماعة من الأعيان الأمراء والملك عماد الدين صاحب حماه وعدة من أصحاب الوظائف ورسم بجميع من توجه في خدمته أن تكون كُلفهم وما يحتاجون إليه من المآكل والعليق على البيوت السلطانية والإسطبلات فكان يحتاج في كل ليلة من العليق خاصة ألف إردب شعير وقيل ألف إردب ومائة إردب. وجهز معه في هذه السفرة ما لم يسافر به مَلِكٌ قبله ـ فيما بلغنا ـ فكان مما حمل معه على الظهر ثلاثة عشر حمْلًا من المحاير[٢] المحكمة المقيَّرَة، وجعل فيها الطين الإبليز وزرع فيه الرياحين والخضراوات وهو بنفسج حمْلَان هُنْدُبًا ثلاثة أحمال، فِجْل حِمْل واحد أسفا ناخ، حمل واحد كُسْفَرة خضراء حمْلٌ واحد طرخون: حمل نعناعَ: حمَل ـ سلق: حمل ـ حوائج بقل: حمل ـ شمار: حمل ـ وعمَل له مطبخ يطبخ عليه وهو محمول على الظهر، وكان يطبخ فيه والجمل سائر فلا يصل إلى المنزلة إلّا وقد تهيأ الطعام، وحمل له من ماء النيل ماء، شربه مدة سَفَرِه ومقامه وعوده هو وجماعة ممن معه، وحملت الخراف المسمنة المعلوفة في المحاير على الجمال وهي تُعلف وتسقى في طول الطريق في ذهابه ومقامه وعوده، وضحى منها بمنى، ولما عزم على الرحيل أمر نائبه الأمير سيف الدين أرغون بالمقام بقلعة الجبل ورسم لمن تأخر من الأمراء أن يتوجهوا إلى نواحي

---

(١) مسألة الطلاق: رأي الإمام ابن تيمية أن طلاق الثلاث بلفظ واحد لا يقع به إلا طلقة واحدة رجعية، ورأى ألا يقع الطلاق بالحلف به بدل الحلف بالله، ولكن الحالف إذا حنث في يمينه فعليه كفارة اليمين المعروفة في القرآن الكريم. وهذه المسألة تفرد بها ابن تيمية في عصره بالقول بها. فأثارت ضجة وجدلًا واستنكارًا كبيرًا من معاصريه من أئمة المذاهب.

(٢) المحاير: جمع محارة، وهي شبه الهودج، أي أشبه بصندقين يشدان على جانبي الرحل (القاموس المحيط مادة «محر»).

أقطاعهم فيكون كل منهم ببلاد أقطاعه إلى حين عوده، ولا يجتمع أمير بأمير في غيبته، وكتب إلى النواب بالشام أن يستقر كل نائب بمقر مملكته ولا يتوجه إلى صيد إلى حين عوده، فامتثلت أوامره.

وكان ركوبه من قلعة الجبل في يوم السبت مستهل ذي القعدة، وأقام بظاهر القاهرة ما بين قلعة الجب ومنزلة العش إلى يوم الخميس السادس من الشهر، واستقل ركابه في هذا النهار إلى الحجاز الشريف في أمن الله ورعايته ثم توجه بعد ركاب السلطان الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير سيف الدين أرغون نائب السلطنة فكان توجهه من القاهرة في يوم الاثنين سابع عشر ذي القعدة وأدرك الحج ووصل والسلطان بمكة شرفها الله تعالى، وتصدق السلطان بمكة ـ شرفها الله تعالى ـ بصدقات مبرورة وصلات موفورة وإنعام دان فأغنى بذلك الفقير وسد حاجة ذوي الحاجات وأحسن إلى أهل مكة إحسانًا عامًا شمل غنيهم وفقيرهم وكبيرهم وصغيرهم.

واتفق في هذه السنة وصول ركب من العراق وفيه جماعة من التتار صحبه ثلاثة من أكابر مقدميهم فلما علموا بوصول ركاب السلطان أخفوا أنفسهم خشية أن يقبض عليهم فاطلع السلطان على ذلك فأمر بإحضارهم فحضروا بين يديه فأحسن إليهم وأنعم عليهم، وشملهم بالخلع السنية بالكلاوت الزركش ومكنهم من العود إلى بلادهم.

ولما قضى السلطان مناسك حجه ولم يبق إلا عوده تسحب ثلاثة من مماليك الأمراء الخاصكية مملوكان من مماليك الأمير سيف الدين طقز دمر مملوكًا من مماليك الأمير سيف الدين بَكْتَمر الساقي، والتحقوا بالأمير عز الدين حميضة فظن السلطان أنهم انضموا إلى التتار فسار إلى مقدميهم وأمرهم بالكشف عنهم فقام المشار إليه من مقدميهم الثلاثة وأحضر مَنْ معه، فلم يجدهم معهم، وأقسموا على ذلك، ثم تحقق السلطان وهو بالمدينة النبوية أنهم التحقوا بحميضة وكان من خبرهم ما نذكره.

ولما عاد السلطان من الحجاز الشريف تبعه جماعة من المشاة، فكان السلطان يسوق في آخر الناس فإذا مرّ في طريقه بمن انقطع منهم وعجز عن المشي يقف عنده ويحدثه ولا يفارق مكانه إلى أن يستصحبه معه، فإذا علم ذلك الرجل أنه السلطان انبعثت نفسه ونهض ومن عجز منهم عن المشي أمر بحمله ففعل ذلك حتى حمل على جميع ما معه من الظهر الذي يمكن الحمل عليه ثم مرّ بعد ذلك بمن عجز عن المشي

فتحدث معه على عادته وأمره بالقيام فقال: لا أقدر على ذلك فقيل له إن السلطان يحدثك، فقال: قد علمت أنه السلطان ولكن علي والله لا أستطيع المشي فأمر بحمله، فقيل له: إن الظهر قد حمل عليه، فأمر بطرح ما في المحاير من الطين والخضراوات والبقولات وغيرها، وأن يُحْمَل على جمالها من عجز عن المشي، فامتثل أمره ورفق بالناس غاية الرفق واتصل به أن كريم الدين وكيله قد ضيق على بعض من معه في العطاء والرواتب، فنقم عليه وضربه وهمّ بقتله مع تمكنه من دولته ثم استعطف عليه فسكن غضبه ووصل إلى السلطان هدايا النواب وتقادمهم والإقامات الوافرة والفواكه من حين خرج من مكة شرفها الله تعالى.

ولما وصل السلطان إلى وادي بنس سالم في عَوْدِه وهو من المدينة على ثلاث مراحل جهز الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير سيف الدين أرغون، والأمير سيف الدين قطلوبغا المُعزِّي بالبشارة بمقدمه، فوصلا إلى القاهرة في يوم الثلاثاء مستهل المحرم، وعلى أيديهما كتب البشائر فضربت البشائر وزينت المدينتان أحسن زينة وبات الناس في حوانيتهم ليالي واستبشروا بسلامته.

وكانت غيبة السلطان الملك ناصر الدين محمد عن القاهرة في ذهابه وحجه وعوده ثلاثة وأربعين يومًا.

ثم وصل السلطان إلى قلعة الجبل في بكرة نهار السبت الثاني عشر من المحرم ستة عشرين وسبعمائة، ولما مر بعقبة أيلة وشاهد ضيقها وصعوبة مسلكها أمر بترتيب جماعة من الحجارين لإصلاح طريقها، وقطع ما بها من الصخور المانعة من السلوك المضيقة على الناس فسطرت هذه المثوبة العظمى في صحائف حسناته.

وفي سنة تسع عشرة وسبعمائة توفي الأمير سيف الدين كراي المنصوري(١) بمعتقله بالبرج بقلعة الجبل في يوم السبت سادس عشر المحرم رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين أغزلوا العادلي(٢) أحد الأمراء الأكابر مقدمي الألوف بدمشق، في يوم الخميس سلخ جمادى الأولى بداره بظاهر دمشق ودفن بتربته بقاسيون، وكان أميرًا شجاعًا مقدامًا، شهد الحروب وأبلى فيها بلاء حسنًا، وقد تقدم ذكر نيابة دمشق في الأيام العادلية الدينية رحمه الله تعالى وتوفي الصدر بدر الدين

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٤٥، الدرر الكامنة ٣/ ٣٥١.

(٢) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٥٢، البداية والنهاية ١٤/ ٩٤، الدليل الشافي ١/ ١٣٥، الدرر الكامنة ١/ ٤١٧، الوافي بالوفيات ٩/ ٢٩٤، السلوك للمقريزي ٢/ ١: ١٩٩.

محمد بن الصدر ناصر الدين منصور بن إبراهيم بن منصور بن الجوهري الحلبي[(١)] وكانت وفاته بدمشق بالعادلية يوم السبت سادس عشر جمادى الآخرة ودفن بسفح قاسيون، ومولده بحلب في ثالث عشر صفر سنة اثنتين وخمسين وستمائة سمع الحديث النبوي وأسمعه، وكان يعد من الرؤساء بالقاهرة، وتمكن في سلطنة الملك العادل كتبغا تمكنًا عظيمًا وعرض عليه وزارته فأباها، وكان من ذوي الأموال العريضة ثم نفدت أمواله في آخر عمره واستدان ومات وعليه جملة من المال رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي فخر الدين أبو عمر وعثمان بن علي بن يحيىٰ بن هبة الله بن علي بن إبراهيم بن مسلم بن علي الأنصاري الشافعي المعروف بابن بنت أبي سعيد[(٢)] وكانت وفاته بالقاهرة في ليلة الأحد الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ودفن من الغد بالقرافة ومولده في الحادي والعشرين من شهر رجب سنة تسع وعشرين وستمائة بقرية داريا من قرى دمشق وكان رحمه الله من العلماء الفضلاء الذين يرجع إلى فتاويهم، وكان حسن العشرة والمودة والمذاكرة لطيفًا ولي نيابة الحكم بالقاهرة مدة وولي قبل ذلك قضاء الأعمال القوصية وغيرها رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ الصالح العابد العارف العلامة القدوة الورع الزاهد أبو الفتح نصر بن سليمان بن عمر المنيخي[(٣)] تغمده الله تعالى برحمته ورضوانه بزاويته المشهورة، ومولده تخمينًا في سنة ثمان وثلاثين وستمائة وكان قدس الله روحه عالمًا زاهدًا عابدًا، مخشوشنًا في مأكله ومشربه وملبسه سمع الحديث بحلب على أبي إسحٰق إبراهيم بن خليل بن عبد الله الدمشقي وقدم إلى الديار المصرية بعد الستين، وقرأ القرآن على الشيخ كمال الدين بن علي بن شجاع وصدره في مجلسه ثم قرأ على الشيخ جمال الدين بن فارس، والشيخ علي الدهان وأجازوه بذلك وأتقن القراءات ووجوهها وعللها وسمع صحيح البخاري على الشيخ كمال الدين الهاشمي وصحيح مسلم على ابن البرهان وكتاب السنن لأبي داود على أبي الفضل محمد بن محمد البكري، والسنن للنسائي على أصحاب أبي بكر بن باقا، وسمع علي النجيب الحراني، وعبد الهادي القيسي وابن عملاق وغيرهم، وأجاز له الرشيد العطار وغيره

---

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٥٢، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٤٦، الدرر الكامنة ٤/ ٢٦٦.

(٢) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٤٧، البداية والنهاية ١٤/ ٩٥.

(٣) هو المنبجي وليس المنيخي، انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ٥٢، حسن المحاضرة ١/ ٥٢٤، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٤٤، الدرر الكامنة ٤/ ٣٩٢.

وحدث بذلك مرار وقرأ عليه القرآن جماعة فأجاز منهم الشيخ أبا عبد الله محمد بن حسن الضرير دون غيره لإتقانه وكان يقول قرأ على خلق من أهل البلد وما جاز لي أن أجيز غير أبي عبد الله وقرأ الشيخ رحمه الله النحو والتصريف على الشيخ بهاء الدين بن النحاس واشتغل على مذهب الإمام أبي حنيفة واشتغل بأصول الفقه على أبي عبد الله محمد بن الحراني، وكتب الحديث هذا كله مع الزهد والانقطاع والعبادة وأقبل عليه ملوك عصره وأكابر أمراء الدول والأعيان وترددوا إليه في الدولة الظاهرية وما بعدها وكان أكثرهم به خصوصية واجتماعًا وترددًا إليه وامتثالًا لأمره ورجوعًا إلى إشاراته الأمير ركن الدين بيبرس العثماني المنصوري الجاشنكير، وهو الذي ملك الديار المصرية ولقب في سلطنته بالملك المظفر فكان يقضي عنده حوائج الناس، ويصل أرزاقهم واستماله الشيخ إلى الخير وحسن فعله فوقف بأمره وإشارته ما قدمنا ذكره بجامع الحاكم والخانقاه والرباط وغير ذلك من وجوه البر، وكان الشيخ يكره الاجتماع بالأكابر وتلجئه الضرورة إلى ذلك لما يحصل بسبب اجتماعهم به من النفع المتعدي إلى غيره، ومما يدل على كراهته لذلك أنه كان ينقطع عن الاجتماع بالناس ومشافهتهم أربعة أشهر في السنة وهي رجب وشعبان ورمضان وذو الحجة ثم انقطع ستة أشهر من السنة ثم جعل انقطاعه في آخر عمره ثمانية أشهر وفي مدة انقطاعه لا يشافه بكلامه غير خادمه وابن أخته الشيخ قطب الدين عبد الكريم وأخبرني المشار إليه أن الشيخ ما زال يسأل الله تعالى أن يخفف عنه تردد الناس إليه فاستجاب الله تعالى له وانقطع الناس عنه قبل وفاته مدة تفرغ فيها لعبادة ربه، وكنت أجتمع به في بعض الأحيان بزاويته وأخلو به في خلوته فيتحدث معي ويدعو لي وتظهر لي منه دلائل المحبة والميل إلي، وكنت أقصد رؤيته في زمن انقطاعه عن الاجتماع بالناس فأحضر إلى الجامع الحكمي في يوم الجمعة قبل حضوره فإذا جاء قمت إليه وتلقيته وسلمت عليه وصافحته فيرد علي السلام الشرعي لا يزيدني ولا غيري عن ذلك، وأما في غير زمن انقطاعه فيسألني عن حالي وما تجدد لي، وأخبرني الشيخ قطب الدين ابن أخيه نفع الله به أن الشيخ سأله في الساعة الثالثة من يوم وفاته هل قارب أذان العصر؟ قال فقلت له: يا سيدي بقي للعصر كثير، ثم ذكر ذلك في الخامسة، ثم أعاده وقت أذان الظهر قال: ورأيته يفرح بأذان العصر فلما أذن المؤذن بالعصر خرجت روحه الطاهرة المطمئنة ورجعت إلى ربها راضية مرضية قدس الله تعالى روحه ونفعنا ببركاته.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك الزاهر مجير الدين داود ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه ابن الملك القاهر ناصر

الدين محمد ابن الملك المنصور أسد الدين شيركوه الكبير ابن شادي[١] بالقاهرة بدار الشريف ابن ثعلب في ثامن عشر ذي القعدة وكان قد حضر إلى الأبواب السلطانية يسعى في الإمرة، فأنعم عليه بإمرة طبلخاناه بدمشق فمات قبل عوده إلى وطنه ومولده بدمشق في يوم الثلاثاء ثاني عشرين شهر رمضان سنة خمس وخمسين وستمائة.

ذكر الحرب الكائنة بجزيرة الأندلس بين المسلمين والفرنج وانتصار المسلمين عليهم

كانت هذه الوقعة المباركة التي أجلت عن الظفر والغنيمة في شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة وسبعمائة، ووصل الخبر بها إلى الديار المصرية في سنة عشرين وسبعمائة، واجتمع بي من حضر هذه الوقعة وقصّ علي نبأها وعلقت ذلك منه ثم فقدته ورأيت هذه الواقعة قد ذكرها الشيخ شمس الدين الجزري في تاريخه عن الشيخ محمد بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن يحيىٰ بن ربيع المالقي وملخص ما نقله عنه: أنه لما بلغ النصارى حال، أمير المسلمين بجزيرة الأندلس وهو السلطان الغالب بالله أبو الوليد إسماعيل ابن كبير الرؤساء أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن نصر سبط أمير المؤمنين المجاهد الغالب بالله أبي عبد الله محمد ابن أمير المسلمين يوسف بن منصور المعروف بابن الأحمر وأنه أخذ بالعزم في تحصين البلاد والثغور وإصلاح حال الرعية وحياطتهم كبر ذلك عليهم وعزموا على منازلة الجزيرة الخضراء وانتدب لذلك سلطان قشتالة واسمه دون بطره وجهز المراكب والرجالة وجاء إلى طليطلة، وهي مقام بابهم الذي يرجع الملوك إليه ويقفون عند أمره، وعرفه ما عزم عليه من غزو الجزيرة الخضراء واستئصال من بها من المسلمين وسأله أن يتقدم أمره لملوك جزيرة الأندلس بمساعدته وإعانته على ذلك فسره ذلك وتقدم إلى الملوك بالاهتمام في هذا الأمر وإعانته عليه، واتصل خبر اهتمامهم بأمور المسلمين أبي الوليد إسماعيل فكتب إلى سُلطان بلاد المغرب أبي سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني، وعرفه ما دهم المسلمين من هذا العدو الثقيل واجتماعه وكلبه على البلاد الإسلامية، وسأل إنجاده بطائفة من جيشه وسير إليه بكتابه أبا عبد الله الطنجالي محدثًا الأندلس وعالمها، وأبا عبد الله الساحلي عابد الأندلس وأبا جعفر بن الزيات الصوفي، وأبا تمام غالب الأغرناطي التتاري الصالح

---

(١) انظر ترجمته في: السلوك للمقريزي ٢/ ١: ٢٠٠، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٤٧.

الزاهد وصحبتهم جماعة من الناس، فتوجهوا إليه في البحر والبر حتى انتهوا إلى مدينة فاس واجتمعوا به وسألوه إغاثة المسلمين وإعانتهم فتقاعد عن نصرتهم واستصعب هذا الأمر فعادوا عنه وقد أيسوا من نصره فلجأ المسلمون إلى الله تعالى وأخذوا في إصلاح الجزيرة الخضراء وتحصينها واتصل خبر تقاعد المريني بالفرنج فاستبشروا بذلك وتحققوا أنهم يملكوا البلاد ويستأصلون المسلمين، وقدموا في جيوش عظيمة اشتملت على خمسة وعشرين ملكًا منهم صاحب أشبونة وقشتالة والفرنتيرة، وأرغونة وطلبيرة ووصلت إليهم الأثقال والمجانيق وآلات الحصار والأقوات في المراكب التي جهزوها وانتهت المراكب بذلك إلى جبل الفتح وطريف لمجاورتهما للجزيرة الخضراء ووصل إلى الزقاق ثلاث عشرة جفنًا كبار غزوانية وترددوا بين الجزيرة والمرية ووصلت جموع الفرنج إلى أغرناطة ونزلوا منها على عشرة أميال بموضع يقال له قنطرة بينوش بالقرب من جبل البيرة فامتلأت بهم تلك الأرض وامتدت جيوشهم في طول وادي شنيل ولم يكن لهم بدٌّ من النزول على الوادي بطوله بسبب الماء ولما علم المسلمون بوصولهم إلى هذا المكان عزم أمير المسلمين على أمير جيشه الشيخ الصالح أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء أن يخرج إليهم بأنجاد المسلمين وشجعانهم في صبيحة يوم الاثنين الخامس عشر من شهر ربيع الآخر سنة تسع عشرة وسبعمائة فتأهب الناس لذلك في الأحد.

ولما كان في عشية يوم الأحد أغارت سرية من العدو على ضيعة من ضياع السلطان القريبة من البلد فخرج إليهم جماعة من فرسان الأندلس الرماة المعروفين برماة الديار فقطعوهم عن الجيش وفروا أمامهم بجهة أرض المسلمين فتبعوهم طول الليل وأصبحوا بأرض لوشة فاستأصلهم المسلمون بالقتل والأسر، وكان ذلك أول النصر وأصبح المسلمون في يوم الاثنين وقد غاب من جمعهم هذه الطائفة المشهورة بالشجاعة والرمي، فلم يتوقف الشيخ أبو سعيد عن لقاء العدو بسبب غيبتهم وعزم على الخروج لقتالهم، وذلك يوم عيدهم عيد العنصرة وهو الرابع عشرين من حزيران، فخرج إليهم في طائفة يسيرة من الفرسان مع أبناء أخيه وهما الشيخان الشقيقان أبو يحيىٰ وأبو معروف أمير جيش مالقة ابنا الشيخ الشهيد أبي محمد عبد الله بن أبي العلاء ومنهم أخوهم الشيخ أبو عامر خالد أمير جيش رنده ومنهم الشيخ العارف أبو مسعود محمد بن الثابتي ومنهم أمير جيش الخضرا، الشيخ المرابط أبو عطية مناف بن ثابت المغراوي وأمير لوشه والشيخ أبو المكارم ريان بن عبد المؤمن ولكل واحد من هؤلاء أولاد وأتباع، وأمرٌ مطاع، وخرج مع هؤلاء

الفرسان جماعة رجال أنجاد نحو خمسة آلاف رجل من أهل أغرناطة وسلكوا مع الشيخ أبي سعيد طريق الجبل لكونه أمنع، وأوصاهم، أن يكونوا بموضع عينه لهم ووصل فرسان المسلمين الثالثة من النهار إلى قرب الجيش فلما شاهدهم الفرنج عجبوا من إقدامهم عليهم مع قلتهم بالنسبة إلى كثرة الفرنج، وخرج إليهم وزير ملك الفرنج، فقال ما هذا الذي فعلتموه، وكيف أتيتم والملك في يوم عيده؟ فارجعوا وابقوا على أنفسكم فإنه إن علم بكم ركب لقتالكم ولا ملجأ لكم منه فعند ذلك حصل للشيخ أبي سعيد حال أخرجه عن عقله فنزل عن فرسه باكيًا متضرعًا إلى الله تعالى، وارتفعت أصوات المسلمين بالدعاء لهم ثم أتاهم من كان قد بقي بأغرناطة من فرسان المسلمين يتبعون آثارهم فحرض الشيخ أبو سعيد المسلمين على قتال عدوهم، وصلى ودعا وبينما هو في صلاته ركب العدو بجملتهم وحملوا على المسلمين - ولم يعلموا برجال المسلمين التي وصلت من أغرناطة فنزلوا بجهة العلياء من المنزلة الخالية، وقصدوا المسلمين فلم ترعهم كثرتهم واستمر الشيخ أبو سعيد في صلاته حتى أكملها، ووقف المسلمون ينتظرون ركوبه، ولما رأى العدو ثباتهم توقفوا وتهيؤوا وخرج من الفريقين فرسان يحركون القتال فاستشهد أمير رندة فاجتهد أقرباؤه في أخذ ثأره وأمر الشيخ أصحابه أن يقصدوا طرف المحلة ففعلوا فأفادهم ذلك، ومال الروم إلى جهة المحلة بجملتهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم فانهزموا أقبح هزيمة وأخذتهم السيوف الإسلامية فما زال المسلمون يقتلونهم من الساعة السابعة إلى الغروب، ولما أظلم الليل أخذ الفرنج في الهرب وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وغاب الجيش عن أغرناطة ثلاثة أيام وخرج أهل غرناطة بجمع الأموال وأخذ الأسرى، فاستولوا على الأموال وأسروا وسبوا ما يزيد على خمسة آلاف من الرجال والنساء والأولاد، وأحْصِيَ من قتل من العدو فزادوا على خمسين ألفًا، ومنهم من قال ستين ألفًا، ويقال إنه هلك منهم بالوادي مثل هذا العدد لقلة معرفتهم به وثقلهم بالعدد ولم تبلغ القتلى من المسلمين بالمحلة عشرة وأما الذين قتلوا بالجبال والشعارى وسائر بلاد المسلمين من العدو فلا يحصى عدده كثرة ووجد الملوك الخمسة والعشرون بالمحلة قتلى، منهم دون بطره وعمه دون جوان وعلق دون بطره على باب الحمراء بأغرناطة وأما عمه وكان ممن يخدم المسلمين ففديت جثته بشيء كثير وأسارى وأسر من العدو في بقية الشهر خلق كثير فكان المسلمون يحتاجون في كل يوم لقوت الأسرى وقوت من يحرسهم ويحفظ الدواب خمسة آلاف درهم قال: وزعم الناس أن الذي وجد من الذهب والفضة بالمحلة

كان سبعين قنطارًا ولم يظهر سوى ربع هذا المقدار وأما الدواب والعدد والأخبية فشيء كثير.

قال ولقد عزم على بيع ما يحصل من ذلك وقسمته فتعذر ذلك، واستمر البيع في الأسرى وبعض الأسلاب والدواب ستة أشهر متوالية ولم يكمل قال وبعضها باق إلى الآن وضجر الناس وملوا من كثرة البيع قال ونهاية عدد ما كان من فرسان المسلمين في ذلك اليوم بعد رجوع الرماة مما كانوا فيه ألفان وخمسمائة ولم يستشهد منهم غير أحد عشر رجلًا، منهم خالد بن عبد الله المذكور وعمر بن باحرزت، وكان من خيار المسلمين رحمه الله تعالى هذا آخر كلامه في هذا الفصل وبعضه بمعناه.

وأخبرني من شهد هذه الوقعة كما زعم وظاهره غير مُتَّهَم فإن عليه آثار الخير أنه شاهد رجلًا يقاتل العدو ويقتل منهم في هذه الوقعة قال فشبهته ببعض من أعرفه فجعلت أحرضه على القتال ثم دنوت منه فلم أجده ذاك وشبهته بآخر فحرضته كذلك فلما قربت منه نظر إلي وقال لست فلانًا ولا فلانًا النصر من عند الله، ثم غاب عني وفي هذا دلالة على أن الله تعالى أمد هذه الطائفة بالملائكة في هذه الغزاة، فإن القدرة البشرية تضعف عن مقاومة هذه الجموع الكثيرة بهذه الطائفة اليسيرة.

وقد ورد كتاب إلى الديار المصرية من أغرناطة من جهة الشيخ حسين بن عبد السلام تضمن من خبر هذه الغزاة أنه قال جاء دون بطرا وجوان وهما مَلِكا قشتالة جيّشا جيشًا هائلًا ما رأى المسلمون قط مثله، وعزموا على دخول أغرناطة فأول نزولهم على حصن يقال له طشكر وفيه صاحبه ابن حمدون فلما نازلوه بعث إليهم صاحب الحصن في تسليمه على إبقاء المسلمين فأجاب ملك الروم إلى ذلك واستقر أن يسكن المسلمون والروم في الحصن فواعدهم صاحب الحصن أن يبعثوا إليه في نصف الليل خمسمائة فارس من الشجعان فبعثهم الملك إليه مع قائد يقال له أرمند فلما دخلوا الحصن فرقهم صاحب المجالس وقتلهم عن آخرهم ولم يشعر بعضهم ببعض فلما علم ملك الروم أنه عذر بهم حلف أن لا يرجع إلى بلاده حتى يدخل مدينة أغرناطة غلبة وقهرًا فنازلها بمن معه على أربعة أميال منها فلم يخرج إليه أحد ثم تقرب حتى صار منها على ميلين فلما رأى المسلمون قربه من المدينة وقع في نفوسهم رعب عظيم وتضرعوا إلى الله تعالى، فلما رأى سلطان البلد ما نزل بالمسلمين بعث إلى ملك الفرنج يقول له: ارحل عني بأجنادك وأنا أعطيك عشرين حملًا من المال

ولا تفسد زرع البلاد، فامتنع من قبول ذلك وأبى إلا أخذها غلبة وقهرًا فبعث إليه ثانيًا وبذل له خمسة وعشرين حملًا من الذهب، وفي كل يوم مائة دينار وفي كل جمعة ألف دينار. فامتنع ملك الروم من القبول وحبس رسول المسلمين، فعلم المسلمون حينئذٍ أنه لا ينجيهم إلا النصر من الله تعالى فبعثوا إلى أمير يعرف بأبي الجيوش من بني مرين وسألوه إنجادهم بنفسه، فجاء ومعه ألف فارس ونزل بموضع يقال له إلبيرة، وخرج عثمان بن أبي العلاء وهو من بني مرين في ألف فارس فكمن في موضع آخر وخرج ملك المدينة بعد خروج عثمان المذكور وخرج بعد الملك أمير يعرف بالمغراوي في ثلاثمائة فارس من بني مرين ومع كل طائفة منهم نقارتان[1] وصناجق ووقع عليهم ملك المدينة واقتتلوا فانهزم المسلمون أمامهم إلى جهة المدينة استجرارًا لهم فتبعهم الفرنج طمعًا فيهم ثم عطف المسلمون عليهم وخرج عليهم الكمناء من كل جهة، ورفعوا أصواتهم بذكر الله تعالى، فهزم الله تعالى الكفار وألقى الرعب في قلوبهم فقتل منهم ثمانون ألفًا وسبى من الأولاد والنساء تسعة آلاف وأسر ما لا يحصى كثرة قال:

وأما ما وزن من الذهب من المغنم منهم فثلاثة وأربعون قنطارًا ومن الفضة مائة وأربعون قنطارًا ولم يفلت من الفرنج إلا من نجا به فرسه وقتل الملكان فيمن قتل وجميع زعمائهم وحصلت امرأة جوان وأولاده في الأسر فبذلت في نفسها مدينة طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصنًا فلم يقبل المسلمون ذلك قال: واستشهد من المسلمين سبعة، ثلاثة من بني مرين وأربعة من الأندلسيين من أعيانهم، قال: ثم وصلنا أنه خرج من إشبيلية أربعة عشر مركبًا، ونزلوا على سبتة فخرج إليهم المسلمون فأخذوا منهم أجفانًا وأسروا من بها، قال: ووقعت الغزوة المباركة في الخامس عشر من الشهر فكان بين الوقعتين ليلة واحدة، هذا ملخص كتابه ومعناه ونقل الشيخ محمد بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن يحيىٰ الحاكي الأول قال: ولما كان في يوم الخميس مفتتح سنة عشرين وسبعمائة هكذا قال يوم الخميس مفتتح سنة عشرين وهي استهلت عندنا بيوم الثلاثاء عزم الشيخ أبو يحيىٰ أمير جيش مالقة أن يتوجه إلى رندة ويجتمع فيها بابنه مسعود الذي تولى أمر جيشها بعد عمه الشهيد خالد ويصل إليه الشيخ أبو عطية مناف بن ثابت ويتوجهوا للإغارة على شريش من

---

(١) النقارة: من الآلات الملكية مختصة بالمواكب العظيمة بمصر، وكانت تحمل في ركاب السلاطين إلى الحرب فتستخدم في إصدار الأوامر وفي الإيذان ببدء القتال (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٣٥٢).

بلاد النصارى فعلم بذلك النصارى المجاورون لمقالقة ولبلاد المسلمين فعزموا على أن يغيروا على قامرة وحصن نوح من شطر مالقة وبالقرب منها، فارتقبوا يوم انفصاله وكان يوم الخميس، فاجتمعوا في نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل من أهل استجة وسبتباله وأشونة وستبة وبلى وأليسانه وقبرة ومرشانة وكان الفرنج في الحشد الأول قد خافوا على هذه البلاد المجاورة للمسلمين فتركوا أهلها بها لحراستها فوصلوا صبيحة السبت ودخلوا قامرة فأخذوا جميع كسب سلطان المسلمين وكثيرًا من كسب الرعية وخرجوا مطمئنين. وكان قد خرج فارسان من المسلمين ليلحقا الجيش فظفر الفرنج بأحدهما وهرب الآخر، فأدرك الشيخ أبا يحيىٰ بحيطين خضر الوزير ابن الحكيم يعرفه الحال وهو بجماعة مالقة خاصة فرجع لقصد العدو فحضر على حصن طبية فتبعه من فرسانها نحو ثلاثمائة فارس ممن يعتمد عليهم، وترك الضعفاء والثقلة البقلة ونهض إلى حيث ذكر له الفارس أنه لقيهم في أول الليل في دخولهم فوجدهم قد خرجوا بالمغنم بموضع يقال له برجمه من تحت حصن سم لي وذلك بعد الظهر فارتفع الفرنج في كدية عالية، ونزل أنجاد فرسانهم للقتال فقاتلهم المسلمون قتالًا شديدًا فقتلوا أكثرهم، واستشهد من المسلمين رجل واحد يقال له سعد الهمداني، ثم ظهرت ساقة المسلمين، فارتفع من سلم من مقاتلة النصارى إلى الكدية وتحصنوا بها بالبرادع والدرق والدواب وامتنعوا ووصل الرماة من أنتقيرة وحصن المنشأة، وكان العون من الله تعالى عليهم فما زالوا يجاولونهم ويقاتلونهم إلى ثلث الليل الآخر فأذعن من سلم من النصارى إلى الإسار، فنزل نيف على خمسمائة فأسروا وقتل بقيتهم بالرماح والسهام ورجع الشيخ أبو يحيىٰ بهم إلى مالقة وجعل منهم أربعمائة أسير اثنين وثمانين أسيرًا في حبل واحد، وسائرهم مثقلون بالخراج وأركبهم على دوابهم وأخذ منهم قاضي النصارى بأستجة وحمل ما غنم من عدوهم من السيوف والرماح على خمسة وأربعين جملًا ومن القسي على خمسة وأربعين دابة، والدرق على نحو من ثلاث عشرة دابة، وأراح الله تعالى من هؤلاء الأعداء ونصر عليهم وله الحمد والمنة.

واستهلت سنة عشرين وسبعمائة بيوم الثلاثاء

في هذه السنة في شهر المحرم عاد السلطان الملك الناصر من الحجاز الشريف كما قدمنا ذكر ذلك في سياقة أخبار حجته ولما عاد إلى الديار المصرية شمل نواب السلطان وأكابر الأمراء بالإنعام والتشاريف على عادته.

ذكر تفويض السلطنة بحماة
للملك المؤيد عماد الدين إسماعيل

كان الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ابن الملك الأفضل نور الدين علي ابن الملك المظفر تقي الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب قد توجه في خدمة السلطان إلى الحجاز الشريف في سنة تسع عشرة وسبعمائة فلما عاد في هذه السنة رأى السلطان أن يفوض إليه السلطنة بحماة على عادة عمه وأجداده، فأمر بذلك وأركبه بشعار السلطنة في يوم الخميس السابع عشر من المحرم سنة عشرين وسبعمائة ولبس التشريف بالمدرسة المنصورية التي بين القصرين بالقاهرة وهو بغلطاق[١] أطلس معدني أحمر بطرز زركش، بسنجاب مقندز[٢] وقباء تحتاني أطلس معدني أصفر، وشاش تساعي مقصب بقصبات زركش وكلوتة[٣] زركش وسيف وحياصة[٤] ذهب وركب فرسًا أشهب من مراكيب السلطان نرناري أطلس أحمر بداير أصفر برقبة سلطانية مزركشة وسرج سلطاني محلّى بذهب وحمل السلاح له الأمير سيف الدين قجليس أمير سلاح، وحملت الغاشية السلطانية[٥] بين يديه، وركب في خدمته الجمدارية السلطانية والحجاب، والنقباء وحملت العصائب على رأسه، وخلع على أرباب الوظائف من الأمراء الأكابر، وكان يومًا ما مشهودًا وطلع إلى قلعة الجبل وقبل الأرض بين يدي السلطان وجلس رأس الميمنة ثم أعطى الدستور الشريف فتوجه من يومه على خيل البريد محبورًا مجبورًا، ووصل إلى دمشق في يوم الخميس الرابع والعشرين من المحرم وأقام بعض يوم وتوجه إلى حماة والله أعلم.

وفي هذه السنة أعفى الصاحب أمين الدين عبد الله من نظر المملكة الطرابلسية وكان قد تكرر سؤاله في الإعفاء وأن يكون مقامه بالقدس الشريف فأجيب سؤاله

---

(١) بغلطاق: هو القباء بالفارسي، وهو بلا أكمام أو بأكمام قصيرة جدًا (خطط المقريزي ٢/ ٩٩).
(٢) مقندز: أي محبوك بفراء القندس.
(٣) الكلوتة: هي غطاء للرأس وتسمى أيضًا كلفة وكلفتا، وكلفتة. يقول البعض إنها من أصل لاتيني ويقول آخرون إنها معربة عن الفارسية (مصطلحات صبح الأعشى ص ٢٨٨).
(٤) الحياصة: هي الحزام أو المنطقة، تقدم التعريف بها.
(٥) الغاشية السلطانية: وهي غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب، يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب، تحمل بين يدي السلطان عند الركوب في المواكب الحفلة كالميادين والأعياد ونحوها، يحملها الركاب دارية، رافعًا لها على يديه يلفتها يمينًا وشمالًا (صبح الأعشى ٤/ ٦).

وتوجه من طرابلس إلى القدس في شهر المحرم ورتب له في كل شهر ثمانمائة درهم، وأربع غرائر قمحًا بكيل القدس، واستقر مقامه بالقدس إلى أن أعيد إلى الوزارة على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر الإفراج عمّن يذكر من الأمراء المعتقلين

وفي العشر الأوسط من صفر من هذه السنة أفرج السلطان عن جماعة من الأمراء المعتقلين الذين اعتقلوا في ابتداء الدولة وهم الأمير علم الدين سنجر البرواني والأمير علم الدين الشيخ علي التبريزي والأمير سيف الدين طوغان المنصوري والأمير سيف الدين طاجار تكبري، والأمير صارم الدين أزبك العينتابي، والأمير علم الدين أيدمر الشيخي، والأمير علاء الدين مغلطاي السيواسي والأمير شمس الدين سنقر الكمالي الصغير والأمير بدر الدين الحاج بيلبك، وسيف الدين منكجار وناصر الدين منكلي وشرف الدين موسى وشهاب الدين غازي أخو حمدان بن صلغاي وخلع عليهم خلع الجند ورتب جماعة منهم في البحرية ثم أمر بعضهم بطبلخاناه، وقدم بعضهم على رجال الحلقة، ولما أفرج السلطان عن هؤلاء هرب من الاعتقال بثغر الإسكندرية من الأمراء علاء الدين أيدغدي التتري وسيف الدين بهادر الإبراهيمي فمسكا وجيء بهما إلى السلطان وكان معهما في الاعتقال أحد المماليك السلطانية واسمه رمضان فلم يوافقهم على الهرب فلما جيء بهم أفرج السلطان عنه وأمر بسمل أعين بهادر الإبراهيمي وأيدغدي التتري فسملت أعينهما في يوم الأربعاء خامس عشرين صفر من السنة.

ذكر إسماعيل الزنديق[1] ومقتله

وفي هذه السنة رمى هذا المذكور بالزندقة وادعى عليه بمجلس الحكم عند القاضي علاء الدين الجوجراي أحد نواب قاضي القضاة تقي الدين بن الإخنائي المالكي، وشهد عليه جماعة كثيرة بأمور شنيعة تقتضي الزندقة نعوذ بالله من ذلك واعتقل مدة حتى استوضح الحاكم أمر الشهود وعرف عدالة بعضهم فقبل شهادته وزكى عنده بقيتهم وتضمن المحضر أقاويل شهد عليه بها لا يصدر مثلها عمن يعتقد بعثًا ولا نشورًا فثبت ذلك كله على الحاكم المذكور وأعذر إلى إسماعيل المذكور هل

---

(١) هو إسماعيل بن سعيد الكردي المقرىء (انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/٢٤٩، الدرر الكامنة ١/٣٦٧).

له مطعن في الشهود يدفع به شهادتهم؟ وأمهله ثلاثة أيام أولها يوم الجمعة الثالث والعشرون من صفر فلما انقضى الأجل جلس قاضي القضاة تقي الدين المالكي ونائبه القاضي علاء الدين الجوجراي المذكور، وغيره من نواب الحكم، وجماعة من فقهاء المالكية وغيرهم بالمدرسة الناصرية بالقاهرة فلما صلوا المغرب ودخلت ليلة الاثنين وانقضت مدة الإعذار ولم يأت يدافع حكم عليه النائب بما ثبت عليه عنده من أمره وأشهد عليه أنه هدر دمه ونفذ قاضي القضاة تقي الدين المالكي المذكور ما حكم به نائبه وحكم به، وكان هذا الرجل قد حكى عنه كلام كثير منه ما ثبت بمقتضى المحضر ومنه ما شاع مما تنزه كتابنا عن ذكره وأخبرني الشيخ زين الدين أبو بكر بن الفرج الهيثمي في يوم الأحد لخمس بقين من صفر سنة عشرين وسبعمائة قال: رأيت في الليلة المسفرة عن هذا اليوم رسول الله ﷺ وكأنه بجامع الحاكم في صحنه مما يلي الدرابزين من الجهة القبلية ومعه لوط عليهما السلام وهما قائمان فسلمت عليهما فردوا عليّ السلام فقال رسول الله ﷺ قل لتقي الدين بن الإخنائي بقتل هذا أما سمعت ما قال أو ما سمع ما قال الشك من الراوي في سيدنا رسول الله ﷺ لوط وكان قد ذكر عن هذا الزنديق في حق لوط عليه السلام كلام شنيع، وقال لي الراوي وغيره ممن أثق بهم إنهم في تلك الليلة كانوا قد ذكروا عن هذا الرجل ما وقع فيه، فلما نام رأى هذه الرؤيا وقصها على قاضي القضاة تقي الدين وأبلغه رسالة رسول الله ﷺ وكان ذلك اليوم آخر أيام الإعذار فهدر دمه كما تقدم فلما كان في يوم الاثنين السادس والعشرين من صفر اجتمع القضاة بدار العدل في مجلس السلطان على العادة وطولع السلطان بما حكم به من هدر دم إسماعيل المذكور، وكان قد طولع قبل ذلك بخبره فسأل السلطان من الشهود الذين شهدوا عليه؟ وكان بعض الناس قد أراد الاعتناء به فلم يفده ذلك وقال قضاة القضاة بأجمعهم للسلطان، هذا لا بد من قتله إسنادًا لحكم الحاكم فأمر السلطان متولي القاهرة يومئذٍ وهو الأمير علم الدين سنجر الخازن بالركوب في صحبة القضاة وامتثال ما يأمرونه به في أمره فاجتمع قضاة القضاة الأربعة وغيرهم من النواب والعلماء في المدرسة الصالحية بالإيوان المرصد للمالكية واتفقوا على ضرب عنقه فراجع متولي القاهرة السلطان في ذلك، فأمره بتنفيذ ما أمر به القضاة، فضرب عنقه بعد صلاة العصر من يوم الاثنين وعرض عليه قبل ذلك أن يشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله لعل ذلك ينفعه فيما بينه وبين الله تعالى إن أخلص فلم يقل ذلك وشرع يخلط في كلامه ويذكر ألفاظًا غير مستقيمة وظن أن ذلك التخليط ينفعه أو يشكل على القضاة بزوال عقله فيؤخروه، فلم يفده ذلك

وضربت عنقه كما تقدم وألقيت جثته ورأسه بين القصرين إلى بعد المغرب من يوم مقتله، ثم حمل أعاذنا الله مما قال بمنه وبكرمه.

ذكر قتل رجل ادّعى النبوة بدمشق

وفي هذه السنة ادعى رجل بدمشق اسمه أقجبا رومي الجنس، من مماليك الأمير ركن الدين بيبرس التاجي أنه نبي وتسمى عبد الله وكان قبل ذلك يلازم الجامع بدمشق ويكثر من تلاوة القرآن فادعى ذلك وأصرّ عليه ورجع فلم يرجع وخوف بالقتل فلم يفد ذلك فاعتقد أولياء الأمر أن يكون قال هذا القول من حاجة مسته أو فاقة، فوعد بإزالة ضرورته وأن يرتب له كفايته، فأبى قبول ذلك وأصرّ على دعواه فضربت عنقه بظاهر دمشق في يوم الاثنين الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول.

ذكر تجريد طائفة من العسكر إلى مكة شرفها الله تعالى وخبر مقتل حميضة بن أبي نمي

كان السلطان لما كان بمكة شرفها الله تعالى سأله المجاوزون بمكة ومن بها من التجار أن يخلف بها عسكرًا يمنع عز الدين حميضة بن أبي نمي إن هو قصد أهل مكة بسوء، فجرد ممن كان معه الأمير شمس الدين آق سنقر ومعه، مائة فارس فأقام بمكة فلما عاد السلطان إلى قلعة الجبل جرد الأمير سيف الدين بيبرس الحاجب كان وهو من الأمراء مقدمي الألوف ببعض عدته وجرد معه جماعة من المماليك السلطانية، فكانت عدة من توجه معه مائة فارس وخرج من القاهرة في يوم الأربعاء السادس من شهر ربيع الأول من هذه السنة ووصل إلى مكة شرفها الله تعالى، وأقام بها ومنع أهلها من حمل السلاح السكين فما فوقها وبعث إلى الأمير عز الدين حميضة وكان بقرب نخلة تستميله إلى مراجعة الطاعة والتوجه إلى الأبواب السلطانية فسأل رهينة عنده من أولاد الأمير ركن الدين تكون عند أهله ويحضر فأجاب الأمير ركن الدين إلى ذلك وجهز أحد أولاده، وهو الأمير علي وجهز معه هدية لحميضة ولم يبق إلا أن يتوجه فأتاه في ذلك اليوم رجل من العرب وأخبره بقتل حميضة فأنكر وقوع ذلك وظن أن ذلك مكيدة لأمر ما، لكنه توقف عن إرسال ولده حتى يتبين له الحال، فلما كان في مساء ذلك اليوم طرق باب المعلى بمكة ففتح فإذا مملوك اسمه أسندمر، وهو أحد المماليك الثلاثة الذين كانوا قد التحقوا بحميضة من مماليك الأمراء كما تقدم وهو راكب حجرة حميضة التي تسمى جمعة وكان السلطان قد طلبها من حميضة فشح

بإرسالها وأخبر أنه قتل حميضة غيلة وهو نائم، وجرد سيفه فإذا به أثر الدم وذلك في جمادى الآخرة فأرسل الأمير ركن الدين ولديه ناصر الدين محمد وشهاب الدين أحمد إلى الأبواب السلطانية بهذا الخبر فوصلا إلى السلطان فأنعم عليهما وجهزا الأمير ركن الدين من توجه لإحضار سلب حميضة والمملوكين اللذين بقيا فأحضر السلب وأخذا المملوكين وقيل إن الثالث مات وهو مملوك الأمير سيف الدين بكتمر الساقي فألزم صاحب نخلة بإحضاره وتوعده إن تأخر فأحضره واستمر الأمير ركن الدين بمكة إلى أن عاد الجواب السلطاني بطلبه، فتوجه من مكة ـ شرفها الله تعالى ـ في مستهل شعبان وصحبته المماليك الثلاثة الذين كانوا قد هربوا، وكان وصوله إلى الأبواب السلطانية في العشر الأول من شهر رمضان، ولما وصل شمله الإنعام والتشريف، وأمر السلطان بقتل أسندمر قاتل حميضه قودًا به في شوال من السنة.

ذكر تجريد جماعة من العساكر الشامية إلى بلاد سيس ورجوعهم

وفي هذه السنة أمر السلطان بتجريد العساكر من الشام والسواحل، فجرد جماعة من دمشق وهم الأمير سيف الدين جوبان المنصوري، والأمير سيف الدين بكتوت القرماني، والأمير بدر الدين بكتوت الشمسي ومضافيهم والمقدم عليهم جوبان المذكور وتوجهوا في يوم الاثنين السادس والعشرين من شهر رجب وجرد العساكر بجملتها والعسكر الصفدي وبعض العساكر الحلبية وتوجهوا إلى جهة سيس والمقدم على سائر العساكر الأمير شهاب الدين قرطاي نائب السلطنة بالمملكة الطرابلسية.

وسبب ذلك أن الهدنة التي كانت بين السلطان وبين صاحب سيس انقضت فسأل صاحب سيس تجديد هدنته على ما كانت عليه فامتنع السلطان من ذلك وطلب منهم عدة قلاع كانت قد أحدثت في الأيام المنصورية الحسامية كما تقدم فتوقفوا في إعطائها ثم بذلوا بعضها فلم يوافق السلطان على ذلك، وجرد هذه العساكر، ودخلوا إلى بلاد سيس، ولما وصلوا إلى نهر جان وأرادوا قطعه غرق من العساكر نحو ألف فارس أكثرهم من عسكر طرابلس والتركمان، ثم دخل العسكر وأغاروا وشعثوا وأقاموا ببلاد سيس سبعة عشر يومًا، ثم خرج العسكر وأقام بسليمة ثم رسم السلطان لهم أن يسوقوا خلف العرب حتى يخرجوهم من المملكة الشامية، ومات في هذه السفرة من الجيش المجرد من دمشق الأمير بدر الدين بكتوت الشمسي، وكانت وفاته بحلب، ولم يدخل إلى سيس لمرضه رحمه الله تعالى.

ذكر وصول الخاتون دلنبية
وقيل فيها طولونية ابنة وبناء السلطان الناصر بها

كان السلطان الملك الناصر قد خطب إلى الملك أزبك بن طغولجا بن منكوتمر بن طغان بن باطوخان بن دوشي خان بن جنكزخان ملك البلاد الشمالية من تكون الذرية الجنكيزخانية، وجهز إليه الأمير علاء الدين أيدغدي الخوارزمي وغيره كما تقدم في سنة ست عشرة وسبعمائة، فلما عرضت كتب السلطان على الملك أزبك قال الترجمان للرسول لما أراد أن يتكلم بالمشافهة: إن القاضي يعني الملك أزبك يقول إن كان في مشافهتك غير السلام فخاطب به الأمراء، ثم جمعت الأمراء مقدمي التمانات، وهم سبعون أميرًا، فكلمهم الرسول في ذلك فنفروا منه، وقالوا هذا لم يقع مثله فيما تقدم من حين ظهور جنكزخان وإلى هذا الوقت. وفي مقابلة ماذا تجهز ابنة ملك من الذرية الجنكزخانية إلى الديار المصرية، وتقطع سبعة بحور؟ ونحو هذا من الكلام، ولم يوافقوا على ذلك في أول يوم، ثم اجتمعوا في يوم آخر بعد أن وصلت إليهم هداياهم التي جهزها السلطان إليهم وأعيد الحديث في ذلك فأجابوا إليه وسهلوه، وقالوا: ما زالت الملوك تخطب إلى الملوك. وملك مصر ملك عظيم يتعين إجابته إلى ما طلب إلا أن هذا الأمر لا يكون إلا بعد أربع سنين سنة كلام، وسنة خطبة، وسنة مهاداة، وسنة زواج، واشتطوا في طلب المهر والشروط فلما اتصل ذلك بالسلطان فرجع عن الخطبة والحديث فيها وتكررت رسله إلى الملك أزبك ورسل الملك أزبك إليه والسلطان لا يذكر أمر الخطبة ولا تتضمن رسائله غير السلام والمودة على العادة، ثم توجه الأمير سيف الدين أطرجي[1] من جهة السلطان إلى الملك أزبك بالهدايا والتحف وخلعة سلطانية مزركشة مكللة فلبسها الملك أزبك ثم ابتدأ الأمير سيف الدين أطرجي بذكر الزواج، وقال: قد جهزت لأخي السلطان الملك الناصر ما كان قد طلب، وقد عينت له ابنة من البيت الجنكزخاني من نسل الملك بركة بن باطوخان بن دوشي خان بن جنكزخان، فقال أطرجي: إن السلطان لم يرسلني في هذا الأمر، وهذا أمر عظيم لو علم السلطان بوقوعه جهز لهذه الجهة المعظمة ما يليق وما يصلح لها وأراد بذلك رفع الأمر إلى وقت آخر فقال الملك أزبك: أنا أرسلها إليه من جهتي فما وسع الرسول إلا مقابلة أمره بالسمع والطاعة فلما استقر هذا الأمر قال الملك أزبك للرسول: أحمل مهر هذه الجهة فاعتذر أنه لا مال معه. فقال: نحن نأمر

(١) انظر ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/٣١٧، السلوك ٢/١: ٢٠٤، كنز الدرر ٩/٣٠٢.

التجار أن يقرضوك ما تحمله فأمرهم بذلك. فاقترض عشرين ألف دينار عينًا وحملها ثم قال له إنه لا بد لها من عمل فرح يجتمع فيه الخواتين، فاقترض مالًا آخر قيل إنه سبعة آلاف دينار، وعمل الفرح وجهزت الخاتون، وصحبها جماعة من الرسل، وعدة في الخوايتن وقاضي مدينة صراي، وتوجهوا من جهة الملك أزبك وركبوا البحر في ثاني شهر رمضان سنة تسع عشرة وسبعمائة، وحصل لهم مشقة عظيمة إلى أن وصلوا إلى ثغر الإسكندرية في شهر ربيع الأول سنة عشرين وسبعمائة.

ولما طلعت الخاتون من المركب جعلت في خركاة مذهبة على عجلة وجرها المماليك إلى دار السلطنة بالثغر، وأجريت لهم الإقامات المتوفرة، وجهز السلطان إلى خدمتها جماعة من الحجاب وثمان عشرة حراقة[1] فركبت الخاتون في الحراقة الكبرى السلطانية وركب بقية من معها في بقية الحراريق، ووصلت الخاتون إلى الساحل المقابل للقاهرة من بحر النيل في يوم الاثنين الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة عشرين وسبعمائة وفرشت مناظر الميدان السلطاني لنزولها، ولما وصل ركب الأمير سيف الدين أرغون نائب السلطنة الشريفة وجماعة من الأمراء والمماليك السلطانية الأكابر، وتوجهوا إلى خدمتها وحملت من الحراقة في محفة على أكتاف مماليك نائب السلطنة إلى أن استقرت بقاعة الميدان السلطاني، وضرب لها أيضًا بالميدان دهليز أطلس معدني كان قد عمل للسلطان، ومد لها ولمن معها أسمطة تصلح لمثلها، وأجريت عليهم الإقامات.

فلما كان في يوم الخميس الثامن والعشرين من الشهر أحضر السلطان الرسل وهم رسل الملك أزبك ورسل ملك الكرج ورسل الأشكري فمثلوا بين يديه، أو أدوا ما معهم من الرسائل وأحضروا الكتب والتقادم، ثم أمر السلطان نائبه الأمير سيف الدين أرغون والأمير سيف الدين بكتمر الساقي وهو من أخص مماليكه أن يتوجها إلى الميدان وينظرا الخوند الخاتون الواصلة، فتوجها إليها ورأياها ـ فيما بلغني ـ ونقلت في بقية النهار إلى قلعة الجبل وحملت على عربة يجرها بغل يقوده أحد مماليكها حتى استقرت بقاعة أعدت لها بقلعة الجبل كان السلطان قد أنشأها لم يبن بالمملكة الإسلامية مثلها ثم عقد العقد المبارك في يوم الاثنين السادس من شهر ربيع الآخر

---

(١) الحرّاقة: وهي نوع من السفن الحربية الخفيفة، كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية كالنار الإغريقية، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو. وكان في مصر نوع آخر من الحراقات استخدم في النيل لحمل الأمراء ورجال الدولة في الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ١٠٤).

على ثلاثين ألف مثقال عينا حالة منها ما قدم وهو عشرون ألف دينار التي تقدم ذكرها وعقد العقد قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة وقبل العقد عن السلطان بوكالته نائبه الأمير سيف الدين أرغون وبنى السلطان بها ثم أعاد الرسل ومن حضر في خدمتها بعد أن شملهم بالإنعام الوافر وجهز معهم الهدايا الجليلة إلى الملك أزبك وغيره وكان عودهم في شعبان وتأخر منهم قاضي مراي بسبب الحج فحج وعاد إلى بلاده في سنة إحدى وعشرين وسبعمائة.

ذكر تسحب الأمير حسام الدين مهنا وأولاده ومَن يلوذ به من العربان آل فضل من البلاد الشامية ولحاقهم بالعراق وإمرة الأمير محمد شمس الدين محمد بن أبي بكر

وفي سنة عشرين وسبعمائة تسحب الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى وأولاده وإخوته وغيرهم ممن يلوذ بهم وينسب إليهم من آل فضل وفارقوا البلاد الشامية وتوجهوا نحو العراق وسبب ذلك أن السلطان الملك الناصر كان قد أحسن إلى هذه الطائفة من العربان وقدمهم على غيرهم، ووصلهم بالعطايا الجزيلة والإقطاعات الوافرة التي لم يسمع بمثلها، ولا يسمح الملوك بها ولا ببعضها الأكابر النواب وأعيان الأمراء، وكان ينعم على الرجل الواحد من أولاد مهنا بثلاثمائة ألف درهم فما دونها وأقطعهم جُلّ الخواص بالبلاد الشامية زيادة على ما بأيديهم ثم طلبوا أكثر خواص القلاع بالممالك الإسلامية فأقطعهم ذلك وأخذوا أيضًا بعض إقطاعات الأمراء بالشام وهم لا يطلبون شيئًا إلا أنعم عليهم به وأقطعه لهم السلطان في غضون هذا الإحسان يقصد وصول الأمير حسان الدين مهنا إلى بابه وهو يأبى ذلك ويمتنع منه، وتكررت رسائل السلطان إليه وهو يظهر الطاعة ولا يوافق على الوصول إلى الأبواب السلطانية، ثم خشي عاقبة السلطان، وارتاب من كثرة إنعامه على العربان، فكاتب السلطان مرارًا في استرجاع ما أعطاه لأولاده وإخوته من الزيادات في الإقطاعات واختصار كثرة الصلات وأن يجري الأحوال على ما كانت عليه من العوائد والسلطان يأبى ذلك، فظن أن الإنعام على هذه الطائفة إنما هو بسببه فلما كان في شهر ربيع الأول رسم السلطان بتجريد العساكر إلى بلاد سيس فغلب على ظنه أنها تقصده ففارق البلاد ووصل إلى عانة فأمر السلطان بإيقاع الحوطة على إقطاعات العربان من يومه والاحتراز على متحصلاتها، فوض إمرة العرب للأمير شمس الدين محمد بن أبي بكر بن علي بن حذيفة وجهز السلطان الأمير سيف

الدين قجليس إلى الشام بنصف عدته وأمر أن يتوجه معه جيش من دمشق لإخراج العربان، فجرد الأمير سيف الدين كجكن في جماعة من العسكر، ووصل الأمير سيف الدين قجليس إلى دمشق في حادي عشر جمادى الأولى، فتوجه منها الجمعة ثاني عشر الشهر وصحبته جماعة من العسكر الشامي والأمير شمس الدين محمد بن أبي بكر، واجتمعوا هم والجيوش المجردة إلى بلاد سيس وساقوا خلف العرب حتى أخرجوهم من بلاد الشام، وكانت مدة غيبة الأمير سيف الدين عن دمشق أربعة أشهر، وعاد في خامس شهر رمضان إلى دمشق، وكان تأخره هذه المدة بسبب ضبط ما يتحصل من أقطاع العربان النازحين.

وأما الجيش المجرد من دمشق إلى سيس فإنه عاد في يوم السبت حادي عشر جمادى الآخرة ثم ورد الخبر إلى دمشق من الرحبة في يوم الأحد ثاني شعبان إلى أن جماعة من عرب مهنا وصلوا إلى بلاد الرحبة لرعي زرعها، فجهز جماعة من الأمراء وقدم عليهم الأمير سيف الدين بهادر آص، وتوجهوا في يوم الاثنين ثالث شعبان.

وفي جمادى الآخرة من السنة عاد إلى الأبواب السلطانية بعض العربان الذين توجهوا مع مهنا فأمر السلطان بالإفراج عن إقطاعاتهم وإجرائهم على عاداتهم.

ذكر إبطال مكس الملح بالديار المصرية

وفي العشر الآخر من شهر ربيع الآخر رسم السلطان بإبطال مكس الملح وكتب بذلك مثال شريف سلطاني، وقرىء على المنابر في يوم الجمعة الخامس من جمادى الأولى من سنة عشرين وسبعمائة، وكان المقرر على ذلك جملة كبيرة في كل سنة فبطلت هذه المعاملة، واجتثت من أصلها وسطر الله هذه الحسنة في صحائف حسناته. وفي هذه السنة في يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة وصل إلى الأبواب السلطانية رسل صاحب اليمن الملك المؤيد هزبر الدين داود بالتقادم والهدايا والتحف، وكان مما أحضروه حمار وحشي أبلق مخططًا قدر البغل لم يصل إلى الديار المصرية مثله فيما سلف فقبلت هديتهم وشملهم بالإنعام السلطاني ثم أعيدوا إلى مرسلهم بما جرت العادة به.

وفي هذه السنة تجهز ركب إلى الحجاز الشريف فيه جماعة من الأعيان وطلبة الحديث وغيرهم والمقدم على الركب بأمر السلطان الأمير جمال الدين عمر بن كراي أحد أمراء العشرات وكان رحيل هذا الركب في السابع عشر من رجب، ووصل إلى

مكة شرفها الله تعالى في يوم الأحد مستهل شهر رمضان، ولم يجدوا في سفرهم إلا خيرًا ورفقًا وتيسيرًا والله أعلم.

ذكر منع الشيخ تقي الدين بن تيمية من الفتيا واعتقاله بقلعة دمشق

قد قدمنا أن المراسم الشريفة السلطانية كانت قد تقدمت بمنع الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية من الفتيا في مسألة الطلاق وتكررت مرة بعد أخرى، ثم اتصل بالأبواب السلطانية أنه لم يمتنع عن ذلك فلما كان في بكرة نهار الخميس الثاني والعشرين من شهر رجب سنة عشرين وسبعمائة عقد المجلس بدار السعادة بدمشق بحضور نائب السلطنة، وقضاة القضاة الأربعة وجماعة من الأعيان، وحضر الشيخ تقي الدين وسئل عن فتياه في مسألة الطلاق، وأن المراسيم الشريفة السلطانية تكررت بمنعه من ذلك وهو يفتي بها، فأنكر أن يكون أفتى بها بعد المنع فحضر خمسة نفر ذكروا أنه أفتاهم بها بعد ذلك فأنكر وصمم على الإنكار فشهد عليه تقي الدين بن طليس أنه أفتى بها لحَّامًا اسمه قمر، وأن ذلك كان في بستان شرف الدين ابن منجا فقام شرف الدين وعلاء الدين أبناء زين الدين بن منجا ليشهدا بخلاف ما شهد به ابن طليس، فقال قاضي القضاة نجم الدين بن صصرى لهم: أنتما فاسقان لا تقبل شهادتكما ثم أمر بإخراجهما من المجلس فأخرجا، وقيل للشيخ اكتب خطك أنك لا تفتي بها ولا بغيرها فكتب أنه لا يفتي بها، ولم يكتب بغيرها فأمر قاضي القضاة نجم الدين باعتقاله وحكم بذلك، فقال له: حكمك باطل فإنك عدوي فلم يرجع إلى قوله وحبس بقلعة دمشق واستمر في الاعتقال إلى يوم عاشوراء سنة إحدى وعشرين وسبعمائة فأفرج عنه حسب الأمر السلطاني، واستمر بداره بدمشق.

ذكر القبض على الأمير علم الدين الجاولي نائب السلطنة بغزة

وفي شعبان سنة عشرين وسبعمائة أمر السلطان بالقبض على الأمير علم الدين سنجر الجاولي[(١)] نائب السلطنة ومقدم العسكر بغزة، وكان قد تقدم في الدولة وعظم شأنه وكثرت أتباعه ومماليكه وميز إقطاعه حتى كان فيما قيل ـ يقارب إقطاع نائب السلطنة بدمشق، ولم يكاتب من ديوان الإنشاء بما كان يكاتب به من قبله من النواب،

---

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب ٦/ ١٤٢، النجوم الزاهرة ١٠/ ١٠٩، الدرر الكامنة ٢/ ٢٢٦.

بل ألحق بنواب الممالك الشريفة في رسم المكاتبة السلطانية وغيرهم وكان قد استأذن على الحج وتجهز لذلك تجهزًا عظيمًا فاتصل بالسلطان عنه من أحد أستاذ دارية المذكور أمورًا أنكرها عليه ونسب إليّ ما لعله بريء منه فأمر السلطان بالقبض عليه وتوجه الأمير سيف الدين الماس الحاجب لذلك وأظهر أنه إنما توجه لزيارة البيت المقدس والخليل صلوات الله عليه وسلامه، ولما عاد من الزيادة قبض عليه وأوقع الحوطة على موجوده، وذلك في يوم الجمعة الثامن والعشرين من شعبان وجهز إلى الديار المصرية، فلما وصل أمر السلطان بإرساله إلى ثغر الإسكندرية واعتقاله، فأرسل من وقته واعتقل بالثغر وكان أحسن الله عاقبته كثير الصدقة على الفقراء المقيمين بغزة والواردين إليها وغيرهم ممن هو بالقدس الشريف وحرم الخليل صلوات الله تعالى عليه وأثر بتلك الجهات آثارًا حسنة، فانقطع كثير من الفقراء بسبب اعتقاله، عامله الله تعالى بلطفه وبمنه وكرمه.

ذكر إبطال المعاملة بالفلوس عددًا بالديار المصرية وبيعها بالرطل

وفي هذه السنة في مستهل ذي الحجة رسم بإبطال المعاملة بالفلوس عددًا وكانت المعاملة بها حسابًا عن كل درهم ثمانية وأربعين فلسًا، وكان سبب ذلك أنها كثرت في أيدي الناس وهم يتعاملون بها عددًا على العادة فضربها الزغلية[1] وخففوها إلى أن صار كل ستة فلوس منها زنة درهم، وكان السلطان قبل ذلك قد رسم بإبطال المعاملة في الشام بالفلوس على ما كانوا يتعاملون بها بينهم بالقراطيس والقرطيس ستة فلوس عدد أخفافًا، وكان الناس يتعاملون بها بالشام حسابًا عن كل درهم أربعة وعشرون قرطاسًا، فأبطلها السلطان وأمر بضرب فلوس جدد ناصرية، زنة كل فلس بها درهم وتعامل الناس بها بالشام على عادة الديار المصرية كل ثمانية وأربعين فلسًا بدرهم فنقل الناس تلك الفلوس الخفاف من الشام إلى الديار المصرية وخلطوها مع فلوس المعاملة، فخرجت فيها وتمادت عليها الأيام إلى أن كثرت وقلت الأولى، فتوقف الناس في المعاملة بها وتزايد الأمر إلى أن غلقت الدكاكين وارتفعت الأسعار وتضاعفت، وكان السلطان قد توجه إلى الصيد بجهة الصعيد، ووصل إلى الأعمال القوصية، فلما عاد أنهى إليه حال الناس ووقوف معائشهم فأمر بإبطالها عددًا وأن تدور بين الناس بالميزان حسابًا عن كل رطل بالمصري ثلاثة دراهم، وأمر بضرب

---

(١) الزغلية: هم مزيفو النقود. من الزَّغَل: وهو الغش.

فلوس جدد بدار الضرب عليها اسم السلطان وتاريخ ضربها زنة كل فلس منها نصف وربع وثمن، وأن يتعامل الناس بهذه الجدد عددًا على العادة فمشت معائش الناس في شهر ذي الحجة لكن غرم الناس جملة كثيرة فيما بين العدد والميزان، فكان الرطل منها إذا عد يكون سبعة دراهم عددًا أو أكثر من ذلك وأقل ثم كان من أمر وقوفها ما نذكره في سنة إحدى وعشرين وسبعمائة وما بعدها.

ذكر خبر الحاج في هذه السنة

في هذه السنة وقف الناس بعرفة في يوم الجمعة بغير خلاف بينهم وحج من الديار المصرية خلق كثير فكانت الركوب التي خرجت من الديار المصرية سبعة وهم ركب توجه في شهر رجب كما تقدم وأربعة ركوب في شوال على العادة صحبة المحمل، رحل الركب الأول منهم في يوم الاثنين سادس عشر شوال من بركة الجب، وآخرهم في يوم الجمعة وتوجه نائب السلطنة الأمير سيف الدين أرغون بجماعة في ذي القعدة وسبق الناس إلى مكة شرفها الله تعالى وتوجه القاضي فخر الدين ناظر الجيوش في جماعة معه من مصر إلى البيت المقدس ومنه إلى مكة شرفها الله تعالى وتوجه من جهة البحر من ثغر عيذاب خلق كثير واجتمع بالموقف بعرفة ما يزيد على ثلاثين ركبًا، ووصل ركب العراق إلى مكة وفيه خلق كثير وجماعة من أمراء التتار ومحمل من جهة الملك أبي سعيد بن خربندا، عليه غشاء أطلس، مرصع بأنواع الجواهر واليواقيت واللآلىء والزمرد، وكان إذا وضع عن ظهر البختي ضرب عليه جسر عظيم واحتفال كثير، وكان مع أمراء الركب العراقي صناجق سلطانية ناصرية وصناجق عليها رقوك[1] الأمراء فجعل المحمل العراقي وصناجقهم، خلف محمل السلطان وصناجقه، ومحمل صاحب اليمن خلف محمل العراق، وكانت عادة الركب العراقي إذا قصد الحج ومر أهله على منازل العربان يأخذون منهم خفرًا جملة من الأموال فلما وصل هذا الركب والمحمل في هذه السنة ومروا على تلك الأعراب دفعوا إليهم ألف دينار وخمسمائة دينار فامتنع العربان من تمكينهم من العبور إلا بثلاثة آلاف دينار فقالوا: نحن إنما جئنا بأمر السلطان الملك الناصر صاحب الديار المصرية والحجاز وكتابه إلينا فأعادوا عليهم الذهب وقالوا إذا كنتم جئتم بأمر السلطان فلا نأخذ

(١) رقوك: كذا بالأصل، ولعلها «رنوك»، وهي جمع «رنك» وهو لفظ فارسي معناه اللون، وقد استعمل في مصطلح المؤرخين بمعنى الشعار الذين يتخذه الأمير عند تأمير السلطان علامة على وظيفة الإمارة التي يعين عليها (مصطلحات صبح الأعشى ص ١٦٣).

منكم خفرًا ومكنوهم من الجواز بغير شيء فلما اتصل ذلك بالسلطان أحسن إلى تلك الطائفة من العربان وأثابهم على ذلك بجزيل الإنعام والخلع السنية.

وفي هذه السنة توفي الشيخ الفقيه العالم القاضي زين الدين أبو القاسم محمد ابن الشيخ علاء الدين محمد بن الحسين بن عتيق بن عبد الله بن رشيق المصري المالكي[١] وكانت وفاته بمصر في ليلة الجمعة الحادي عشر من شهر المحرم سنة عشرين وسبعمائة ودفن في يوم الجمعة بتربتهم بالقرافة الصغرى، وكان من فضلاء المالكية وأعيانهم ومفتيي المذهب ولي القضاء بثغر الإسكندرية نحو اثنتي عشرة سنة، وولي مرة نحو سنة قبل ولاية القاضي شرف الدين بن الرفقي ولما عزل من الثغر عاد إلى مصر فكان بها إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وتوفي شيخنا المحدث الفاضل العدل شرف الدين يعقوب ابن الشيخ الإمام المقري جمال الدين أحمد بن يعقوب بن عبد الله الحلبي، المعروف بابن الصابوني، وكانت وفاته بالقاهرة في يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر رجب من هذه السنة، ودفن من يومه بمقبرة باب النصر، رحمه الله تعالى وليس هو من بني الصابوني وإنما عرف بذلك لتربية الشيخ جمال الدين بن الصابوني له، وكان قد تزوج خالته ورباه وقرأ عليه شيئًا من الحديث ولازمه فعرف به، وغلبت عليه هذه النسبة.

سمعت عليه رحمه الله تعالى كتاب السنن لأبي داود وسليمان بن الأشعث السجستاني بالقاهرة بالمدرسة الناصرية بقراءة ولده الشيخ جمال الدين أحمد في جماعة.

وسمعت عليه أيضًا وعلى الشيخ زين الدين أبي محمد عبد الحق بن فتيان بن عبد المجيد القرشي جمعا كتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ بسندها إلى مؤلفه القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، وذلك بالمدرسة الناصرية أيضًا بقراءة الشيخ شهاب الدين أحمد بن أحمد بن الحسين الهكاري، في مجالس ثمانية آخرها في اليوم الثاني عشر من شعبان عام ثمانية وسبعمائة، وتوفي القاضي زين الدين أبو بكر بن بدر الدين نصر بن شمس الدين الحسين الأسعردي وكيل بيت المال بالديار المصرية وناظر الحسبة بالقاهرة وكانت وفاته بالقاهرة في يوم الاثنين سادس عشر شهر رمضان وكان كثير السكون والعقل رحمه الله تعالى وإيانا.

---

(١) انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٥، الدرر الكامنة ٤/ ١٧٤.

ذكر إراقة الخمور بالمدينة السلطانية وتبريز وغيرها من ممالك التتار

وفي العشر الأول من شعبان أمر أبو سعيد بإراقة الخمور فأريقت، وكان سبب ذلك أنه وقع في شهر رجب بالمدينة السلطانية برد كبار وزنت واحدة منها فكانت ثمانية عشر درهمًا، وأهلك ذلك مواشي كثيرة، وأعقبه سيل خيف منه على البلد، واشتد الخوف ولجأ الناس إلى الله تعالى ثم سلم البلد فسأل الملك أبو سعيد الفقهاء عن سبب ذلك، فقالوا: من الجور والظلم، وإظهار الفواحش، وأنه بالقرب من المساجد والمدارس والخوانق خمارات وحانات، فأمر بتبطيل الخمارات والحانات في سائر مملكته، وأبطل مكس الغلة، ورسم على الخمارين بالمدينة السلطانية، وألزموا بإحضار الخمور في الظروف إلى تحت القلعة، وأحضرت، فاجتمع منها أكثر من عشرة آلاف ظرف ولما كمل جمعها حضر الوزير تاج الدين علي شاة راجلًا وأعوانه، وخواص الدولة معه، وأريقت الظروف جميعها في الخندق، ثم أحرقت الظروف وبقيت النار تعمل فيها يومين ـ نقلت ذلك من تاريخ الشيخ علم الدين البرزالي المترجم بالمقتفي، وقال فيه: حكى ذلك تاجر موصلي، حضر الواقعة قال: وسافرت بعد ذلك إلى تبريز، فرأيت الخمور مراقة في الأزقة وقد فعل من ذلك بتبريز دون ما فعل بالسلطانية.

قال: ثم قدمت الموصل فرأيت الذي فعل بها من ذلك دون ما شاهدته بمدينة تبريز بكثير.

نجز الجزء الثاني والثلاثون
من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب
والحمد لله وحده وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم

فهرس المحتويات